الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش

٣

عة جديدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الأعمال الجديدة

محمود درويش

الأعمال الجديدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

THE NEW COMPLETE WORKS
(3)

By Mahmoud Darwich

First Published in January 2009
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-396-8

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩

المحتويات

ذاكرة للنسيان	٩
حيرة العائد	١٩٥
يوميات الحزن العادي	٣٥١

ذاكرة للنسيان

من المنام يخرج منامٌ آخر: هل أنتَ في خير، أعني هل أنتَ حيّ؟

ــ كيف عرفتِ أنني كنتُ أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

ــ لأنكَ أيقظْتني حين تحرّكْتَ في بطني. أدركتُ أني تابوتك. هل أنتَ حيّ؟ هل تسمعني جيداً؟

ــ هل يحدث ذلك كثيراً: أن يوقظني من المنام منام آخر هو تفسيرُ المنام؟

ــ ها هو يحدث لي ولك.. هل أنت حيّ؟

ــ تقريباً.

ــ وهل أصابتك الشياطين بسوء؟

ــ لا أعرف، ولكنّ في الوقت متسعاً للموت.

ــ لا تَمُتْ تماماً.

ــ سأحاول.

ــ لا تمت أبداً.

ــ سأحاول.

ــ قل لي: متى حدث ذلك؟ أعني متى التقينا، متى افترقنا؟

ــ منذ ثلاثة عشر عاماً.

ــ هل التقينا كثيراً؟

ــ مرتين: مرةً تحت المطر، ومرةً تحت المطر، وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. سافرتُ. ونسيتُكِ. وقبل قليل تذكرت. تذكرتُ أني نسيتُكِ. كنتُ أحلم.

ــ وهذا ما يحدث لي .. كنتُ أحلم. ولقد حصلتُ على رقم هاتفك من صديقة سويدية قابلتك في بيروت. أتمنى لك ليلة سعيدة. لا تنس أن لا تموت. ما زلتُ أريدك. وعندما تحيا، ثانية، أريدك أن تكلمني. يا للزمن.. ثلاثة عشر عاماً. لا. لقد حدث ذلك الليلة. أتمنى لك ليلة سعيدة...

الساعة الثالثة. فجرٌ محمولٌ على النار. كابوس يأتي من البحر. دُيُوكٌ معدنية. دخان. حديد يُعدُّ وليمة الحديد السيّد. وفجر يندلع في الحواس كُلّها قبل أن يظهر. وهدير يطردني من السرير ويرميني في هذا الممر الضيّق. ولا أريد شيئاً، لا أتمنى شيئاً. ولا أقدر على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل. لا وقت للحيطة، ولا وقت للوقت. لو أعرف فقط، لو أعرف كيف أنظم

زحام هذا الموت المنصبّ، لو أعرف كيف أحرِّرُ الصراخ المحتقن في جَسَدٍ لم يعد جسدي من فرط ما حاول أن ينجو في تَتَبُّع فوضى القذائف. كفى.. كفى ــ همستُ لأعرف إن كان في وسعي أن أفعل شيئاً يدلني عليّ.. ويشير إلى مكان الهاوية المفتوحة من جهات ست. لا أستطيع أن أستسلم لهذا القدر ولا أستطيع أن أقاومه. حَديد يعوي فينبح له حديد آخر. حُمَّى المعادن هي نشيد هذا الفجر..

لو استراح هذا الجحيم خمس دقائق. وليكن من بعد ما هو بعد. خمس دقائق. أكاد أقول: خمس دقائق فقط أعدّ خلالها عُدّتي الوحيدة ثم أتدبر موتي أو حياتي. خمس دقائق هل تكفي؟ نعم.. تكفي لأتسرّب من هذا الممر الضيّق المفتوح على غرفة النوم، المفتوح على غرفة المكتبة، والمفتوح على حمام لا ماء فيه، والمفتوح على المطبخ الذي أتحفز لدخوله منذ ساعة ولا أستطيع.. لا أستطيع أبداً.

نمتُ قبل ساعتين. وضعتُ قِطْعَتَيْ قُطْنٍ في أُذْنيّ، ونمتُ بعدما استمعتُ إلى نشرة الأَخبار الأخيرة. لم تقل إني ميت. معنى ذلك أنني حيّ. تفقدْتُ أعضاء جسمي فوجدتها كاملة: عشر أصابع تحت. عشر أصابع فوق. عينان. أذنان. أنف طويل. إصبع في الوسط. وأما القلب فإنه لا يُرى. ولا أجد ما يشير إليه سوى قدرتي الخارقة على إحصاء أعضائي، ومسدس ملقى على أحد رفوف المكتبة.. مُسدس أنيق، نظيف، لامع، وصغير الحجم بلا رصاص. أهدوني مع المسدس علبة رصاص لا أعرف أين خبأتها

منذ عامين خوفاً من حماقة، خوفاً من فورة غضب طائشة، خوفاً من رصاصة طائشة. إذن، أنا حيّ، وبتعبير أدقّ: أنا موجود.

لا أحد يستمع إلى الرجاء المرفوع على الدخان: أريد خمس دقائق، لأتمكن من وضع هذا الفجر، أو حصتي منه، على قدميه، ومن التأهب للدخول في هذا اليوم المولود من عويل. هل نحن في آب؟ نعم، نحن في آب. وتحولت الحرب إلى حصار. أبحث في الراديو، المتحول إلى يد ثالثة، عما يحدث الساعة فلا أجد شاهداً ولا خبراً، فالراديو نائم.

لم أعد أتساءل متى يتوقف عواء البحر الفولاذي. أسكن على الطابق الثامن في بناية تغري أي صيَّاد بالإصابة، فما بالك بأسطول حربي يحوِّل البحر إلى أحد مصادر جهنم؟ واجهة البناية الشمالية كانت تُمتِّع سكانها بمشهدٍ ما لسقف البحر المتجعِّد، لأَنها واجهة من زجاج، والآن انقلبت إلى عراء المصرع. لماذا سكنتُ هنا؟ ما هذا السؤال الأَحمق! فمنذ عشر سنين وأنا أسكن هنا، ولا أشكو من فضيحة الزجاج.

ولكن، كيف أَصلُ إلى المطبخ؟

أريد رائحة القهوة. لا أريد غير رائحة القهوة. ولا أريد من الأَيام كلها غير رائحة القهوة. رائحة القهوة لأتماسك، لأقف على قدميّ، لأتحول من زاحف إلى كائن، لأوقف حصتي من هذا الفجر على قدميه. لنمضي معاً، أنا وهذا النهار، إلى الشارع بحثاً عن مكان آخر.

كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، وقذائفُ البحر تنقضُّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنشر رائحة البارود ومذاق العدم؟ صرت أقيس المسافة الزمنية بين قذيفتين. ثانية واحدة.. ثانية واحدة أقصر من المسافة بين الزفير والشهيق، أقصر من المسافة بين دقّتيْ قلب.. ثانية واحدة لا تكفي لأَن أقف أمام البوتاغاز الملاصق لواجهة الزجاج المطلة على البحر. ثانية واحدة لا تكفي لأن أفتح زجاجة الماء، ثانية واحدة لا تكفي لأن أصبّ الماء في الغلاية. ثانية واحدة لا تكفي لإشعال عود الثقاب. ولكن ثانية واحدة تكفي لأن أحترق...

أقفلت مفتاح الراديو. لم أتساءل إن كان جدار الممر الضَيّق يقيني فعلاً مطر الصواريخ. ما يعنيني هو أن ثمة جداراً يحجب الهواء المنصهر إلى معدن يُصيب اللحم البشري، بشكل مباشر، أو يتشظّى، أو يخنق. وفي وسع ستارة داكنة ــ في مثل هذه الحالات ــ أن توفِّر غطاء الأمان الوهميّ. فالموت هو أن ترى الموت.

أريد رائحة القهوة. أريد خمس دقائق.. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من مطلب شخصي غير إعداد فنجان القهوة. بهذا الهوس حدّدت مهمتي وهدفي. توثبت حواسي كلُّها في نداء واحد واشرأبّت عطشى نحو غاية واحدة: القهوة...

والقهوة، لمن أدمنها مثلي هي مفتاحُ النهار.

والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك

على طبق، لأَن حامل الطبق هو حامل الكلام، والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأول لأنها عذراء الصباح الصامت. الفجرُ، أعني فجري، نقيضُ الكلام. ورائحة القهوة تتشرّب الأصوات، ولو كانت تحيةً مثل «صباح الخير»، وتفسد...

لذا، فإن القهوة هي هذا الصمتُ الصباحي، الباكر، المتأني، والوحيد الذي تقف فيه، وحدك، مع ماء تختاره بكسل وعزلة في سلام مبتكر مع النفس والأَشياء، وتسكبه على مهل وعلى مهل في إناء نحاسيّ صغير داكن وسريّ اللمعان، أصفر مائل إلى البنّي، ثم تضعه على نار خفيفة.. آه لو كانت نار الحطب...

ابتعدْ قليلاً عن النار الخفيفة، لتطلّ على شارع ينهض للبحث عن خبزه، منذ تورط القردُ بالنزول عن الشجرة وبالسير على قدمين، شارع محمول على عربات الخضار والفواكه وأصوات الباعة المتميزة بركاكة المدائح وتحويل السلعة إلى نعت للسعر، واستنشق هواء قادماً من برودة الليل، ثم عُدْ إلى النار الخفيفة ــ آه لو كانت نار الحطب ــ وراقب بمودة وتؤدة علاقة العنصرين: النار التي تتلوّن بالأخضر والأزرق، والماء الذي يتجعّد ويتنفّسُ حبيبات صغيرة بيضاء تتحوّل إلى جلد ناعم، ثم تكبر.. تكبر على مهل لتنتفخ فقاعاتٍ تتسع وتتسع بوتيرة أسرع وتنكسر، تنتفخ وتنكسر عطشى لالتهام ملعقتين من السُكّر الخشن الذي ما إن يداخلها حتى تهدأ بعد فحيح شحيح، لتعود بعد هنيهة إلى صراخ الدوائر المشرئبة إلى مادة أخرى، هي البُنّ الصارخ، ديكاً من الرائحة والذكورة الشرقية...

أبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري حوار اليد الطاهرة من رائحة

التبغ والحبر مع أولى إبداعاتها، مع إبداع أول سيحدِّد لك، منذ هذه الهنيهة، مذاق نهارك وقوس حظّك. سيحدّد لك إن كان عليك أن تعمل أم تتجنب العلاقة مع أحد طيلة هذا اليوم. فإن ما سينتج من هذه الحركة الأولى ومن إيقاعها ومما يحركها من عالم النوم الناهض من اليوم السابق، ومما يكشف من غموض نفسك، سيكون هوية يومك الجديد.

لأن القهوة، فنجان القهوة الأول، هي مرآة اليد. واليدُ التي تصنع القهوة تُشيع نوعية النفس التي تحركها. وهكذا، فالقهوة هي القراءةُ العلنية لكتاب النفس المفتوح.. والساحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار.

ما زال الفجر الرصاصيّ يتقدم من جهة البحر على أصوات لم أعرفها من قبل. ألبحرُ برمته محْشُوٌّ في قذائف طائشة. ألبحرُ يبدل طبيعته البحرية ويتمعدن. أَلِلْمَوتِ كُلُّ هذه الأَسماء؟ قلنا: سنخرج. فلماذا ينصب هذا المطر الأَحمر ـــ الأسود ـــ الرمادي على من سيخرج وعلى من سيبقى من بشر وشجر وحجر؟ قلنا: سنخرج. قالوا: من البحر. قلنا: من البحر. فلماذا يسلحون الموج والزبد بهذه المدافع؟ ألكي نعجِّل الخطى نحو البحر؟ عليهم أن يفكوا الحصار عن البحر أولاً.. عليهم أن يخلوا الطريق الأخير لخيط دمنا الأخير. وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك... فلن نخرج، إذن، سأعدُّ القهوة...

صحت عصافيرُ الجيران في السادسة صباحاً. تابعت تقاليد الغناء المحايد منذ وجدت نفسها، وحيدة، مع بدايات الضوء. لمن تغني

في زحام هذه الصواريخ؟ تغنّي لتشفي طبيعتها من ليل سابق، تُغَنّي لها لا لنا. هل كنا نعرف ذلك فيما مضى؟ لقد شقّت الطيور فضاءها الخاص في دخان المدينة المحترقة. كانت سهام الصوت المتعرجة تلتفّ على القنابل وتشير إلى أرض سالمة في الفضاء. للقاتل أن يقتل. للمقاتل أن يقاتل. وللعصفور أن يُغنّي. ولكنني أكفّ عن طلب الكناية، أكفُّ تماماً عن التأويل، لأن من طبيعة الحروب أن تُحقِّر الرموز، وتعود بعلاقات البشر والمكان والعناصر والوقت إلى خاماتها الأولى، لنفرح بماء يتدفق من ماسورة مكسورة على طريق، لأن الماء هنا يتقدم منّا معجزة.

من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتّح في انفتاح العطش. للماء لون أصوات العصافير، الدوري بخاصة، العصافير التي لا تكترث بهذه الحرب القادمة من البحر ما دام فضاؤها سالماً. وللماء طعم الماء، ورائحةٌ هي رائحةُ الهواء القادم، بعد الظهيرة، من حقل يتموج بسنابل القمح الممتلئة، في امتدادِ متقطِّع الضوء كبُقع الضوء المخطوفة التي يتركها وراءه توتُّر جناح الدوري الصغير وهو يطير طيراناً واطئاً على حقل. وليس كل ما يطير طائرة. ولعلّ أسوأ الكلمات العربية هي أن الطائرة تأنيث «الطائر». الطيور تواصل غناءها وتثبِّتُ أصواتها وسط هدير المدافع البحرية. ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة. ومن قال إن هذه الطائرة هي تأنيث هذا الطائر؟

ولكن العصافير تصمت فجأة. تكفُّ عن الكلام وعن التحليق الروتيني في هواء الفجر منذ هَبَّت عاصفةُ الحديد الطائر. أَمِنْ

هديرها الفولاذي سكتت، أم من تشابُهٍ غير متعادل في الشكل والاسم: جناحان من حديد وفضّة في مقابل جناحين من ريش. حيزوم من حديد وكهرباء في مقابل منقار من نشيد. حمولة من صواريخ في مقابل حبة قمح وقشة. توقفت العصافير عن الغناء، واكترثت بالحرب، لأَن أرض سمائها لم تعد سالمة...

ألسّماء تنخفض، كأنها سقف إسمنتي يقع. ألبحر يتحوّلُ إلى يابسة ويقترب. السماء والبحر من مادة واحدة. البحر والسماء يضيقان عليَّ الخناق. أدرتُ مفتاح الراديو لأعرف أخبار السماء. لم أسمع شيئاً. تجمد الوقت. جلس عليَّ ليخنقني. مرّت الطائرات من بين أصابعي. اخترقت رئتي. كيف أصل إلى رائحة القهوة. كيف أموت يابساً بلا رائحة القهوة. لا أريد.. لا أريد.. فأين إرادتي؟

وَقَفَتْ هناك، على الطرف الثاني من الشارع، يوم أطلقنا النداء المضاد لزحف الخرافة علينا من الجنوب. يوم كوّر اللحم البشري عضلة الروح وصاح: لن يمروا.. ولن نخرج. اشتبك اللحم مع الحديد وتغلّب على علم الحساب العسير، فتوقّف الغزاة على السور. هنالك وقت لدفن الموتى، وهنالك وقت للسلاح، وهناك وقت ليمرّ الوقت على هوانا.. لتطول البطولة، فنحن، نحنُ أصحابُ الوقت...

كان الخبز يصعد من التراب. وكان الماء ينبجس من الصخر. كانت صواريخهم تحفر لنا آبار الماء، وكانت لغة قتلهم تغرينا بالنشيد: لن نخرج، وكنا نرى وجوهنا على شاشة الآخرين تغلي

بالوعد العظيم وتخترق الحصار بشارات نصر لا تنكسر. لن نفقد شيئاً منذ الآن، ما دامت بيروت هنا، وما دمنا هنا في بيروت ــ وسط هذا البحر، على بوابة هذه الصحراء أسماءً لوطن مختلف، وعودة المعاني إلى مفرداتها، هنا خيمة للتائهة من المعاني، والضالّة من الألفاظ، ولشتات الضوء اليتيم المطرود من السوط...

فهل عرف هؤلاء الفتية المدججون بجهلٍ خلاّق لموازين القوى، وبمطالع أغنيات سابقة، وبقذائف يدوية، وزجاجات جعَةٍ ساخنة، وبشهوات فتيات في ملجأ، وبقصاصات هوية ممزقة، وبرغبات واضحة في الانتقام من آباء حكماء، وبجنون الخلاص من شيخوخة الفكرة، وبما لا يدرون من رياضة الموت النشيط... هل، هل عرفوا أنهم يصححون، بجراحهم وطيشهم المبدع، حبرَ اللغة التي ساست شرق المتوسط كُلّه في اتجاه غرب لا يطلب من العبودية غير تحسين شروط التحاقها، منذ حصار عكّا في العصور الوسطى حتى حصار بيروت المُكَلف بالانتقام من كل التاريخ في العصور الوسطى؟

وهل عرفوا حين انصرفوا إلى محاصرة الحصار، أنهم ينوبون عن الأُسطورة في انتشال الواقع من الخارق إلى البسيط، ليرشدوا قارىء الرمل المضلّل إلى أسرار البطولة المكوّنة من البسيط إلى البسيط؟ كأن يُمْتَحَن رجل برجولته، وتمتحن أنثى بأنوثتها، وكأن يكون للكرامة قوة الاختيار بين الدفاع عنها أو الانتحار، وكأن لا يرضى الفارس باشتراط فروسيته الذاتية، الأخلاقية والجسدية، بعودة عصر الفروسية الرسمية.. وأن يشق بنفسه، وحيداً، هذا

الفضاء المتطاول فيصوِّب مساراً لما فيه من غموض الحافز. وكأن تشقّ حفنة من البشر عصا الطاعة على المألوف كي لا يتساوى هذا الشعب، هذا الشعب المخلوق من مزاج النار العنيدة، مع قطعان الغنم التي يريد أن يسوسها راعي القمع وراعي الخرافة، معاً، عبر سياج التواطؤ.

لن يمروا على حياتنا. فليمروا، إن استطاعوا أن يمروا، على ما تلفظه الروحُ من جثث،

فأين إرادتي؟

وقفتُ هناك، على الرصيف الثاني من الصوت الجماعي. أما الآن، فلا أريد أكثر من رائحة القهوة. خجلتُ. خجلتُ من خوفي وممن يدافعون عن رائحة البلاد البعيدة، الرائحة التي لم يشموها لأنهم لم يولدوا فيها. وُلدوا منها بعيداً عنها. وتعلموها بلا انقطاع وبلا كلل أو ملل. تعلموها من ذاكرة مسلطة ومن مطاردة ملحة:

لستم من هنا ــ قيل لهم هناك.

ولستم من هنا ــ قيل لهم هنا.

وبين «هنا» و«هناك» شدّوا أجسادهم قوساً تتوتَّر، حتى اتخذ الموت فيهم هذه الصيغة الاحتفالية. لقد أخرج آباؤهم من هناك ليحلوا ضيوفاً على هنا، ضيوفاً مؤقتين، من أجل إخلاء ساحات الوطن من المدنيين، ليتسنى للجيوش النظامية تطهير أرض العرب وشرفهم من العار والدنس: «أخي جاوز الظالمون المدى، فحقّ

الجهاد وحقّ الفدا.. طلعنا عليهم طلوع المنون، فكانوا هباء وكانوا سدى». وبقدر ما كانت تلك الأغاني تطارد فلول الغزاة وتحرِّر الأرض سطراً سطراً، كان هؤلاء، هنا، يولدون بلا مهد، وكيفما اتفق، على حصير أو في سلّة من قصب، أو على أوراق الموز، يولدون كيفما اتفق بلا شهادة ميلاد وبلا سجل أسماء، بلا فرح وبلا ميلاد، كانوا أعباء على أهلهم وعلى جيران الخيمة، وباختصار: كانوا ولادة زائدة، كانوا بلا هوية.

وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه. عادت الجيوش النظامية. وبقي هؤلاء يولدون بلا سبب، ويكبرون بلا سبب، ويتذكرون بلا سبب، ويحاصرون بلا سبب. جميعهم يعرف القصة، شديدة الشبه بحادثة سير كونية وبواقعة طبيعية. ولكنهم قرأوا كثيراً في كتاب أجسادهم وأكواخهم، قرأوا تمييزهم وقرأوا الخطاب القومي، وقرأوا صادرات وكالة الغوث، وقرأوا سياط الشرطة. وظلّوا يكبرون ويزيدون عن حزام المخيم وعن مراكز الاعتقال. وقرأوا تاريخ الحصون والقلاع التي وقّعها الغزاة لتخليد أسمائهم على أرض ليست لهم، ولتزوير هوية الحجارة والبرتقال على سبيل المثال. أليس التاريخ قابلاً للرشوة؟ وإلّا، فلماذا يحمل المكان، البحيرات والجبال والمدن، أسماءَ قادةٍ عسكريين لا لشيء إلّا لأَن أولئك القادة قد تنفسوا انطباعاً أولياً لدى المشاهدة، فتحولت كلمات الانطباع إلى أسماء نتناقلها حتى الآن؟ أو.. هريد ــ ما أجملها ــ هكذا قال قائد روماني حين رأى البحيرة في مقدونيا، فصار هذا الدهش هو اسمها. وقس على ذلك مئات الأَسماء

التي نشير بها إلى أمكنة أشار إليها قبلنا عسكري منتصر، وصار من الصعب فكُّ الهوية عن هزيمتها. قلوع وحصون هي محاولات لحماية اسم لا يثق بخلوده من النسيان. حجارة مضادة للنسيان، حروب عكس النسيان. لا أحد يريد أن يَنْسى. وبشكل أدق: لا أحد يريد أن يُنْسى. وبشكل سلمي: ينجبون الأطفال ليحملوا أسماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده. إنه تاريخ طويل من عملية البحث عن توقيع على زمان أو مكان، ومن حلِّ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة...

فلماذا يطالب هؤلاء الذين ألقت بهم أمواج النسيان على ساحل بيروت أن يشذوا عن قاعدة الطبيعة البشرية؟ لم يطالبون بهذا القدر من النسيان؟ ومن هو القادر على تركيب ذاكرة جديدة لهم لا محتوى لها غير ظل مكسور لحياة بعيدة في وعاء من صفيح صارخ؟

أهناك ما يكفي من النسيان كي ينسوا؟

ومن سيساعدهم على النسيان في هذا القهر الذي لا يتوقف عن تذكيرهم باغترابهم عن المكان والمجتمع؟ من يرضى بهم مواطنين؟ من يحميهم من سياط الملاحقة والتمييز: لستم من هنا!

يستعرضون الهوية المرفوعة للتدليل على خطر الدخول وخطر الخروج، لمحاصرة الأوبئة، ويراقبون براعة استخدامها رافعةً قومية، هؤلاء المنسيون، المطرودون من النسيج الاجتماعي الداخلي، المنبوذون، المحرومون من حق العمل والمساواة، مطالبون في الوقت

ذاته بأن يصفقوا لقمعهم لأنه يُوفّر لهم نعمة الذاكرة. وهكذا يُدْفَعُ المطالب بالنسيان أنه إنسان إلى قبول استثنائه من الحقوق ليتدرب على التحرّر من داء نسيان الوطن. عليه أن يُصاب بالسلّ كيلا ينسى أن له رئة، وعليه أن ينام في العراء كي لا ينسى أن له سماء أخرى. وعليه أن يعمل خادماً كيلا ينسى أن له مهمة وطنية. ويمنع من التوطين كيلا ينسى فلسطين. وباختصار، عليه أن يكون «آخر» أخيه العربي لأنه منذور للتحرير..

حسناً.. حسناً. لقد عرف واجبه: هويتي ــ بندقيتي، فلماذا يكيلون عليه تهماً لا تُحصى: إثارة الشغب، الإخلال بأصول الضيافة، التوريط، نشر عدوى السلاح؟ حين استكان أخرجوا روحه للكلاب الضالة، وحين تحرّك في اتجاه الوطن أخرجوا جسده للكلاب الضالّة. ولكن المثقفين القادرين على ارتداء أحدث الأزياء النظرية، أقنعوه بأنه بديل السائد، وحين انقضّ عليه السائد، طالبوه بالنقد الذاتي لأنه أفرط في الوطنية، أفرط إلى درجة الخروج عن حظيرة السائد! الظروف ليست ناضجة. الظروف ليست ناضجة. وكان عليه أن ينتظر. ما العمل.. ما العمل؟ الثرثرة في مقاهي بيروت. لقد ثرثر حتى قيل له إن بيروت قد أفسدته. وامتشقت سيدات المجتمع البنادق الرشاشة، المحاطة بوسوسة المجوهرات، ليخطبن في حفلات الدفاع عن وطنية «المجدرة». وحين خجل وقال ما يعني أن الوطن ليس هذا الطعام، وتناول السلاح ليستخدمه خارج الحفلة، على الحدود، قالوا له: هذا تجاوز. وحين استخدم السلاح في معارك الدفاع عن النفس،

في الداخل، ضد مندوبي الصهيونية المحليين قيل له: هذا تدخُّل في الشؤون الطائفية. ما العمل؟ إذن، ما العمل لينهي عملية النقد الذاتي سوى الاعتذار عن وجود لم يوجد بعد. لستَ إلى هناك. ولستَ من هنا. ومن بين هذين النفيين وُلد هذا الجيل المدافع عن وعاء جسدي للروح، علّق عليه رائحة البلاد التي لا يعرفها. لقد قرأ ما قرأ، ورأى ما رأى، ولم يصدق أن الهزيمة حتمية. وتبع تلك الرائحة...

منهم أخجل، دون أن أعرف أني أخجل منهم. الغامض يتراكم على الغامض ليحتك ويقدح الوضوح. وفي وسع الغزاة أن يفعلوا كُلّ شيء، في وسعهم أن يسلطوا البحر والجو والبرّ عليَّ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلعوا مني رائحة القهوة. سأصنع قهوتي الآن. سأشرب القهوة الآن. سأمتلىء برائحة القهوة الآن، لأتميز عن خروف، على الأقل، لأعيش يوماً آخر، أو أموت محاطاً برائحة القهوة...

.. تُبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري اليدُ أولى إبداعاتها. ولا تكترث بالصواريخ والقذائف والطائرات. فتلك إرادتي: سأذيع رائحة القهوة لأمتلك فجري. لا تنظر إلى الجبل الذي يبصق كتله النارية في اتجاه يدك. ولكنك لا تستطيع أن تنسى أنهم يرقصون هناك، يرقصون من النشوة. كانت سيدات القرنفل، في صحف البارحة، يرتمين على دبابات الغزاة في الأشرفية. كان النصف الأعلى من نهودهن، والنصف السفلي من أفخاذهن عارياً من الصيف ومن المتعة، ومعداً جيداً جيداً لاستقبال المخلّصين. قَبّلني

يا شلومو، قبلني على فمي، ما اسمك يا حبيبي لأناديك باسمك يا حبيبي، شلومو كم انتظَرتْكَ شغافُ قلبي. ادخل، يا شلومو، ادخل رويداً رويداً أو دفعة واحدة إلى بيتي لأحسّ فيك القوة. كم أحبُّ القوة يا حبيبي. واقصفوهم يا حبيبي، واذبحوهم، واقتلوهم بكل ما فينا من انتظار. لتحمك سيدة لبنان يا سيد شلومو. اقصفوهم ريثما أُعدُّ لك كأس العرق والغذاء يا حبيبي. بعد كم ساعة تقضون عليهم، بعد كم ساعة. لقد طالت العملية، يا شلومو، طالت، فلماذا أنتم بطيئون يا حبيبي. شهران، ما بالكم لا تتقدمون؟ ولكن رائحتك كريهة، يا شلومو، لا بأس. هذا من الصيف والعرق. سأغسلك بماء الفل يا حبيبي. لماذا تبوِّل في الشارع؟ هل تتكلم الفرنسية؟ لا؟ أين وُلدت؟ في تعز؟ أين تعز هذه؟ في اليمن؟ لا بأس.. لا بأس. كنت أَظُنّكَ شيئاً آخر. ما عليك يا شلومو! اقصف من أجلي هناك.. هناك.

ملعقة واحدة من البُنّ المكهرب بالهال تُرْسَى، ببطء، على تجاعيد الماء الساخن، تحركها تحريكاً بطيئاً بالملعقة، بشكل دائري في البداية، ثم من فوق إلى تحت. تضيف إليها الملعقة الثانية، تحركها من فوق إلى تحت ثم تحركها تحريكاً دائرياً من الشمال إلى اليمين، ثم تسكب عليها الملعقة الثالثة. بين الملعقة والأخرى أبعد الإِناء عن النار ثم أعده إلى النار. بعد ذلك «لَقِّم» القهوة أي املأ الملعقة بالبن الذائب وارفعها إلى أعلى ثم أعدها عدة مرات إلى أسفل، إلى أن يعيد الماء غليانه وتبقى كتلة من البن ذي اللون الأَشقر على سطح الماء، تتموّج وتتأهب للغرق. لا تدعها تغرق.

أطفىء النار ولا تكترث بالصواريخ. خذ القهوة إلى الممرّ الضيّق. صُبّها بحنان وافتنان في فنجان أبيض، فالفناجين داكنة اللون تفسد حرية القهوة. راقب خطوط البخار وخيمة الرائحة المتصاعدة. أشعل سيجارتك الآن، السيجارة الأولى المصنوعة من أجل هذا الفنجان، السيجارة ذات المذاق الكوني التي لا يعادلها مذاق آخر غير مذاق السيجارة التي تتبع عملية الحب، بينما المرأة تدخِّن آخر العرق وخفوت الصوت...

ها أنذا أولد. امتلأَت عروقي بمخدرها المنبّه، بعدما التقت بينبوع حياتها، الكافايين والنيكوتين وطقس لقائهما المخلوق من يدي. أتساءل: كيف تكتب يدٌ لا تبدع القهوة؟ كم قال لي أطباء القلب، وهم يدخنون: لا تدخِّن ولا تشرب القهوة. وكم مازحتهم: الحمار لا يدخن ولا يشرب القهوة، ولا يكتب.

أعرف قهوتي، وقهوة أمي، وقهوة أصدقائي. أعرفها من بعيد وأعرف الفوارق بينها. لا قهوة تشبه قهوة أخرى. ودفاعي عن القهوة هو دفاع عن خصوصية الفارق. ليس هنالك مذاق اسمه مذاق القهوة، فالقهوة ليستْ مفهوماً وليست مادة واحدة، وليست مطلقاً. لكُلِّ شخص قهوته الخاصة، الخاصة إلى حدّ أقيس معه درجة ذوق الشخص وأناقته النفسية بمذاق قهوته. ثمة قهوة لها مذاق الكزبرة. ذلك يعني أن مطبخ السيدة ليس مُرَتّباً. وثمة قهوة لها مذاق عصير الخروب. ذلك يعني أن صاحب البيت بخيل. وثمة قهوة لها رائحةُ العطر. ذلك يعني أن السيدة شديدة الاهتمام بمظاهر الأشياء. وثمة قهوة لها ملمس الطحلب

في الفم. ذلك يعني أن صاحبها يساريّ طفولي. وثمة قهوة لها مذاق القِدم من فرط ما تألّب البن في الماء الساخن. ذلك يعني أن صاحبها يميني متطرف. وثمة قهوة لها مذاق الهال الطاغي. ذلك يعني أن السيدة محدثة النعمة...

لا قهوة تشبه قهوة أخرى. لكل بيت قهوته، ولكُلِّ يد قهوتها، لأنه لا نفس تشبه نفساً أخرى. وأنا أعرف القهوة من بعيد: تسير في خط مستقيم، في البداية، ثم تتعرج وتتلوى وتتأوّد وتتأوّه وتلتفّ على سفوح ومنحدرات، تتشبّث بسنديانة أو بلوطة، وتتفلّت لتهبط الوادي وتلتفت إلى وراء، وتتفتّت حنيناً إلى صعود الجبل وتصعد حين تتشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأوّل..

رائحةُ القهوة عودة وإعادة إلى الشيء الأول، لأنها تنحدر من سلالة المكان الأول، هي رحلة بدأت من آلاف السنين وما زالت تعود. القهوة مكان. القهوةُ مسام تُسرِّب الداخل إلى الخارج، وانفصالٌ يُوَحِّد ما لا يتوحّدُ إلّا فيها هي رائحة القهوة. هي ضدُّ الفطام. ثدي يُرضع الرجال بعيداً. صياحٌ مولود من مذاق مُرّ، حليبُ الرجولة، والقهوة جغرافيا..

□ □ □

من هي تلك الناهضةُ من منامي؟

هل هي حقاً كانت تخاطبني قبل الفجر، أم كنتُ أهذي وأواصل المنام صاحياً؟

لم نلتق غير مرتين. في المرة الأولى حفظت اسمي، وفي المرة الثانية حفظت اسمها. وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. فلماذا تناديني الآن من حلم كنتُ أنام فيه على ركبتها؟ لم أقل لها في المرة الأولى: أُحبك. ولم تقل لي في المرة الثانية: أحبك. ولم نشرب القهوة معاً...

□ □ □

واعتدتُ أن أحصي عدد السوس في صحن حساء العدس، الطبق اليومي في السجون.. واعتدت أن أتغلّب على الاشمئزاز، لأن الشهية تتكيّف، ولأن الجوع أقوى من الشهية. ولكنني لم أتكيّف أبداً مع غياب القهوة الصباحية، ومع تناول غسيل الشاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السجن. سألتني صديقة بعد خروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأنهم لا يقدمون القهوة. قالت: هذا شيء فظيع. وأضافت: ولكنني لا أشربُ القهوة. قلت: لا أعرف سيدات كثيرات مهووسات بصباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فإنها تُفضِّلُ المكياج!

ليس ذلك ما آلمني. لقد تمكن أحد زملائي السجناء من إحضار فنجان من القهوة لي، ذات صباح، تلقّفتُه بشبق ومنحتُ نفسي وقتاً للتأمّل، مما دفع زميلاً آخر إلى تصويب نظرة استعطاف نحو الفنجان، تجاهلتُها لأتوحّد مع ملكيتي، تجاهلتُها وتلذذت برشف القهوة بسادية أيقظتْ فيّ إحساساً بالإثم فيما بعد. كان ذلك

قبل عشرين عاماً، وما زالت تلك النظرة المتوسلة تلاحقني إلى الآن داعية إيّاي إلى إعادة النظر المستمرة في نفسي وإلى تهذيب سلوكي، لأن العطاء وتقاسم الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقتُ عليه من أنصاف السجائر في محاول لرشوة توازني النفسي. ما أشدّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يوم جاءت أُمي لزيارتي ومعها إبريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب...

□ □ □

والقهوة لا تُشرب على عجل. القهوةُ أُختُ الوقت. تُحْتَسى على مهل.. على مهل. القهوةُ صوت المذاق، صوت الرائحة. القهوة تأمّل وتغلغل في النفس وفي الذكريات. والقهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

أين الجريدة؟ الساعة السادسة صباحاً. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل تسجيل الواقع، ليس واقعاً تماماً. أعرف باحثاً في الشؤون الإسرائيلية لا يكفُّ عن تكذيب «الشائعات» القائلة أن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلّا إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبما أن الصحف الإسرائيلية لم تصل إليه، فإنه لا يعترف بأنّ بيروت محاصرة! ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية إدمان. أين الجريدة؟

تصاعدت هستيريا الطائرات. لقد جُنَّت السماء. جُنّت تماماً. يُنذر هذا الفجر بأن هذا اليوم هو آخر أيام الخليقة. فأين يضربون؟ أين لا يضربون؟ وهل تتسع منطقة المطار لكُلّ هذه القذائف القادرة على قَتْل بحر؟ أفتح الراديو فأضطر للاستماع إلى الإِعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. تعال إلى مارلبورو، تعال إلى حيث المتعة. ميّة الصحة.. صحة «صحة من جبل عالي». ولكن أين الماء؟ غنج متزايد من مذيعات مونت ـ كارلو الخارجات للتو من الحمام أو غرف النوم المثيرة. قصفٌ شديد على بيروت. قصفٌ شديد على بيروت؟ أهذا هو الخبر كأنه نبأ عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشرة الأخبار. أحوّل إبرة الراديو إلى إذاعة لندن، الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين، أصوات منقولة على موجة قصيرة مكبرة إلى موجة متوسطة تحوّلها إلى كاريكاتور صوتي خبيث: ويقول مراسلنا إنه يبدو للمراقبين الحذرين أن ما يبدو مما يتضح عندما يتمكن المتحدث لولا صعوبة الاتصال بالوقائع لعلّ في الأمر ما يدل على أن كلا المتحاربين يحاول عسى ولا سيما ناهيك عن غموض ما قد يسفر عن طائرات مجهولة أسماء الطيارين تُحلّق إذا أردنا الدقة حيث قد يتأكد أن بعض الناس يظهر في زيّ حسن. لغة عربية سليمة المعلومات تنتهي بأغنية ذات لغة عربية سليمة العواطف لمحمد عبد الوهاب: يا تجيني يا تقوللي أروح لك يا تقوللي أروح منك فين.

أصوات متشابهةُ الرتابة، رمل يصف بحراً، أصوات فصيحة ونزيهة تصف الموت كما تصف الأحوال الجوية، وكما لا تصف سباق الخيل والدراجات. عمَّ أبحث؟ أفتح الباب عدة مرات ولا أعثر على الجريدة. لماذا أطلب الجريدة والبناياتُ تتساقط من الجهات كُلّها. ألا تكفيني هذه القراءة؟

ليس ذلك تماماً. فالباحث عن الجريدة وسط هذا الجحيم هاربٌ من الموت وحيداً إلى الموت الجماعي، باحث عن عينين إنسانيتين، عن صمت مشترك، وعن كلام متبادل، باحث عن مشاركة مّا في الموت، عن شاهد يشهد، عن شاهد على جثة، عن مُبلغ عن سقوط حصان، عن لغة للصمت وللكلام، عن انتظار أقلّ ضجراً لموت تأكد. فإن ما يقوله هذا الفولاذ، هذه الوحوش الفولاذية، هو أن أحداً لا يرى السكينة. ولن يحصي قتلانا..

كنت أكذب على نفسي، فليست فيّ حاجة إلى البحث عن وصف ما هو حولي وفي داخلي الدالف. حقيقةُ الأمر هي أنني كنتُ خائفاً من الوقوع بين الأنقاض، فريسةَ أنين لا يصل. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً إلى حدّ التماهي مع الحادثة وقد حدثت. أنا الآن هناك بين الأنقاض. أحسُّ بوجع الحيوان المهروس فيّ. وأصرخ من وجعي ولا يسمعني أحد. كان ذلك «الألم ــ الشبح» القادم من اتجاه معاكس، مما قد يحدث. بعض الذين يصابون بساقهم يواصلون الإحساس بالوجع في الساق حتى بعد بترها بسنين. إنهم يمدون أيديهم لتحسس موضع الوجع في ساق لم يعد لها وجود.. وقد يلاحقهم هذا الوجع الوهمي، الوجع

الشبح إلى آخر العمر. أما أنا، فأشعر بوجع جرّاء إصابة لم تحدث.. لقد طُحِنَتْ ساقاي تحت الأَنقاض.

وهذه ظنوني: قد لا يقتلني الصاروخ بشكل خاطف دون أن أشعر. فقد ينهار عليَّ حائط على مهل على مهل في عذاب لا ينتهي واستغاثة لا تبلّغ مصيري إلى أحد. قد يطحن ساقي أو ذراعي أو جمجمتي، أو قد يربض على صدري، وأبقى حيّاً عدة أيام لا وقت فيها لأحد للبحث عن بقايا كائن. قد يختلط لحمي بالإسمنت والحديد والتراب فلا يَدُلُّ شيء عليَّ. وقد ينغرز زجاج نظارتي في عيني فأصاب بالعمى. وقد يتغلغل عمود من الحديد في خاصرتي. وقد أنسى في زحام اللحم البشري المعوس المفقود بين الأَنقاض. ولكن، لماذا أهتم بمصير جثتي وعنوانها إلى هذا الحد؟ لا أعرف. أريد جنازة حسنة التنظيم، يضعون فيها الجثمان السليم، لا المشوّه، في تابوت خشبي ملفوف بعَلَم واضح الأَلوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بيت شعر لا تدلُّ ألفاظه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي ـــ الأَعداء.

وأريد أكاليل من الورد الأحمر والورد الأصفر. لا أريد اللون الورديّ الرخيص ولا أريد البنفسج لأنه يذيع رائحة الموت. وأريد مذيعاً قليل الثرثرة قليل البحة، قادراً على ادعاء حزن مقنع، يتناوب مع أشرطة تحمل صوتي بعض الكلام. أريد جنازة هادئة، واضحة، وكبيرة ليكون الوداع جميلاً وعكس اللقاء. فما أجمل حظ الموتى الجدد، في اليوم الأول من الوداع، حين يتبارى المودعون في مدائحهم. فرسان ليوم واحد، محبوبون ليوم واحد،

أبرياء ليوم واحد.. لا نميمة ولا شتيمة ولا حسد. حسناً، وأنا بلا زوجة وبلا ولد. فذلك يوفر على بعض الأصدقاء جهد التمثيل الطويل لدور حزين لا ينتهي إلّا بحنوِّ الأرملة على المعزِّي. وذلك يوفر على الولد مذلّة الوقوف على أبواب المؤسسات ذات البيروقراطية البدوية. حسنٌ أني وحيد.. وحيد.. لذلك ستكون جنازتي مجانية وبلا حساب مجاملة، ينصرف بعدها المشيّعون إلى شؤونهم اليومية. أريد جنازة وتابوتاً أنيق الصنع أطلُّ منه، كما يريد توفيق الحكيم أن يطلّ، على المشيّعين.. أسترقُ النظر إلى طريقتهم في الوقوف، وفي المشي، وفي التأفف، وفي تحويل اللعاب إلى دموع. وأستمع إلى التعليقات الساخرة: كان يحب النساء، وكان يبذخ في اختيار الثياب. وكان سُجّاد بيته يصل إلى الركبتين، وكان له قصر على الساحل الفرنسي اللازوردي، وفيلّلا في إسبانيا، وحساب سريّ في زيوريخ، وكانت له طائرة سرية خاصة، وخمس سيارات فخمة في مرأب بيته في بيروت. ولا نعرف إذا كان له يخت خاص في اليونان. ولكن في بيته من أصداف البحر ما يكفي لبناء مخيّم. كان يكذب على النساء. مات الشاعر ومات شعره معه. ماذا يبقى منه؟ لقد انتهت مرحلته وانتهينا من خرافته. أخذ شعره معه ورحل. كان طويل الأنف واللسان... وسأستمع إلى ما هو أقسى عندما تتحرر المخيلة من كُلِّ شيء. سأبتسم في التابوت، سأبذل جهداً لأَن أقول: كفى، سأحاول العودة فلا أستطيع.

□ □ □

أما أن أموت هنا، فلا. لا أريد الموت تحت الأَنقاض. سأدّعي لنفسي أنني ذاهب إلى الشارع للبحث عن الجريدة، فالخوف عار في حمّى البطولة المتفشّية في جميع الناس، من أولئك الذين لا نعرف أسماءهم على خطوط الاشتباك، ومن أولئك البسطاء الذين اختاروا أن يبقوا في بيروت، اختاروا أن يكرسوا أيامهم للبحث عن تنكة ماء وسط مطر القذائف، اختاروا أن يمدّدوا لحظة التحدي والصمود إلى تاريخ، اختاروا أن يدفعوا لحمهم في صراع مع الحديد المنفجر. البطولة هي هذا الجزء المشطور من بيروت في هذا الصيف الحارق. هي بيروت الغربية. ليس من يموت هو من يموت بالمصادفة. الحيُّ حيّ بالمصادفة، إذ لم يسلم شبر واحد من صاروخ، ولم يسلم موقع خطوة واحدة من انفجار. ولكنني لا أريد الموت تحت الأَنقاض. أريد الموت في الشارع.

انتشر أمامي، فجأة، الدود الموصوف في إحدى الروايات.. دود يرتب صفوفه وأنواعه وألوانه، بنظام صارم، لالتهام الجثة كأنه يسلخ اللحم كله عن العظام في دقائق. غارة واحدة.. غارتان ولا يبقى منّا غير الهيكل العظمي. دود يأتي من المجهول.. ومن التراب.. ومن الجثة ذاتها. الجثة تأكل نفسها بجيش حسن التنظيم يطلع منها في لحظات. إنها صورة تفرغ الإنسان من بطولته ومن لحمه، وتدفع به في عراء المصير العبثي، في العبث المطلق، في العدم الكامل. صورة تجرّد الأَناشيد من مديح الموت ومن الفرار إلى الفرار. أَمِنْ أجل التغلّب على بشاعة هذه

الحقيقة، فَتَحَ الخيال البشريُّ ــ ساكنُ الجثة ــ فضاءً لخلاص الروح من هذا العدم؟ أهذا ما يقترحه الدين والشعر من حَلّ؟ ربما.. ربما..

□□□

.. ولأنني أعرف «سمير» منذ الطفولة، لم أذهب إلى غيبوبته في المستشفى. لقد بترت الطائرات ساقيه وذراعيه، بقرت بطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الرياضية. ماذا تبقّى منه؟ أعني ماذا تبقّى من وسامة كانت توقد الجمر تحت ثياب الفتيات؟ كنا معاً في المدرسة الثانوية في كفر ياسيف. لم يحضر الدروس كثيراً. كان ساهياً وغائباً، يُؤْثِرُ البحر واصطياد العصافير على الكتب، ولا يشارك في شغب التلاميذ. فيه حُسنُ يوسف وخَفَرٌ بلا تقوى. عينان زرقاوان صافيتان من بحر عكا وأُمّه الحسناء الطاغية. شعر كستنائي مُجعَّد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كان بعيداً وقويّ البنية. ولم نعرف لماذا ابتعد عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن إلى أن أشعل حرب حزيران. هكذا قالت الصحف الإسرائيلية بعناوين عريضة: إلقاء القبض على فدائي تسلّل عبر الحدود لينسف حيفا. كان ذلك عشية حرب حزيران. وكان الإعلام الإسرائيلي منكباً على إعداد الذرائع لإعلان الحرب. لم نصدِّق أن «سمير» فدائي فلسطيني، إذ لم يسبق له أن انخرط معنا في نشاط عام، إلّا بعدما طالعتنا قامتُهُ المديدة في الصحف وهو يرسف في الأغلال. حدَّثني أبوه، وهو ابن عمي، كيف كانت الشرطة تُسْمِعُهُ ــ خلف جدران

الزنزانة ــ أنين «سمير» تحت التعذيب المتواصل. قطيعٌ من الذئاب يستفرد بغزال أسير. لقد تحطم والده تماماً وهو يستمع إلى الموت البطيء المتصاعد من جسد «سمير»، المرفّه، المنعّم، المدلّل، الأنيق، الوسيم. ولكن أمّه ذات الجمال الجَهُوريّ حمت أعصابها، وتوازنها النفسي، بما أيقظ في أمومتها من حاسّة الزهو أمام تحوّل ابنها إلى رجل يتحدى دولة هزمت دولاً، فرفعت أحزانها إلى كبرياء. حكموا على «سمير» بالسجن المؤبّد. وفي السجن استطاع أن يُمَثِّل دور المتعاون مع إدارة السجن، متحملاً إهانات زملائه الفدائيين، لينفّذ خطته، ويعمل في مطبخ السجن، حيث حصل على ما يحتاج له من أدوات حادة، وعكف شهوراً على قطع قضبان الزنزانة، إلى أن حانت ساعة الصفر، وتمكن من تهريب بعض زملائه السجناء. أصرّ على أن يكون آخر الناجين، إلى أن انتبه الحراس إلى العملية وانتزعوه من قضبان النافذة ليحكموا عليه، مرة أخرى، بالسجن المؤبّد الثاني. بعد محاولة أخرى، حكم عليه بالسجن المؤبّد الثالث. وهكذا، كان على «سمير» أن يعيش ثلاثة أعمار أخرى ليتم إطلاق سراحه... وفي عملية تبادل أسرى خرج «سمير» إلى نور الوطن العربي الكبير، فلم يصدِّق الفارق بين الفكرة وصورة الفكرة، ولم يصدق التنافر بين الحلم وأداة الحلم، فلجأ إلى مفاضلة السجناء التقليدية بين الحرية الخارجية الشكلية وبين الحرية الداخلية المجازية المنبثقة من تماسك اليقين، وسلام النفس، والارتباط بالخارج برباط المثال. لقد ألفنا شكوى الخارجين من حريتهم الداخلية إلى حريتنا الـمُشَوّهة،

وألفنا خيبتهم من كُلٍّ ما يخدش مخيلتهم عنا وتصوّرهُمْ عن الخارج. قال لي «سمير»، حين التقيته بعد عشرين عاماً في دمشق: أهذا هو الوضع؟ ليس من أجل هذا دخلت. وليس من أجل هذا خرجت. ولكن ما فيه من وفاء لارتباط الإطار بالفكرة حال دون ذهابه بالخيبة إلى منتهاها؛ إلى استبدال الإطار والأداة بما هو أكثر توازناً وانسجاماً. كان شديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحام بها. وليس في وسع رجل مثلي ــ قال ــ أن يغيّر جلده، لا خوفاً من إرهاب المؤسسة، بل خوفاً من انهيار أحد عناصر التوازن. فلا أعتبر نفسي ــ سواء أكنت في هذا التنظيم أم في ذاك ــ خادماً لفكرة فلسطين وشعبها، دون أن أقبل الانسياق في صراع التنظيمات وفي خداع تبعية بعضها، وهي لا تشملني، إلى هذا النظام أو ذاك. كان يسيّج نفسه وتميُّزها بالجناح المطلق من الفكرة. كان يخشى أن يؤدي أيُّ تعديل في إطاره إلى الطعن في صدق تاريخه وفي حرارة تضحيته، لأن الاعتراض ــ في غياب الوطن والمجتمع وما يبلورانه من سُلّم قيم ــ قابلٌ للشك والتشكيك الشائعين في حروب كلام لا تضبطها ضوابط أخلاقية ووطنية. ولم يسفر مثل هذا النوع من «الحوار الوطني» إلّا عن اغتيال، ولم يبرأ من تراشق هذه التهم أحدٌ منا. ثم استقر «سمير» في بيروت، ليواصل أسئلته الجارحة عن الحرية في السجن، والسجن في حرية قابلة للفساد وإلغاء نظام العقوبات، حتى لو تمكن أحد الناطقين باسم هذه الحرية من تدمير بناية على ساكنيها لتصفية حساب مع عضو في التنظيم، دون أن يفقد عضويته في

القيادة، وحقّه في تمثيل نظام عربي تمثيلاً مُدَوّياً في القيادة! لعلّ المحاكمة التي تستحقها الثورة هي أنها كانت خالية، وما زالت خالية، من تقاليد محاكمة أعضاء القيادة على جرائمهم المدوية. واقتصرت المحاكمة على تتبُّع جنايات أخلاقية يرتكبها شهداء المستقبل خلال بحثهم عن متعة عابرة في سيجارة حشيش، أو امرأة تغوي، قبل أن يتحولوا إلى منصة للخطابة. كان يصعب على «سمير» وعلى أمثاله الخارجين من السجون الإسرائيلية، أن يدركوا كيف يقفز بعض ممثلي المخابرات على درجات سُلّم القيادة بذريعة المحافظة على «توازن» تعبّر عنه الثورة في علاقاتها بالدول. هل نحن جامعة الدول العربية؟ لم يتمكن من إدمان هذه التقاليد، الملتبسة، لأنه لم ينضج إلى درجة «الواقعية» التي يتطلب استيعابها الأشواط التي قطعها الخطاب السياسي الفلسطيني في علاقته المعقدة بالقاعدة العربية، والقمة العربية، وذهب كل واحد في اتجاه معاكس، فاستمدّت «الوحدة الوطنية» أحد مقوماتها من تضامن الحكومات في المنظمة لا مع المنظمة!.. ولكن «سمير» المضرج بالأسئلة عن الحرية في السجن وعن السجن في الحرية، انخرط في موجة تساهل عام جَرَفَتْنا جميعاً إلى شاطىء القدرية.

.. ولأنني أعرفه منذ الطفولة، لم أذهب إليه في المستشفى، مستشفى البربر. لن تعرفه ــ قالوا لي. وإذا كنت تحبه ــ قالوا لي ــ فصلِّ له أن يموت، لأن الموت راحتُهُ الوحيدة.. فقد دخل في «الكوما».. دخل في الموت حيّاً..

إذن، لم يُطلق سراحه. لقد لاحقوه حتى بيروت. استبدلوا أحكام

السجن المؤبّد بالإِعدام قصفاً بالطائرات. مات «سمير».. مات حَبَق العائلة.

.. لا أُريد أن أموت، مشوّهاً، بين الأنقاض، أتمنى أن أُقصف على حين غفلة.. في الشارع. أتمنى أن أحترق تماماً.. أن أتفحم، فلا يعثر دود الرواية إيّاه على وظيفته الخالدة فيّ، إذ ليس من عادة الدود أن يأكل الفحم..

وهكذا، سأقول لنفسي إنني أبحث عن جريدة.. لأبرر سيري في شارع لا قطّة فيه ولا كلب.

لم آبه بما يحدث خارج الزجاج. قذائف. صواريخ. بوارج. طائرات. مدفعية. تهبُّ عليَّ كما تهبّ الرياح. تنزل كما يهطل المطر. تتحرك كما يتحرك الزلزال. لا تستطيع الإرادة البشرية أن تفعل حيالها شيئاً كأنه قدر لا يُرد. كُلُّ ما تمخّض عنه الخيال البشري من إبداعات الشر الخارقة، وما بلغته التكنولوجيا من تقدم، يجري امتحان فاعليتها في أجسادنا اليوم. أيكون هذا اليوم أطول يوم في التاريخ؟ لا أحد يغسل الموتى، فليغسل الميت نفسه بنفسه، أعني بدم فاض عن الماء. أجمع ثروتي المائية، وأستخدم كل قطرة منها بحرص فائق. لكُلّ قطرة دور. أكاد أعُدُّ قطرات الماء. خمسمائة قطرة لغسل الشعر. ألفان للجسد. مائة للفم. مائة للحلاقة. عشرون لكُلِّ أُذن. خمسون لكُلِّ إبط.. و.. و.. لكُلِّ قطرة قطعة من الجسد.

ما الماء؟ من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ما الماء؟

كيماوياً: H_2O. ياء. دال. اثنان. ألف. أهذا هو كل شيء؟ ولكن، ما هذه النشوة التي تفتح الجلد لتوصلنا إلى عيدٍ هناك.. في أرجاء الجسد وضواحيه فنقترب من طباع الفراش. الماء فرح الحواس وما يحيط بها من هواء. الماء هو الهواء المقطّر الملموس المحسوس المغموس بالضوء. ولهذا حثّ الأنبياء شعوبهم على حب الماء ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. أتذكر رسالة ابن فضلان فأتقزز من ماء في وعاء كان يغسل جيشاً بأكمله. لقد قطع عنا ممثلو الصليبيين الماء، بينما كان صلاح الدين الأيوبي يرسل الثلج والفواكه إلى أعدائه «لعل قلوبهم ترقّ» كما كان يقول. وأضحك فجأة من أغنية تقول «الميّة تروي العطشان»، وأتساءل: كيف عرف المغنّي هذا الاكتشاف المبهر؟ وفي تل الزعتر كان القتلة يصطادون الفلسطينيات على نبع الماء، على ماسورة الماء المكسورة، كما يصطاد الصيادون الغزلان العطاش. الماء القاتل. الماء المخلوط بدم العطشى الذين غامروا بحياتهم من أجل كوب ماء. الماء الذي أشعل حروب البدو في الزمان القديم. الماء الصالح لتحسين شروط التفاوض لدى من لم يلمس الماء إنسانيتهم اليابسة. الماء الذي حَرَّك ملوك العرب وحمّلهم مشقة الاتصال الهاتفي بالرئيس الأميركي لإجراء مقايضة رابحة: خذ الدم، وهات الماء. خذ النفط وهات الماء. خذنا، وهات الماء!

وصوتُ الماء ضجيج عرس، أعلى أعلى من أصوات الطائرات.

صوت الماء مرايا لعروق الأرض الحيّة. صوت الماء هو الحرية. صوتُ الماء هو الإنسانية.

وما إن يعلن «البيت الأبيض» في واشنطن عودة الماء إلى بيروت الغربية حتى يهبّ المحاصرون إلى حنفياتهم إلّا نحن.. نحن سُكّان هذه البناية العالية، العالية إلى أعلى نداء العطش. فقد حاصرنا صاحبها قبل حصار بيروت بسنين، منذ انحلّت السلطة، فجُنّ هو بسلطته: السلطة على الماء. ما إن يتشاجر مع أحد المستأجرين، أو مع زوجته، أو مع حسابه في البنك، حتى يهبّ إلى قطع الماء عنا جميعاً. لذلك ربّى فينا، من زمان، هذا الصبر على الماء. ربّى فينا مدائح الماء. وعلّمنا أن نفرح بالماء، حين يتدفق ساعة، كما لم تفرح به قبائل داحس، وحوّلنا إلى حراس أنابيب، نتجسّس منذ الفجر على صوت الماء المرتقب. وحين نسمع غرغرة الماء نعلن العيد ونجمع ما تهبنا رحمته في الأواني والقناني والصحون والكؤوس وفي جيوب المعاطف الجلدية، فالماء في هذه البناية كنز نجلّله بالطقوس، ونتحدث عن سيرته في سهراتنا. لقد وحّدنا حديث الماء وحوّلنا إلى عائلة واحدة. ولكن صاحب البناية يغار من شارون، وينافسه في السادية. فحين تبتهج بيروت الغربية بالإفراج عن الماء، نكتفي نحن بدور التضامن، لأن هذه البهجة لا تشملنا ولأن الماء لا يصل إلينا. نحن آخر الأسرى يا أبا ربيع. اغفر لنا ذنوباً لم نرتكبها يا أبا ربيع. الدنيا حرب يا أبا ربيع. والعفو عند المقدرة يا أبا ربيع. وما من سميع وما من شفيع، إلى أن اضطررت إلى الاستعانة باللجان الشعبية المسلحة

التي أفرجت عن الماء بقوة، فنسينا الحرب ونسينا الحصار من فرط ما فرحنا بالماء..

لي .. ولمن اكتوى، مثلي، بجروح الماء، قدّم «ابن سيده» أسماء الماء ونعوته، هذا غيض من فيضها:

ماء. ماءة. مويه. أمواه. مياه. ماهة. بلال. رجع. أبيض. أسود. عتيق. عدّ. كَرَع. غَمْر. عُلْجوم. بَلاثِق. زَغْرُب. السعْبَر. الطيْس. الطيسل. الرَيْب. الجوار. الخِضْرَم. القَلَيْذَم. العُبام. الهُرْ. الهرهور. الهرهار. الهراهر. اليهمور. الزمزم. الزُمزوم. الزمزام. القاموس. الجُراجر. اليهيري. الضحضاح. الكوثر. الأهْيَغ. الجبجاب. الهُلاهل. الطرطبيس. البثق. الحائر. الحَفْل. الأزْيَب. الثَمَد. المشفوه. المضفوف. الرقراق. الرقّ. الفَراش. الطَسْل. الضَهْل. السَمَل. البرْضُ. النُطْفة. الرزَغ. الصُبّة. الشَوْل. الرَفَض. الخِبْط. الصُبابة. القصملة. الصلاصل. الضُلْضُل. الذُفاف. الذُفّ. الذُفف. القطرب. الزَرْجُون. المَزّة. المجّة. النُقْمة. النُغْبة. المُكْلَة. النُشْفة. الغُرْفة. القُرحة. الحُسْوة. المُزْعة. السؤر. الوَشَل. اللزب. الجحْقة. الهلال. الرشْفُ. الطمْلَة. الدعْث. الحَيْل. الطلح. النقَاخ. الزلال. الفُرات. الرُضاب. الفضيض. الشريب. الشروب. الهُجُهج. المُخْضم. الزُعاق. الذُعاق. النمير. المَسُوس. الباضع. الغريض. البُسر. الحنبريت. القراح.

وغيرها .. وغيرها.. وغيرها.

□ □ □

.. أهبط على الدرج الحجري الطويل وسط الزجاج المهشّم. لا أعرف إن كانت الطوابق السفلى قد أُصيبت. وأتساءل: ماذا أفعل لو انقضّت عليَّ جثة؟ كيف سأحملها ولمن أنقلها؟.. ماذا أفعل لو لم أجد أحداً أتحدث إليه، لمن أنقل كلامي ومن يشاطرني صمتي؟ سأُصفِّر لحناً.. مطلع أغاني بيروت المتفجرة من هذه الحرب. لم تكن بيروت للغناء، ولم يستخدم الشعر اللبناني اسم بيروت القابل للاستعمال في جميع بحور الشعر. اسم موسيقي ينساب بسلاسة في قصيدة النثر وفي القصيدة.. وماذا أفعل لو لم أجد قطة أُداعبها؟ ماذا سأفعل لو لم أجد ما أفعل؟

على الطابق الرابع باب مفتوح. صباح الخير يا أُستاذي. هكذا كنت أُخاطبه منذ عشر سنين. في الثمانين من العمر، وسيم، هادىء، كأنه قلب يمشي على قدمين. رحل عن منزله الكائن على خطوط التماس بعدما انهارت عليه جدرانه الثلاثة، وأقام في شقتي ستة شهور عندما كنت مختفياً في أوروبا، ثم أقام في شقة ابنته. كنت أزوره يومياً وأحمل عنه عبء الحرب، وأحمل له الكعكة والجريدة. كان شاعراً مجدداً، ولعله أول من كتب قصيدة النثر ثم توقف عن كتابة الشعر ليتفرغ، كلية، لمجلته الأدبية الشهرية. كان هو هيئة التحرير والإدارة والموزِّع والمصحِّح. لم تعادل شكواه من وحشية القصف غير شكواه من الماء وصاحب البناية. كان يأنس إليَّ وإلى أحفاده، ويتقبّل اضطهاد زوجته ذات الشخصية الطاغية بابتسامة اعتذار عن ذنب لم يرتكبه. وحين كان يصرخ من الألم العصبيّ الذي يسبّبه إلحاح الطائرات المغيرة:

كفى، ماذا تريدون منّا. نحن نعرف أنكم أقوى منّا. ونعرف أنكم تمتلكون طائرات أحدث، وأسلحة أشد فتكاً. ولكن ماذا تريدون منا.. كفى! كانت زوجته تزجره: دعهم.. وشأنهم.. عايزين يضربوا.. وأنت مالك ـ تقولها باللهجة المصرية الرادعة دون أن تخجل من وجودي: عايزين يضربوا الفلسطينيين. وكنت أمازحه لأقطع تيار الحرب المكهرب: حقاً، لماذا تعرقل عمل الطيارين؟ فيضحك، وهي لا تضحك. كانت في داخلها التربوي المعادي لما هو خارج طائفتها تحتفل بالخدمة المجانية التي يقدمها الإسرائيليون لبطل أحلامها الوحيد: بشير الجميل. كانت تعتقد أن هذه الحرب هي مجرد تطوع إسرائيلي لتنظيف لبنان من الغرباء والمسلمين. وحين ستنتهي بوصول بطل أحلامها إلى رئاسة الجمهورية، وبخروج الغرباء من لبنان، سيعود الإسرائيليون من حيث جاءوا دون أن يحصلوا على أيّ أجر. كان في وسعك أن تجادلها في سيرة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ورسائل بولس دون أن تنفعل. أما البشير، فتحيط اسمه بحزام التابو المقدّس. يا سيدة لبنان احفظيه لنا!.. ومع ذلك لم أكنّ لها العداء، بل الإحساس بالشفقة على ما قطعته من أشواط الوهم ورفض «الآخر». ولم أحمل لها الضغينة، بل حملت لها ما أجده لدى الباعة من خبز وعنب. فأمام مثل هذا الانغلاق الصلب والتشكُّل النهائي تتوقف محاولات الإقناع. وعبثاً حاول الأستاذ، ذو الماضي العلماني، أن يقنعها بأن الإسرائيليين لا يحبون لبنان ولا يدافعون عن لبنان، وأن صاروخاً واحداً من طائراتهم سيحولنا،

نحن الموارنة والمسلمين الجالسين في هذه الشقة، إلى كَفْتة! وهي، هي المحصنة بيقينها النهائيّ، تحبُّ المناقشة العقيمة. ويسألني الأستاذ رأيي ليساعدني عليها، فأتجنب الاستفزاز وما قد تغدقه عليَّ من باطن، قائلاً: ليست تلك مشكلتي، فتحرك الماء الراكد: إذن، ما هي مشكلتك؟

أُناور قائلاً: مشكلتي هي أن أعرف ما هي مشكلتي. وفي المناسبة، هل أفرج صاحب البناية عن الماء؟

تقول: لا تتهرب مما نحن فيه. أنت تعرف أن لا مشكلة بين الموارنة واليهود.

أقول: لا أعرف ذلك.

تقول: أنت تعرف أننا حلفاء.

أقول: لا أعرف.

تقول: إذن، ماذا تعرف؟

أقول: أعرف أن للماء لوناً وطعماً ورائحة.

تقول: لماذا لا تذهبون إلى بلادكم وتنتهي المشكلة؟

أقول: هكذا. ببساطة. نعود إلى بلادنا. وتنتهي المشكلة؟

تقول: نعم.

أقول: ألا تعرفين أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى بلادنا؟

تقول: إذن حاربوهم.

أقول: ها نحن نحاربهم. ألسنا في حالة حرب؟

تقول: أنتم تحاربون لتبقوا هنا، ولا تحاربون لتعودوا.

أقول: كي نعود إلى هناك. لا بد من أن نكون في مكان ما، فالعائد ــ إن عاد ــ لا يعود من عدم.

تقول: لماذا لا تقيمون في البلاد العربية وتحاربون منها؟

أقول: قالوا لنا ما تقولينه الآن لنا. طردونا. وها نحن نقاتل هنا مع اللبنانيين دفاعاً عن بيروت، ودفاعاً عن وجودنا.

تقول: حربكم بلا هدف ولا توصل إلى نتيجة.

أقول: ربما لن توصل إلى نتيجة. ولكن هدفها هو الدفاع عن النفس.

تقول: عليكم أن تخرجوا من هنا.

أقول: لقد وافقنا على الخروج. سنخرج. وها هم يمنعوننا من الخروج. ولكن، ألا يعنيك إلى أين سنخرج؟

تقول: لا يعنيني.

وارتفع من الراديو صوت فيروز: بحبك يا لبنان. ارتفع من إذاعتين متحاربتين.

قلت: ألا تحبين هذه الأغنية؟

قالت: أُحبها. وأنت؟

قلت: أُحبها كثيراً، وتوجعني.

قالت: بأي حق تُحبّها؟ ألا ترى إلى أيّ حد تماديتم.

قلت: إنها أغنية جميلة.. ولبنان جميل. وهذا كل ما في الأمر.

قالت: عليك أن تحبّ القدس.

قلت: أُحبّ القدس. والإسرائيليون يحبون القدس ويغنون لها. وأنت تحبين القدس.. وفيروز تغني للقدس.. وريكاردوس أحب القدس.. و..

قالت: لا. أنا لا أُحبُّ القدس.

□ □ □

الشارع. الساعة السابعة. الأفق بيضة ضخمة من فولاذ. لمن أقدم صمتي البريء. صار الشارع أعرض. أمشي على مهل. وأمشي على مهل.. وأمشي على مهل كي لا تخطئني طائرة. يفتح العدم أشداقه ولا يبتلعني. أسير بلا هدف كأنني أتعرف على هذه الشوارع للمرة الأولى، وكأنني أسير عليها للمرة الأخيرة. وداع من طرف واحد. أنا المُشَيِّعُ والمُشيَّعُ. لو قطة.. لو أجد قطة. لا حزن. لا فرح. لا بداية. لا نهاية. لا غضب. لا رضا. لا ذكرى. لا حلم. لا ماض. لا غد. لا صوت. لا صمت. لا حرب. لا سلام. لا حياة. لا موت. لا نعم. لا لا. تزوّج الموجُ طحلبَ الصخرة على شاطىء بعيد وخرجتُ، للتو، من هذا الزواج الذي دام مليون سنة. خرجت للتو فلم أعرف أين أنا. لم أعرف مَنْ أنا. لم أعرف ما اسمي، ولا اسم هذا المكان. لم

أعرف أن في وسعي أن أمتشق ضلعاً من ضلوعي لأجد فيه حواراً لهذا السكون المطلق. ما اسمي، مَنْ سيُسمّيني: آدم!.

□ □ □

«... ثم إن الله خلق، بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، سحاباً رقيقاً هو الغمام الذي قال فيه النبيّ (ﷺ)، وقد سأله أبو رزين العقيلي: أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق الخلق؟

فقال: في غمامٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خَلقَ عرشه على الماء.

قلت: هذا فيه نظر، لأنه قد تقدم أن أوَّل ما خلق الله تعالى القلم وقال له: اكتب... فجرى في تلك الساعة، ثم ذُكر أن الله خلق بعد القلم، وبعد أن جرى بما هو كائن، سحاباً، ومن المعلوم أن الكتابة لا بُدّ فيها من آلة يُكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يُكتب فيه، وهو اللوح المحفوظ. فكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانياً للقلم، والله أعلم.. ويحتمل أن يكون تُرك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة.

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام، فروى الضحّاك عن ابن مزاحم عن ابن عبّاس: أوّلُ ما خلق اللهُ العرش، فاستوى عليه. وقال آخرون: خلق الله الماءَ قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء.

وقيل: إن الذي خلق الله تعالى بعد القلم الكرسيّ، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

قال: وقول من قال: إن الماء خلق قبل العرش أولى بالصواب لحديث أبي رزين عن النبي (ﷺ)، وقد قيل: إن الماء كان على متن الريح حين خُلق العرش، قاله سعيد بن جبير عن أبي عباس، فإن كان كذلك، فقد خُلقا قبل العرش.

وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل أن يخلق شيئاً بألف عام.

واختلفوا أيضاً في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق السموات والأرض. وقال عبد الله بن سلام، وكعب، والضحّاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد. وقال محمد بن إسحاق: ابتداء الخلق يوم السبت.. وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضاً فيما خلق كُلّ يوم، فقال عبد الله بن سلام، إن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يومي الخميس والجمعة، ففرغ آخر ساعة من الجمعة، فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه: إن الله تعالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت.

وروى السريُّ عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عبّاس، وعن مُرّة الهمذاني وعن ابن مسعود: إن الله عزَّ وجلّ كان عرشه

على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، فَتَقَها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره تعالى القرآن في قوله: ﴿ن والقلم﴾. والحوت في الماء. والماء على ظهر صفاة، والصَفَاةُ على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرةُ في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لُقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرضُ، فأرسى عليها الجبال فقرّت.

قال ابن عباس والضحّاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كُلُّ يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

.. واختلف العلماء في الليل والنهار، أيُّهما خُلِق قبل صاحبه، بعضهم يقول: «إن الليل خلق قبل النهار. وقال آخرون: كان النهار قبل الليل، واستدلوا بأن الله تعالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء له كل شيء خلقه حتى خلق الليل. قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه. وقال عبيد بن عمير الحارثي: كنتُ عند علي فسأله ابن الكوّاء عن السواد الذي في القمر فقال: ذلك آيةٌ محيت. وروى أبو جعفر حديثاً طويلاً عن ابن عباس عن النبي(ﷺ)، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكلِّ عجلة ثلاث مائة وستون عُروة، يجرها بعددها من

الملائكة، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليتهما من الكسوف...».

ابن الأثير [«الكامل في التاريخ»]

□□□

.. أسير وسط الشارع تماماً، ولا يهمني أن أعرف إلى أين أنا سائر، وكأنني في سرنمة. لا أَخرج من شيء ولا أدخل في شيء. ولكن هدير هواجسي المتلاطمة يعلو على هدير طائرات لا أكترث بها..

لم نفهم لبنان. لم نفهم لبنان أبداً. ولن نفهم لبنان. لن نفهم لبنان إلى الأبد..

لم نر من لبنان غير صورتنا على وجه الحجر المصقول، مُخيّلة تُعيد خلق العالم على شاكلتها، لا لأنها واهمة بل لأنها في حاجة إلى أن تضع للخيال موطىء قدم . شيء من صناعة الفيديو: نكتب القصة، والسيناريو والحوار والمنتج والمخرج، ونوزِّع الأدوار دون أن ننتبه إلى أننا نحن الموزعون في أدوار. وحين نرى إلى وجوهنا ودمنا على الشاشة، نصفِّق للصورة ناسين أنها من صناعتنا. وما إن يتحول الإنتاج إلى إعادة إنتاج حتى نُصَدِّق أن «الآخر» هو الذي يشير إلينا.

هل كان في مقدورنا أن نرى بشكل آخر غير ما يُسَهِّل علينا تأليب الواقع على ماديته؟ بنيتُنا التحتية هي المعنويات. ماركس

واقفاً على رأسه، معيداً هيغل للوقوف على قدميه بأدوات ميكافيللي الذي أسلم على باب خيمة من خيام صلاح الدين.

أَلأَنّ لبنان هو هكذا، يستعصي على الدراسة والإدراك؟ أم لأننا لا نملك من أدوات معرفة لبنان غير هذه الطريقة في التوفيق؟

لا أتورّط بمحاولة الإجابة، بقدر ما أزجُّ نفسي في حيرة: لا أحد يفهم لبنان، لا أصحابه المجازيون، ولا صُناعه، لا مُدمِّروه ولا بُناتُهُ، لا حُلفاؤه ولا أصدقاؤه، لا الداخلون ولا الخارجون، ألأنَّ الواقع المفكَّك لا يُدْرَك، أم لأن الوعي المفكِّك لا يُدْرِك...؟.

ولا أُريد جواباً صحيحاً، بقدر ما أُريد سؤالاً صحيحاً.

لم نر من لبنان غير اللغة التي تُشيع فينا غريزة الوجود، وعلاقة قربى رفعها إلى مستوى الخطاب القومي ذلك المصريُّ الكبير عبد الناصر الذي خاطب في سكان القارة المتحولة إلى فسيفساء حاسّة الغياب المرهفة، وسمّى من النهر ضفافاً تُخفي ما في النهر من وحل، وطوائف، وقبائل كانت تجدِّد حياتها، في هدوء الظلام، خلف دويِّ الخطاب.. إلى أن انكسر الخطاب فتقدمت بخطابها شبه المشترك.

فيديو ..

أن نرى ما تريحنا رؤيته، في لحظة يتحول فيها شرط حياتنا إلى هذه الرؤية، المنحدرة من الخطاب الكبير، في محاولة لتحويلها إلى وعدٍ تراجع عن الوعي، فصار ممثلو الأغلبية أقلية محاصرة.

فيديو ..

لأن الزمن ليس زمن أنبياء تتحول فيه العزلة إلى بوصلة صواب، والأقلية المترسبة من مشروع الأكثرية ــ إلى هداية.

فيديو ..

لأن حزيران المصنوع ليكون نهاية الفكرة العربية لا تحيله الأنظمة، المشاركة في صناعته، إلى انتقام الشارع ليكون بداية البديل، بل لامتصاص ما ينبغي امتصاصه من غضب لا يرد، تجري أثناءه الأنظمة عملية تثبيت انعطافها نحو سيادة الفكرة الإقليمية، والفكرة الطائفية.

فيديو ..

لأن ماركيز صيدا الذي ينتظر إذن البابا بوضع أُخته تحت مسلم، وإلّا فبنت أُخته، لا يصلح حليفاً حقيقياً ضد الإنكليز الذين يحاصرون عكا..

وفيديو ..

لأن سقوط المركز بالتوقيع على معاهدة تضمن نهاية الحروب، يأذن بهجوم الأطراف على مركز الموضوع، ونقله من موضوع دعوة إلى موضوع انشقاق وفتنة.

وفيديو ..

لأن اقتسام الساحل والجبل بين العرب والإفرنج، في هذه الشروط المعاصرة لا يرمي إلى ضمان احتفاظ العرب بما تبقّى لهم من

قلاع ومدى، لمواصلة الصراع، بل يرمي إلى منح العدو هدنة توفر له إمكانية تأسيس نماذجه الكفيلة بانتقاله من استثناء إلى قاعدة.

فيديو ..

لأن هذا الضلع من الجزيرة، الضلع المكسور، مطلوب للمحاكمة بتهمة الاعتداء على راحة العروش بترويج كلمات ممنوعة التداول في الأطراف العربية: امرأة، معارضة، كتاب، أحزاب، برلمان، حرية، خنزير، ديموقراطية، شيوعية، علمانية.

وفيديو ..

لأن فلسطين تتطور من وطن إلى شعار ليس للتطبيق، بل للتعليق على الأحداث، ولتزويق خطاب الانقلاب، وحلّ الأحزاب، ومنع زراعة القمح، واستبدال الكدح بالربح السريع، وإلى تطوير صناعة الانقلاب، الثقيلة منها والخفيفة، إلى أن يُعْقَد القِران على آخر حفيدات الخليفة.

وعلى الحدود، تُعلن الحرب على الحدود.

لذلك، كان علينا أن نرى من لبنان ما رأيناه من صناعة الأمل، وجه البطولة الساطع المتفجر من المدافعين عن يأسهم العظيم أمام أمل الصَدَفة المنغلقة ومن هجوم بحر الصحراء على جزيرة الروح الصغيرة. أسماء الأمكنة تضيق وتضيق وتنكمش. من الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج إلى ما هو أضيق: شرم الشيخ، جبل الشيخ، الضفة الغربية لنهر الأردن، مدرسة البنات في نابلس، حارة السجعية في غزة، غاليري سمعان، شارع أسعد الأسعد في

بيروت، فندق طابا في سيناء، بئر العبد هنا، مخيم شاتيلا، مستديرة المطار، إلى متراس أخير تكون بعده الصحراء أو البحر...

□□□

لتتقدّسْ أيديكم، أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير..

لتتقدّسْ أيديكم الرافعة، وحدها، جبالاً من أنقاض الفكرة اليتيمة.

وليتحول ظلكم المحروق إلى رماد عنقاء يجدِّدكم لتبنوا منه ومنكم مغارة لطفل يُولد.

ولتنبت أسماؤكم حبقاً وريحاناً على سهل يمتد من خطاكم، سهل لتهتدي حَبَّة القمح إلى ترابها المسروق؛

أيها المشرقون فينا أقماراً يعجنها دم سخيّ ينادي حُرّاس القلعة الهاربين إلى صفوف الأعداء، فلا يجيب سوى الصدى الساخر:

وحدكم!..

من آثار خُطاكم، الخطى التي لا تخطو إلّا تحت أو فوق، سنلُمُّ الجزر المتطايرة المتنافرة كما يلمُّ الشاعرُ البرق المتناثر من حوافر خيل على صُوّان.

ومن خيمة هي ما يسيل علينا من ريش الصقور سندلُّ القبائل على حدود أسمائها.

.. وحدكم!

فاحموا حدّ النشيد، كما تحمون، مما يثلم القلب في هذه البريّة الضيقة، الضيقة كمدى لا يطلُّ من النافذة..

.. وحدكم!

البحر من ورائكم، والبحر من أمامكم، والبحر عن يمينكم، والبحر عن يساركم، ولا يابسة إلّا هذه اليد الممسكة بحجر هو الأرض.

.. وحدكم

فارفعوا مائة مدينة أخرى على هذا الزناد، لتخرج المدن القديمة من اصطبلاتها ومن سلطة الجراد النابت في خيام الفراء الصحراوي..

دلّونا علينا لنفرغ ما فينا من حمولة جثث ليست لنا، ومن ثمر فاسد تدلّى من لغة ليست لنا، ولنتابع المشي على خطانا لا على خطى قيصر.. لصّ الهوية والطريق..

لم يبق لنا من موت إلّا موت الموت..

وحدكم،

تحمون سلامة هذا الساحل من اختلاط المعاني، فلا يكون التاريخ سلس المراس، ولا يكون المكان إرثاً يورث.

ولتتقدّس أيديكم أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير.

ــ وداعاً سيدي

ــ إلى أين؟

ــ إلى الجنون

ـ أيّ جنون؟

ـ أيّ جنون ... فقد صرتُ كلاماً..

□□□

.. مَسّني ما مسّني من حماسة. وواصل الفضاء المحتل، والبحر المحتل، وجبل الصنوبر المحتل قصف الهواجس الأولى وسيرة خروج آدم من الجنة، المتعدد في سيَر خروج لا تنتهي. لم يعد لي وطن، ولم يعد لي جسد. وواصل القصفُ قصف أناشيد المدائح وحوارات الموت المتحركة في دم كالضوء يحرق الأسئلة الباردة. عمَّ أبحث؟ عن امتلاء بالبارود، عن تخمة لغضب النفس. تدخل الصواريخ في مسام جلدي وتخرج سالمة. ما أقواها! ولا أُحسُّ بالجحيم التي يوزعها الهواء ما دمت أَتَنَفَّسُ الجحيم وأَتَصَبَّبُ جهنم. وأُريدُ أن أُنشد. نعم، أن أُنشد لهذا النهار المحروق. أُريد أن أُنشد. أُريد أن أجد لغة تحول اللغة إلى حديد للروح، إلى لغة مضادة لهذه الطائرات.. الحشرات الفضية اللامعة.. أُريد أن أُنشد. أُريد لغة تسندني وأسندها، وتشهدني وأشهدها على ما فينا من قوة الغلبة على هذه العُزلة الكونية، وأمشي..

.. أمشي لأراني ماشياً، ثابت الخطوة، حُرّاً حتى من نفسي. في منتصف الشارع، منتصف الشارع تماماً. تنبح عليَّ الوحوش الطائرة. تبصق نارها ولا أُبالي. لا أسمع إلّا وقع خطاي على الإسفلت المحفور. ولا أرى أحداً. عمَّ أبحث؟ لا شيء. لعلّ عناد التحدّي الذي يخفي خوف الوحدة، أو الخشية من الموت بين

الأنقاض هو ما يُمسك بخطاي ويضرب بها الشوارع النائمة. لم أر بيروت، من قبل في مثل هذا النوم الصباحي. ولأول مرة أرى الأرصفة، أرصفة واضحة. ولأول مرة أرى الشجر، شجراً واضحاً، بجذوع وأغصان وأوراق دائمة الخضرة. هل بيروت جميلة في حد ذاتها؟ كانت الحركة، والحوار، والزحام، وضوضاء التجارة تخفي هذه الملاحظة، وتحوّل بيروت من مدينة إلى مفهوم، ومعنى، ومصطلح، ودلالة. كانت تطبع الكتب، وتوزع الصحف، وتعقد الندوات والمؤتمرات لتعالج قضايا العالم ولا تنتبه إلى ذاتها. كانت مشغولة بمدّ لسان السخرية لما حولها من رمل وقمع. كانت ورشة حرية. وكانت جدرانها تحمل موسوعة العالم الحديث. وكانت مصنع ملصقات. وقد تكون هي أول مدينة في العالم طوّرت صناعة الملصقات إلى مستوى الجريدة اليومية. ولعل قدراتها التعبيرية المتشكلة من تنوع، وموت، وفوضى، وحرية، وغربة، وهجرة، وشعوب، قد امتلأت وفاضت عن جميع أشكال التعبير المعروفة، فوجدت في الملصق ما يستوعب فائض التعبير عن اليومي، حتى أصبح الملصق لفظة دارجة في القصائد والقصص ليشير إلى خصوصية. وجوه على الجدران، شهداء طازجون خارجون للتو من الحياة ومن المطبعة، موت يُعيد إنتاج موته. شهيد يزيح وجه شهيد آخر عن الحائط ويجلس مكانه إلى أن يزيحه شهيد جديد أو مطر. وشعارات تمحو شعارات، تتبدل، وترتب أولويات الحماسة والواجبات الأممية اليومية. كل ما يحدث في العالم يحدث هنا، انعكاساً تارة، ونموذجاً تارة، وقد يتشاجر

مثقفان في مقهى باريسي، فينقلب شجارهما الكلامي إلى اشتباك مُسَلَّح هنا. لأن على بيروت أن تتضامن أو تتزامن مع كل جديد، ومع كل قديم يتجدّد، ومع كل حركة جديدة ونظرية جديدة. سينما ثورات سريعة الدوران. فيديو للتطبيق المباشر. القائد الجديد أو النجم الجديد، في أي مجال، مرشح ليكون قائدها أو نجمها. تطفح جدرانها بالصور والكلمات، ويلهث المارّة وراء وعي يتبدّل. لذا، فإن أعمار النجوم والقادة قصيرة، لا لأن الجمهور هنا سريع الضجر، فالجمهور ليس هنا، بل لأن السباق يجري على النمط الأميركي ولو كانت أهدافه معادية لأميركا، فهنا مندوبون دائمون لأيّ وعي جديد، ولأية نغمة جديدة، ولأية طفرة جديدة، من الولاعة المتدلية من صدر فتاة الجينز دليلاً على الإفراط في اليسارية، إلى حجاب يغطي الوجه واليدين دليلاً على الأصالة، إلى تلقف كل إشارة تضع كارل ماركس في فهرست الاستشراق، دليلاً على هبوب ريح الشرق. هنا محطة تحويل كونية لكُلّ خروج عن السياق، وتعميمه إلى برنامج عمل لشعب مشغول بتأمين خبزه، ومائه، وبدفن قتلاه...

أمشي في شارع لا يمشي فيه أحد. أتذكّر أني مشيت، من قبل، في شارع لم يمشِ فيه أحد. وأتذكّر أن أحداً لم يكن معي قال لي:

ــ دَعْكَ من هذا الحوار، وتعال معي.

ــ إلى أين؟

ــ لترى هذا الرجل.

ــ ماذا يفعل هذا الرجل؟

ــ يذهب إلى بيته.

ــ ولكنه يمشي إلى الأمام ويعود إلى الوراء.

ــ تلك طريقته في المشي.

ــ إنه لا يمشي. إنه يتأرجح. إنه يرقص.

ــ راقبه جيداً. عُدّ خطواته..

واحدة، اثنتان، أربع، سبع، تسع إلى الأمام.. واحدة، اثنتان، ثلاث، سبع، ثمانٍ إلى الوراء..

ــ ماذا يعني ذلك؟

ــ إنه يمشي. في هذه الطريقة وحدها يعرف الطريق إلى البيت: عشر خطوات إلى الأمام وتسع خطوات إلى الوراء. أي أنه يتقدم خطوة.

ــ وإذا سرح ذهنه، وأخطأ في العدّ؟

ــ عندها لا يصل إلى بيته.

ــ هل تعني شيئاً؟

ــ لا أعني شيئاً...

□ □ □

.. قريباً من فندق «الكافالييه» نظرت إلى ساعتي. هل صحا

الشاعر (ي) من النوم؟ من يستطيع النوم تحت هذه القطعان من الطائرات؟ أثار فضولي أن أعرف كيف يقدر شاعر على الكتابة، كيف يجد لغة لهذه اللغة. و(ي) هو الشاعر صاحب القصيدة اليومية، المرئية، المتأنية، القادرة على التقاط تفاصيل دالّة على جوهر إنساني. هو الشاعر القادر على تحريك الفرح من الركام وعلى إيقاظ الدهش. وهو حين يكتب يغنيني عن الكتابة، لأنه يقول نيابة عنا ما نحسُّ بالرغبة في قوله. يملأني بشجن يوقظ صفاؤه فيّ مادة الفرح. وما دام هذا الشاعر يكتب فلن أجد دليلاً ملموساً على مأزق الشعر. وهو باختصار شاعري. التقيته أول مرة في بغداد. وسرعان ما حاول اغتيالي، لأنه يشرب ما تُيَسّره المائدة من كحول لا تتجانس إلّا للتشاكس، فهو لا يعترف بفروق الكحول. الكحول هي الكحول. ما الفرق: بيرة، ويسكي، نبيذ، عرق، جنّ، كُلُّها تُجنِّن. وحين كان يوصلني في آخر الليل بسيارته إلى فندق «بغداد»، كان يحاول دفع السيارة، بمن فيها، للسباحة في نهر دجلة لولا استغاثتنا الصاحية. قال ليهدىء من روعنا: لا تخافوا، فأنا الآن موظف في دائرة الري. صحنا: الري؟ قال: الريّ، نعم، الريّ. وأخيراً انتقل من دائرة الريّ في بغداد إلى دائرة الدم في بيروت. كُنّا نحيي أمسيات مشتركة في بيروت ودمشق، وفي صور منذ أسابيع، في إحدى قواعد المقاتلين. رأيته ليلة أمس قرب فندق بلازا. تعرّف عليَّ وسط الظلام الكحلي بواسطة مصباح يدوي، فصرخ بي: كيف تسير وحدك بلا حراسة. قال: لماذا تقف هنا؟ قلت: أنتظر سيارة أجرة لأذهب إلى غرفة العمليات.

□ □ □

أنتظر الشاعر في ردهة الفندق. ولكن، لماذا يطلع الحلزون في وجهي. حلزون طويل. حلزون لا يكفُّ عن استعراض رخاوته. يلعب على المقاعد والجدران. يدلق لعابه الأخضر على فتاة تعزف على البيانو. حلزون يبكي. حلزون يضحك. حلزون يسكر. يدخل الشاشة. يخرج من الشاشة. يعلّق بصره الزائغ على اللاشيء. حلزون لا ينظر. يتهاوى. يتمايل. يتأوه. يتنهد. يتخلّع. يتسكع. حلزون يسير على قدمين من مطاط يتأرجح. ولماذا يطلع الحلزون في وجهي هذا الصباح؟ اللهم احفظنا من بشاعة المنظر!

□ □ □

.. ينزل الشاعر من غرفته مُتّكئاً على جرادة..

أوف .. أهذه أيضاً. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان. نتعانق. أهزّ على كتفيه لأنفض عنه سموات النعاس. كيف حالك؟ متشائم. هذا يوم عجيب يا أخي. مش معقول يا أخي. لم يتوقف القصف ثانية واحدة. إنهم يحرثون المدينة. أين كنت؟ في شقتي. مجنون.. مجنون يا أخي كيف تنام هناك؟ غداً سأنام هنا.. ولكن أينقصنا أن يُسفر القصف عن حلزون وجرادة؟. ماذا تعني؟ لا أعني شيئاً. عشر خطوات إلى الأمام، وتسع إلى الوراء. النتيجة خطوة إلى الأمام. حسناً! هذا حسن..

حطت جرادة أُخرى، خائفة، على حضني. إرتَدَتْ عِفّة الخوف من الطائرات لتحتك بما يُحكّ. قلت لها مازحاً وناصحاً: هذا

يوم لا نهاية له. عندهم ألف طائرة تستطيع القيام بعشرة آلاف غارة، وإذا واصلتِ الرد على كل غارة بهذا الاحتكاك، فإني سأجف، سأَصير رجلاً مثموداً! والتفتُّ إلى الشاعر: قل لي: لماذا تندلع شهوات الفتيات في أَسوأ الحالات؟ أَهذا هو وقت الحب! ليس هذا وقت الحب. إنه وقت الشهوة الخاطفة. يتعاون جسدان عابران على صدّ موت عابر بموت آخر هو موت العَسَل.

جاء صديقنا الكبير «ف» ليساعدني على رفع الشاعر عن عبارة سقطت تحته: يا أخي مش معقول.

هذا مش معقول. يا أَخي هذا شيء غير معقول. اشتبك مع العبارة. خنقها. وتكوّم فوقها. ساعدني يا «ف» ساعدني على تخليص العبارة من تأتأة «ي». نضحك. كان علينا أن نضحك ونقهقه إلى حد أزعجنا معه فتاة البيانو. قلنا لها: ليس هذا وقت البيانو، ولا الضحك، ولا الشعر. هذا وقت الطائرات. وهذا وقت الحلزون.

هل تكتبان؟ سألنا «ف»..

«ي» يكتب يومياً.. وقرأ لنا إحدى لقطات الكاميرا الداخلية الحسّاسة التي لا يتخلى عنها.

وأنت؟ سألاني.

قلت: إني أختزن حتى الاختناق، وأُثير سخرية الزملاء القائلين: ما جدوى القصيدة.. ما جدواها بعدما تنتهي الحرب. ولكنني أَصرخ في لحظة لا يصل فيها الصراخ. ويبدو لي أن على اللغة ألا تزج

بنفسها في معركة أَصوات غير متكافئة. صوتك الخافت يا «ي» أَفضل.

ــ ولكن ماذا تكتب؟

قلت: أَتأتيء صرخة:

أشلاؤنا أسماؤنا.. لا.. لا مفَرَّ

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناعُ

لا إخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاعُ

لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراعُ

ولا الأَمام ولا الوراءُ

حاصر حصارك.. لا مَفَرَّ

سقطتْ ذراعك فالتقطها

واضربْ عدوّك.. لا مَفَرَّ

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي، فأنت الآن حُرٌّ

حُرٌّ

وحُرٌّ ..

قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرة
فاضرب بها. اضرب عدوك.. لا مَفَرُّ

أَشلاؤنا أَسماؤنا. أَسماؤنا أَشلاؤنا
حاصِرْ حصارك بالجنون
وبالجنون
وبالجنون
ذهب الذين تحبهم، ذهبوا
فإِمّا أن تكون
أَو لا تكون
سقط القناعُ عن القناع
سقط القناعُ، ولا أَحدْ
إِلّاكَ في هذا المدى المفتوح للأَعداء والنسيان
فاجعل كُلَّ متراس بَلَد
لا .. لا أَحد
سقط القناعُ
عرب أَطاعوا رُومهم
عرب وباعوا روحهم

عرب .. وضاعوا

سقط القناعُ

سقط القناعُ

.. سألنا «ف»: إِلى أَين ستخرجان؟

قال «ي»: إلى عدن..

ـــ وأَنت؟ سأَلني

قلت: لا أَعرف..

صمت. صمت من حديد. كنا ثلاثة، فصرنا واحداً في ما ينهار حولنا من عالم. كأننا نعتني بمواد قابلة للانكسار ونحن نستعدُّ لاستيعاب عملية انتقال الواقع، برمته، إلى ذكريات تتأَلّف على مرأًى منّا. ونحن نبتعد لنشهد صيرورتنا إلى ذكريات. نحن الذكريات. ابتداءً من هذه اللحظة سيتذكر بعضنا البعض كما نتذكر عالماً بعيداً تلاشى في زرقة صارت أَشدّ زرقةً مما كانت عليه. سنفترق في أَوج اللهفة. ونحن الثلاثة نعرف الحقيقة: سنخرج. ونعرف قسوة أَقسى لا يجرؤ أَحد على أَن يُرى وهو يراها: أن الناس معنا لأَننا خارجون.

قلت: لن أخرج، لأنني لا أعرف إلى أَين أخرج. ولأَنني لا أَعرف إِلى أَين أَخرج، فلن أَخرج.

وسأَلت «ف»: وأَنت؟

قال: أنا باقٍ. أَنا لبناني. وهذه بلادي. إِلى أَين أَذهب!

خجلت من سؤالي، ومن فرط ما صارت بيروت نشيدي... ونشيد مَنْ لا وطن له!... خجلت من شدّة التباس الفكرة.

□ □ □

«.. في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر. فاجتمعت إليه جموع كثيرة حتى أنه دخل السفينة وجلس. والجمع كُلُّه وقف على الشاطىء فكلمهم كثيراً بأَمثال قائلاً هو ذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق، فجاءت الطيور وأَكلته. وسقط آخر على الأَماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أَرض. ولكن لما أَشرقت الشمس احترق. وإذ لم يكن له أَصلٌ جفّ. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأَرض الجيدة فأَعطى ثمراً...

«... ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور صيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة إِرحمني يا سيّد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً. فلم يُجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إِليه قائلين اصرفها لأَنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال لم أُرسَل إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة. فأَتت وسجدت له قائلة يا سيّد أعنّي. فأَجاب وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب. فقالت نعم يا سيّد. والكلاب أَيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أَربابها.

حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها يا امرأَة عظيمٌ إيمانك. ليكن لك ما تريدين. فشُفيت ابنتها من تلك الساعة»

[إنجيل متّى]

□ □ □

.. وفي فندق الكومودور، معقل الصحافيين الأَجانب، يستجوبني كاتب صحافي أميركي: ماذا تكتب أيها الشاعر في الحرب؟

ــ أَكتب صمتي.

ــ هل تعني أن الكلام للمدافع؟

ــ نعم. صوتها أعلى من أي صوت.

ــ ماذا تفعل إِذن؟

ــ أَدعو إلى الصّمود.

ــ وهل ستنتصرون في هذه الحرب؟

ــ لا. المهم أَن نبقى. بقاؤنا انتصار.

ــ وماذا بعد ذلك؟

ــ سيبدأُ زمن جديد.

ــ ومتى تعود إلى كتابة الشعر؟

ــ حين تسكت المدافع قليلاً. حين أُفجر صمتي المليء بجميع هذه الأَصوات.

حين أَجد لغتي الملائمة.

ـ أَليس لك من دور؟

ـ لا. لا دور لي في الشعر الآن. دوري خارج القصيدة. دوري أن أَكون هنا، مع المواطنين، ومع المقاتلين.

.. لقد وجد بعض المثقفين وقت الحصار ملائماً لتصفية حساباتهم الصغيرة. فشرعوا أَقلامهم السّامة في صدور زملائهم. وعبثاً كنا نصرخ: ما لكم وهذه الصغائر. فليس أحد من الكتّاب هو الذي يحاصر بيروت. وليس تقصيرهم أو هروبهم هو الذي يهيل البنايات على سكانها. وفي أسوإ الأحوال ليست كتابتهم هذه أدباً. وليست مدافع فعّالة مضادة للطائرات في أفضل الأحوال. كلا ـ يقولون: هذا هو المحك الأول والأَخير لثورية الكاتب والشاعر. فإما أن تولد القصيدة الآن، وإما أن تحرم من حقّها في الولادة. وكنا نسخر: ولماذا أَذنتم لهوميروس أن يكتب الإلياذة والأُوديسة؟ ولماذا سمحتم لأسخيليوس ويوربيدوس وأرسطوفان وتولستوي وغيرهم؟ ليس ردُّ الفعل واحداً ـ أَيها الكتّاب ـ فمن يستطع الكتابة الآن فليكتب. ومن يستطع الكتابة بعد الآن فليكتب. وإذا أَذنتم لي بأن أُبدي رأيي ـ ودون اتهام ـ فسأعبر عن ظنّي بأن الجرحى والعطاشى والباحثين عن الماء والخبز والملجأ لا يطالبونكم بالغناء، والمقاتلين لا يكترثون بغنائكم. غنوا إذا شئتم، أو فاصمتوا إذا شئتم. فنحن هامشيون في الحرب. وفي وسعنا أن نقدم خدمات أُخرى للناس، فإن تنكة من الماء تساوي وادي عبقر. المطلوب منا الآن هو الفاعلية الإنسانية لا الجمالية

الإبداعية. فلْتُوقفوا عمليات الاغتيال: وماذا لو انهارت أعصاب الناقد وخرج من بيروت؟ وماذا لو عجز الكاتب المسرحي عن اجتياز الشارع من الخوف؟ وماذا لو أضاع الشاعر إيقاعه قليلاً؟ أَلأَنّ الناقد لم يُعْجَبْ برواياتكم وقصائدكم تضربون عليه الحصار وتقصفونه بالتشهير؟

لقد اعتادت الأوساط الأدبية العربية أن تطرح سؤال الشعر في سياق الحرب المندلعة، استجابةً للراسب الثقافي فينا الذي يربط صيحة الحرب بحماسة الشعر، باعتبار الشاعر معلقاً على الأحداث، حاضّاً على الجهاد، أو مراسلاً حربياً. في كل معركة يقولون: أين القصيدة؟ لقد اختلط مفهوم الشعر السياسي بمفهوم الحدث، معزولاً عن السياق التاريخي..

وفي هذه اللحظة المحددة، حيث تحرث الطائرات أَجسادنا، يطالب المثقفون المتحلقون حول جسد غائب بقصيدة تُعادل قوة الغارة أو تقلب موازين القوى على الأَقل. إذا لم تولد القصيدة «الآن» فمتى تولد؟ وإذا وُلدت فيما بعد، فما هي قيمتها «الآن». سؤال بسيط ومعقّد يحتاج إلى جواب مُركّب كأَن يتاح لنا القول إن القصيدة تُولد الآن: تولد في مكان ما، في لغة ما، في جسد ما، ولكنها لا تصل إلى الحنجرة والورق. سؤال بريء يحتاج إلى جواب بريء لولا أنه مليء ــ في هذه الجلسة ــ بالرغبة في اغتيال الشاعر الذي يجرؤ على الإعلان أنه يكتب صمته.

ومن المثير للمرارة أن ننتزع من زمن الغارات هذا الوقت للثرثرة، وللدفاع عن دور الشاعر الذي يستمد خاصيته من تاريخ كتابته

الشعر في علاقته بتطور الواقع، أمام لحظة يتوقف فيها كل شيء عن الكلام، لحظة تصوغ فيها الملحمة الشعبية تاريخها وإبداعها الجماعي. بيروت هي الكتابة الإبداعية المثيرة. شعراؤها الحقيقيون ومنشدوها هم مقاتلوها وناسها الذين لا يحتاجون إلى ترفيه وتشجيع على عودٍ مقطوع الأوتار. هم التأسيس الحقيقي لكتابة ستبحث طويلاً عن المعادل اللغوي لبطولتهم وحياتهم المدهشة. فكيف تستطيع الكتابة الجديدة، المحتاجة إلى كسل، أن تتبلور وتتشكّل في أوج معركة لها هذا الإيقاع الصاروخي؟ وكيف يستطيع الشعر التقليدي ــ وكُلّ الشعر تقليدي في هذه اللحظة ــ أن يصف هذا الشعر الجديد المختمر في بطن الزلزال؟ صبراً أيها المثقفون! فسؤال الحياة والموت المهيمن الآن، سؤال الإرادة التي تدفع بأسلحتها كُلّها في هذه الساحة، سؤال الوجود الذي يصوغ شكله المادي والأُلوهي، أهمُّ من السؤال الأخلاقي عن دور الشعر والشاعر. ومن اللائق أن نحترم الرهبة التي تنشرها هذه الساعات، ساعات انتقال الوجود الإنساني من ضفة إلى أُخرى، ومن طور إلى طور. من اللائق أن يعرف الشعر القديم كيف يصمت، في خشوع، أمام حضرة هذا المولود الجديد. وإذا كان من الضروري أن يتحول المثقفون أو بعضهم إلى قنّاصة، فليحاولوا قنص مفاهيمهم القديمة وأسئلتهم القديمة وأخلاقهم القديمة. نحن الآن لا نصف بقدر ما نوصف. نحن نولد تماماً أو نموت تماماً..

ولكن صديقنا الكبير، الباكستاني فايز أحمد فايز كان مشغولاً بسؤال آخر:

أَين الرسامون؟

قلت: أَيُّ رسامين يا فايز؟

قال: رَسّامو بيروت.

قلت: ماذا تريد منهم؟

قال: أن يرسموا هذه الحرب على جدران المدينة.

قلت: ماذا دهاك يا فايز؟ ألا ترى سقوط الجدران؟

□ □ □

.. لماذا أرى الطاووس، الطاووس العجوز، يدبُّ على عصا من عاج، مدججاً بمسدسين، مترعاً بالزهو، ثملاً بالهجاء، مفتوناً ببُصاق مُتَوّج؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، سارق الريش الملوّن، يرشوني بابتسامة حانقة، ويغمد خنجراً في نُخاعِي؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يرمي عليّ رائحة العرق والعرق، ويحاول أن يُقَبِّل حذائي، ليدس لي قبراً تحت الحذاء؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يشرئبُّ إلى المقعد والجدار، ليطلّ على قلبي ويسرق حزن الليمون، ويهربه إلى قبطان سفينة لا تصل، ظنّها سفينة نوح ولم تصل؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مزداناً بحذوة حصان قتيل ظنّها وسام الشرف؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مدججاً بمسدسين: واحدٍ لقتلي، وواحدٍ لقفاه الجَشِع؟

لماذا أرى الطاووس العجوز؟

لماذا أرى الطاووس؟

لماذا أرى؟

لماذا؟

□ □ □

احترق المكتب. قذيفة بحرية جعلته مخزناً للفحم. احترق قبل وصولنا بساعات. أين نجد مكاناً لنتابع الثرثرة: مهنتنا الخالدة في الحرب وفي الهدنة. الثرثرة. أين نتابعها: نخرج، أم لا نخرج؟ فقد حسب المثقفون المنصهرون في ورشة الصمود الرائعة انصهاراً مدهشاً أن هذا السؤال هو سؤالهم. وحسبوا أن لهم حق الفيتو على القرار السياسي. وكان بعضهم يعتقد أن نشرة «المعركة» هي التي ستحدِّد مصير المعركة. وقرروا أن هذا المنبر الشجاع هو الذي سيشهد للتاريخ أن المثقفين هم الذين يقودون انعطاف التاريخ. ما أجملهم! ما أجملهم!

ألسّاعة الحادية عشرة، وعشرين أَلف قذيفة، وثلاثين ثانية. خرجنا من المكتب المحترق إلى فضاء مشتعل. السماءُ تعانق الأَرض عناقاً دُخانياً. تتدلّى مثقلة بالرصاص المصهور، برماديّ داكن لا يفتح انغلاقه العدميّ سوى لون برتقالي تَبُولُهُ الطائرات الفضية المائلة

إلى بياض الوهج. طائرات رشيقة، خفيفة، تثب على هواء آمن كأن فيه أخاديد.

قال: «ز»: هيّا بنا. قلت: إلى أين؟ قال: نبحث عن أيّ شيء، عن غداء مثلاً. ما الحالة؟ زفت. شروط الخروج مذلّة، ونحن نناور، نحاول أن نشتري الوقت. بأي ثمن؟ بأي ثمن.. بمدافع مضادة للطائرات نفدت ذخيرتها، ببطولة شباب حيّروا العلم العسكري وحيّروا الجنون. إلى متى؟ إلى أن يحدث شيء ما لن يحدث. لم يحدث تغيير. ما زلنا وحدنا. هل سيدخلون بيروت؟ لن يدخلوا بيروت. سيتكبدون خسائر لا يتحملون نتائجها. ولكنهم يحاولون قضم أطراف المدينة. حاولوا عند المتحف وفشلوا. معنويات الشباب عالية، عالية جداً. إنهم شياطين. يائسون من النجدة. يائسون من تحرك العالم العربي. يائسون من التوازن الاستراتيجي، ولذلك يقاتلون بجنون. هل يبلغهم حديث الخروج؟ نعم، يبلغهم ولا يصدقون. يقولون: تلك مناورة، ويقاتلون. ويعرفون أن هذا الصمت الذي يتوِّج العالم يعطيهم منصّة الكلام. دمهم، وحده، هو الذي يتكلّم في هذا الزمن. وماذا سنكتب في «المعركة» أمام حديث المفاوضات والخروج؟ ندعو إلى القتال والصمود. ندعو إلى الصمود والقتال.

بيروت من الخارج: محاصرة بالدبابات الإسرائيلية وبالشلل العربي الرسمي. بيروت غارقة في الظلام والابتزاز. بيروت تعطش..

ولكن بيروت الداخل، بيروت من الداخل، تعد حقيقتها الأخرى،

تمتلك إرادتها. وترفع بنادقها لتحافظ على إشراق معانيها: عاصمة الأَمل العربي..

بشعار «إنقاذ» بيروت الجهنمي، السلس، القاتل كالسم الناعم، يُراد لهذا الأَمل أن ينتحر في مسادة عربية منقولة عن الذاهبين إلى انتحارهم في أوج انتصارهم. والشرط الوحيد الذي يضعه مبتكرو لفظة «الإنقاذ» هو: الاستسلام. استسلام تاريخ من المعاني المسقيّة بالدم. استسلام كامل الغضب. استسلام كل السلاح. استسلام بلا تكاليف.

ولكن، هل يعرف خبراء صناعة الابتزاز ما معنى هذا اليأس، ما نتائج هذا اليأس؟ لا نقول ابتزازاً مضاداً، ولا نُهدِّد بسقوط الهيكل علينا وعلى أعدائنا وعلى حلفائنا. ولكننا نُشهر حريتنا الوحيدة وشرطنا الوحيد على مائدة المفاوضات: أن نقاتل.

بيروت ليست رهينة. ونحن فيها خلف متاريسنا لا نرهن حياتنا لغير المستقبل، ولتجدد دورة الدم في عروق الأَجيال كُلّها. إذ لا خيار لنا إلّا الاحتفاظ بشرط حياتنا الحاضر: السلاح. السلاح الذي يعني تجريدنا منه تجريدنا من أداة الوجود، ومن حماية شعلة أوقدناها بغابة من أشجار دمائنا، ومن الاستمرار في إيقاظ القارة العربية النائمة تحت قمع الأَنظمة.

إن صمودنا في قلعة بيروت، غير القابلة للتدمير، هو الأَداة الوحيدة لتحريك العملاق العربي المتمدِّد ما بين شاطىء محيطين.

وهو الأُفق الوحيد المطلّ من فوهة بندقية ومن ثقب جزمة مقاتل، ومن جرح يضيء في هذا العصر الأسود.

هكذا.. هكذا نفك الحصار عن بيروت، وعن غضب الملايين..

وهكذا تكون صورة بيروت من الداخل نقيض صورة بيروت من الخارج..

.. وهكذا كنا نكتب، فماذا نكتب الآن؟

قال «ز» بلا تردد: الكلام إياه. وما هو رأي الناس، أهل بيروت؟ قال: الصمود. قلت: مع الصمود حتى الخروج.. هل نستطيع أن نتجاهل ذلك؟ قال: لا نستطيع أن نتجاهل ذلك، ولكن ما العمل؟ ما العمل؟

□ □ □

صوت يشذ عن الأصوات المألوفة، لا لأَنه أقوى، بل لأَنه مختلف وبعيد. صوت يسرق المكان ويهرول. صوت يقصُّ الفضاء ويُحدث تجويفاً في الضوء.

هيا بنا.. لم نعبر طريق الروشة منذ أيام. شارع عريض مهجور يتوسع من غياب الخطى، كأنه ملكية خاصة للبحر. بنايات تدخن. نار تهبط من أعلى إلى أسفل. حريق مقلوب. نوافذ تشيخ وتتساقط على مهل. وتصل إلينا استغاثات الطوابق العليا واضحة جارحة. ناس تحاصرهم النار والانهيارات التدريجية الخارجة من هول الصدمة الأولى. رجال الإِسعاف المدني كانوا

هناك، يحاولون إنقاذ اللحم البشري المعجون بالحديد والأسمنت والزجاج.

لا أستطيع أن أشيح بوجهي عن مشهد المكان المجروح. للدم على الأرض وعلى الجدران جاذبيّةُ الوحشية. لا أستطيع أن أنصرف ولا أستطيع أن أخمد إحساس العجز. الزحام شديد. يدعونا رجال الدفاع المدني إلى الانصراف لأننا نعرقل مهمتهم، ولأن الطائرات ستعود لتقصف هذا الحشد الشهيّ. بلّل وجهي ماء ساخن يبعثه احتقان الغيظ. شدّني صاحبي من ذراعي: هيا بنا، هيا بنا.

أغاروا من جديد. من جديد أغاروا. ما هذا اليوم؟ هل هو أطول يوم في التاريخ؟ نظرت إلى البناية المقابلة، نظرتُ إلى مكتبي الصغير نظرة وداع أخير.

□ □ □

موجة من بحر، كنتُ أتابعها من هذه الشرفة، وهي تنكسر على صخرة الروشة الشهيرة بانتحار العُشّاق..

موجة من بحر تحملُ بعض الرسائل الأَخيرة، وتعود إلى الشمال الغربي الأزرق، والجنوب الغربي اللازوردي، ترجع إلى شواطئها وقد طرّزت انكساراتها بالقطن الأبيض..

موجة من بحر، أعرفها، ألاحقها بالشجن، وأراها وهي تتعب قبل بلوغ حيفا، أو الأندلس. تتعب فترتاح على شواطىء جزيرة قبرص.

موجة من بحر، لن تكون أنا. وأنا، لن أكون موجةً من بحر..

□ □ □

كم أحببتُ هذا المكان، المهدّد منذ البداية. ماذا نُهديك؟ نباتات وورد. زهور ونباتات. حوّلتُهُ إلى ما يُشبه العش. أردتُ له أن يكون نصاً من نُصوص المجلة. حروف بُنيّة مطبوعة على ورق أصفر ويُطلُّ على بحر. أردتُ له أن يكون مزهرية ثابتة على صهوة جواد جامح. أردتُ له شبهاً بالقصيدة. ولكن، لا نكاد نُعلِّق لوحة حتى تنفجر سيارة مُفخَّخة تحت، وتطيح كل ترتيب. وما كدت أسند رأسي إلى مرفق يدي اليُسرى، في انتظار فنجان القهوة، حتى وجدت نفسي خارج المكتب. لقد رفعني دويُّ الانفجار، كما أنا بقلم الحبر والسيجارة، ووضعني سالماً أمام المصعد. وجدتُ وردة على قميصي. وبعد دقيقة حاولتُ العودة إلى المكتب الذي اختفى بابه وتحوَّل إلى ساحة من زجاج مكسور وورق متطاير، فتصدّى لي الانفجار الثاني ليبقيني متجمداً قرب المصعد. ردّ الحارس الفتى على الانفجار بطلقات من مسدسه. ماذا تفعل؟ قلت: قال: أطلق النار. قلت: على مَ تطلق النار وفي أي اتجاه؟ لعلّ أحداً لم يسأله هذا السؤال من قبل، لذلك استهجنه، فهكذا يحدث دائماً. رد الفعل الفوري، التلقائي، وربما الغريزي، على أي حدث أو إحساس عنيف أو خبر أو إصابة كروية هو: إطلاق النار. مجزرة جديدة على الروشة: عشرون قتيلاً آخر من هذه الحُمَّى الجديدة: حُمَّى السيارات المفخخة التي أتقن «الموساد» صناعتها مع عملائه المحليين. لقد مهدت هذه

السيارات لعملية الغزو، مهدت الأرض النفسية لتحويل هذا الحصار إلى حادث طبيعي. أحصنة طروادة معاصرة تصهل في الوعي: لا أمن ولا أمان في بيروت الغربية. وكل سيارة واقفة على رصيف هي وعد بالموت.. فليدخل البرابرة!

□ □ □

موجة من بحر في يدي. تتسرب وتفلت. تناور حول صخرة صدري، ثم تقترب، ترتخي، وتستسلم. تستعين، لئلا تعود إلى طبيعتها، بشَعْر الصدر. حرٌّ ورطوبة. موجة كالقطة تقضم تُفَّاحة. ثم تقبلني بطيش العابث: يحق لي أن أحبك. يحق لك أن تحبني. ليس الحب حقاً، يا قطة، وأنا الآن في تمام الأربعين.. تنزوي في ركن: وأنا نصفُ قَمَرٍ أُنثوي يتبع ذكراً. حرّ ورطوبة. ولكن الجسد الصغير مُكَيَّف: دافىء في الشتاء. طريٌّ في الصيف. جسد طازج كشاطىء بحر جديد لم تلمس الحيوانات الصغيرة طحلبه بعد. ينزلق ويبتعد. يحترق ويقترب. وتفصلني عنه رائحةُ حليب. لم لا نُعلِّق آب على كرسي؟ لم لا نسبح في بياض النوم؟ وتغطي عينين لامعتين ليلاً. لأنك صغيرة. تزأر: لستُ صغيرة. أنا نصف قمر أنثوي يتبع ذكراً. يتبع رائحة الهال. ألا تحقُ لي السباحة؟ ولكن، ليس هذا البياض بحراً، تغضب وتقضم تفاحةُ وأظافر يدها. أجمع الشفتين بأصبعي لتكبرا قليلاً.. لتصيرا قبلة. ها أنت تحبني. اعترف بأنك تحبني. قل لي إنك تحبني. فلماذا لا تشرب ملحي؟ لأَن العطش يكسر أناقة روحي. تغضب وتعود إلى الركن، تقرفص في الركن: لا أريد الشِعْر.. لا

أحب الشِعْر.. أريد الجسد.. أريد قطعة جسد.. جبان! جبان! من أجلِك لا من أجلي. ما شأنك أنتَ بما هو لي. أنا حرة في ما أملك. تقف. تقترب. يخشوشن مُواؤها: أعطني شيئاً ألعب به، أعطني لعبة.. أي لعبة.. قطاً صغيراً مُتَوتراً مشدوداً أمرر عليه يدي برفق إلى أن يسيل لُعَابُهُ على صدري...

كانت الموجة توشك على الغرق، لولا انفجار عنيف هزّ صخور البحر، فطارت الموجة إلى الطريق.. وطرتُ إلى السرير.

□ □ □

.. منذ ساعة، لم أتبادل الكلام مع صاحبي «ز». يقود سيارته بلا هدف: أين أنت؟ سأل كلانا الآخر. قلت: أنا أعرف أين كنت. قل الحقيقة، أما كنت هناك تفعل أمراً إدّاً مع زوجة الطيار؟ اندهش: كيف عرفت؟ قلت: لأنني عائد من أمر مشابه. لهذا عرفتُ إلى أين يأخذنا الموت..

قال: آن لنا أن نأكل. قلت: السردين مرة أخرى؟ قال: أي شيء. لم يكن هذا الـ «أي شيء» أيّ شيء. فجأة أوقف سيارته وصاح: خروف مذبوح. كنا في أول شارع الكومودور القادم من الروشة. عرفنا البائع. لم يكن جزاراً. كان صانع جنازات. يلتصق بأي قائد في أية جنازة ليظهر في المشهد والصورة. قلت: كم في ظاهرتنا من مفارقات. ومن حسن حظي أني لستُ كاتباً مسرحياً لئلا أكتب عن الجانب الآخر للصورة. هل تعرف أن عين الكاتب سلبية، كما أن أذن القائد سلبية. تفتنها المفارقة الجارحة هنا

والنميمة هناك. لقد شاعت النميمة في حياتنا بشكل مُدَمر. وكانت مصاحبة لظاهرة التضخم الذاتي، لتمدُّد الجسد وانكماش قلق السؤال. فُتحت مكاتب بأكملها، مكيفة الهواء، صالونات للنميمة وبثّ الشائعات. وازدهرت تجارة الشهداء عند بعض التنظيمات الصغيرة: ما زلنا في حاجة إلى عشرين شهيداً لنملأ القائمة! وصراع مسلح على شهيد مجهول التنظيم. وإعدام مقاتل رفض إطلاق الرصاص على صديق له ينتمي إلى تنظيم آخر، فألقوا بجثته في بئر مهجورة إلى أن عثرت عليها العرّافة. و..

قاطعني «ز»: سأريك الليلة لعبة الكاميرا والظل..

قلت: لا أريد.

قال: أين سنأكل. نحتاج إلى فحم وإلى بناية شبه آمنة. دهشنا حين رأينا السماء زرقاء صافية لا تعكرها أية طائرة. منذ دقيقة لم تمر الطائرات. هل تعبوا؟

امتلأت الشقة الآمنة في البناية، شبه الآمنة، في ساقية الجنزير بالأصدقاء الجياع. خرج الناس من الملاجىء. لا طائرات.. لا طائرات. قال أحدهم: أين كُتُبُ باختين؟ رد آخر: لقد حملها الناقد ــ وهو ساكن الشقة ــ ورحل. حاول البعض أن يُشَهِّر. قال آخر: كفى، فنحن في حاجة إلى فلسطيني حي، يهتم بالماركسية وعلم اللغة. عدّوا ذلك فاتحة نميمة وتأهبوا، لكن عاصفةً من الطائرات هبّتْ علينا لتنقذ الناقد الغائب وترمينا إلى الشارع.

.. وهذا الصوت لا نعرفه من قبل. خفيض، بعيد، عميق، سريّ، كأنه صاعد من جوف الأرض، كأنه صوت القيامة المهيب. شعرنا جميعاً ــ وقد صرنا خبراء في علم الأصوات القاتلة ــ بأن شيئاً غير عادي، في هذه الحرب غير العادية، قد حدث. وبأن سلاحاً جديداً قد جُرِّب. متى ينتهي هذا اليوم الطويل؟ متى ينتهي لنعرف إن كنا أحياء أم موتى!

قال الحامل فخذ الخروف: ماذا نفعل بفخذ الخروف؟ تجاهلنا سؤاله الجشع. لكنه ألحَّ بالسؤال السخيف، ونحن مشغولون بالعثور على ما يَلُمُّ أشلاءنا.. ألحّ حتى قلت له: خذ هذه اللحمة إلى أقرب ملجأ، اثقبها. وانكحها. وخلِّصنا منها ومنك!

ولكن ذلك الصوت البعيد حرَّك فينا قلق الغابات الأولى السحيقة. مشيت أنا و«ز» وراء مخاوفنا. كانت «حديقة الصنايع» تشهد أحد مظاهر يوم الحشر. مئات الخائفين يحيطون بتابوت حجري ضخم. الوجوم يحمل ثقل المعادن تحت شمس محجبة بجميع ألوان الرماد. نندس بين الحشود لنجد مكاناً للتطلع خلف الأكتاف المتزاحمة، خلف السياج البشري المشدود على خوف وغضب، فنرى:

بناية ابتلعها قاع الأرض.

اختطفتها أيدي الوحش الكوني المتربِّص بالعالم الذي ينشئه الإنسان على أرض لا تطل إلّا على شمس وقمر وهاوية.. ليوقعه في حفرة لا قاع لها، حفرة ندرك على حافتها أننا لم نتعلّم

المشي، والقراءة، واستعمال اليد، إلّا لنصل إلى نهاية ننساها، ننساها لنتابع البحث عن مُبرِّر لهذه الملهاة، لنكسر خيط العلاقة بين البداية والنهاية، لنتوهم أننا استثناء الحقيقة الوحيدة.

ما اسم هذا الشيء؟

قنبلة فراغية، تحفر ما تحت الهدف فراغاً هائلاً يُجرِّد الهدف من قاعدة يجلس عليها، فيمتصه الفراغ ويحوله إلى مقبرة مدفونة، بلا تعديل ولا تغيير. وهناك، تحت، في الحيِّز الجديد، يواصل الشكل الاحتفاظ بشكله. ويواصل سكان البناية الاحتفاظ بهيئاتهم السابقة، وبآخر أشكال حركتهم المختنقة. هناك، تحت، تحت ما كان تحتهم قبل ثانية، يتحولون إلى منحوتات من لحم، ولكن لا حياة فيه حتى للوداع. فمن كان نائماً يظل نائماً. ومن كان يحمل طبق القهوة يظل حاملاً طبق القهوة. ومن كان يفتح النافذة ظل يفتح النافذة. ومن كان يرضع من ثدي أمه ظل يرضع من ثدي أمه. ومن كان نائماً على زوجته ظل نائماً على زوجته.. ولكن الذي كان واقفاً على سطح البناية، بالمصادفة، استطاع أن ينفض الغبار عن ثيابه وأن يهبط إلى الشارع، من غير حاجة إلى استعمال المصعد، فقد سُوِّيت البناية بمستوى سطح الأرض. لذلك بقيت العصافير، حيةً، في أقفاصها الجالسة على السطح.

لماذا فعلوا ذلك؟ القائد كان هنا... وغادر منذ قليل. هل غادر حقاً؟ لقد نقله سؤالنا الخائف من أب إلى ابن. ولم نجد وقتاً لمحاكمة السؤال: وماذا لو كان هنا، فهل يُبرِّر ذلك لهم إبادة مائة

إنسان؟ كان سؤال آخر يشغلنا: هل نجا من محاولة اغتياله بالطائرات وبأحدث سلاح: القنبلة الفراغية؟ كان أمس يلعب الشطرنج أمام الكاميرا الأميركية ليدفع بيغن إلى مزيد من الجنون، وليحرمه من لياقة الشتيمة السياسية واستبدالها بالشتيمة الإنسانية «هؤلاء الفلسطينيون ليسوا بشراً. إنهم حيوانات تدبُّ على اثنتين». كان عليه أن يجردنا من الصفة الإنسانية ليبرر قتلنا، فإن قتل الحيوانات ــ إذا لم تكن كلاباً ــ ليس محرماً في الشريعة الغربية. كان بيغن يستعيد تاريخ جنونه وجرائمه، فقد ظن أن جنوده، صيادي هذه الحيوانات، يقومون بنزهة صيد، فألقيت في وجهه مئات التوابيت المرفوعة على آلاف تصرخ: إلى متى؟ ولسنا بشراً لأَننا لم نسمح له بدخول عاصمة عربية. وهو لا يستطيع أن يصدق أن البشر هم الذين يحولون دون تحول الخرافة إلى محكمة مطلقة لمحاكمة كُل القيم وكل البشر، في كل زمان وفي كل مكان: محكمة مطلقة وأبدية. لذلك أحال طبيعة من يقاومه إلى طبيعة غير بشرية، إلى طبيعة حيوانية، بعدما أغلقت عليه خرافته جميع منافذ سؤال ممكن: مَن الحيوان؟ لقد انقضّت على حلمه، وعلى حلم يقظته، أشباح من أبادهم في دير ياسين، وغيَّبهم عن المكان والزمان، غيّبهم ليشترط حضوره، في المكان والزمان، بذلك الغياب. ولكن تلك الأشباح تحاصره في بيروت وقد استعادت لحمها وعظمها وروحها استعادة بطولية. عاد الشبح من الضحية إلى البطل. وبين الشبح والبطل حُوصر نبي الكذب بهوس أقعده عن الاستعانة بفصول من التوراة كانت قادرة على

أن تكتب، وحدها، تاريخ البشر..

□ □ □

.. «وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأَبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأَن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكُل ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكُل من معها في البيت لأنها خبأت المُرسَلَين اللذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلّة إسرائيل محرمة وتكدروها. وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب. فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرَّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها وأخرجا كل عشائرها وتركوهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس جعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها. وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم. لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا. وحلف يشوع في

ذلك الوقت قائلاً ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا».

[سفر يشوع]

.. وكان القائد يلعب الشطرنج. لقد أحسن التلاعب بأعصاب بيغن المتدلية كأسلاك الكهرباء على مزبلة الأوزاعي. كان الرجل المحاصر في بيروت يحاصر، على رقعة الشطرنج، ما لا يفصح عنه. كان يحاصر في قراءتنا الخاصة أكثر من ملك وقف خارج اللعبة، ويحاصر أكثر من رقعة. كان يخاطب الكناية. ويؤجل إذاعة خطب التأبين المليئة بالدموع الملكية والجمهورية والجماهيرية المعدة منذ شهر، منذ طمأن التقدم الإسرائيلي خطباءنا الرسميين إلى مسافة الغزو المقترح، المبارك بصمت جليل، لحماية أمن الجليل من مدى الشوق المسلح الذي يحمله أبناء الجليل إلى أرض الجليل.

هل كان هنا منذ قليل؟ هل خرج من هنا؟

رأيت أحد مرافقيه الذين لا يكذبون عليَّ، فازددت قلقاً. همس في أذني: إنه ليس هنا. لقد غادر المكان، وأضاف: وعليك أنت أيضاً أن تغادر فوراً، هذا الزحام يغري صيادي الجو بغارة أخرى..

كان هذا الشاب هو الذي عثر عليَّ، قبل أيام، في أحد المكاتب وهمس في أذني: تعال معي! فهمت الإشارة، ولم أسأل إلى أين أنا ذاهب. توقعت كل شيء إلّا أن أجد نفسي، وجهاً لوجه، أمام هذا الرجل ذي الملامح الألمانية جالساً مع القائد. قال لي:

هل تتذكرني.. أنا أوري. غضبت. ولكنني قلت مازحاً: ماذا.. هل دخلتم بيروت، أم وقعت في الأسر؟ قال: لا هذا ولا ذاك، جئت من الأشرفية لأجري مقابلة صحافية مع السيد عرفات. غضبت أكثر ولم أعلق. بيروت مليئة بمندوبي كل الصحف العالمية. أَمِنَ الضروري أن يجري هذا الحوار مع هذا الصحافي في هذا الوقت؟ لكل مقام مقال. وهذا المقام ليس لهذا المقال. ولكن لعرفات نظرة أخرى إلى الإعلام. فربما أراد إن يوصل رسالة مباشرة، وربما أراد أن يُمَرِّغ بيغن في مزيد من الجنون. كان أبو عمار أهدأ من الرسالة التي شاء إبلاغها للرأي العام الإسرائيلي المضطرب. حين سأله الصحافي إلى أين سيخرج حين يخرج من بيروت؟ أجاب بلا تردد: سأذهب إلى بلادي. سأذهب إلى القدس. لم أتأثر بهذه اللغة بقدر ما تأثر بها الإسرائيلي واغرورقت عيناه بدموع الخجل. وأضاف أبو عمار: لِمَ لا؟ لمَ لا أذهب إلى بلادي؟ لماذا يحق لك أن تذهب إلى بلادي ولا يحق لي أن أذهب إلى بلادي؟ ساد صمت، وانقطع الحوار. ازدادت المصورة ومساعدة الصحافي، تحديقاً بوجه العدو الأسطوري. سألتني إحداهما: أين كوفيته الشهيرة؟ قلت لها: في كل مكان. ولكنه يرتدي الآن القبعة العسكرية لأنه يحارب. ازدادت التصاقاً به. فقلت هل أعجبك الرجل؟ إنه عازب. قالت: أعجبني كثيراً...

أما أنا، فلم تعجبني المقابلة، ولا خِفَّةُ صاحب الشقة الذي زج بأفراد عائلته في عدسة الكاميرا الإسرائيلية لا لشيء.. إلّا ليرى أهله هناك صورة سعادته هنا! قلت لنفسي: من واجبنا أن نعرف

لمن نشتاق: للبلاد، أم لصورتنا خارج البلاد، أم لصورة شوقنا للبلاد داخل البلاد!

□ □ □

أين «س» ديك الحي الفصيح؟ عاشق المسدسات، واللغة، واللحم المُعلن. لم أره منذ يومين. هل وجد طعاماً وماء؟ كان هذا هاجسي. ومنذ تبنيته كان نادراً ما يتكلم معي حين نكون وحيدين فلعله صدّق أني أبوه. ترك الحي الذي كان يسكنه قبل الحصار وجاء إلى هنا ليقيم مع شاب لبناني سرياني الأصل. أين السرياني وأين الكردي؟ تصادقا منذ اليوم الأول للحصار. أحدهما متوتر كعضلة وثانيهما بارد كقمر، كان «س» يبحث عن «ج» وكان «ج» يبحث عن اختفاء يوحي بأنه شهيد. وحين يلتقيان يشتم أحدهما الآخر، ثم يخرجان إلى شوارع الحمراء، مدججين بكامل السلاح والامتلاء، كأنهما يحرسان الهواء من الاختراق ومن ثورة مضادة. أحببت «س» منذ التقيته من سنين، مستنفراً ضد مجهول. يخجل من الكلام ولا يتدخل فيه إلّا ليتوتر. حاسم صارم ولا يساوم على شيء أو رأي. لا يقول إلّا للورق الموضوع على وسادة ما فيه من عالم عجائبي، فنتازي، مترع بالفصاحة. ولا أعرف حتى الآن متى يبدأ فيه الروائي، السارد، ومتى ينتهي الشاعر. صفع الحياة الثقافية البيروتية بانفجار مفاجىء. ولكنه يدافع عن كتابته بقبضته وشراسته، لأنه لا يؤمن بالحوار بين المثقفين ويعدّه ثرثرة. يأخذ مسدسه وعضلاته المزهوة ويذهب إلى المقهى المناسب ليتربص بصغار النقاد في الصفحات

الثقافية ويؤدبهم على ما كتبوا ضده. قلت له ذات مرة: هكذا كان يفعل فلاديمير ماياكوفسكي بنقاده في شارع غوركي. قال: هذا هو نقد النقد الوحيد. كان «س» مبتهجاً بالحرب، ففيها يتجلى مكبوتُ عنفه ويحالف الفوضى. فيها يطلق أعنة جياده ويشهر حوافر نشيد لا غبار حوله سوى الرصاص. وفيها يعود إلى عصور الجبال البعيدة، وإلى نايات ترقِّص البعيد، وإلى الفرسان وقرقعة الخيلاء، وبهاء الفتوة الأولى. وباختصار: فيها يجد ميدان الرياح التي تمتشقه سيفاً طازجاً للمبارزة مع أعداء مَرّوا. ولا يفهم.. لا يفهم أبداً لماذا يكتب الكُتَّاب في الحرب. من يأبه بهم في لحظة القوة؟ يضرب على مسدسه ويتوعد: سننتصر.. سنعفر أنوفهم في التراب. لم يكن يعرف إن كان سينتصر حقاً أم لا، فهو وَلَد المعارك الخاسرة. وَلَد ضد الحساب. ما يهمه هو التحدي والمبارزة. كان «س» يقف في منطقة وسطى بين دون كيشوت وسانشو، يحيل الأعداء إلى نماذج في متناول اليد. يمتلىء حماسة فيتكور ويستطيل ويتوتر ويضرب أي شيء ثم يسلط على نفسه حكمة «ج» المتروي، الباحث عن الفلسفة في الشعر والمعادي للغنائية. ووجد «س» «ذات الجمال المنقطع النظير» في غياب الماء واللحم والنساء.. احذر يا «س» فهي من صناعة جدك دون كيشوت، من سلالة السحالي التي تظهر في القيظ والهجير، في أخاديد النفس المتشققة من العطش. وصوتها صوت النبات اليابس في برية الأَطلال. لكنه قطع شوطاً، لا تراجع عنه، في عملية الإِحالة الذاتية المقطوعة عن حقيقتها، وتوغل في الملهاة، ليحقق ما

ينقص الفروسية: امرأة! أين «س» الآن؟ هل اصطادته الشظايا، أم اصطاد ليهديها إلى «ذات الجمال المنقطع النظير»؟

□ □ □

القنبلة الفراغية. هيروشيما. مطاردة رجل بالطائرات. فلول الجيش النازي في برلين. احتدام الخلاف الشخصي بين بيغن ونبوخذنصر. عناوين تخلط الماضي بالحاضر. وتدفع الحاضر إلى الهرولة. غد يباع في أوراق اليانصيب. قدر إغريقي يتربص بأبطال صغار. تاريخ مشاع، لا أهل له، مفتوح لمن شاء أن يرث. في هذا اليوم، في ذكرى قنبلة هيروشيما يجرّبون القنبلة الفراغية في لحمنا. تنجح التجربة..

أتذكر من هيروشيما المحاولة الأميركية لدفع هيروشيما إلى نسيان اسمها. وأعرف هيروشيما، زرتها منذ تسع سنين. وفي إحدى ساحاتها تكلمت عن ذاكرتها. من يُذَكِّر هيروشيما بأن هيروشيما كانت هنا. سألتني المترجمة اليابانية إن كنت قد شاهدت الشريط السينمائي الشهير. قلت: وفي وسعي أن أحب امرأة من سدوم، لأحب، أو لألعب. في وسعي أن أحب جسداً يقتلني حُرّاسه خلف النافذة. قالت: لا أفهم. قلت: هي خواطر شعرية.. ولكن أين هيروشيما؟ قالت: هيروشيما هنا. أنت في هيروشيما. قلت: لا أراها فكيف غطيتم اسم جسدها بالأزهار؟ ألأن الطيار الأميركي بكى فيما بعد، ضغط على زر صغير ولم يرَ إلّا سحابة. وحين رأى الصور، فيما بعد، بكى. قالت: تلك هي الحياة.

قلت: ولكن أميركا لم تبكِ ولم تغضب على نفسها. غضبتْ من التوازن. هيروشيما غداً.. هيروشيما هي الغد.

لا شيء في متحف الجريمة يدل على اسم القاتل: من هنا جاءت الطائرة، من قاعدة ما في الباسفيك. تواطؤ أم خنوع؟ أما الضحية فلا تحتاج إلى أسماء: هياكل بشرية مجردة من ورق الشجر، أغصان عظيمة للشكل، أشكال للشكل. بعض الجدائل الدالة على امرأة كانت هناك. كتابات على الجدران تشرح درجات التدرج في القتل: من الحريق، إلى الدخان، إلى السموم، إلى الإشعاع. تدريبات أولى على قتل كوني أشمل. تخطيط أولي للنهاية. هكذا تبدو الآن «ثروة» قنبلة هيروشيما التدميرية، سلاحاً ذرياً بدائياً، يسمح للخيال العلمي بأن يكتب سيناريو لنهاية العالم: انفجار هائل، انفجار عظيم، يشبه بداية تكون الكرة الأرضية، بفوضاها المنظمة: جبال، وديان، سهول، صحارى، أنهار، بحار، منحدرات، بحيرات، تجاعيد، صخور، وما يتبعه من تنوعات جميلة في أرض تمجدها المدائح الشعرية والصلوات الدينية. بعد الانفجار العظيم يشب حريق هائل يلتهم ما يستطيع التهامه من طعام النار: البشر والشجر والحجر، والمواد القابلة للاحتراق، ينتج دخاناً كثيفاً يحجب الشمس إلى أيام فتبكي السماء مطراً أسود يسمم كل شيء حي، يسمونه المطر النووي. تبرد الأرض وتعود إلى عصرها الجليدي الأول. وفي مرحلة الانتقال السريع من هذا العصر إلى العصر الجليدي لن يبقى حياً إلّا الجرذان وبعض أنواع الحشرات. يصحو الجرذ، ذات صباح،

ليجد نفسه إنساناً يحكم الأرض. كافكا مقلوب. وأنا أسأل: أيهما أقسى: أن يصحو الإنسان ليجد نفسه حشرة ضخمة، أم: تصحو الحشرة فتجد نفسها إنساناً يلعب بالقنبلة النووية وقد حسبها كرة قدم!..

سماء بيروت قُبَّة كبيرة من صفيح داكن. الظهيرة المطبقة تنشر رخاوتها في العظام. الأفق لوح من الرمادي الواضح لا يلونه سوى عبث الطائرات. سماء من هيروشيما. في وسعي أن أتناول طبشورة وأكتب على اللوح ما أشاء من أسماء وتعليقات. اجتذبتني الخاطرة: ماذا سأكتب لو صعدت إلى سطح بناية عالية: «لن يمروا»؟ كتبوها. «تموت ليحيا الوطن»؟ كتبوها. هيروشيما؟ كتبوها. طاشت الحروف كلها من ذاكرتي ومن أصابعي. نسيت الأبجدية. لم أتذكر غير حروف خمسة: ب ي ر و ت.

□ □ □

جئت إلى بيروت منذ أربع وثلاثين سنة. كنت في السادسة من عمري. وضعوا على رأسي قبعةً وتركوني في ساحة البرج. كان فيها ترام. ركبت في الترام. سار الترام على خَطّي حديد متوازيين. صعد إلى ما لا أعرف. صعد على خطّي الحديد وسار. سار الترام. لم أعرف أيهما يُسَيِّر هذه اللعبة الكبيرة ذات الجلبة: خط الحديد الممدود على الأرض، أم العجلات الدائرة على خط الحديد. نظرت من نافذة الترام رأيت بنايات كثيرة، فيها نوافذ كثيرة، تطل منها عيون كثيرة، ورأيت أشجاراً كثيرة. الترام يسير

والبنايات تسير والأشجار تسير. كل شيء حول الترام يسير عندما يسير الترام. عاد الترام إلى المكان الذي وضعوا فيه قبعةً على رأسي. تلقفني جدي بلهفة. وضعني في سيارة وذهبنا إلى الدامور. الدامور أصغر من بيروت وأجمل من بيروت، لأن فيها بحراً أكبر، ولكن ليس فيها ترام. خذوني إلى الترام، فأخذوني إلى الترام. ولا أذكر من الدامور غير البحر وبساتين الموز. ما أكبر أوراق الموز.. ما أكبرها! والزهور الحمراء المتسلقة على جدران البيوت. وحين جئت إلى بيروت، مرة أخرى، قبل عشر سنين، كان أول شيء فعلته هو أنني أوقفت سيارة تاكسي وقلت للسائق: خذني إلى الدامور. كنت قادماً من القاهرة، وكنت أفتش عن خطى صغيرة لولد مشى خطى لا تليق بعمره، خطى أكبر منه ومن قدميه. عمَّ كنت أبحث: عن الخطى أم عن الولد؟ أم عن أهل قطعوا البرية الوعرة ليصلوا إلى ما لم يجدوا، كما لم يجد كافا في إيتَكَاه؟ كان البحر في مكانه. كان يدفع الدامور شرقاً لتصير أكبر. وصرت أنا أكبر. صرت شاعراً يبحث عن ولد كان فيه، تركه في مكان ما ونسيه. الشاعر يكبر ولا يسمح للولد المنسي بأن يكبر. هنا قطفت الصور الأولى. وهنا تعلمت الدروس الأولى. وهنا قبّلتني صاحبة البستان، وهنا سرقت الورد الأول. وهنا كان جدي ينتظر العودة في الجرائد ولا يعود. جئنا من قرى الجليل. نمنا ليلة قرب بركة رميش القذرة، قرب الخنازير والأبقار. وفي الصباح التالي سرنا شمالاً. قطفت التوت من صور. ثم استقر بنا الرحيل في جزّين. لم أر الثلج من قبل. كانت جزين

مزرعة للثلج وكان فيها شلال. لم أر الشلام من قبل. ولم أعرف، من قبل، أن التفاح يتدلى من أغصان الشجر، كنت أحسبه ينبت في الصناديق. نحمل السلال القصبية الصغيرة ونختار التفاح من الشجر. أريد هذه الحبة. وأريد تلك الحبة. آخذها وأغسلها في جداول المياه الهابطة من سفح الجبل إلى مجاريها الصغيرة بين البيوت الصغيرة المتوجة بالقرميد. وفي الشتاء لم نتحمل برودة الرياح اللاذعة فرحلنا إلى الدامور. غروب الشمس يسرق الوقت من الوقت. والبحر يتلوَّى كأجساد العاشقات ليرفع صرخته في الليل ولليل. ذهب الولد إلى أهله هناك في البعيد، في بعيدٍ لم يجده هناك في البعيد. مات جدي وهو يحدق في تراب محبوس خلف سياج. في تراب غيّروا جلده من قمح وسمسم وذرة وبطيخ أحمر وأصفر إلى تفَّاح خشن. مات جدي وهو يَعُد الغياب والمواسم ودقات القلب على أصابع يدين يابستين. سقط كالثمر المحروم من غصن يسند إليه عمره. لقد خربوا قلبه. تعب من الانتظار هنا في الدامور. ودع أصدقاءه، وأرجيلته، وأبناءه، وأخذني وعاد ليجد ما لم يجد هناك. وهنا كثر الغرباء واتسعت مخيماتهم. مرت حرب.. حربان.. ثلاث.. أربع، وازداد الوطن ابتعاداً عنهم، وازداد الأَطفال ابتعاداً عن حليب أمهاتهم بعدما شربوا حليب وكالة الغوث. فاشتروا بنادق ليقربوا البلاد الهاربة من أيديهم. أعادوا هويتهم، وأعادوا تركيب الوطن من جديد، وساروا على الطريق فاعترضهم حُرَّاسُ الحروب الأهلية، فدافعوا عن خطاهم، فخرج الطريقُ عن الطريق. وسكن

اليتيم جلد اليتيم، ودخل المخيم في المخيم.

□ □ □

لا أستطيع أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، حتى لو كانت متراساً لقناصة أرادوا روحي. لا أستطيع ولا أستطيع. فلتبعدوا هذا الـمُصَوِّر عن وجه الحجر. أبعدوا هذا الخطاب عن بحرٍ ما زال جالساً على مكانه. ولا أستطيع أن أرفع شهيدي على كتف جثة معلّقة على أغصان الموز.. لا أستطيع. «الحرب هي الحرب» ليست لغتي. لن أقرأ شعراً في الدامور. و«ما العمل تجاه ما يقطع المخيم عن المخيم» ليس سؤالي.. ليس سؤالي أبداً أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، لأني أبحث عن ولد، ولا أبحث هنا عن بلد.

□ □ □

وفي أنقاض الدامور، وجد أبناء الشهداء والناجون من «تل الزعتر» ملجأ آخر في سلسلة الملاجىء المتنقلة. حملوا التعب والخيبة وما نسيت أن تقطعه السكاكين من أجسادهم وجاءوا إلى الدامور. جاءوا يبحثون للنوم عن متر مفتوح للريح والأناشيد. ولكن ما نسيت أن تفعله الخناجر البدائية فعلته الطائرات الحديثة التي لا تتوقف عن قصف هذا البقاء البشري. إلى أين؟ إلى أين؟ من مذبحة إلى مجزرة يُساق شعبي ويتناسل في محطّات الأنقاض، ويرفع شارة النصر، ويرفع الأعراس.

أَلِلْقذيفة أحفاد؟.. نحن

أَلِلشظيّة أجداد؟.. نحن

ومنذ عشر سنين أقيم في بيروت، في مُؤقت من أسمنت، أحاول أن أفهم بيروت فأزداد جهلاً بنفسي. أهي مدينة أم قناع؟ منفى أم نشيد؟ سرعان ما تنتهي، وسرعان ما تبدأ. والعكس أيضاً صحيح.

في المدن الأخرى تستند الذاكرة إلى ورقة. تجلس في ساعة انتظار، في فراغ أبيض، فتهبط عليك فكرة زائرة. تصطادها لئلا تهرب منك، وحين تمضي الأيام وتراها تتعرف إلى مصدرها، فتشكر المدينة التي وهبتك تلك الهدية. أما في بيروت فإنك تسيل وتتبعثر. الإناء الوحيد هو الماء. تأخذ الذاكرة شكل فوضى المدينة، وتدخل في كلام يُنسيك الكلام السابق..

ونادراً ما تلاحظ أن بيروت جميلة..

ونادراً ما تحتاج فيها إلى التمييز بين المبنى والمعنى..

ولا تكون جديدة، ولا تكون قديمة..

وحين يسألونك: هل تحبها؟ يفاجئك السؤال فتتساءل: لماذا لم أنتبه؟ أأُحبها؟ ثم تبحث عن عاطفة محددة لها، فتُصاب بدوار أو خَدَر. ونادراً ما تحتاج إلى التأكد من أنك في بيروت، لأنك موجود فيها بلا دليل، وهي موجودة فيك بلا برهان، وتذكر أن مثل هذا السؤال في القاهرة ينتهي بالخروج إلى الشرفة للتأكد من وجود النيل. إذا رأيت النيل فهذا يعني أنك في القاهرة. أما هنا،

فإن صوت الرصاص هو الذي يدل على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران.

هل هي مدينة، أم مخيم شوارع عربية وضعت بلا ترتيب، أم هي شيء آخر: حالة، فكرة، إحالة، زهرة خارجة من نص، فتاة تربك المخيلة؟

ألهذا السبب لا يستطيع أحد أن يؤلف أغنية بيروت؟

كم تبدو سهلة؟

وكم تبدو مستعصية على تجانس المفردات المتجانسة الإِيقاع والقافية: بيروت. ياقوت. تابوت..

أم لأَنها تقدم نفسها لعابر السبيل الذي، وحده، يشعر بأنها بهجته الخاصة. ووحدهم أصحابها وأصحاب الأَسماء المنسية هم المحرومون من دهش يدهش الآخرين.

أنا لا أعرف بيروت. ولا أعرف إن كنت أحبها أم لا أحبها..

للسياسي المهاجر كرسي لا يتغير ولا يتبدل. وبتعبير أدق: للكرسي سياسي مهاجر لا يغيره..

وللتاجر المهاجر فرصة التأكد من أن ريح الخمسينيات التي وعدت فقراء العرب بشيء ما، لن تمر من هنا..

وللكاتب الذي ضاقت به بلاده أو ضاق بها الحرية في أن يعتقد أنه حر، دون أن يعلم في أية جبهة يحارب..

وللشاعر السابق إمكانية الحصول على مُسدس وحارس ومال. فيتحول إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشو آخر..

وللفتاة المحافظة القدرةُ على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها على سُلم الطائرة، والاختفاء مع عشيقها في فندق..

وللمهرب أن يهرِّب.

وللفقير أن يزداد فقراً.

ولكل قادم إلى بيروت بيروته الخاصة به، ولا نعرف ولا أحد يعرف إلى أي حدّ يشكل مجموع هذه المدن مدينة بيروت التي لا يبكي عليها الباكون، ولكنهم على ذكرياتهم أو مصالحهم الخاصة يبكون..

ربما في هذه الطريقة، الطريقة التي بحث بها العربي عما ينقصه في بلاده، تحوّل لقاء الأَضداد إلى هذه التسمية الغامضة، وإلى رئة يتنفس منها نفر من البشر، بينهم القاتل والقتيل، الأمر الذي جعل بيروت غناء الفوارق والفروق، دون أن يسأل الكثيرون من العشاق هل هم في بيروت أم هم في أحلامهم.

أما بيروت فلا أحد يعرفها. ولا أحد يبحث عنها. ولعلّها ليست هنا أبداً. وفي الحرب فقط عرف الجميع أنهم لا يعرفونها. وعرفت بيروت أنها ليست مدينة واحدة، ولا وطناً واحداً، وأنها ليست بلاداً متجاورة، وأن ما بين هذه النافذة والنافذة المقابلة من التناقض ما يفوق التناقض بيننا وبين واشنطن، وأن التناحر بين هذا

الشارع والشارع الموازي يفوق التناحر بين الصهيوني والقومي العربي.

وفي الحرب فقط أدرك المقاتلون أن سلام بيروت مع بيروت مستحيل.

وفي الهدنة فقط أدرك المقاتلون والمراقبون أن هذه الحرب لا نهاية لها، وأن النصر فيها ــ خارج توازن الهزيمة ــ مستحيل.

ولعل الجميع أدركوا أن لا بيروت في بيروت. فهذه السيدة الجالسة على حجر صورة لزهرة عباد الشمس تتبع ما ليس لها، وتجر عشاقها وأعداءها، على السواء، إلى دورة خداع البصر، فتكون لهم أو عليهم، ولا تكون لهم أو عليهم.

إنها شكل لشكل لم يتشكل، لأَن الحرب فيها ــ أعني حولها ــ سجال. ولأن الثابت فيها هو المتغير، ولأَن الدائم فيها هو المؤقت.

أو: خذ موجة. أجلسها على صخرة الروشة. فكك عناصرها، فلن تجد غير يديك غارقتين في لعبة سحر لا تنتهي ولا تبدأ.

سؤال: هل هي مرآة؟

جواب: بقدر ما تصلح الموجة لأن تكون حجراً..

سؤال: هل هي طريق؟

جواب: بقدر ما تكون القصيدة شارعاً..

سؤال: هل تكذب؟

جواب: عندما يُصَدِّقُ ما لا يُصَدَّق..

وفي الحرب الطويلة كانت واضحة. كان يبدو لي أن هذه الوجوه كالتي تدخل المرآة سترى ما لم تر خارج الدم والحريق، وتغير مصادر انعكاسها. وكان يبدو لي أن بيروت تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو الصحراء. وكان يبدو لي أن القبائل المتحلقة حول رقصة النار ستنتقل من السلالة إلى الوطن. وأن الوطن سيدخل في الأُمة. وأن الأُمة ستكتشف بدهية شرط حياتها، كأن تعرف من هو العدو، وأين هو العدو. وكان يبدو لي أن هؤلاء الشهداء، وهذه اللغة الجديدة، وهذا الرماد العظيم سيخلق لنا ــ على الأقل ــ علامة. وأن بداية التغيير قد بدأت، وأن الصدفة الإقليمية قد انكسرت وأطلت منها لؤلؤة الجوهر.

وكان يبدو لي.. وكان يبدو لي..

ولكن العصفور الذي انبثق من دم بيروت ووعودها صار يتساءل: هل أنا في فضاء أم في قفص؟

أمرّ الآن في بيروت. في ربيع ١٩٨٠، فأرى قفصاً مصنوعاً من ريش جناحيّ. غنائي يثير السخرية. وصرتُ الغريب الوحيد.

ــ هل أخطأت؟

ــ كثيراً.

ــ اخرج من هنا.

ــ هل انتهت الحرب؟

ـ عاد جميع الغزاة، وولد الوطن من جديد.

ـ إلى أين أعود؟

ـ إلى بلادك.

ـ أين بلادي؟

ـ في الأمة.

ـ وفلسطين؟

ـ ابتلعها السلام.

وصرت الغريب الوحيد. ماذا أفعل في باريس؟ ماذا تفعل في بيروت. إلى متى أبقى في لندن؟ إلى متى تبقى في بيروت.

قل لي: ماذا جرى لبيروت؟

قال: صارت قوية.

قلت: هل انتصرت فيها العروبة أم...؟

قال: لا هذه ولا تلك. انتصرت فيها رياح المنطقة، لأنها لا تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو واحة في الصحراء. عد من حيث أتيت لأَن الشارع يرفضك.

وصرت الغريب الوحيد. كم أكتم شكواي: لماذا يكون الوطن اللبناني منافياً لفلسطين؟ لماذا يصير الرغيف المصري منافياً لفلسطين؟ ولماذا يصبح السقف السوري منافياً لفلسطين؟ ولماذا تكون فلسطين منافيةً لفلسطين.

كم أنا غريب هنا، في ربيع ١٩٨٠، الهواء ينذر بشيء ما، وطريق المطار ينذر بشيء ما، والبحر ينذر. وصرت الغريب الوحيد.

... وعلى الجدران، تقضم الأَعلام الرسمية مزيداً من صور الشهداء، ومن الكلمات التي كانت تنشئ تماسك الوطن على علامات الطريق الجديدة. بيروت مرت من هنا. بيروت مرت من هنا. بحثتُ عن طفلة الجنوب التي أكلت بطاقة هويتها الرسمية، فوجدتها تتدرب على النشيد الرسمي، وتنتظر المصفحة التي تحمل إليها العيد..

إنه الوطن ..

بيروت مكللة بأدوات الزينة والخطابة والمراسيم التي تمردت عليها بيروت حين مرت من هنا. صارت العودة إلى الفوارق التي أشعلت حرب السنوات الأربع أمنيةً واحدة. وعادت بيروت وطن اللغة التي ثارت عليها. لمَ لا؟ لمَ لا؟ لمَ لا؟ والسلام يخيم، فجأة، على الجنوب لولا مواقع يربطها بفلسطين خيط من دم.. السلام يخيّم على الجنوب لولا فلسطين..

ورأيت بيروت تبكي الجنوب. أعني رأيت المثقفين والرسميين يبكون الجنوب. فجأة تذكروا أن بيروت عاصمة لبنان، وأن الجنوب من لبنان. وتذكرت كيف كانوا ينسون الجنوب حين كانت الطائرات تشوي الجنوب. قبل تأسيس دولة حدّاد، كانوا يجلسون في المقاهي، يشربون البيرة، ويشفقون على عذاب بيافرا. يومها كان مفهوم الوطن يزعج الإسرائيلي الذي لا يعترف بوطن

على الحدود. يومها كان الوطن يعني الواجب. وكان الواجب يعني حماية الجنوب من الطائرات والدبابات الإسرائيلية. يومها لم يكن الوطن في حاجة إلى وطن.

ـ ماذا تغير يا صديقي؟

ـ البنايات الفخمة ملأى بالمهاجرين من الجنوب، والمهاجرون لا يدفعون الأجرة..

ـ وماذا تغير يا صديقي؟

الوجع الجديد يطرد الوجع القديم. والمشكلة الجديدة تزيح المشكلة القديمة. وأنت الغريب الأخير.

الأسئلة تثير سخرية بيروت الباحثة عن توازن جديد للتوازن القديم، وعن وطن قديم للوطن الجديد. التيارات تبحث عن الصدفات التي خرجت منها. وليس من حق أحد أن يلومها إلّا بقدر ما كان من حقه أن يصدق ما صدق. يُقال إن حرب الوعود انتهت وبدأ بناء السلطة. ولم تعد المرآة تعكس إلّا ما هو أمامها.

وهذا الفضاء قفص ...

□ □ □

... وماذا أيضاً، عليك أن تكون أبيض، فهنالك ما هو أغلى من الحرية، ومن الحياة...

ما هو؟

البياض

.. «ويقول علماء التاريخ الطبيعي أن السمّور حيوان صغير ذو فراء أبيض، شديد البياض. وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة: يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها، ويضعون فيها الطين ثم يأخذون في مطاردته. وحين يصل السمّور إلى المكان الذي وسخه الطين يتوقف دفعة واحدة، ويفضل أن يُصطاد ويُقتل على أن يمرّ في الطين، ويوسِّخ بياض فرائه، لأنه يُفَضِّل البياض على الحرية وعلى الحياة».

سرفانتس [في حكاية المستطلع الفاسد الرأي]

□ □ □

وانقلب الصمت، صمت المتفرجين، إلى ملل. متى ينكسر البطل؟ متى ينكسر ليكسر تتابع الخارق إلى مألوف. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر عندما يطول المشهد فتخف النشوة. ألم يُدفع موضوع هذه البطولة ذاته إلى موقع الضجر ليكون هو ذاته مصدراً للضجر في سياق حياة تبحث عن حياتها العادية الخالية من الرسائل والهتاف، ليشهر الحاكم أمامها أسباب التعاسة: فلسطين المسؤولة عن انقراض القمح في الحقول، وعن ازدهار العمران المكلّل بالسجون، وتحويل الزراعة إلى صناعة لا تنتج غير بطون الفئة الجديدة، محدثة النعمة، بهموم الاستهلاك الفردي الذي يثقل الدولة بديون يحتاج المواطن إلى أن يعيش عمره مرتين ليسددها؟ لقد جربت مصر هذه الغبطة. وعدها سراب السلام بتحرير الرغيف من ضرائب فلسطين، وبعودة الشهداء إلى أهلهم سالمين،

وبوجبة فول أفضل. فازدهرت الكماليات، وامتدت سنوات الخطوبة إلى أجل غير مسمى ريثما يتم العثور المستحيل على عش زواج، وازداد الجوعى جوعاً. ووضع السادات كل من تساءل أين ثمن السلام؟ في السجن حتى خرج من صفوف حراسه فتى يطلق الرصاص على فرعون، وعلى هذا السلام، وعلى هذا السراب. والآخرون؟ الآخرون استخلصوا العبرة واستغنوا عن شبق السادات أمام الخطاب وشيّدوا، بمنهجية ومثابرة، سلام الأَمر الواقع المشروط بربط المعدة العربية بشروط الرضا الأميركي. وضعوا المعدة العربية رهينة، وأشهروا الحرب، بالسلاح وبالصمت، على موضوع البطولة. وانتظروا بقليل من الحرج، أن يحرق الإسرائيليون، نيابة عن الجميع، مسرح هذه البطولة ومنصة هذا الخطاب البديل. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر. كفى. واختلفوا في طريقة تسويق الضجر: بعضهم يدعو إلى انتظار مرحلة تاريخية تنقلب فيها موازين القوى، بعصا سحرية خارجية، إلى مصلحتنا، مما يوفر لنا حق الكلام في الحرب أو السلام. وبعضهم يستعجل النهاية وينصحنا بالرحيل على سفن أميركية، بلا شروط وبلا مماطلة. وبعضهم يستعجل النهاية أيضاً بدعوتنا إلى الانتحار الجماعي ليستولي هو على مسرحه وعلى مسرحنا. كفى، إلى متى يصمدون؟ فإما إن يموتوا وإما أن يخرجوا! إلى متى يخدشون أمسيات العرب بجثث تقطع تسلسل المسلسل الأميركي؟ إلى متى يحاربون ونحن في عزّ الإجازة والمونديال وتربية الضفادع؟ فليفتحوا الطريق أمام شهواتنا وعارنا. لتتوقف هذه الملهاة. أما

حكماؤهم، المجلّلون بلياقة التعاطف، فإنهم يقدمون للضجر مظهراً أبهى: آن لهم أن يعرفوا أن لا أمل.. لا أمل يرتجى من العرب. أمة لا تستحق الحياة. أمة على صورة حكّامها. وهذه معركة يائسة فليدخروا دمهم لتاريخ آخر.

صمت مُكَلَّل بكل ما يفرغ التاريخ من أنخاب. أحصنة تزيينية على حقول ألفت مواسم الغزو. وخطاب واحد يشتهي اغتراب الكلمات عما وراءها. خطاب واحد يعدد الصدأ المتراكم على الكلام منذ استوى الخطيب على عرش المنبر. خطاب واحد يلقيه المنقسمون على أنفسهم، المقتتلون على خطاب. أمن حق مدينة، في هذا الحجم، وفي هذه الفوضى، أن تمنح الوقت اسماً مختلفاً؟ أمن حقها أن تخربش فوق اللوحة المكتملة اللون؟ أمن حقها أن تقترب من سياج الصراع المحكم التسييج؟ وتضع قواعد أخرى لجيران العدو ـــ هذه هي أسماؤهم وألقابهم: جيران العدو. إذن «الموت لبيروت» يعنون: الموت لهذا الشارع الأخير الخارج عن هندسة الطاعة.

ضجروا، ضجروا. لقد طالت المهلة المحددة لسقوط المعنى الأخير، المتدلي كالثمرة الناضجة من نخلة العرب اليابسة. المتدلي لمن يرث ليدفن لا ليعلن جدوى التراكم. متى يوقفون الجنون؟ متى يرحلون؟ ومتى يدخلون في تشابه الرمل؟ متى يسقطون مثلنا، مع الاحتفاظ بفارق معافى هو أننا نسقط على عرش، من الهزائم المدوية إلى العرش، وهم يسقطون على نعش، من البطولة إلى النعش..

وفي جعبة الضجر ما يشبه الحكمة: نحن، نحن الذين نختار زمان المعركة ومكانها ونتائجها. ولن نستخدم هذا السلاح إلّا وقت الشدة. من يعرف وقت الشدة، من أين تأتي الشدة في هذا الرخاء المرفّه؟ هم يعرفون أكثر مما نعرف. قد تأتي من حي أو شارع يغضب. ولكن، من يُغضب هذا الشارع الذي أدمَنّا هجاء حراسه وتبرئته من غياب الحماسة لنبرىء الأمل من داء عضال؟ أما من أحَد، في هذه القارة، يقول: لا. أما من أحد؟

ما من أحد..

وزراء الدفاع كانوا يتلهون بفقاعات الشمبانيا، مع القتلة، كلما جاءهم خبر عن تضييق الخناق على تل الزعتر. فبماذا يتلهون الآن أثناء تضييق الخناق على بيروت؟ لقد رأينا صورهم على أحواض السباحة. أليس شهر آب حاراً؟ ورأينا تعب حراسهم المدججين بالبنادق وهم يرفعون ابتسامات أسيادهم السائلة حتى الركبتين في محاولة لإعادتها إلى الأَفواه المفتوحة سالمة.. سالمة من عيون المارة ومن حصار بيروت..

ولكنني لا أغضب، كما يغضب غيري، من المظاهرات العربية الصاخبة التي خرجت تحتج على حكم منحاز في مباريات كرة القدم، لا لأن كرة القدم تلهب الحماسة أكثر من هذا الصمود الطويل في بيروت، بل لأن المكبوت العربي، المتعدد المصادر، قد عثر على نقطة الانفجار في المتاح العربي. ووجد فرصة التعبير الممكن عن غضب مزمن في حرب لا تهدد الوطن مادياً، في حرب معنويات تنتهي إلى هدنة أكيدة بعد خمس وأربعين دقيقة،

يعيد خلالها المتحاربون توزيع صفوفهم وتعديل خططهم الهجومية والدفاعية، ويتزوّدون بما يحتاجون إليه من ذخيرة معنوية ونجدة شعبية، ثم يعودون إلى القتال تحت إشراف قوات دولية لا تسمح باستخدام الأسلحة المحرَّمة دولياً. وتنتهي الحرب المحدودة، المسيطر عليها، في ساحة المعركة وخارجها ولا تتجاوزها إلى حدود البلدين، باستثناء حالات نادرة كما حدث بين السلفادور وهندوراس. ولكن التوازن الدولي الدقيق، الممثل في مجلس الأمن، تمكن من إصدار قرار قابل للتنفيذ!

ولأني أحب كرة القدم، لم أغضب كما غضب غيري من المفارقة. لا مظاهرة واحدة يثيرها حصار بيروت، بينما تثير كرة القدم هذه المظاهرات أثناء حصار بيروت. لمَ لا؟ إن كرة القدم هي ساحة التعبير التي يوفرها تواطؤ الحاكم والمحكوم في زنزانة الديموقراطية العربية المهددة بخنق سجنائها وسجّانيها معاً. هي فسحة تنفس تتيح للوطن أن يلتئم حول مشترك ما، حول إجماع ما، حول شيء ما، تضبط فيه حدود الأطراف وشروط العلاقة. مهما تسربت منها إيماءات ذكية، ومهما أسقط فيها المشاهد على اللعبة ما فيه من المعاني المضغوطة. وطن، أو شكل من تجليات روح الوطن يدافع عن كرامته، أو تفوقه، أمام الآخر، فلا يخسر توزيع القوى الداخلي شيئاً من تماسكه الظاهري. المتفرجون يستولون على أدوارهم نحو هدف واحد هو تصويب الهدف. والحاكم الذي عيّن نفسه مُعبّراً عن روح الأمة يعبر عن نصر هو نتاج سياسته الحكيمة، وتنشيط الإرادة والطاقات. لعله، وليس

اللاعب، هو الأقدر على التأويل لأنه هو صاحب الأمة وراعيها، وهو الذي ينفق من ماله الخاص على تشجيع الرياضة. ولكن الأمر ينقلب إلى عكسه حين تختلف النتيجة عن المنشود والمتوقع، حين ينهزم الوطن اللاعب أمام الآخر. عندها يتنصل الحاكم من الهزيمة ويحمّلها للأجهزة، لتاريخ التقاليد مرة، للمدرب مرة ثانية، لانتكاسة اللاعبين ـ المحاربين مرة ثالثة، ولانحياز عوامل خارجية متمثلة بالحكَم مرة رابعة.

لا، ليس للهزيمة أب واحد. وفي السياسة، ليس من التقاليد العربية الحديثة معاقبة القائد على الهزيمة. إنه يدعو الشارع للعطف عليه، ولمواساته الجماعية المعبَّر عنها في دعوته إلى البقاء على العرش ليكيد الأعداء. أليس ما يريده الأعداء هو إسقاط الحاكم، ولتخليصنا من هذه النعمة؟ فلننتصر عليهم بالانتصار على أنفسنا وإبقاء الحاكم المهزوم جلاداً لنا.

ولكن الأمر يختلف في كرة القدم: في وسع الشارع أن يغضب على اللاعبين وعلى المدرب وعلى الحَكَم الأجنبي. اللاعبون خانوا روح الأمة، والمدرب أساء وضع الخطة. والحكَم منحاز. أما الحاكم فهو بريء من الهزيمة، لأنه مشغول بقضايا أكثر جدية. لذلك يرفع الشارع الغاضب صورة الحاكم عالية عالية، وينفذ من تحتها إلى حرية التعبير: يشتم الغرب كما يشاء، ويومىء إلى الداخل كما يشاء. هذا ما تبقى لنا من حرية، فهل نُفرِّط بها؟ وهذا ما تبقى لنا من متعة، فلنصفق لما يشير إلى العافية. الأمة في خير ما دامت قادرة على الحماسة. كرة القدم تقول لنا ذلك.

تقول إن العاطفة الجماعية لم تتبلَّد. وإن في مقدور الشارع أن يتحرك بلعبة لا تثير الضجر. ألم تحتل فلسطين، في ما مضى من حاضرنا، هذه المكانة، العاطفية الحماسية؟ ألم يتحرك كُل شيء باسمها، ولها، ومن أجلها؟

كل ما يصيب فلسطين يصيب الشارع العربي بعدوى الحزن والصخب والغضب. كان الشارع يُسقط الحاكم لأي مساس بهذا القلب الجماعي. الآن يتسابق الحُكّام ليرشوا الشارع، ليدفعوه إلى التخلي عن هذا الإجماع. السلاح العربي الرسمي يتصدى، علانية للخطوة والفكرة الفلسطينيتين ويحمّلهما المسؤولية عن بؤس الأمة وعبوديتها. لولا فلسطين، المبعيدة المنال، الوهمية، المتخيلة، المبكرة إلى موعدها البعيد، المتقدمة على الوحدة العربية، لولاها لكنا أكثر حرية وأوفر رخاء ورفاهية! هكذا يذيع الخطاب الرسمي شائعات الضجر. ولكن الشارع يعرف كيف يناور ويؤول ويستخدم الكناية، فإن السجون ليست شرطاً لتحرير فلسطين.. و«لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». لم يقدم غير معنى واحد: لا فلسطين، ولا معركة، ولا صوت. عاش السوط! لذلك كان سؤال الخبز والحرية يتسلل إلى سؤال التحرير المعصوم من العقاب، إلى أن فضح الحاكم اللعبة المؤوّلة، فحرم فلسطين وأخرجها من الملعب الوطني ليخرج السؤال الاجتماعي من كلمة سر الأمة..

هامش كرة القدم هو الهامش الفلسطيني السابق. فليغضب

الشارع، وليهرب سؤاله المكبوت إلى لعبة لا تثير الضجر، ولا تتيح للحاكم، حتى هذه اللحظة، أن يُغلق الملعب.

صمت مُتوّج بأوهام القادرين، إلى الآن، على تقسيم الجهات إلى جهتين، والألوان إلى لونين.

صمت مُكلّل بأوهام القادرين على انتظار النجدة. صمت مُرصَّع بذهب الأمل القادم من خارج هذه الساحة. صمت الذين يقودون بالجملة الثورية إلى خارج مصادرها، بتبعية محكمة ومستحكمة، استبدلت الشارع بالعاصمة، ونطقت باسم الشارع ضد العاصمة الأخرى، لأنها استثنت عاصمتها، سياج وعيها، من طبيعتها. وعيّنت للشر المطلق عاصمة، وللخير المطلق عاصمة. واستطاعت، في كل منعطف، أن تستبدل عاصمتها بعاصمة أخرى، دون أن تتخلى عن تدفُّق الجملة الثورية المرادفة للعاصمة. لا بد من عاصمة.. لا بد من عاصمة!..

□ □ □

لماذا يرتجف الصنم إلى هذا الحد، لماذا يرتجف الصنم؟ سيقول ما هو.

سيقول عكس هذا الصمت الذي يُطبق عليه..

سيواصل تلاوة درس البداية،

سيمجد امتثال التاريخ والمذابح والعذاب إلى برهانه: ألم أقل لكم؟

ولكنك لا تقول شيئاً يا سيِّدي الصنم..

يندسّ في السلطة ليكون معارضاً. ويندس في المعارضة ليكون هو السلطة.

ويحارب السلطة بسلطة أخرى، ولا يتبعه أحد من فرط ما هو تابع.

هذه هي لحظتك، يا سيدي الصنم، قل شيئاً لتبقى صنماً من صنم.

سيقول كلاماً آخر بعد أي شيء آخر.

سيقول إنه لم يوافق على الخروج.

سيقول إنه قال لنا.

ولكنه لم يقل لنا شيئاً.

لماذا أرى الصنم، للمرة العاشرة، لماذا أرى الصنم؟

□ □ □

صمت من ذهب. صمت من شماتة. لذلك أعجبتني غضبة الأمة على التآمر الغربي العنصري على المشاركة العربية الصاعدة في «المونديال». كانت العلامة الوحيدة على وجود شيء يتحرك خارج أسوارنا الصاروخية. كانت الدليل على أن الأُمة لا تسمح للأَجنبي بأن يخدش روحها. وكانت تحمل رَدّاً ساخراً على وزراء الخارجية العرب الذين تنادوا للاجتماع في تونس لبحث «إمكانية»

عقد مؤتمر قمة عربي لبحث الاجتياح الإسرائيلي، وَرَدّاً ساخراً على عدم احتجاج الدولة اللبنانية على هذا الاجتياح واكتفائها بدور الوسيط بين المبعوث الأميركي وقيادة المقاومة. فتساءلنا: لماذا يحرق أصحاب «قمة الحضيض» العربي ثومهم وبصلهم وأصابعهم؟ أليس في الوقت متسع للمزيد من الاجتياح وابتلاع الأرض والناس، إذ لم يمض على الغزو غير شهر واحد فقط.. شهر واحد لا يزيد على لحظة عابرة في تاريخ الحكم العربي الخالد. ولا تكفي لصياغة رد الدول العربية على عجلة من أمرها، والعجلة من الشيطان الرجيم، ليقضي وزراء خارجيتها ساعات صعبة في تونس، يختلفون فيها على تحليل أهداف الاجتياح ومداه: هل هو ضد الفلسطينيين واللبنانيين أم ضد سائر العرب؟ هل سيتجاوز الإعلان الإسرائيلي مداه.. وسيختلفون على تعريف مادة البترول: هل هو سلعة تجارية، أم سلاح سياسي؟ لقد شعروا، ثانية بالضجر. فإن الخبر المشتهى لم يعلن بعد، المقاومة لم تمت. وما زال في خزانات الطائرات الإسرائيلية من البنزين والقذائف ما يكفي لإحراق خمسين ألف طفل لبناني وفلسطيني. وما زال في مستودعات الأسلحة الأميركية التقليدية ما يكفي لتدمير كل المدن. وما زال في بيروت بعض الماء والمعلبات والأوكسجين الكافية لمواصلة المقاومة. وما زال في سماء العرب المفتوحة ممرات كثيرة للمزيد من قاذفات القنابل. وما زال في البحر الأبيض المتوسط مكان للمزيد من الغواصات وحاملات الطائرات والمعاهدات الدولية. وما زال في بيروت أهداف مدنية كثيرة لم

تقصف. فلماذا العجلة لماذا العجلة؟

ونحن أيضاً نحب كرة القدم. ونحن أيضاً يحق لنا أن نحب كرة القدم، ويحق لنا أن نرى المباراة. لِمَ لا؟ لِمَ لا نخرج قليلاً من روتين الموت؟ في أحد الملاجىء استطعنا استيراد الطاقة الكهربائية من بطارية سيارة. وسرعان ما نقلنا «باولو روسّي» إلى ما ليس فينا من فرح. رجل لا يُرى في الملعب إلّا حيث ينبغي أن يُرى. شيطان نحيل لا تراه إلّا بعد تسجيل الهدف، تماماً كالطائرة القاذفة لا تُرى إلّا بعد انفجار أهدافها. وحيث يكون «باولو روسي» يكون الجوول، يكون الهتاف، ثم يختفي أو يتلاشى ليفتح مسارب الهواء من أجل قدميه المشغولتين بطهو الفُرص وإنضاجها وإيصالها إلى أوج الرغبة المُحَققة. لا تعرف إن كان يلعب الكرة أم يلعب الحب مع الشبكة، الشبكة تتمنع، فيغويها ويغاويها بفروسية إيطالية أنيقة على ملعب إسباني حارّ. ويغريها بانزلاق القطط الهائجة المائجة على صراخ الشهوة. وعلى مرأى من حُراس العِرض المصون الذين يعيدون إغلاق بكارة الشبكة بغشاء من عشرة رجال، يتقدم باولو روسي بكامل الشبق، يتقدم لاختراق شبكة قابلة للنيل من عضلة هواء مرتخية عجزت عن المقاومة، فاستسلمت لاغتصاب جميل..

كرة القدم،

ما هذا الجنون الساحر، القادر على إعلان هدنة من أجل المتعة البريئة؟ ما هذا الجنون القادر على تخفيف بطش الحرب وتحويل الصواريخ إلى ذباب مزعج! وما هذا الجنون الذي يعطل الخوف

ساعة ونصف الساعة، ويسري في الجسد والنفس كما لا تسري حماسة الشعر والنبيذ واللقاء الأول مع امرأة مجهولة..

وكرة القدم هي التي حققت المعجزة، خلف الحصار، حين حرّكت الحركة في شارع حسبناهُ مات من الخوف، ومن الضجر.

ولم أفرح بمظاهرات تل أبيب التي تسرق منا كلَّ الأدوار. فمنهم القاتل ومنهم الضحية. منهم الوجع ومنهم الصرخة. منهم السيف ومنهم الوردة. منهم النصر ومنهم الهزيمة، لأنها تشي بتغييب أبطال المسرح. لقد اعتادوا الحروب السهلة وتعودوا على الانتصارات السهلة. وقد سهّل التنافس الانتخابي بين الحزبين الكبيرين عملية انفتاح شوارع تل أبيب على عشرات الآلاف من المتظاهرين، واستنهضتهم ضحاياهم إلى درجة دفعت ضابطاً كبيراً إلى الاستقالة. كنت أستمع إلى إذاعتهم ولا أفهم سرّ البكاء. المنتصر مهزوم من الداخل. المنتصر يخشى فقدان هويته: الضحية. لا حقّ لأحد في أن يحرز هذا الإنجاز: أن يكون الضحية، لأن انقلاب هذا الدور على أصحابه يقلب ميزان العدل الرملي، وبالنيابة عنا كانوا يصرخون، وبالنيابة عنا كانوا يبكون، وبالنيابة عن جدارتهم كانوا ينتصرون. أهنالك ما هو أقسى من هذا الغياب: ألّا تكون معبّراً عن النصر، وألّا تكون معبّراً عن الهزيمة. أن تكون خارج المسرح، ولا تحضر عليه إلّا بوصفك موضوعاً يقوم الآخرون بالتعبير عنه كما يريدون. «إن أردتم فليست تلك بخرافة» هكذا أطلق تيودور هرتسل شعار الصهيونية الداعي إلى

تأسيس دولة لشعب لا أرض له على أرض لا شعب لها! وفي حصار بيروت الذي يشهد على وجود شعب له أرض محتلة مع غزاة سرقوا تلك الأرض، قام ناثان زاخ، أحد شعراء الحداثة العبرية، بتعديل شعار هرتسل بسخرية لامعة: «إن أردتم فليست تلك بخرافة: نصر إسرائيل لن يخيب، ولكن لن يدوم لكي يخيب..»، عشرات القصائد العبرية تحاول التعبير، بدلاً من القصائد العربية، عن حصار بيروت، والاحتجاج على المذبحة. منهم الخطيئة ومنهم الغفران. منهم القتل ومنهم الدموع. منهم المجازر ومنهم عدالة القضاء.

□ □ □

«ثم دخلت سنة...

□ وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيرا. وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستماية درهم. وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب. وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق، مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة السلطان، فلما سمع الناس هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا. وندب الخليفة الفقهاء للخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير

واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئاً، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوري:

وشرُّ سلاح المرء دمع يريقه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

□ وفيها سار السلطان محمد بن ملكشاه إلى الري فوجد زبيدة خاتون أُم أخيه بركيارق فأمر بخنقها، وكان عمرها إذ ذاك اثنتين وأربعين سنة.

□ وفيها بعث السلطان ملكشاه كتاباً إلى الحسن بن صباح أحد دعاة الباطنية يتهدده وينهاه وبعث إليه بفتاوي العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك! فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً. وقال لآخرَ منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع. ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب.

□ وفيها ملكت الفرنج قلاعاً كثيرة منها قيسارية وسروج، وسار ملك الفرنج كندر ــ وهو الذي أخذ بيت المقدس ــ إلى عكا فحاصرها...

□ وفيها ادعى رجل النبوة بنواحي نهاوند، وسمى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الأربعة.

□ وفيها ظهرت صبية عمياء تتكلم على أسرار الناس، وما في نفوسهم من الضمائر والنيات. وبالغ الناس في أنواع الحيل عليها

ليعلموا حالها فلم يعلموا. وسألوها عن نقوش الخواتم المقلوبة الصعبة وعن أنواع الفصوص وصفات الأشخاص وما في داخل البنادق من المشمع والطين المختلف، والخرق وغير ذلك فتخبر به سواء بسواء، حتى بالغ أحدهم ووضع يده على ذكره وسألها عن ذلك فقالت: يحمله إلى أهله وعياله...

□ وفيها قدمت خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة إلى بغداد فنزلت في دار أخيها السلطان محمد، ثم حمل جهازها على مائة واثنين وستين جملاً، وتسعة وعشرين بغلاً. وفتح الفرنج مدائن عديدة منها مدينة صيدا وغيرها..

□ وفيها قاتلوا الفرنج بالشام وانتزعوا منهم حصوناً كثيرة، ولما دخلوا دمشق دخل الأمير مودود صاحب الموصل إلى جامعها ليصلي فيه فجاءه باطني في زي سائل فطلب منه شيئاً فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته.

□ وفيها جاء كتاب من الفرنج إلى المسلمين وفيه: «إن أُمةً قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها».

□ وفيها عزم الخليفة على طهور أولاد أخيه، وكانوا اثني عشر ذكراً، فزيّنت بغداد سبعة أيام بزينة لم يُر مثلها...

□ وفيها وقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً تأجَّج فأحرقت دوراً كثيرة. وظهرت في بغداد عقارب طيارة لها شوكتان. فخاف الناس منها خوفاً شديداً.

□ وفيها وجد رجل يفسق بصبي فأُلقي من رأس منارة. وفيها ملكت الفرنج عدة حصون من جزيرة الأندلس. وفيها ملك نور الدين بن محمود زنكي عدة حصون من الفرنج بالسواحل. وفيها تزوج سيف الدين غازي بنت صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش بن ارتق، بعد أن حاصره فصالحه على ذلك، فحُملت إليه إلى الموصل بعد سنتين، وهو مريض قد أشرف على الموت، فلم يدخل بها حتى مات، فتولى بعده أخوه قطب بن مودود فتزوجها...

□ وفيها وقع مطر في اليمن كُلُّه دم، حتى صبغ ثياب الناس.

□ وفيها باض ديك بيضة واحدة ثم باض باز بيضتين، وباضت نعامة من غير ذكر. وكانت وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج فكسرهم وقتل منهم خلقاً...

□ وفيها هاجت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار، فخاف الناس أن تكون الساعة، وزلزلت الأرض وتغير ماء دجلة إلى الحمرة، وظهر في أرض واسط دم لا يعرف ما سببه، وأخذ الفرنج عسقلان.

□ وفيها كان غلاء شديد بخراسان حتى أكلوا الحشرات، وذبح إنسان منهم رجلاً علوياً فطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قُتل.

□ وفيها سقط بَرَدٌ بالعراق كبار، زنَة البردة قريب من خمسة أرطال، ومنها ما هو تسعة أرطال بالبغدادي. وخسفت هناك

القبور وطفت الموتى على وجه الماء. وفيها أقبل ملك الروم في جحافل كثيرة قاصداً بلاد الشام فرده اللّه خائباً خاسئاً. وفيها قال عفيف الناسخ: رأيت في المنام قائلاً يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاآت مات الخليفة المقتفى ــ يعني خمساً وخمسين وخمسمائة.

□ وفيها كتب صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج، فردّوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت إليهم...

□ وفيها كتب إليهم [الأمراء] القاضي الفاضل على لسان السلطان كتاباً بليغاً فصيحاً فائقاً رائقاً، على يدي الخطيب شمس الدين، يقول فيه: «فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونتلقّى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير». فلما وصلهم الكتاب أساؤوا الجواب.

□ وفيها بعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر له أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نهاية إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب دجاجاً وطيراً لتقوى به، فعرف أنه إنما يطلب ذلك لنفسه يلطفها به، فأرسل إليه شيئاً كثيراً من ذلك كرماً. ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجاً فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الإحسان، بل لمّا عوفي عاد إلى شرّ مما كان. واشتد الحصار على عكا ليلاً ونهاراً. فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إما أن تعملوا معنا شيئاً غداً، وإلّا طلبنا من الفرنج الصلح والأمان، فشق ذلك على السلطان.

□ وفيها وقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاثين سنة وستة أشهر، للفرنج ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات تقسم على المناصفة...».

ابن كثير [«البداية والنهاية»]

□ □ □

.. «وليس عند الإفرنج شيء من الغيرة والنخوة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوَّلت عليه خلَّاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يُقال له معزّ، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق. ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتّجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بتّية من هذا الخمر. من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا»... فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له: «أي شي أدخلك إلى عند امرأَتي؟» قال: «كنت تعبان دخلت أستريح». قال: «فكيف دخلت إلى فراشي؟». قال: «وجدتُ فراشاً مفروشاً نمتُ فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟». قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» قال: «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يُقال له سالم من أهل المعرة في

حمّام لوالدي رحمه الله. قال: «فتحتُ حماماً في المعرة أتعيَّش فيها. فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشدّ في وسطه المئزر في الحمام، فمدَّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: سالم. فتقربت منه. فمدَّ يده على عانتي وقال: سالم، جيد! وحق ديني اعمل لي كذا. واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمرَّ يده عليه فاستوطأَه فقال: سالم، بحق دينك اعمل للداما. (والداما بلسانهم السّت) يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني. فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي.

«فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة. وما تكون الشجاعة إلّا من النخوة والأنفة..».

أسامة بن منقذ [«كتاب الاعتبار»]

□ □ □

.. ساعات ما بعد الظهر. رماد من بخار، وبخار من رماد. المعدن سيد الوقت. لا يفلُّ المعدن غير معدن آخر يصنع تاريخاً آخر. القصف يطاول كل شيء. ولا يبدو أن لهذا اليوم نهاية. آب أقسى الشهور. آب أطول الشهور. وهذا اليوم أقسى أيام آب وأطولها. أما لهذا اليوم نهاية؟ لا أعرف ماذا يحدث في ضواحي

المدينة، لأَن هدير المعدن حجب عنَّا صمت الأشقّاء الـمُدَوِّي، حجب عنا صمت الملوك والرؤساء ووزراء الدفاع المشغولين بقراءة ما لا يقرأون. ولم يبق أمامنا سوى سلاح الجنون. نكون أو لا نكون. نكون أو نكون. لا نكون أو لا نكون. ليس لنا غير الجنون. «حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون. ذهب الذين تحبهم ذهبوا، فإما أن تكون أو لا تكون». تاريخ يتغير شكله ومؤرخوه. تاريخ يكتب صورة النهر، فمن يؤرخ القاع، من يؤرخ الطحلب، من يؤرخ خروج العدو من الأَخ، ودخول الأخ في العدو؟ ومَنْ أطلع في وجهي، ثانيةً، هذا الحلزون؟ حلزون يحمل عبء لعابه الأخضر. حلزون يسدّ حائطاً ويمنعنا من الاقتراب من حائط نسقيه بالدم من أجل أن يستولي هو، الحلزون، على العرش. نحن المتخمين موتاً بما ليس لنا ندافع عمَّا ليس لنا. وليس لنا هذا الطريق المؤدي إلى الجبل. وليس لنا خطاب المنصة التي سيعتليها الحلزون، ويفاخر الأُمم بتاريخ ليس له، بتاريخ مسروق من حاجة البطل إلى موطىء لكعب. لماذا يطلع الحلزون في وجهي، مرة أخرى، في نهار واحد؟ تبّاً لهذا النهار.. تبّاً!

.. جالساً في ركن قصيّ، قصيّ عن الآخرين وعن نفسي، أُفكر في ما يرد عليَّ من منام يخرج من منام: هل أنت حي؟ متى حدث ذلك؟ هل تحميني الذاكرة من هذا التهديد؟ هل تستطيع سوسنة الماضي أن تكسر هذا السيف المرصع بالقذائف؟ ولماذا هي.. لماذا هي؟ لماذا تطلع السوسنة من نشيد الأناشيد وقد أوقَفَت الشمس والقمر على أسوار أريحا ليمتد زمن القتل؟

.. حصَّة للطفولة وحصَّة للشبق. جسد للمغفرة. جسد للشهوات. يذوب رخام الكلام ليصقل مدائح الساق التي تشق المقبرة إلى حديقتين: حديقة للماضي، وحديقة للحلم. ويلمع البرق الأول في العظام اليافعة. كم امرأَة أنت يا عنقود السماء الحافي! كم امرأَة فيك لأَسقط في زحام روحي وأنجو على توالد لحظة. كم امرأة أنت ليدخل الوقت في الوقت ويخرج خيطاً من حرير يصطفيني لاختيار مشانق الدم. كم امرأة فيك لتتقمص البرهة تاريخ الصلاة والمجون على قدمين هما ختم جهنم والجنة! كم امرأَة أنت لتكون سيرة هذا البطن المعجون من رائحة الفل ومن لونه التائه بين الضوء والحليب سيرةً لحروب الدفاع عن الصبا والأربعين. كم امرأَة أنت لأَستردّ الشتاء السابق من كل ما يأتي من مطرٍ اختار من قطراته شبهاً لما عرفت؛ ولأقارن اللذة باللذة، هل كنا معاً حقاً على صوف تلك الأَرض؟ أُقلِّد ما لا يتبدَّد من رعشة تهز الغرف حين يوحِّدُ ما يتجدد فينا ظنِّي بأني معك. ولم أَقل إِني أُحبك، لأَني لا أعرف إن كنتُ أُحبك ما دمت أُخبىء دمي تحت جلدك وفي شعيرات السرّ المقدس أذرف عسل النحل الأحمق، السرّ الذي امتصني لأَجد جسدي يتوالد بلا انقطاع. ولم تقولي أحبُّكَ لأَني لن أصدِّق أن جميع النساء اللائي وُلدن على جبل جلعاد وفي سومر وفي وادي الملوك يجتمعن عليَّ الليلة. كم امرأَة فيك لتنوح أحلامي على ما تفقد الأُم من شتاء يستحقُّ أن تكوني أُمَّه وسيدته. في كُلِّ امرأَة جميلة هِبَة من وصايا قدميك للأَرض، وإرث لا ينقطع عن تزويد

الغابات بهستيريا العشب. ليْتَ واحداً منا يمقتُ الآخر ليصاب الحبُّ بالحب. وليت واحداً منا ينسى الآخر ليصاب النسيان بالذكرى. وليت واحداً منا يموت قبل الآخر ليُصاب الجنون بالجنون.

□ □ □

خذني إلى أستراليا ــ قالت لأُدرك أنه آن لنا أن نبتعد عن الفارق والحرب. خذني إلى أستراليا لأنني كنت عاجزاً عن الوصول إلى القدس. كنت خارجاً من حزيران بعناد لم يرحمني: للجيوش أن تهزم، وللنحلة في قلبي أن تصمد، وللروح أن تنتصر عليَّ وعلى أعدائي. كانت الفتوة والغنائية تحفران لي مساراً آخر على جبل يطل على ساحات تاريخ: عظام أحصنة، ودروع مثقوبة، وأعشاب، من تلك الإطلالة يتضاءل الراهن ولا تعود الموجة عنواناً للبحر، فأحمي نفسي وربما غيري من هيجان اللحظة بانتقالي من شهيد إلى شاهد.

ولكن، لماذا أتذكرها في هذه الجحيم، في هذه الساعة من ساعات بعد الظهر، في هذا البار ــ الملجأ؟ أَلأَن امرأَة أُخرى جالسة قبالتي تعيد مشهد الصرخة، أم لأن مناماً أخرجها من منام هذا الفجر؟ لا أعرف كما لا أعرف تماماً لماذا أتذكر أُمي، ودرس القراءة الأَول، وفتاتي الأُولى تحت شجرة الصنوبر، وعقدة الناي التي لاحقتني خمسة وعشرين عاماً. تعود الدائرة إلى نقطتها الأُولى...

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة..

لا تقضمني كتفاحة، فلنا هذا الليل كله. خذني إلى أستراليا حيث لا أحد منا هناك، لا أنت ولا أنا..

كانت تضع الحطب في الموقد. كانت الأُغنية تعيد الأُغنية ذاتها: سوزان تأخذك إلى النهر. الكلمات جميلة، والصوت لا يغني بقدر ما يقرأ شعراً لا يصل إلى أي مكان. إنسان وحيد في البراري. إنسان يقول ليتماسك، ليحمي نفسه من العزلة، ليدل نفسه على نفسه.

متى تقبلني؟

عندما أُصدق أن في وسعي أن أصدق أن هاتين الشفتين مفتوحتان لأَجلي..

إذن لمن؟

لصوت قادم من كوكب بعيد. أتعرفين أن في وسع عينيك أن تُلَوِّنا أي ليل بأي لون تريدين؟

قبّلني!

مطر خلف الزجاج. وجمر داخل الزجاج. لماذا تمطر إلى هذا الحد؟

لكي تبقى فيّ...

تتوالد الشهوة من الشهوة. مطر لا يتوقف. نار لا تنطفىء. جسد لا ينتهي. رغبة تضيء الظلام والعظام. ولا ننام إلّا ليوقظنا عطش الملح إلى العسل، ورائحة البن المحروق قليلاً على اشتعال الرخام.

بارد وساخن هذا الليل. ساخن وبارد هذا الأَنين. ويكويني حرير لا يتجعد بل يشتد كلما احتكّ بمسام جلدي وصاح. الهواء إبر من لعاب دافىء بين أصابع قدمي، وعلى كتفي أفعى من الكهرباء تزحف وتشرئب على الجمر. وفم يلتهم هبات الجسد، ولا يبقى من اللغة غير صراخ الغرف الموصدة على حرب الحيوانات الأَليفة. وعرق يُبَرِّد الهواء ويجفل.

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة.

□ □ □

الساعة الخامسة بعد الظهر هنا. ناديت النادل: أعطني مزيداً من البيرة. هل مرَّ «س» لم أره من يومين. والسحلية؟ سألت عنه وذهبت. وأُستاذ اللغات السامية القديمة؟ لم يأتِ بعد. والشاعر الممتلىء بفراغ فصيح؟ ذهب منذ قليل. وأُستاذ الأدب الإنكليزي في الجامعة الأميركية؟ مرَّ في الصباح. والقائد المتقاعد؟ لم يأتِ. ووفد الهلال الأحمر الدولي؟ يأتي ويذهب. أعطني مزيداً من البيرة. أين النادل الباكستاني؟ يأتي في الليل.

لعل المرأَة الجالسة، قبالتي، لاحظت ما أسرق من ساقيها، فمدّدتهما، سلّطتهما على عطش رغبتي. وطلبت مزيداً من البيرة.

□ □ □

الساعة الخامسة صباحاً يا عزيزتي.

قالت بدعابة: وهل ينعس العربي؟ أما أنا فلا أُريد أن أنام.

قلت: نعم، ينعس العربي ويحاول أن ينام.

قالت: نمْ. وسأحرس نومك.

قلت: سيوقظني لَيْلَكُ نظرتك الصافية. هل تعرفين أن عينيك تدفعان أي ولد شقي إلى عبادة الهدوء؟

قالت: وماذا تفعلان بالرجل؟

قلت: تدفعانه إلى الفروسية.

قالت: نَمْ.

قلت: هل تعرف الشرطة عنوان هذا البيت؟

قالت: لا أَظنُّ ذلك، ولكن الأمن العسكري يعرفه. هل تكرهُ اليهود؟

قلت: أُحبك الآن..

قالت: ليس هذا جواباً واضحاً.

قلت: وليس السؤال واضحاً، كأن أَسأَلك: هل تحبين العرب؟

قالت: ليس هذا سؤالاً.

قلت: ولماذا كان سؤالك سؤالاً؟

قالت: لأن فينا عقدة، ونحتاج إلى إجابة أكثر من حاجتكم إليها.

قلت: هل أنت حمقاء؟

قالت: قليلاً، ولكن لم تقل لي إن كنت تحب اليهود أم تكرههم!

قلت: لا أعرف، ولا أُريد أن أعرف. ولكنني أعرف أنني أُحب مسرحيّات يوربيدوس وشيكسبير، وأُحب السمك المقلي، والبطاطا المسلوقة، وموسيقى موزارت، ومدينة حيفا، وأُحب العنب، والمحاورات الذكية، وفصل الخريف، ومرحلة بيكاسو الزرقاء، وأُحب النبيذ، وغموض الشعر الناضج. أما اليهود فليسوا سؤالاً للحب أو المقت.

قالت: هل أنت أحمق؟

قلت: قليلاً.

قالت: هل تحب القهوة؟

قلت: أُحب القهوة، وأُحب رائحة القهوة..

نهضت عاريةً حَتّى منّي، فأحسستُ بوجع مَنْ خلعوا عضواً من أعضائه.

صِحْتُ: تعالي فوراً، عودي من رائحة القهوة، فأنا ناقص، ولا أستطيع لا أستطيع.

ــ ماذا دهاك؟

ــ هل انتهى كلُّ شيء؟

ــ ماذا دهاك؟

ــ لا أستطيع العودة إلى نفسي..

[وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة].

ــ خذني إلى أستراليا.

ــ خذيني إلى القدس.

ــ لا أستطيع.

ــ ولا أستطيع الرجوع إلى حيفا.

ــ بماذا تحلمين عادةً؟

ــ عادة لا أحلم. وأنت بماذا تحلم؟

ــ بأن أتوقف عن حبك.

ــ هل تحبني؟

ــ لا. لا أُحبك... هل تعلمين أن أُمك سارة قد شرّدت أُمي هاجر في الصحراء؟

ــ وما ذنبي أَنا. أَلهذا لا تحبني؟

ــ لا ذنب لك، ولهذا لا أُحبك... أو أُحبك.

عزيزتي، جميلتي، ملكتي، الساعة الآن الخامسة والنصف صباحاً، وعليّ أن أعود إليهم:

ــ لمن؟

ــ إلى شرطة حيفا لأُثبت وجودي في الثامنة صباحاً.

ــ تثبت وجودك؟

ــ وفي الرابعة بعد الظهر.

ـ وفي الليل؟

ـ يأتون، في أي وقت بلا موعد، ليتأكدوا من وجودي..

ـ وإذا لم يجدوك في البيت؟

ـ سأكون مسؤولاً عن أية حادثة تقع في هذه البلاد، من مرتفعات الجولان حتى قناة السويس.

ـ وما هي العقوبة؟

ـ مجرد غيابي عن البيت ليلاً يساوي اعتقالاً لمدة خمس سنين على الأقل.

أما إذا وقع حادث أكبر، فإن العقوبة هي السجن المؤبد على الأقل.

ـ وماذا ستقول في المحكمة؟

ـ سأقول: كنت هنا، أحيا نشيد الأناشيد.

ـ مجنون؟

ـ مجنون...

ـ ولا تحبني؟

ـ لا أعرف.

[وكلانا يقتل الآخر تحت النافذة..].

□ □ □

... وهناك، في الركن القصيّ، أرى الفرس الطالعة من مدائح العرب. فرس تشاكس المجهول. فرس تشاكس اللغة. فرس تنبثق من قطرة الضوء المتلألئة على حقل تفتحه ذبذبةُ وَتَرَيْ غيتار يُنادي أعراس الفرسان القتلى. القباب والمآذن والأَبراج والمدى تتبع ظلّ العاشقة الذي يتبع جهة الرمح المتوتر. سأدير ظهري للخناجر كي أُلَامس طحلب المانغا وأسقط في علو الموت الشاهق محروساً بالنعناع والشظايا التي لا تسمح لأحد بالاقتراب من الفضاء المفتوح لخطوتين. الحب أن تترددي. والحب أن أسخى بمزيد من حيوانات الروح. والحب أن لا أسمع منك غير الأنين. للهواء أن يتحول إلى مادة صلبة. وللبحر أن يهدد. ولك أن تلقي بعتاد الجسد الخائف إلى أقصى الخوف لنأمن هذا الباب الخشبي الهش. اصعدي مائة واثنتي عشرة درجة كي يتصبب لهاثك صهيلاً يتعب وكي أمسح العرق بجلدي المنذور لهذا الواجب. سأدعوك «ج» لأَنك مطلع الجنون، ومطلع جهنم، ومطلع الجنة، ومطلع جميع الشهوات المنتصرة على حرب بجماع لا يتحقق إلّا في الخوف من الموت. دعي ابنتك تلعب مع أستاذ الكيمياء، وتعالي إلى مرصد الصواريخ لنرصد ما في الجسدين من قطط. قدمُك مصقولة كحجر في شتاء الجبال، حجر يندس في خاصرتي لأَصرخ نبيذاً من خوابي الأديرة. ولا أصرخ كي لا تظنّي أن شيئاً غير الحصار يوجع. ولا أردُّ التحية لأني تواطأت مع قصتي على رغبتي من أول خصلة شعر كسرتني. فللشهوة أيضاً قناع، لتطول اللعبة عاماً آخر. تعبتُ من قناعي، ومن لعبتي، ومن تعبك. فلا

تدقي بلاط الشارع أكثر بصهيل يحفرني. تعبتُ من حوادث سير لا تليق بهذه الحرب كأَن ترتطم كتفي اليُسرى بكتفك اليسرى في تقاطع صبيانيّ المشهد. ومن العار أن نموت حُبّاً في زمن الحرب. هل أحبك؟ لا أُحبك إذا كان الحب يستغرق وقتاً أَطول من إطلاق رصاصة على نخاع شوكي. وأُحبك، إذا كان الحب امتثالاً لصاعقة برق تضربني الساعة: تعالي لنعرف الجواب. تعالي لنسأل السؤال. فما على المحاصرين في هذا الركن الأَخير من العالم غير أن يُعْتقا جِنَّ الشبق من سجن الكلام والذهب. ومن الظلم أن نهاجر بلا التصاق. من الظلم أن نُرجع النظرة من منتصف الطريق إلى عيون تصبّ العسل على النار. عيناك تجرحان الحجر وتذيعان في دمي دبيب النمل، فمتى أجمع هذا النمل وأُعيده إليك، إلى بيت النمل، لأَتوقف عن حكّ دمي بنظرات الساق على الساق. أُخرجي من هذا الباب إلى اليسار، ثم انعطفي إلى يمين آخر. هناك شجرةُ زنزلخت كبيرة، شجرة وحيدة ستدلُّك على ساحة صغيرة.. اقطعيها واتبعي رائحة الهال إلى مدخل البناية كما يتبع كلب البحر رائحة الدم. اتبعي صوت دمي، واصعدي مائة واثنتي عشرة درجة. ستجدين الباب مفتوحاً، وستجدينني خلف الباب مشوياً من الانتظار، جاهزاً للموت واقفاً معك واقفاً فيك حتى يفصلنا صاروخ لنجلس. دقّي حجر السلالم كما يدق كعبك العالي طرف القلب ويترك قطعة صغيرة منه لكلاب الشارع. كم أُحب الحذاء العالي لأنه يشد الساقين في كلية الأُنوثة المتأهبة للاندلاع. والحذاء العالي يختصر

البطن ويفتح انحناءة لبطن ينكمش من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبّا على المارة المحرومين مما يهتفون. والحذاء العالي يصُبُّ القدمين في أُهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبة محروقة. والحذاء العالي يتلع الجيد كلحظة انقضاض الخيول على هاوية. والحذاء العالي يوقف الرمح على منبر من هواء صلب. دُقّي بلاط الشارع بنفور غزال لا تتلقفه ذراعان ولا كلمات. واتضحي رويداً رويداً خلف الباب المغلق. أمام الباب مقعد جلدي صغير يحملنا ويتسع لنا. سأجلس أولاً وتجلسين. فغرفة النوم مكشوفة من جهة البحر الذي يرانا، ويتوعد، ويقصف. وغرفة الاستقبال مكشوفة من جهة البحر. وغرفة المكتبة مكشوفة من جهة البحر. ولم يبق لنا غير هذا المقعد الصغير، ارتجفي وانتفضي وانقصفي، ولا تنزعي ثيابك لئلا يرانا الموت عاريين. فرس على حضن رجل. لا وقت لغير الحبّ السريع ونزوة الخلود العابر. لا وقت للحب في حرب لا نسرق منها غير امتصاص مصادر الحياة. أمن طبيعة الحرب أن تخلق الشبق؟ أمن طبيعة الخوف من الموت أن يتوتّر هذا التوتُّر؟ يدان تخرمشان الحائط لمنع القطط من الرحيل. وفم مفتوح لأصوات البراري الموحشة لإغراء الذئاب. وأُحب هذا الحب الذي لا ثرثرة فيه ولا أناقة كلام وارتداء ثياب على مهل وعلى مهل. لا وقت لذلك الطقس الذي يُبدع الغربة وتباطؤ الخروج من العناق، فنهرب إلى سيجارة ندعي تأمّل ما ترسمه من دوائر الدخان الأزرق. وننظر إلى الساعة لا لنرى الوقت بل لنعرف متى يتسلل

أحدنا من الآخر. وأُحب هذا الحب الذي لا يترك وجعاً في الذكريات ولا ندبة في الروح. حب يُزَوّد الروح بهبوب الفراش على وردة الروح. لحظة عابرة أبقى وأنقى جمالاً من بيروقراطية الحب الطويل المحتاج إلى إدارة شؤون المواعيد وصيانة الحنين من العطب. نزوة هي مجال الشاعر في التباس التشابه بين المرأة والأغنية. نزوة هي حرية الصمت المتحرر من آخر ينقلب الصمت معه إلى غربة. عالمان لا يتداخلان إلّا بغير القمع. لا مساومة في العاطفة. عالمان يعودان ــ حين يصمتان ــ إلى ما كان من ذكريات لا تتصالح بقدر ما تتصادم. وأحب الحب على هذا المقعد الذي لا يحتاج إلى إعادة ترتيب لأنه لا يتجعلك، كما كنتُ أُحبه على ظلام صخرة على شاطىء بحر، أو في سيارة تختبىء في غابة صفصاف، أو في قطار ليلي لا نعرف فيه الأسماء، أو في رحلة طيران ليلي طويلة، أو على سياج ملعب يصفق فيه الجمهور لخطاب يشارك فيه العاشق العابر العاشقة العابرة الرقص والهتاف على نداء أوجٍ آخر. أحب هذه اللحظات النزوات المتحررة من الكلمات والواجبات. ولكن الحرب تضفي تصوفاً شهوانياً على هذا الاختلاس الرائع. فما أجمل أن نتغلب على الحرب فينا بهذا الخوف الذي يوحّد الجسدين. وما أجمل أن نُودِّع أيامنا على انفتاح وردة تعرق وتشهق وتتمزق من احتكاك الندى والملح، تحت قصف جوي وبري وبحري نسوس فيه مسار اللذة المستقيم صعوداً، ساخرين من عواء الحديد بعواء اللحم والدم والعصب المشدود. فلا تسأليني إن كنت أحبك أيتها

الفرس الطالعة من مدائح العرب. أيتها الفرس التي تترجّل عن حضن فارسها لتذهب إلى مهرتها الصغيرة، التي ترعى بين الصواريخ وأقداح البيرة وأستاذ الكيمياء والممرضات النبيلات القادمات من اسكندنافيا لاستبدال الموت إحباطاً وغمّاً بالموت في قضية. لا تسأليني إن كنت أحبك، لأنك تعرفين كم يعبدك جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد. خذي خبزاً وزجاجة ماء. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك لم تذهبي معي، كما ذهبت السوسنةُ الطالعة من نشيد الأناشيد. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك اختفيت كما اختفت. وستخرجين من منام يخرج من منام يا «ج» كما خرجت السوسنةُ هذا الفجر...

□ □ □

.. والقصف يقصف كل شيء، يقصف حتى الخوف. أفكر في هذا الركن القصي بهذا الشاب الباكستاني الغائب. ما الذي جاء به إلى هذه المدينة من آسيا البعيدة؟ كان يطارد الرغيف فاصطاده الرغيف في هذا الحصار. استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهث آلاف الكيلومترات كي يلامس هذه المعجزة الإِنسانية: رغيف الخبز، رغيف الخبز الذي قد يقتله في حرب لا شأن له فيها، فلا يعود حياً أو ميتاً إلى أي مكان، لا يعود إلى أي قبر. باطل الأباطيل والكل باطل. وأفكر في الطرائق المعدّة لنهاية جسد كافح حتى النضج ليحترق أو ليختنق. باطل الأَباطيل، والكل باطل. وقد علّمتنا معاشرة الموت أن الموت لا صوت له. إذا سمعت صوت الصاروخ فذلك يعني أنك حي، ذلك يعني أن

الصاروخ قد أخطأك وأصاب غيرك، أصاب العامل الباكستاني على سبيل المثال. الصاروخ يسبق صوته. إن لم تسمع صوته فاعرف أنك مت. باطل الأباطيل والكل باطل. ولكن ما سر هذه المناعة؟ أشعر بنعاس لا يقاوم.. نعاس أقوى من أية قوة.. نعاس سلطان..

ولكن «س» يوقظني. أراه مدججاً بمسدس طويل، ومتكئاً على لعبته العاطفية. أين كنت؟ أين كنت؟ اجلس معي إذا استطعت أن توقف ثرثرة السيدة، أو أرسلها إلى أية جحيم.

ــ أين اختفيت؟

ــ على إحدى الجبهات.

ــ ما هي أخبار الشباب؟

ــ صامدون. ولا يهتمون بنتائج المعركة. إنهم صامدون ويقاتلون. ولكن الناس تعبت ويقال إن صمودهم مرتبط بخروجنا. هل صحيح أننا سنخرج؟

ــ طبعاً.. سنخرج. ألم تعرف أننا سنخرج؟

ــ كنت أظن أن الخروج مناورة. هل سنخرج حقاً؟

ــ سنخرج حقاً.

ــ إلى أين؟

ــ إلى أي مكان عربي يقبل بنا.

ـ ألا يقبلون حتى استقبالنا خارجين؟

ـ بعضهم لا يقبل حتى جثثنا. وأميركا تطلب من بعضهم الموافقة على استقبالنا.

ـ أميركا؟

ـ نعم.. أميركا.

ـ هل تعني أن هذا البعض يريدنا أن ننتحر ونبقى في بيروت؟

ـ هذا البعض لا يتحمل صمودنا. ولا يدعونا إلى الانتحار أسوة بالكولونيل الليبي ولا يريد لنا أن نبقى في بيروت، أو في أي مكان على الأَرض. يريد لنا أن نخرج.. من العروبة ومن الحياة.

ـ إلى أين؟

ـ إلى العدم!

ـ ومتى سنخرج؟

ـ بعد أن نحصل على عناوين للخروج. وبعد أن نحصل على ضمانات بحماية المدنيين الباقين هنا، وبحماية المخيمات.

ـ أهناك ضمانات؟

ـ هناك ضمانات وقوات دولية ستصل لحماية المخيمات. ولكن السفير الإِيطالي قال لي، البارحة، كلاماً مثيراً للقلق. قال: لا أحد يضمن ألا يدخل الإِسرائيليون بيروت بعد خروج المقاومة.

ــ ألا يمكن إخفاء فكرة الخروج، لأَنها قد تؤثر على معنويات المقاتلين؟

ــ هذا صعب لأَن المفاوضين يذيعونها. والدولة اللبنانية متلهفة بحجة أنها تطمئن المواطنين.

ــ ولكن، لماذا سنخرج؟

ــ لا أحد يوافق على بقائنا، لا الداخل ولا الخارج، ولا تنس أن البلد ليس بلدنا. انتهت مُدَّةُ الضيافة. وبعض أطراف الحركة الوطنية يُهددنا. ولم يبق ما نعتمد عليه: لا مقومات داخلية، ولا مدد خارجي.

كان «س» أشدّ الناس قلقاً من هاجس الخروج، فهو يخشى اليُتم الجديد، يخشى أن ننساه في زحام هذه النهايات. كان واحداً من مئات الكتَّاب المهاجرين إلى مشروع الثورة المتحوّل إلى بيت وهوية. لا يملك ما يدل عليه، لا بطاقة هوية ولا جواز سفر، ولا شهادة ميلاد. ولهذا وجد فينا أهله ووطنه، نحن الذين لا أهل لنا ولا وطن. وكان مع المهاجرين السوريين والعراقيين والمصريين والفلسطينيين قد أنزل على بيروت معاني نهائية تمنح التباس العلاقة بها شرعية حق المواطن إلى درجة أجفلت الكثيرين من اللبنانيين الذين يعرفون مدينتهم ومجتمعهم أكثر منا، ويعرفون أنها لا تحتمل هذا الإسقاط. وقد لاحظ بعضهم أن السهولة التي يوحي بها التعامل مع بيروت، نصاً مفتوحاً للصراع والكتابة، قد بلغت حداً من الرهافة يستحق الحذر. ولكن بيروت هي المكان

الذي شهد ازدهار التعبير السياسي والإعلامي الفلسطيني. وبيروت هي مهد آلاف من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا مهداً آخر. وبيروت هي الجزيرة التي طفا عليها المهاجرون العرب الحالمون بعالم جديد، وهي حاضنة ميثولوجيا البطولة القادرة على تقديم وعد آخر للعرب غير وعد حزيران. فكان كل واحد يُمسك بما يعنيه من اسم بيروت الذي فتن الجميع إلى حدّ ارتكاب أخطاء لم ينجُ منها أحد، ودون أن يتمكن أَحد من تحديد المعنى الشامل لهذا الافتتان. وهكذا تحولت العلاقة ببيروت إلى إدمان جعل اللغة مجازية إلى درجة المواطنة، في غياب الدولة التي قهرت مواطنيها في كل مكان آخر، مما جعل استباحة الدولة، أية دولة في هذه الدولة، أحد أشكال التدرب العربي على ديموقراطية متخيلة. فصارت بيروت مُلكَ من يحلم بنظام آخر في مكان آخر، واتسعت لصياغة فوضى ذات جانب تعويضي حلّت في كل غريب عقدة الغربة. وصارت شرعية الانتماء إلى بيروت انعكاساً لشرعية المعارضة لنظام البطش العربي، فلم يعد على اللاجىء إلى بيروت واجب مراعاة نظامها المفكك، بل أباح لنفسه حق التحالف الداخلي لمواصلة تفكيكه خدمة لمشروع ديموقراطي أكبر يخاطب خارج بيروت أكثر مما يخاطب داخلها. ومن هنا، أحسّ المقيمون في بيروت، في تحالفهم مع أطراف قواها المتصارعة، بمقاييس أخرى للغربة والمواطنة تُحدد فيها للبنانيين أنفسهم وبمساعدتهم مقدار حقهم في وطنهم، لأَن الوطن تحول من جمهورية إلى مواقف. وفي الشعر أيضاً، لم يكن عُشّاق

بيروت لبنانيين. وحين أنشد الرحابنة للوطن لم ينشدوا لبيروت. كانت أغنية الحب الطالعة من الحرب «بحبك يا لبنان». لقد تمَّ استثناء بيروت لأنها لم تعد بيروت لبنان. ليست بيروت، في الاعتبارات الطائفية، لبنان. بيروت صارت عربية يغني لها العرب. وصار في مقدور شاعر لبنان سعيد عقل أن ينأى بلبنان الجمالي إلى أقصى غابات العنصرية، ليرى أن الحرب لا تدور بين «جيش لبنان وجيش فلسطين» فحسب، بل إنها حرب شعب بأسره.. «الطفل الفلسطيني عدو»..

«س» وآخرون كوَّنوا بيروتهم؛ صاغوها على صورتهم. وبلا مجاملة دخلوا في النسيج الداخلي للصراع الثقافي. وحين انفضّ عنهم حلفاء الثقافة وجدوا أنفسهم تحت العراء.

لقد سبقت الغزو الإسرائيلي عودة الكثيرين من المثقفين إلى أصدافهم الإقليمية، تعبيراً عن انهيار المشروع العلماني، وعن نزعة المثقف إلى الاحتماء بالطائفة في عراء الهزيمة الملوحة في الأفق.. جرت إعادة اصطفاف طائفي احتلت فيه الطائفة الممتازة مكانة النموذج. وقفز بطل الطائفة، الخارج من قاع الجريمة، إلى بطل منذور لسائر المعبّرين عن طوائف أخرى تحتذي استلابها، فتسابق شعراء البديل السابق، إلى إيوان الشرقية للحصول على صك غفران في محبة لبنان ممن أتقنوا ارتداء القناع الفاتن «تحرير لبنان من الغرباء». لقد احتاج الخراب إلى دولة، واحتاج الخائفون إلى أية دولة. فازدهرت الحياة الثقافية في المنطقة الشرقية المرشحة لتوحيد الوطن، وازدهر كازينو لبنان بعروضه الفنية التي لم

ينقصها غير فرقة الرقص الليبي المحاطة بدويّ إعلامي صاخب. ولم يتساءل أحد عن المغزى السياسي للهفة الكتائب على الرقصات الليبية، فقد كان المغزى شديد السخرية والوضوح.

وحين سجل «س» ملاحظة «الكرمل» على عودة بعض المثقفين من المشروع الديموقراطي إلى الصّدفَة الطائفية، حوّلونا إلى «سُنَّة». وانهالت علينا الحملات والتهديدات من الشعراء والرسامين والمسلحين الذين عدّوا نقد عودة المثقف إلى الطائفة تشهيراً منا، كمعبرين عن طائفة، بطائفتهم. وحين كنت أقسم بأنني لا أعرف ما هي طائفتي لم يصدقني أحد، لأن الوباء كان قد استشرى، ولأن أي فهم لما يجري في لبنان خارج حدود الفهم الطائفي هو فهم قاصر. كان «س» يحمي كتابته بعضلاته، فواصل زيارة مقاهي شارع الحمراء ومقارعة الحجة بتحسس المسدس. أما أنا، المشاع للحملات الصحافية، فلم أنجح في تبرئة نفسي من جريمة القول إننا «جزء.. لا جزيرة».

«.. التجربة مفتوحة على حوار الإبداع والأفكار. فنحن ما زلنا نحاول ملامسة التطبيق العملي لخيارنا الوحيد: الإبداع في الثورة، والثورة في الإبداع، لنتجاوز التجني الذي يرتكبه الميل العام إلى المناداة بالاختلاف، أو الخلاف، بين مفهومي الثورة والإبداع، حيث يحاول أحد أطراف هذا الميل تحقيق الطلاق بين اللغة الأدبية وبين الواقع لبلوغ «الأدب الصافي». ويحاول الطرف الآخر جرّ الأدب إلى تقديم الخدمات اليومية المباشرة للبرنامج السياسي. نحن نتاج هذا الواقع وهذا الزمن الذي تختلط فيه الانهيارات

الواضحة بالولادات الغامضة، ولا نتوب عن أحلامنا مهما تكرر انكسارها، ولا نواجه الأزمات التي تلتف حولنا بإسقاط الفكرة، وبالنزهة في الماضي والتراث. لأننا لا نكتفي فقط بتحديد المساحة بين الدم والنفط. فقد اخترنا أن نعتقد أن المستقبل يولد من هذا الحاضر، بالطريقة التي ننخرط فيها في عملية التغيير. ولا يأتي من ماضٍ يتحول في الأزمات إلى سيد الأيام. وحين نلاحظ أن الثورة لم تكتب بعد أدبها إلّا بالجسد، فإننا ندرك أن معادلة الفعل ــ القول المترابطة في سياق التجربة تنضج لتنتج الأدب الجديد. وندرك أننا جزء من الثقافة العربية الوطنية لا جزيرة فيها. لذلك لم نقبل أن يكون صوتنا هو صوت الهوية الضيّقة، بل ميدان العلاقة الأعمق بين الكاتب العربي وزمنه الذي تتخذ فيه العملية الثورية الفلسطينية شكل كلمة السرّ العلنية حتى الانفجار العام. إننا لا نؤسِّس تياراً في الأدب بقدر ما نشير إلى سياق أو مجرى كبير يعطي مفهوم وحدة الثقافة العربية الوطنية شكلاً من الأشكال، في وقت يتعرض فيه إلى أكثر من محاولة تفتيت أو وأد، وهي الثقافة المفتوحة على تاريخها في تعدد مصادره. وهكذا لا نقول إن الشرق شرقي كله، ثقافياً، وأن الغرب غربي كله. فنحن لا نعرف شرقاً واحداً ولا نعرف غرباً واحداً، ولا نريد أن نُحبَس في هذه الأوهام، بعدما أطلقها كراس أو كراسان، إلّا بقدر ما تستطيع هذه الحملة التمييز بين المصطلحات، وتحاشي الوقوع في بئر تغلق علينا الأفق كله، وبقدر ما توضع في سياق البحث عن استقلال يرفض التبعية ويرفض التآكل معاً. وحين نرى

إلى انحطاط بعض مستويات الثقافة، وهيمنة الطفيليات الطائفية عديمة الكفاءة والموهبة على غذاء الناس اليومي أو الأسبوعي أو الشهري، فإننا لا نعلق: هنا الأزمة فاهربوا... بل نضع الظاهرة في عنوانها السياسي، وننتبه.. ننتبه إلى أسلحة الأدب القادرة على إخفاء خيانتها وادعاء القداسة وهشاشة الأحلام تحت غطاء الاشمئزاز من السياسة، أي من الصراع. لا، لسنا غرباء على أية أرض عربية. الغرباء هم الذين يشيرون إلى غربتنا بأصابع اتهام، لأنهم غرباء عن تاريخهم وعن معاني وجودهم، غرباء في موجة عابرة لا يرى فيها اللص غير وجوه اللصوص. وإذا كنا لا نستطيع مجاملة السلفية فإننا لا نرى الاستقرار في فوضى التجريبية التي لا تريد أن تقول أكثر من تجريبيتها. وإذا كنا نشكو التقصير من القدرة على إتقان لغة الناس، في العملية الإبداعية، فإن ذلك لا يمنعنا من الإصرار على التعبير عنهم لنصل إلى لحظةٍ يحقق فيها الأدب عرسه الكبير، حين يصبح الصوت الخاص هو الصوت العام. نعم، إن للأدب دوراً.. وإن انقطاع التفاعل بين النص وبين الذين يتحول النص — فيهم — إلى قوّة، هو اغتراب الأدب الذي يصفق له الآن المبشرون بالهزيمة النهائية لكل شيء. وهنا نستصرخ النقد، نستصرخه ليسترد الإيمان بشجاعته وجدواه، نستصرخهُ ليدخل الساحة المستباحة، نستصرخهُ ليرسي المعايير التي أباح غيابها للجهل وللثورة المضادة أن يتبطّنا في ادعاء الحداثة. ندعو النقد إلى إعادة النظر، على سبيل المثال، في حركة الشعر العربي الحديث التي اتسعت لشن الحروب كلها ووصلت

إلى مفترق طرق أعلن، على الأقل، انهيار وهم وحدتها السابقة. وندعوه إلى تمزيق حصانة النص الشعري الذي لا يقبل أداة النظر فيه خارج أدواته، فيما يُحمِّل نفسه بكل ما هو خارج ادعائه من حمولة إيديولوجية يحتكر إخفاءها ويحرم الناقد أو القارىء من حق إعلانها. ولنسأل عن دكتاتورية النص. لقد أوصلنا الحياء أو الجهل إلى درجة صار معها التقدم يخشى الإعلان عن نفسه. وأدنى من ذلك: صارت سلامة اللغة تخلفاً. واستقامة الوزن رجعية. وصار الوضوح عورة. وصار القول ووصول القول همجية. وباختصار: تقدمت الرجعية القادرة على الوقوف يساراً بكامل عدة الحداثة الشكلية، حافلة بمعاني السلفية. واستطاعت أن تستدرج الآخرين إلى أسئلتها في مرحلة انتكاس المعاني العربية الكبيرة، وعودة أبناء الطوائف الضالّين إلى طوائفهم، أو تصوفهم، أو رموزهم.. معلنين التوبة عن عمر أضاعته حركات التحرر التي لم تُسفر إلّا عن صعوبات لم تكن متوقعة، وأضاعتهُ الثورة التي دلت على أنها باهظة التكاليف، في مرحلة اجتياح «الثقافة» النفطية أغلبية المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية، غير مكترثة بإعلان فارقٍ جوهري بين مستوياتها وإيديولوجية مصادرها، لأن تدمير الثقافة والمثقفين هو النتيجة الوحيدة الواضحة لظاهرة «رعاية» النفط للثقافة. هكذا تتحدد صعوبة المعركة التي نخوضها في سؤال الأدب، وهي انعكاس مباشر أو محوَّر لهجوم الرجعية السياسي والفكري التي لا تفتقر إلى أسباب الإفادة من فشل «رجعيات التقدم». وحين نكتب ونستكتب شعار حرية الإبداع

فإننا لا نستقطب غير نقاط الضوء والبدايات التي بعثرها الانقسام حول فكرةٍ أبسطُ مقوماتها: أننا نريد أن نحرر أنفسنا، وبلادنا، وعقولنا، وأن نعيش عصرنا بجدارة وكبرياء. وما دمنا نكتب فإننا نعبّر عن إيماننا بفاعلية الكتابة. من هنا، لا نشعر بأننا أقلية. نعلن أننا الأقلية ـــ الأغلبية. ونعلن أننا قادمون من هذا الزمن.. لا من الماضي ولا من المستقبل»..

لماذا أصابهم هذا الكلام بالهستيريا؟

لأنهم يريدون لنا أن نكون جزيرة محاصرة..

سألني «س» للمرة العاشرة: إلى أين سنذهب؟

قلت: لا أعرف. إن هناك ضابطاً في غرفة العمليات لتحديد العناوين وأسماء المهاجرين.

قال: رُبما ينسونني.

قلت: رُبّما..

خاف. خاف إلى درجة نَهَر معها امرأته الثرثارة التي تعرف كل شيء، وتمتلك جواباً لأي سؤال: اخرسي! قالها بإنكليزية كرّديَّة جعلتها تصمت لمدة عشرين ثانية كاملة، واصلت بعدها ثرثرتها. إنها راديو مفتوح لا يكترث بالمستمعين. إنها أقسى من حصار. كان يطفىء أسئلة ضياعه في وهم غرابتها. كان يستوطنها قارباً أو ملجأ. كان ينتمي فيها إليها، إلى ما يسند الغربة بالغربة، ريثما يعرف أين هو.

وجدت له حلاً: إبق معي.

استبشر خيراً: أين؟

قلت: هنا في بيروت.

صاح: هل أنت باق؟

قلت: نعم. باق.

قال: ولكنني لا أحمل جواز سفر ولا بطاقة هوية. مُزَوَّرَة كل أوراقي مزورة. فكيف أبقى، وإلى أين أذهب؟

قلت: أين تريد أن تذهب: السودان، اليمن، سورية، الجزائر؟

اختار: الجزائر.

قلت: سترحل إلى الجزائر.

قال: هل تعلم أنني لم أسافر مرة واحدة في حياتي؟

قلت: ستسافر كثيراً، يا بني، ستسافر كثيراً.

في هذا البار الصغير، شربنا في السنين الفائتة، وفي هذا الحصار، شربنا من عصير الشعير ما يجعل الحمير تنطق شعراً.

ــ بالمناسبة، أين المثقفون الغاضبون منا؟ لم نسمع أصواتهم منذ بدأ الغزو؟

ــ لقد ذهبوا إلى الجنوب.

ــ ليقاتلوا الغزاة؟

ـ لقد اشتاقوا إلى عائلاتهم. وقد يصبح بعضهم شعراء أرض محتلة، أو شعراء مقاومة.

ـ ألا يزالون يعانون من هذه العقدة؟

ـ ولن يخلصوا منها.

ـ إذن، لماذا يحذفون المثال؟

ـ ليكبروا، ليقتلوا «الأب» ويستقلوا..

هل تتوقع تحولاً في كتابتهم؟

ـ لا أتوقع شيئاً.

ـ ولكنهم أبرياء وطيّبون.

ـ وأسرى نموذجيْن متناقضيْن.

ـ سيكبرون في التجربة.

ـ في الطائفية لا يكبر أحد.

ـ ليسوا طائفيين. هم يتامى وخائفون. والطائفية موجة حماية عابرة.

ـ إذن، لماذا يستقوون علينا؟

ـ لأَننا غرباء.. ولأَن الدولة بدأت عملية تكوُّنها. سينتخب الإسرائيليون بشير الجميل رئيساً للدولة.

□ □ □

.. يا سيدة لبنان، احفظيه لكل لبنان. الدعاء الخافت ينتشر كالخيمة النبوية، كالسقف مرفوعاً على الدبابات الإسرائيلية، والعادة الإسرائيلية السرية تتحول إلى زواج علني. والإسرائيليون يتمددون على شاطىء جونيه. وبيغن يلتهم، في عيد ميلاده، دبابة «مركباه» مصنوعة من الحلوى، ويدعو إلى توقيع معاهدة سلام، أو تجديد المعاهدة القديمة بين إسرائيل ولبنان. ويعاتب أميركا: لقد أهديناك لبنان...

ما هي هذه المعاهدة القديمة المرشحة للتجديد؟

إن بيغن لا يعيش في زماننا، ولا يتكلم لغتنا. إنه شبح قادم من عهد الملك سليمان، وهو العهد الذهبي في التاريخ اليهودي العابر على أرض فلسطين، حيث «جعل النقد في أورشليم عادياً كالحجارة. وبنى الهيكل الباذخ على هضبة، وزَيَّنَهُ بخشب الأرز والصندل والفضة والذهب والحجارة المنحوتة، وصنع العرش الملكي من العاج المطلي بالذهب. وأبرم معاهدة مع حيرام ملك صور الذي أمدّه بالمعادن والعمال الاختصاصيين، واصطاد معه السمك في البحر الأبيض المتوسط. سليمان يبني المراكب وحيرام يُقدِّم له الملاحين. سليمان يبني الهيكل ويحكم بعدما دان له الملك، وتعلم شعبه من الفلسطينيين صهر المعادن وصك الأسلحة، وتعلم الملاحة من الفينيقيين، وتعلّم طرق الزراعة وبناء البيوت والقراءة والكتابة من الكنعانيين».

بيغن يتقمص سليمان. يتخلى عن مزايا سليمان، عن حكمته وأناشيده ومصادره الثقافية، ولا يأخذ منه غير العصر الذهبي

المرفوع على دبابة. لا يتعلم منه عبرة سقوط المملكة حيث ازداد الفقراء فقراً وازداد الأغنياء غنى.. لا يعنيه منه غير البحث عن ملك صور لتوقيع معاهدة سلام. أين ملك صور؟ أين ملك الأشرفية؟ بيغن يُجمّد التاريخ عند هذه اللحظة ولا يصل إلى نهاية الهيكل الذي لم يبق سوى حائط للدموع، حائط لا يدل علم التنقيب عن الآثار على أنه أحد أبنية سليمان. ولكن، ما لنا ولتاريخ ما خرج من التاريخ؟ فكل شيء بقي على حاله في وعي ملك الخرافة.. ومنذ ذلك الوقت لم يفعل التاريخ شيئاً في فلسطين وعلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية غير انتظار ملك الخرافة الجديد: مناحيم ابن سارة ابن بيغن الذي سيحمي الهيكل الثالث من الغضب الداخلي ومن الغضب الخارجي، بالتحالف مع ملك الأشرفية بشير، ابن بيير، ابن جميّل...

فدائيون من حَبَقٍ وحُريهْ

ومنذورون للجمرة

على قرميد أغنيّهْ

على أُسطورةٍ حُرَّهْ

هي الثورة،

هي الثورة...

خنادقهم هواءُ البَحْر

وظِلُّهُمْ يَشُقُّ الصخْر

نشيدُ نشيدهم واحد:
فإمَّا النَّصْر
وإمَّا النصر
ومنهم تُولَدُ الفكرة
هي الثورة،
هي الثورة...

وُلدنا فوق أيديهم
كما تتفتحُ الزهرةْ
فكمْ مَرَّه
وكم مره
سيُولد في ابنه الوالدْ؟
وتحملُ غابةً بذره
هي الثورة..
هي الثورة

.. وفي ساعات العصر هذه تتدلى السماء أكثر، مثقلةً بالرطوبة والدخان والحديد، سماء تصير إلى يابسة. ولا تستطيع المبارياتُ الإذاعية على صوت فيروز، الأثر الوحيد على وطن مشترك، أن تشير إلى شيء وإلى مشترك، لأن الصوت قد انفصل تماماً عن

مصدره، رحل عن أرضه إلى تجريد أزرق لا يخاطب العاطفة في وقت تحوِّل الحرب فيه كل شيء إلى تفاصيل. أُحبك يا لبنان — إعلان لا تصفق له بيروت المشغولة بشوارعها المقصوفة، المكثفة في ثلاثة شوارع. وبيروت لا تبدع غناءها، فذئاب الحديد المتوحشة تنبح من كل ناحية. والجمالُ الـمُغَنى له، المعبود، ينتقل إلى ذاكرة تشتبك الساعة بأنابيب النسيان الفولاذية. الذاكرة لا تتذكر بل تستقبل ما ينهال عليها من تاريخ. أهكذا يصير الجمال السابق، الجمال المستعاد في غناء لا يناسب مقام الساعة — جمالاً مأسوياً؟ وطن ينهار ويُرَمَّم في حوار الإرادة البشرية والحديد، وطن يرتفع على حنجرة تطل علينا من السماء، حنجرة وحيدة توحد ما لا يتوحَّد، وتؤلف ما لا يتآلف. هرب الكلام إلى البَعيد، أخذ الكلام كلماته وطار. فليس هذا الصوت عذابنا، ليس صوت الجنون.

وفي ساعات العصر هذه، يعجز البدن عن حمل أعضائه. وتعجز الروح عن الطيران. تتكوم فوق مقاعد الخوف واللامبالاة عاجزة عن الكلام. ونحن نجلس عاجزين حتى عن تبادل النظرات. آب بيروت لا تنقصه نار جديدة. خلفنا مدرسة تحولت إلى مستشفى. تحوم الطائرات بشراسة حول المستشفى. قال أستاذ العلوم السياسية القادم من الولايات المتحدة: سنصاب حتماً. فلنهبط إلى الطابق الأول. كان من الصعب إيقاظ «غ» فهي نائمة منذ شهر. ظننت أنها مريضة في الكبد. ولكنهم قالوا إن الخوف الشديد يدفع الخائفين إلى النوم العميق، النوم المتواصل. إنها تنام وهي

نائمة، تصحو وهي نائمة، تمشي وهي نائمة، وتأكل وهي نائمة. غبطناها على نظام الوقاية الذاتي. ولم يكن الطابق الأول أكثر أماناً من الطابق السادس، فلو قصفت البناية لبقينا تحت الأنقاض. تزايدت وتيرة الطائرات وازداد انخفاضها. قلت لأستاذ العلوم السياسية كي نخرج مما نحن فيه: أظن، يا دكتور، أن الجدل حول الجامعة المفتوحة قد انتهى الآن. قال: وانتهت مرحلة كاملة من مراحل العمل الفلسطيني واللبناني الوطني. وأوشكت تجربة المجتمع الفلسطيني الجديد في لبنان على الانتهاء. قلت: ومن أين تبدأ المرحلة الجديدة؟ قال حاسماً: ليس من الصفر كما قد يقال، ليس من البياض، بل من التراكم. لقد أنجزنا الكثير وعلينا أن نواصل تطوير ما هو صالح للتطوير.

لم يعد في مقدورنا تركيب جملة كاملة، وكان علينا أن نُعيد تركيب عناصر تجربة تتعرض للانهيار. لم يكن الرجل موحشاً، كان يعتني بأصوله القديمة ويفاخر بجذور تعرضت للاقتلاع منذ أربعين عاماً. يأتي من شيكاغو كل عام ليتدفأ بانبعاث شعبه. وقد ملَّ الغربة الطويلة في كلية العلوم السياسية هناك، وسكنه هاجس إنشاء جامعة مفتوحة للطلبة الفلسطينيين في الشرق الأوسط يكون مقرها لبنان. أن تطعن في جدوى الفكرة وقابليتها للتطبيق معناه أن تعتدي على أغلى أحلامه، فيتحول إلى كتلة من الأعصاب للدفاع عن مشروعه. كان المستوى التعليمي ينخفض في الجامعات. ولم يتورَّع بعض الطلبة عن تهديد الأساتذة بالسلاح، للحصول على علامات أفضل. كانوا يدخلون قاعات الامتحان

مدجّجين بالمسدسات. كم من شكوى تلقيناها دون أن يتمكن أحد من معالجة المشكلة بسبب اختلاط الهوية التنظيمية. وقبل ذلك كان الخناق يضيق حول الطلبة الذين لم يجدوا جامعات عربية لاستيعابهم. وكنتُ أمازح الدكتور: أفي مثل هذا المناخ الذي نعجز فيه عن ضبط شروط امتحان تؤسَّس جامعة مفتوحة تحتاج إلى استقرار اجتماعي ومستوى تربوي آخر؟ ولكن الدكتور كان شديد الإيمان بنجاح الفكرة، والأداة. كان يرى إلى واقعنا من بعيد. ومن بعيد تخفي الظواهر تفاصيلها وتقدِّم السطوح.

ــ ما هو مشروعك الآن؟

ــ سأعود إلى شيكاغو.

ــ والجامعة مفتوحة؟

ــ أُغلقت..

دخل علينا الأميركي الذي يظهر حين ينبغي له أن يختفي، الأميركي السعيد بما يرى، الشاهد على ما لا يتوفر لسواه من نعمة التجربة. حرب وحصار. أهنالك ما هو أكثر إثارة لأميركي يلهث وراء أية مأساة بكاميرا ودفتر وزوجة من هذا الموت؟ سمَّيته الـ «كوسمان» لأنه عاشق القضايا الساخنة. ولم أطمئن إلى ما يُبدي من افتتان بحرب تمدهُ بثروةٍ إعلامية. كان علينا أن نموت أكثر ليعمل أكثر، ولينتشي بمعايشة الضحايا. جاء من نيويورك، خصيصاً، ليتفرَّج علينا. لم يكن صحافياً محترفاً يركض وراء

الخبر لخدمة المهنة. كان هاوياً يصور المآسي بعدسة كاميرا تلفزيونية وعلى أشرطة تسجيل.

ــ ما هو شعورك؟

ــ عكس شعورك.

ــ ماذا تقصد؟

ــ هل ستعترفون بإسرائيل؟

ــ لا ..

كان الدكتور قد استدعي إلى القيادة ليشارك في صياغة عبارات قانونية غامضة تداور حول هذا السؤال الذي كان يشارك في القصف.. عبارات غامضة حول قرارات مجلس الأمن. كانت الضحية مطالبةً بالاعتراف بحق قاتلها في قتلها. كان المطمورون تحت الأنقاض مطالبين بإعلان شرعية قاتلهم. لم تكن الفرصة مواتية لمثل هذا الاغتصاب السياسي، بقدر ما كانت السّادية أسراباً من الطائرات. لأول مرة يُطالَب غيابنا بالحضور الكامل: الحضور من أجل تغييب الذات. من أجل الاعتذار عن فكرة الحريّة. من أجل القول أن غيابنا حقّ من أجل تزويد حقّ الآخر بحقٍّ تقرير مصيرنا. الآخر الحاضر في كامل أجهزة القتل يطالبنا بالحضور قليلاً من أجل إعلان حقّه في دفعنا إلى الغياب النهائي..

ــ لماذا نطالب، الآن، بالاعتراف؟

ــ من أجل سلامتكم، ومن أجل سلامة العالم.

ــ الغريق لا يحرص على جريان النهر. المحترق لا يحرص على بقاء النار مشتعلة، والمشنوق لا يحرص على متانة حبل المشنقة..

□ □ □

كنتُ أحمل عنقود عنب وجريدتين، حين انقضَّ عليَّ حرف «الهاء» الخائف، الخائف أبداً، في السلم والحرب، الخائف من أيِّ شيء: من ليلة بِلا عاشق، من عام بلا كتاب جديد، من بيت بلا بيانو، من شهر بلا نقود، من طريق بلا غزل. انقضَّ عليَّ كما تنقضُّ التهمة على لص: متى تخرجون.. متى تخرجون؟ لقد دمرتم بيروت بهذا العبث البطولي.

قلت: تعنين البطولة العبثية؟

قالت: لا فرق. أما زلتم تصدِّقون؟

قلت: نُصدق ماذا؟

قالت: أي شيء، اخرجوا.. اخرجوا كي تعود المياه إلى أنابيب البيوت..

هي دائماً هكذا: عصبية، شقية، ذكية، غبية، وجذابة كعصفور الدوري. تقدِّس الماء والعطر. وهي الأولى لكُل عاشق من فرط رهافتها ودعتها المتجددة. عذراء البدايات من عشرين عاماً، وتُربي تموجات بطنها لإغراء أسراب الحمام. تندفع وتتراجع. تلعق بلسانها قدم العاشق، تغسل جواربه وقفاه، تحلق له ذقنه، تقدم له النهار على طبق من كستناء، وتقدم له الليل على سرير من فُلّ.

وسرعان ما تسخر من اندفاعها وأوهامها: أخطأت. إنه لا يساوي شيئاً. كنا نداعبها، أنا وأهلها، ونُسمي طباع خيبتها «جورج». هل تذكرين جورج؟ فتقفز من وجهها الطفولي لتعضنا واحداً واحداً. نحن نواصل الضحك وهي تواصل كسر الأطباق.

أحببتُ مروحة عواطفها وبراءة الشيطان فيها، وخوفها من الطائرات حين تجعلها تقفز كجندب فوق الأثاث وتصرخ: بس بس.

أبوها يبكي على أي إنسان يموت في أي مكان. أُمها تُصلي لسيدة لبنان ليحمي بطلها لكل لبنان. وأختها تُعدُّ الطعام لولد لا يشبع، وتنتظر خط الهاتف للاطمئنان على الشاب الفرنسي. وأنا أواصل الاعتذار عن وجودنا في بيروت.

ــ متى تخرجون؟

ــ حين يوقفون القصف، ويصبح الميناء آمناً. اهدئي يا «هـ» فلسنا نحن الذين نملك هذه الطائرات.

ــ إلى متى تمضون في شيء لا يوصل إلى شيء؟

ــ خذي عنقود العنب. وابحثي في الجريدة عمَّن مات. إنهم يقصفون حتى بيوت العجزة، ويقصفون الشهداء ليعيدوا إنتاج موتنا.

ــ هل ستذهبون وتتركون شهداءكم؟

ــ إذا استطعت أن تعيدي إليَّ ما في دمك من دمي، فسنأخذ

معنا شهداءنا إلى البحر.

ـ لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا بخار المرايا، أحلام منتصف الصيف، وأغاني فيروز عن بيسان.

ـ لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا خبز الكلام.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا دخان القلوب المحترقة.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا الصمت الذي يسبق غايات القصائد.

ـ لا أقصد أن...

ـ وسنأخذ معنا آثار المطر المتجعد على خطى حاولت أن تسمّي الوقت.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ما استطعنا أن نراه من هذا البحر. سنأخذه معنا إلى البحر.

ـ لا أقصد أن..

ـ وسنأخذ معنا رائحة القهوة وغبار الحبق المفروك وهاجس الحبر.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ظلال الطائرات وصوت المدافع في أكياس مثقوبة..

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ما خفَّ حمله من الذكريات، وعناوين أُسطورة، ومطالع الصلاة.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ ولن نأخذ معنا شيئاً. لن نأخذ معنا شيئاً.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ لن نأخذ معنا شيئاً. خذي سريري ومكتبي وحبوب نومي. خذي غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب.. خذي الغياب.

□ □ □

هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ أيام. ولم يعد في مقدور الطائرات أن تخيفني كما لم يعد في مقدور البطولة أن تطربني. لا أُحبُّ أحداً ولا أَكره أحداً ولا أُريد أحداً ولا أُحسُّ بشيء أو أحد. لا ماضي لي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصفة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي أن

أخجل من دمعة أُمي ولا أن أرتعش من تقاطُع حلمين وُلدا في لحظة واحدة عند الفجر...

□ □ □

لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
شَجَرٌ لا ينحني. يا ليتني.. يا ليتني
أعرف الساعة من أين يطيرُ القلب كي أرمي لها
طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني
لم أَمُتْ بَعْدُ، ولا أعرف هل أكبر يوماً واحداً
كي أرى ما لا يُرَى من مُدُني
لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
حائط يبعدني عن شجني
ولنا البحرُ إذا شاءت، وإن شاءت فلا
بحر في البحر. هنا أسكن فيها رايةً من كفني
وهنا أخرج مما ليس لي
وهنا أدخل في روحي لكي يبدأ مني زمني
ولتكن بيروت ما شاءت. ستنساني لأنساها
أَأَنسى؟ ليتني .. يا ليتني!

أستطيع الآن أن أُرجع مني وطني

ليتني أعرف ماذا أشتهي

يا ليتني

يا ليتني!

□ □ □

غروب للغروب تندفع كُتَلُ الغيوم السوداء المعبأَة بالبارود نحو حافة البحر. تحمل الطيور تعبها وتحوِّم باحثة عن بقعة لا تطاولها أجنحة الطائرات. غروب يدلُّنا على ما فينا من تعب. ينهال علينا الظلام والفحم والقنابل ليشتاق الجسد إلى جسد يضيء شوقاً لا لهفة فيه ولا موت؛ شوقاً معدنياً آليّاً لا تخترقه عصافير سريّة ولا نغم بعيد، شوقاً مقطوعاً من شجرة الطارىء كما يشتاق الوقت الميت إلى حَبَّة فُستق مالحة، أو إلى أي صوت صادر عن راديو..

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ لقد سئمت ذلك الدرج. سئمت تلك الثرثرة هناك. وهناك شرفة الشاعر الذي رأى سقوط كل شيء، فاختار موعد نهايته. أَمسك خليل حاوي بندقية الصيد، واصطاد نفسه، لا ليشهد على شيء، بل لكي لا يشهد شيئاً ولا يشهد على شيء. لقد سئم هذا الحضيض، سئم الإطلال على هاوية لا قاع لها. وما الشعر؟ الشعر أن يكتب هذا الصمت الكوني، النهائي، الكُلي. كان وحيداً، بلا فكرة، ولا امرأَة، ولا قصيدة، ولا وعد. وماذا بعد وقوع بيروت في الحصار؟ أَيُّ أُفق،

أَي نشيد. لعبت معه «طاولة الزهر» منذ أكثر من شهر. لم يقل لي شيئاً. لم أقل له شيئاً. جلسنا ولعبنا. لعبة لا ذكاء فيها ولا مناورة. الحظ هو الذي يلعب. وعلى الحظّ أن يطيع خليل حاوي، وإلّا غضب على الحظ وعلى شريك اللعب. كان يعنيه كثيراً أن ينتصر، عكس الشاعر «أ» الذي ينتصر ويبتسم وينهزم ويبتسم، لأن ما يعنيه وما يراهن عليه يقع خارج هذا اللعب. لذلك يفتقر اللعب معه إلى شيء من الحماسة، عكس خليل حاوي المتحمس، المتوتر، اللاعن الطاعن في الهجاء. لا أُريد أن أطل على شرفته. لا أُريد أن أَرى ما فعله نيابةً عني. لقد خطرت الفكرة نفسها على بالي وتراجَعَتْ أو تراجعتُ. وقريباً من هذه الشرفة، بعد أربعة شوارع تحت، سقط شاعر آخر منذ قليل، شاعر سمَّى نفسه الذئب والغجري وسيِّد الرصيف. كان يوزِّع هويته الشعرية «الرصيف» عندما أُصيب بقذيفة. كان عَدُو المؤسسة، أية مؤسسة. وكان ينشيء مؤسسة الرصيف، كان ينشيء مؤسسته. ولكن منافسه على الرصيف، خصمه العنيد «ر» يقول باعتزاز: أنا قتلت علي فودة. كيف قتلته؟ ـــ سألناه. قال في هدوء عقلاني: سلَّطتُ عليه كراهيتي. كراهيتي هي التي قادت القذيفة إلى بطنه. أنا الذي قتلته. ألستَ نادماً؟ سألناه. قال: لا.

إنني أكرهه حيّاً وميتاً، وأستحق التهنئة.

□ □ □

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ قادتني خُطاي في ضوء

الطائرات والقذائف إلى منزل «ب». يبدو لمن لا يعرف «ب» أنه يقود هذه الحرب كلها، من الجبهة العسكرية إلى المفاوضات إلى الإعلام. حيوي، فتيّ، شقي. وجد في هذه الحرب لعبته الضائعة. إحدى يديه على الهاتف، يصرح بما يعرف وبما لا يعرف. ويده الأُخرى تكتب الأوامر والتعليمات والتوصيات. ينظِّم عشرين موعداً في الساعة ولا يتعب. خليَّةٌ نحل في رجل كَرَّسته الأَقدار للطنين. صديق بلا شروط. مرح، ذكي، معطاء. وفي منزله صَنَم لا يتكلم. صنم يُهتَفُ له. يُسجدُ له. كلما صمت أكثر أثارت حكمة صمته عاصفة من التصفيق. وفي منزله صديق اسمه «أ» قادر على تصوّر شكل العالم بعد نصف قرن من الزمان. أفكاره المبنية على منطق شكلي سينمائية الإثارة. يتكلم عن الدول الكبرى والصغرى كما يتكلم عن شوارع بيروت، بلا كلفة وبلا تردُّد. وإذا صَدَقَتْ آماله فهذا يعني أن هذا الشرق سيُحاصر بعد قليل بين نوعين من كهنة الظلام. أُوافقه على هذا الاحتمال باعتباره حداً أقصى لتطور التدهور، باعتباره أحد أشكال الكارثة القادمة. ونختلف إلى ما لا نهاية حين يرى أن ذلك هو طوق النجاة الوحيد، وأن في وُسع ظلام أن ينتصر على ظلام، ويكون الفجر لنا. وأنا لا أُصدِّق ولا أُريد أن أُصدق أن تاريخ هذا الشرق سيكرر نفسه بطريقة ميكانيكية أو حتى إبداعية، مهما انفصلت شعارات السياسة الحديثة عن مبادئها، ومهما تخلَّص الخطاب من مضمونه، فلن أتوقع تغيير العرب وتطوير العرب من غير العرب. ولا أرى أن ذلك النموذج المعدّ لإغراء اليائسين من

العصر بالإيمان قد يَعِدُنا بما هو دون العودة إلى الصراع على أسئلة لم تعد أسئلتنا. ما لي وأخطاء عثمان بن عفان؟ إذ ليس هذا التاريخ، وحده، تاريخي..

يصرُّ «أ» و«ب» على أننا لن نخرج، لا لأَنهما يفتقران إلى المعلومات وخبايا المفاوضات، بل لأن فكرة الخروج من بيروت تُشبه فكرة الخروج من الجنَّة أو من الوطن. كان يصعب على مَنْ شارك في صياغة التجربة وشهد نمو بدايتها المرافق لنموِّه الشخصي أن يلقى نفسه خارجها وهو يلامس نهاية بدت له صاعقة. لم يكن أحد قد أعدّ نفسه، ولو في الخيال، لمثل هذه الفرضية. لنفترض أن موازين القوى أخرجتنا من هذا المكان، فماذا أعددنا للرد على الاحتمال؟ ماذا أعددنا لما هو أسوأ؟ ماذا أعددنا من بدائل لهذا التمركز المؤسساتي الكثيف؟ هل أصابنا نوع من القدرية ومحالفة الحظ؟ ألم ننجُ أكثر من مرة، فإلى متى نعتمدُ على النجاة؟..

و«م» صامت بعيد عنا، وبعيد عن السحالي. منكفىء. يرى البحر. يرانا في البحر. كأنه خارج، للتّو، من كابوسي. لا يراه أحد وهو يدثر بالصمت ويردّ عنا أمواج البحر المتلاطمة في الغرفة. هل ترى ما لا نرى يا «ميم»؟ يرد: وهل ترى ما لا أرى يا «ميم». خفت: هل رأيت حلمي. لم تكن أنت في منامي. قال: لم أكن في منامك، ولكن هل ترى ما لا أرى؟

هدأت أصواتهم ليتأكدوا من أننا أُصبنا بالجنون.

أخذني إلى الشرفة: هل شقّتُكَ آمنة؟ سألت: ماذا تعني؟ قال: هل تصلح لنوم القائد. هل جيرانك معنا أم ضدنا؟ قلت: البحر ضدنا. قال: هل تعني أنك تخشى على سفينته؟ قلت: أعني أن واجهة شقتي زجاجية ومفتوحة على قذائف البحر. قال: لا تصلح. ومن الأفضل أن ينام، الليلة أيضاً، في كَراج للسيارات أو على الطريق.

هَبَّتْ رياحُ الجنة. لقد استعدَّ لكُلِّ شيء، وأبطل توقيعه. لم يبق على المسرح احتمال لدخول شخصيات جديدة. ووقف وجهاً لوجه أمام القضاء والقدر. هل كانت التراجيديا إغريقية أم شيكسبيرية؟ لقد زُجَّ بكل عناصر الدراما في المشهد الطويل. فهل يُضَحِّي بالطفلة الرهينة بيروت أم يخرج إلى ما لا يعرف؟ هل يموت هنا في انفجار عظيم لتُشهر الفكرة نُبوَّتها، أم يُنقذ هذا البناء على السفن؟ لم يبق هنا شيء يُحرك ما هو خارج البحر والسور. وانفضّ العالم من حول المشهد. وحيد.. وحيد إلى ما لا نهاية. هل كان وحيداً منذ البداية دون أن يدري. هل جاء متأخراً أم جاء مبكراً هذا الحاملُ عود الثقاب في حقول البترول؟ وحيد كمقطع في نشيد لا مطلع له ولا ختام، وحيد كصرخة القلب في برية..

بعض الجمعيات الدولية يُعِدُّ لنا الخيام لمواجهة الشتاء القادم، فنحن ما زلنا ــ في وعيهم ــ لاجئين يستدرّون العطف ويخافون الشتاء. وأميركا تحتاج إلينا قليلاً، تحتاج إلينا لنعترف بشرعية ذبحنا، تحتاج إلينا لننتحر لها، أمامها، من أجلها. والقبائل العربية

تقدم لنا الدعاء الصامت بدلاً من السيوف. وبعض العواصم يمجد بطولاته فينا وينكر دمنا. فلا اسم لمن يقاتل حول المطار! وبعض العواصم يعد لنا خطاب الوداع الجنائزي.

□ □ □

هبَّت رياح الجنة. فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة؟

لن يقول..

سألت «م»: أي بحر سنسلك؟

قال: البحر الأبيض، ثم البحر الأحمر.

قلت: لماذا أنت بعيد؟ هل كنت في منامي أمس؟

قال: لا أعرف. أي منام؟

قلت: كنا هنا. الغرفة ذاتها. الكلام نفسه. الصنم نفسه. والغارات هي الغارات. دخل حارس البناية ليبلغنا أن شخصاً غريباً يدَّعي أنه صديق قديم قد جاء لزيارتكم. فوضع كل رجل يده على مُسَدَّسه لاستقبال ما يسفر عنه الباب من غموض. وخبّأنا الصنم في الحمّام. ولكن الزائر كان عز الدين قلق بتوتره الضاحك. سألناه: كيف وصلت؟ قال: كما وصلتم وصلت. لم يتغيَّر فيه شيء. بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر إليك بريبة مَنْ يقابل غريباً لا يعرفه. قلنا له: اطمئن يا عز، فإن «م» في غرفة العمليات.

كنا نتكلم معه بلا دَهَش، كأَنه مسافر عاديّ قادم من باريس. كان يواصل حضوره بيننا ويشاركنا عملية الانسلاخ الجماعي

الكبير عن هذا المكان. نسينا أنه غادرنا إلى الأبد منذ عشر سنين، وأن الموتى لا يزورون الأحياء إلّا لإثارة التأويل. ولكن عز الدين بيننا بلا جلبة ولا فزع.

سألته عن أحواله هناك في الآخرة. قال إنها عادية لا جديد تحت الشمس. قلت: هل هناك شمس؟ قال: نعم، هناك شمس. سألته عن المناخ فقال إنه حار ورطب لأنّ المناخ في آب حار ورطب. سألته إذا كانوا هناك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال إنهم يتابعون الأخبار، ساعة، ساعة، على شاشة التلفزيون. ويتألمون من الغيظ لعجزهم عن تقديم أي عون لنا. سألته عمَّن وصل إليهم منا لعلّهم قدموا لهم شهادة حيَّة عما يجري. قال: لم يصل إلينا أحد. قلت: وقد نسفوا مقبرة الشهداء، فهل نجا أحد من الشهداء وجاء إليكم؟ قال: لم نقابل أحداً منهم، وسألته أين تقيم؟ في الجنة أم في النار؟ قال مستغرباً: ماذا تعني؟ قلت: من أين جئت: من الجنة أم من جهنم؟ قال جئتُ من هناك... من الآخرة. حدَّقت فيه مليّاً لأتأكد من آثار عنوانه على جسده، فوجدته طبيعياً وعادياً كما غادرنا، لا آثار للجحيم ولا علامات للنعيم. أهذا كل شيء يا عز الدين.. أهذا كلُّ شيء؟.. هل تزوجت؟ قال لم أجدها بعد. مَنْ لا حظ له في الدنيا لا نصيب له في الآخرة. سألت: وكيف تقضي وقتك هناك؟ قال: كالمعتاد.. من المكتب إلى غرفتي في الحيّ الجامعي، ومن قاعات المحاضرات إلى بيوت الطلبة. وأتذكرك حين أُسافر في القطار من باريس واقفاً، وحين أطلُّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة،

وحين أدخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميع أشكال الخبز، وأتذكر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنا في عيد الثورة: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام، فرددنا عليهم: سحقاً سحقاً بالأَقدام لدعاة الاستسلام. التفتنا إلى «ب»، فلم نجده.. كان مشغولاً بحماية الصنم من القصف..

قلت لعز الدين: أما زلنا، قبل التكوُّن في حاجة إلى الأوهام لنتكوَّن؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة التكون في حاجة إلى أصنام يعبدها بحثُنا عن المثال؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة سباق الدم مع الفكرة، وسباق الفكرة مع الإطار. في حاجة إلى حبر فاسد. وإلى أدب مبتذل لنقول إننا مؤهلون؟

قال: يبدو ذلك..

قلت: إذا كان الجواب عن ذلك هو يبدو ذلك، فلماذا نخرج من بيروت إلى الفضيحة.. ودواليك؟

قال: لا أعرف.

قلت: كيف تفكرون هناك؟

قال: مثلكم. كما تفكرون هنا.

قلت: يا عز الدين، ماذا تفعل هنا. ألم تُقتل؟ ألم أكتب فيك رثاء. ألم نمش في جنازتك في دمشق. هل أنت حيّ أم ميت؟

قال: مثلكم!

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا أحياء، فهل أنت ميت؟

قال: مثلكم.

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا موتى، فهل أنت حيّ؟

قال: مثلكم.

صحت: يا عز الدين، ماذا تريد مني؟

قال: لا شيء.

قلت: إذن، دعني وشأني.

قال: آن لي أن أذهب؟

قلت: إلى أين؟

قال: من حيث جئت.

قلت: إبق معنا قليلاً.. سنخرج معاً.

قال: انتهت إجازتي، وعليَّ أن أعود.

قلت: من أين جئت؟

قال: لا أعرف...

صافحنا واحداً واحداً. ولكنه خصّك يا «م» بنظرة خاصة سحبتك منا قليلاً. عانقناه على الباب.. حيث تلاشى كخاطرة شاردة. نظرت إلى الدرج فلم أجده. نظرت إلى الشارع فلم أجده. اختلط بأمطار القذائف. لم أجده في أي مكان. نظرت إلى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً.. عز الدين اختفى.

قلت لهم: هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا: من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت: عز الدين.

قالوا باستهجان: من هو عز الدين؟

صرخت: الرجل الذي كان معنا. هنا. الآن. وما زالت خطواته تدقُّ الدرج!

نظروا إليَّ كما ينظرون إلى ممسوس. أشرت إلى مقعده المسكون بطيْفه:

هنا. هنا.. كنتم تتحدثون إليه. كنتم تعانقونه.

لم يصدقوني. قدموا لي كأساً من الماء وفنجان قهوة..

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور؟

□ □ □

.. البحر يقترب منا. الخريف يقترب من البحر. آب يُسلمنا إلى الخريف. فإلى أين يأخذنا البحر؟

القصة إياها، لا أكتبها ولا أنساها. غصَّةُ الكتابة وحرمانها الأَبدي، قصة الرجل الذي جلس سبعة وعشرين عاماً فوق صخرة على شاطىء صور. أما آن لها أن تعتقني؟ أم آن لها أن تأخذني معها إلى البحر. ولكن من يفكر بالكتابة في هذا اليوم، سأنسخها مرة أخرى لأتدرّب على الكتابة، سأنسخها لأجد طريقي في البحر. تعبتُ من كثرة ما سألتُ هاني: كيف نُسمِّي الرجل الذي نسينا اسمه؟ ومتى تأخذني إلى الصخرة التي هبط منها كمال إلى البحر؟

سأل هاني: من هو كمال؟

قلت: هو الرجل الذي أسألك عن اسمه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي كان جالساً فوق صخرة على شاطىء صور، في انتظار حمامة تظهر من الجنوب الغربي حين تكون الرؤية واضحة وحين يكون البحر عاقلاً. ولم يكن يعرف شيئاً، لا شيء، غير تلك الحمامة التي لا يعرفها أحد. كانت سرّهُ الباقي. وحين كان أصدقاؤه في المخيم يجتازون الحدود ويعودون أو يموتون، لم يكن يكترث بأخبارهم أو بطولاتهم. كان يجلس على الصخرة في انتظار الوقت المناسب الذي سيأخذه على البحر إلى الحمامة. ولم يكن بإمكان الطائرات المغيرة أو جنازات الشهداء أن تسلخه عن الصخرة. كان الضباب والغروب، وحدهما، يعيدان كمال إلى العائلة.

سألت هاني: هل تعيش حمامة سبعاً وعشرين سنة؟

قال: إن كمال يعتقد أنها تعيش من الأَزل إلى الأَبد.

سألت: ولماذا لا يصطادها؟

قال: لأَنها لا تطير، ولأَنه لا يستطيع الوصول إلى بُرجها. وأخيراً وضع يديه على الطاولة وفتحهما ليسكب السرَّ دُفعة واحدة: لماذا أتعبك وأتعب صدري؟ فالمسألة لا تحتاج إلى كُلِّ هذه الأَسئلة.

الحمامةُ هي حيفا..

... لأَن جبل الكرمل المنبثق من صعود البحر إلى السماء ومن هبوط السماء إلى البحر، يرسم معجزة: أعني عنقاً مُطوَّقاً بقبلة مجبولة من حجر وشجر، أعني حيفا تتقدَّمُها شهوة حادة في كل منقار مُلَوَّن يشهد علي أن في مقدور موجة جامحة أن تتحجَّر من الأَزل إلى الأَبد. لأَن الأمر كذلك فإن حيفا تشبه الحمامة. وكل حمامة تشبه حيفا.

ولكن ما لم يدركه كمال هو أن المدينة تطير... تطير في دمه.

وكمال ينطوي على سرِّه. يلتف بذكرياتٍ صارت أحلاماً. يتعبَّد. يزيح عن نفسه زمناً لا يستهويه فلا يعترف به. كُلُّ ما يجري في هذا الزمن هو هَمُّ الآخرين أو صغائرهم. اندلعت حروب أربع دون أن تعنيه أو تكون حروبه، طالما لم تأخذه شظيّةٌ واحدة من شظاياها إلى.. الحمامة.

أعطني مزيداً من التفاصيل عن كمال يا هاني، هل عرفته شخصياً. هل رأيتَهُ في صور؟

يتردد هاني في الإِجابة، فأعرف أنه لا يعرف. ولكنه يقول:

لا يعرف البحر من يراقب البحر. لا يعرف البحر من يجلس على الشاطىء. ولا يعرف البحر من يأتي إليه ليرى مشهداً. لا يعرف البحر إلّا من يغوص. يجازف. وينسى البحر في البحر. يتلاشى في المجهول كما يتلاشى في امرأَة الحب. لا فاصل بين الزرقة والماء. هناك الكلمات. لا يُرى ولا يُلمس إلّا في أعماق البحر. ألبحر هو البحر..

ــ لا أحب شعرك يا هاني، حدثني عن كمال، لا تحدثني عن نفسك!

لا يستطيع. منذ ثلاث سنين وهو يروي قصته مع بحر صور. ولا شيء عن كمال. لا شيء عدا العنوان.

ــ قل لي ما هي سيرة كمال؟

ــ قلت لك إنه يُسَمِّي حيفا حمامة. وهو أيضاً صيَّادُ سمك. يصطاد في الليل. وفي النهار يتطلَّع إلى الحمامة.

لا يستطيع أحدٌ ملاحقة موجة غرقت في البحر. حين يخرجُ العاشق السيىء الحظ من تجربة الحب الأول ومن محاولة الانتحار الأولى، يصعب عليه وعلى قاضي المحكمة التوصّل إلى إثبات البراءة أو نفيها فيدخل في السجن الأول ويخرج إلى طريق آخر. لأَن العاشق السيىء الحظ يُؤثر العقوبة على الاعتراف المثير

للسخرية. ماذا لو قلت: حين قطعتُ الشارع هناك لم أحمل قنبلة ولم أنتبه إلى لافتة «منطقة مغلقة».. كنتُ أحمل أشواك القلب لأرميها في البحر، لأن حبيبتي كانت تُزَفُّ في تلك الليلة. وماذا لو قلت أيضاً: سيدي القاضي، كنت أريد الانتحار في المجهول المائي الذي لا ينذر بالوجع. ولكن القمر أطلّ قوياً فرأيت الحجارة المدبّبة تحت سطح الماء الصافي، فخفتُ الموت وعدت، لأنه سيكون موتاً مؤلماً، موتاً صخرياً واضحاً جارحاً. فتبّاً للذين عَيَّنُوا موعد الزفاف في ليلة مقمرة!

ولكن، لو قلتُ ما كان ينبغي عليَّ أن أقول لأنجو من السجن، فهل كان القاضي سيقبل المسألة على هذا النحو. هل يصدق؟ هل يُصَدّق أني اجتزتُ هذا الطريق لأنتحر من أجل فتاة لا من أجل بلاد!

وهكذا دَلَّني القاضي على أن للبحر طريقاً آخر. أو أَنَّ في البحر سّراً آخر. ومن يومها وأنا أذهب إلى البحر ولا أراه.

ــ هل تعرف لماذا لا تراه؟ لأَنك تذهب إلى الشاطىء.

ــ ولكنني أرى البحر.

ــ لا أحد يعرف البحر كالآخر.

ــ وماذا حدث لكمال. أما زال يرنو إلى الحمامة؟

ــ عاد إلى البحر.. عاد ليلقى الحمامة.

كان كمال قليل الكلام، أو شبه أخرس. ربما كان يعتقد أن الكلام يفسد عليه الرؤية، ويزعج الحمامة. ومع ذلك قال مرة:

في هذا المخيم

تُولد وردة

إذا عاشت طويلاً

ضاعت الحمامة.

ــ ماذا كان يعني؟

ــ لا أعرف. كان غامضاً. كأنه ليس منّا. كأنه لا يشاركنا العودة..

في الخريف لا يكون البحر بحرياً. يكون سجادة من ماء. ويكون الضوءُ قصباً..

وفي الخريف تسكت أجراس البحر. وتقرع أجراس الدم..

وفي الخريف تذبل الحمامة..

وفي الخريف يتحول القلب إلى تُفَّاحة ناضجة..

وفي الخريف تنكسر الذاكرة فيسيل الخمرُ من النسيان..

وفي الخريف ينطق الأخرس:

يا ليتي أرمي خُطَايَ

على طريق مِنْ زَبَدْ!

يا ليتني أرمي خُطاي لكي أنام
على سرير من زَبَدْ
حيفا! لماذا لم تطيري كالحمام
حيفا! لماذا لا أطيرُ ولا أنام؟
حيفا! لماذا لا تقولين الحقيقة:
أنتِ طيرٌ أم بَلَدْ
يا ليتني أرمي خُطاي.
وأستريحُ إلى الأَبدْ...

.. وسرق كمال زورقاً..

ظلّ يجدف في اتجاه الحمامة. ولما اقترب منها كانت الظهيرة ساطعة. وكان ريش الحمامة المطرّز من الحور والغيم واضحاً. وكان حرس الشواطىء واضحين. فأدار المجداف عائداً إلى عرض البحر وتظاهر بصيد السمك ريثما يهبط الغروب ويقفز إلى طوق الحمامة النائمة على بعد دقيقتين من الموج.

رأى موجته الضائعة فتعرف عليها: حين صحا، قبل سبعة وعشرين عاماً، على صوت الرصاص القادم من منطقة البلدية فتح النافذة فرأى الناس تندفع إلى الميناء، فهبط من شارع عباس وأبحر

مع المبحرين إلى ميناء عكا التي لم تكن محتلة. وعلى هذه الموجة وصل إلى صور..

يبدو أن كمال قد فرح للطريقة التي استولى بها على مصيره الكامل. فقد التقط اللحظة الفاصلة بين زمنين لا يلتقيان. وسيطر على الموجة التي شرّدته لتعيده الآن. كأنَّ حالماً قد استطاع أن يصحو في اللحظة المناسبة، وأن يُسجِّل حلمه كاملاً على ورقة. هل حدث من قبل أن عاد بحارٌ على الموجة التي شرّدته وضاعت؟ هل حدث من قبل أن قتل قتيل قاتله بضربة الخنجر ذاتها؟ هل حدث من قبل أن عاد أحد على طريق الرحيل؟ لم يتمكن من إخفاء سخريته من الطريق التي مشى عليها الآخرون كي يصلوا. لم يكن يحج. كان ينزل أقسى العقوبات بزمان كسره. سيجدف في هدوء. سيرسو عند أول صخرة. سيُمْسك بالزورق بكلتا يديه ليغرقه في رمل البحر بكُلّ ما فيه من حمامات رآها في سماء أخرى. سيبوس هذه اليابسة ويغرف منها رائحة صبا تكسّر وتبعثر. سيتحسّسُ مفتاح أمه الذي استرده من قبرها. سيمشي في شارع الملوك المحاذي للشاطىء ويتذكر عهده الأول في بيع السمك. سيصعد الدرج الحجريّ العتيق الذي يبدأ من درج الموارنة وينتهي عند شارع الخوري. سيلتفت إلى شبابيك تعلَّم أمامها داء التدخين والصفير الأول، ثم ينعطف يساراً إلى الساحة المليئة بالقطط، ثم يهبط خمس درجات ضيقة وزقاقاً أضيق لينفتح أمامه وادي النسناس المتدلي على كنيسة الروم. سيتحاشى النظر إلى الزاوية الشرقية المطلّة على درج عريض يؤدي

إلى حيّ اليهود. سيشتري رغيف خبز طازجاً من الفرن الواقع على رأس الوادي. سيصعد درجاً طويلاً على اليمين. سيحيي السكّان الجالسين على شرفات تجلس على الأرض عند مدخل شارع حدّاد. ويصل إلى تقاطع الدرج مع ثلاثة شوارع صاعدة يأخذه أحدها إلى شارع عبّاس. سيصعد ويصعد ويصعد ولن يلهث. سيقف طويلاً أمام القنطرة ليملأ رئتيه برائحة السنديان والطيُّون. ثم يمشي سبع خطوات فيطلع عليه البحر والميناء. يجلس على المقعد الخشبي العتيق ويداعب صور التي يراها من بعيد لأول مرة فيحبُّها لأول مرة أيضاً. سيضع المفتاح في مزلاج الباب فلا ينفتح من شدَّة الصدأ. سيدق على باب الجيران. ويُسَلِّم عليهم ويشاركهم فرحتهم بعودته سالماً ويعتذر عن الرحيل. سيفتح باب بيته ويسرع إلى حنفيَّة الماء ليسقي النباتات التي عطشت. سيتمدد على بلاط البيت وينام ساعات.. ساعات.. ساعات. سينام إلى الأبد.

صحا كمال من غفوته القصيرة. الفرح يملأ البحر. ومن فرط إحساسه بالحرية شعر أنه حَبَّةُ قمح، وأن البحر تربة خصبة. وأن الموج سنابل..

نظر إلى ساحل يمتدّ في يده الممدودة، فرأى قطعة ماسٍ تخرط الجبل لتنحت له مهداً سريعاً. سينام أعلى من البحر قليلاً.. أعلى من النوم. سيشتهيه البحر. سيحوله إلى عصفور من الحجر. سينام بعد قليل..

وحين هبط الغروب، جدَّف كمال بحماسة لم يعرفها من قبل.

وحين اقترب من الشاطىء سلّطت عليه الحمامةُ أضواءها الكاشفة. لقد احتاج الأمر إلى وقت ليعرف كمال أنه مُحاصَر بزوارق حربية، وأن البنادق مُصَوَّبة عليه من جهات البحر كُلِّها، وأن الحمامة ليست هي التي تبهر عينيه..

تجعَّدت الموجة..

تجعَّد القلب..

ـ هل معك أسلحة للقتل؟

ـ معي حنين يقتلني.

ـ من أين أنت؟

ـ من الحمامة.

ـ إلى أين تمضي؟

ـ إلى الحمامة.

ـ ما هي هذه الحمامة؟

ـ حيفا.

ـ من أرسلك؟

ـ خيط الدم.

ـ كم عمرك؟

ـ موجة تأتي وتضيع.

ــ أين كنت تقيم؟

ــ في صور.

ــ ماذا كنت تعمل هناك؟

ــ أصنع آلهة.

ــ ما أسماء آلهتك؟

ــ الحمامة.

ــ هل أنت فدائي؟

ــ لا.

ــ وماذا تريد؟

ــ أريد أن أدفن جُثّتي بيديّ تحت طوق الحمامة.

لم يُصدِّق رجال الشرطة البحرية ولم يفهموه. ظَنُّوه يناور. صعدوا إلى زورقه بحذر شديد. قيّدوه. نزعوا ثيابه. ولم يجدوا شيئاً، لا سلاحاً ولا هوية. سألوه إن كان صياداً ضلَّ الطريق في البحر. قال: لا، أنا لا أضل الطريق. أنا أعرف الحمامة جيداً، وجئتُ لأرى الحمامة..

لم يفهموه. هم أيضاً من حيفا ولكنهم لا يعرفون أن حيفا حمامة.

ــ هل كل ما في الأمر أنك تريد أن ترى الحمامة.

ــ نعم..

ــ إذن، سترى الحمامة!

دَقُّوا يديه وقدميه وكتفيه بالمسامير على خشب الزورق، وقالوا: إبق هنا. وانظر إلى الحمامة. الحمامة أمامك..

كان ينزف، وكانت الحمامة تكبر وتصغر..

وبعد أسبوع، أعاد البحر جثته إلى شاطىء صور، إلى الصخرة التي كان ينظر منها إلى الحمامة..

أهذا هو البحر؟

هذا هو البحر..

□ □ □

دخلتُ في ليل المدينة الكحليّ مثقلاً بالتعب، و«كوابيس اليقظة». دارت بي حياتي دورات حادَّة. لا أستطيع أن أواصل هذا التقاطع في الزمن، ولا أستطيع أن أتوغَّل في ما هو أكثر من أوَّل الليل. من أوصلني إلى الزقاق الفاصل بين «ماي فلور» و«نابليون»؟ لن أدخل إلى هذا المكان، فقد حفظتُ ما سأسمع. كانت قنابل الطائرات المضيئة تفتح ظلام الزقاق واسعاً لخطيَ أجُرُّها جراً. هنا لم أمُتْ. هنا لم أمت بعد. من عشر سنين وأنا أسحبُ ظلّي على هذا الرصيف، وأوقع غربتي، وأعرف أنني لن أبقى أكثر من عام. تكدّس العام على العام. منذ عشر سنين وأنا أقرع هذه البوابة وأتلافى البحر. كنتُ أوثر الطريق البريّ، الطريق الأول الذي مشيته منذ ثلاثين سنة، وسلكتُهُ ثانية إلى هناك. هل نسيتُ أن

أرجع، أم نسيتُ أن أتذكر؟ كيف كان كُلُّ شيء، أيّ شيء، منذ عشر سنين؟ تمشي أيامي أمامي كقطيعٍ من ماعز لا يأتلف. تمشي أيامي ورائي كرائحة الوردة الواقفة عكس الريح. وتمشي أيامي حولي كما أمشي حولها الآن في لعبة الكراسي الموسيقية الصادرة عن آلات معدنية. هنا لم أمت. هنا لم أمت حتى الآن. ولكن هذا الصراخ الهابط من السماء، والصاعد من الأرض، لا ينقطع ولا يُتيح لأية صورة من صور أيامي أن ترسو على شكلها، ولا يأذن لخوفي بأن يتكامل ولا يسمح لطيشي بأن يتغافل. كفى! حركت يدي في ظلام الزقاق المضيء لأطرد عن رؤياي سحابة الطائرات كما يطرد المرءُ الذباب. كفى! قُلتها بصوت أعلى، فردّت بصوت أعلى وأعلى.. وبصقتْ كتلاً من لهيب أعادتني من رحلة القطار المسافر من حيفا إلى يافا لأعرف أني أسير على طريق آخر. كفى! فهمتُ.. وماذا لو كنتُ هنا. هنا لم أمت.. لم أمت بعد. كفى.. سنخرج، قلنا سنخرج، فلماذا تواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى.. ليتنا لا نخرج ما داموا يواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى، يا أولاد الكلبة، أيها المفتونون بعضلات الحديد، وأشعة الليزر، والقنابل العنقودية، والقنابل الفراغية.. كفى! استعراض قوة مترف. قضم المدينة والأَعصاب. والظلامُ سريع الانتشار في مدينة لا كهرباء فيها. قطعة فحم واحدة تنجب هذا الظلام كُلَّه في أقلّ من نصف ساعة. ولأَول الليل مذاق مُرّ، حامض، رخو. مذاق يخلق في النفس بلاداً غريبة الغربة، ويخلق في عطش الجسد الرطب شوقاً

خاملاً إلى عطش جسد رطب آخر. ويسوق النسيان إلى مجرى آخر: كلانا يقتل الآخر خلف النافذة. قطار الساحل يُسابق البحر على اليمين، ويسابق الشجر على اليسار. مطر، مطر وشجر، مطر وشجر وحديد. مطر وشجر وحديد وحرية. وصديقي الشقي يداعب صديقي الناحل المكفهر بلا نهاية. لأول مرة، يأذنون لنا بأن نغادر حيفا، شريطة أن نعود في الليل، لنذهب إلى محطة الشرطة الواقعة على طرف الحديقة، حديقة البلدية، ليقول كل واحد على طريقته: سجل ــ أنا موجود. سجِّل! إيقاع قديم أعرفه. سجل ــ أنا، أعرف هذا الصوت البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت، يا للزمن الحي الخارج من الزمن الميت. سجل: أنا عربي، قلت ذلك لموظف قد يقود ابنُهُ إحدى هذه الطائرات. قلتُها باللغة العبرية لأستثيره. وحين قلتُها باللغة العربية مسَّ الجمهور العربي في الناصرة تيارٌ كهربائي سري أفلت المكبوت من قمقمه. لم أفهم سرّ هذا الاكتشاف، كأنني نزعت الصاعق عن ساحة ملغومة ببارود الهوية، حتى صارت هذه الصرخة هي هويتي الشعرية التي لا تكتفي بأن تشير إلى أبي، بل تطاردني.

لم أدرك أنني كنت في حاجة لأَن أقولها هنا في بيروت: سجل، أنا عربي. هل يقول العربيُّ للعرب أنا عربي؟ يا للزمن الميت، يا للزمن الحي! نظرتُ إلى ساعة يدي لأعرف ما هو عمري الآن. خجلتُ من هذه النظرة: هل ينظر المرء إلى ساعة يده ليرى عمره. منذ أسابيع، نصب لي الصديق «أ» كمين الأربعين. صرخ

معين في الحفلة مقهقهاً: لم تعد فتى. الحمد لله، تخلّصنا من فتىً آخر. لم تعد فتى. لقد صرت في الأربعين! قلت له: وماذا يبهجك يا عجوز؟ قال: يبهجني أَنك في الأَربعين. قلت: أنسيت أنك تقترب من الستين؟ قال: ليس هذا مهماً، الأَعمار كلها تتشابه بعد عتبة الأربعين، لقد أدركتني الآن. منذ عشرين سنة وأنا أنتظرك هنا على عتبة الأربعين، وها أنت وصلت. أهلاً وسهلاً. لم تعد فتى، لم تعد فتى، لقد سكر معين حدَّ الهذيان، حدَّ الظن بأني أكبر وهو يتوقف عن الكبر. فتنتهُ المساواة. قلنا: عاشت المساواة. واحتفلنا به.. يا للزمن! القطار يقُصُّ البحر والشجر. الشجر والبحر يهربان من القطار. قطار الزمن على حديد العمر. هل كنا حقاً في العشرين عندما أخذتني هويتي إلى ذاك النشيد المصكوك بحوافر خيل يلتهمها الأفق المفتوح على أفق مفتوح على أفق لا نعرف إن كان مفتوحاً أم مغلقاً؟ وهل كنتُ حقاً في السابعة والعشرين حين احتكّ نشيد الهوية بنشيد الأناشيد وشبّ حريقٌ في السوسن، وسمعتُ آخر صرخات الحصان الهارب من جبل الكرمل إلى البحر الأَبيض المتوسط؟ إلى متى يتذكر الوجع أفعاه الساحرة.. وإلى متى نواصل الذهاب نحو الأربعين؟ مصادفة... ليس أكثر من مصادفة أن يكون الخروج من الجسد خروجاً من البلد. ولم أتذكر هذه المصادفة إلّا الآن. قطار ومطر وشجر، ومدفأة، وقدمان حافيتان بيضاوان على جلود عشرين خروفاً مروا في نشيد الأَناشيد. والمغني يغني لسوزان التي أخذته إلى النهر. وهي تقول لي: خذني إلى أستراليا، وأنا أقول لها: خذيني إلى القدس. لا، لم أتذكر شيئاً ولكنني كنت أحلم،

فهل الحلم هو اختيار النسيان. ومن المنام يخرج منام آخر: هل أنت حيّ. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت. لقد اكتملت الدائرة. أمي البعيدة تفتح باب غرفتي وتقدّم لي القهوة على طبق من قلبها. أداعبها: لماذا أذنت لي أن أضع ركبتي على السكين وأضغط لتبقى معي هذه الندبة؟ ولماذا أذنت لي أن أمتطي الحصان ما دام سرجه سيسقط ليسقطني تحته ولتبقى على جبيني هذه الندبة؟ الظلامُ الكحلي يتفتح، ينفرج، يصير أبيض. الظلام أبيض حالك البياض. وجدتُ نفسي جالساً على مقعد جلديّ مريح، أستمع إلى ثلاثي القتل المتناغم: الطيران، البحرية، والمدفعية. أشعلت قنديل الغاز لأعدّ طقوس النهاية. ما زالت الساعة العاشرة مساء. حملت قنديل الغاز ذا الشخير الأليف ومشيتُ إلى غرفة المكتبة لأكتب وصيتي. لم أجد ما أوصي به. لا سرَّ في حياتي. لا مخطوطة سرية، ولا رسائل خاصة أحتفظ بها. وناشري معروف. وحياتي فضيحةُ شعري، وشعري فضيحة حياتي. رفَّ على بالي مطلع قادم من سطوح بيوت الجيران: يطيرُ الحمام. يحطُّ الحمامُ. يطيرُ الحمامُ. أعجبني أن أموت في الأربعين، لا قبل، ولا بعد..

سمعتُ نقرتين على الباب. هي، هي المشدودة كنداء أخير. هي المهووسة بإطفاء الملح المشتعل في دمها. ناديتُها باسم آخر. قالت: من هذه؟ قلت: لا أحد.

حملتْ مصباح الغاز، وراحت تبحث عن الاسم الآخر في كل مكان وعلى الشرفة. لم تجد أحداً.

ــ هل تهذي، أم تحلم؟

ــ شيء من هذا، شيء من ذاك.

ــ من هي؟

ــ لا أحد..

ــ هل تهذي؟

ــ أحياناً..

اقتربت مني، وأشعلت نار بطنها الناعمة.. ناراً زرقاء بيضاء، فحيح. هسهسة ملح. أنين قطط مكبوت. ورغبة في موت مختلف.

ــ أفي كُلِّ يوم؟ قلت.

ــ في كل يوم إلى أن ينتهي الحصار. أعود إلى بيتي.. وتخرج من هنا. كن تابوتي لأكون تابوتك.

ــ على الشرفة. أريد أن أرفع تابوتي على الشرفة، على مرأى من طائراتهم وبوارجهم ومدافعهم، على مرأى من أضواء الأشرفية.

ــ مجنون؟

ــ مجنون بالحياة.

ــ لا.

ــ على الشرفة سترفعين تابوتك. الشرفة هي اعتداءُ الحياة على الموت. هي مقاومة الخوف من الحرب. لا أريد أن أخجل.

ــ ولكن، كيف أصرخ على الشرفة؟

ــ أمن الضروري أن تصرخي دائماً؟

ــ الرجل لا يفهم المرأة.

ــ المرأة لا تفهم الرجل..

.. وهنا، لم أمت. هنا لم أمت. منذ عشر سنين وأنا أعيش هنا. لم أعش في أي مكان عشر سنين. لم أتآلف مع رائحة الخضر ونداء الباعة، وضجيج البار الـمُسلَّح، ومشاكل الماء والمصعد كما تآلفتُ هنا. هنا لم أمت. شرفات كثيرة تطل على شرفات كثيرة مفتوحة في الربيع والصيف والخريف وبدايات الشتاء ونهايات الشتاء لتتبادل الأسرار والفضائح الصغيرة وأجهزة التلفزيون العالية الصوت، وروائح الثوم والشواء، وأصوات اهتزاز الأسرّة في ساعات بعد الظهر وفي الليل. شارع صغير، صغير اسمه شارع «يموت». وهنا لم أمُت. وهنا، منذ قليل، في موسم السيارات المفخخة، كنت أمشي مع أحد الجيران في أول المساء، حين استمعنا إلى خشخشة في سيارة، فنبَّهنا سكان الشارع إلى ضرورة مغادرة بيوتهم ريثما يصل الخبير العسكري، فإن انفجار سيارة واحدة يقضي على سكان الحيّ الذين جاءوا، بحثاً عن الأمان حول الجامعة الأميركية، من كل أنحاء المجازر والطوائف. وحين جاء الخبير العسكري وعاين السيارة لم يعثر على مائة كيلوغرام من الديناميت، كما توقعنا، بل عثر على جرذ جائع يقضم أمعاء السيارة. ضحك الحيُّ كُلُّه حين عرف أن في وُسع جرذ واحد أن

يُهجّر حيّاً. نعم، في وسع جرذ واحد أن يُهجّر مدينة، وأن يحكم دولة!

وهنا، لم أمت. لم أمت بعد. كُلَّما كانت تحطُّ الطائرة في مطار بيروت كنتُ أشمّ روائح المجهول، وعبق الرحيل القادم. كان الضباب الصاعد من رطوبة الصيف، وجفاف الربيع القاسي، اللاذع، السريع يوقظ فيَّ حاسة المؤقت: هل سنبقى هنا؟ لن نبقى هنا. يبدو أن لنهايات الأشياء شكلاً مُحدَّداً، شكلاً من الغموض المحدّد، شكلاً من أشكال تواطؤ الطبيعة مع الهاجس، أي هاجس. وخاصة في آب. آب الشهر الدنيء، السافر، العدواني، الحاقد، الخائن.. آب القادر على تزويد الرمز ما يحتاج إليه من جثث، وعلى مَدِّ تراخي الجسد بما تبول عليه الطبيعة من عبوس البخار ونذير الرطوبة المحتقن، وجهُ آب وجه حَاقن لا يجد مرحاضاً ولا حائطاً مجهولاً. آب شهر قذر، ضجر، قاحل، قاتل، مائل إلى نهايات تطول مقدماتها، نهايات لا تبدأ ولا تنتهي، كأنَّ آب طائفية الفصول التي لم تجد أتباعها بعد. آب قادر على استفزاز البحر، البحر الذي يحيل إلى الأفق زفير الرصاص.

ــ قل لي، يا أخ محمود، ماذا تقصد بالبحر، ما معنى البحر، البحر طلقتك الأخيرة؟

ــ من أين أنت يا أخ؟

ــ من حيفا.

ــ من حيفا، ولا تعرف البحر؟

ــ لم أولد هناك، وُلدت في المخيم.

ــ وُلدت هنا في المخيم، ولا تعرف البحر؟

ــ نعم. أعرف البحر. ولكنني أعني: ما معنى البحر في القصائد؟

ــ معنى البحر في القصائد هو معناه على حافة البرّ.

ــ هل البحر في الشعر، هو البحرُ في البحر؟

ــ نعم، البحر هو البحر، في الشعر وفي النثر، وعلى حافة البرّ.

ــ ولكنهم قالوا لي: إنك شاعر رمزيّ، مغرق في الرمزية، لذلك ظننت أن بحرك غيرُ البحر الذي نعرف، غير بحرنا...

ــ لا، يا أخ، خدعوك. بحري هو بحرك، هو بحري. نحن من بحر واحد، وإلى بحر واحد.. البحر هو البحر..

يتعجب المقاتل من عجز الشاعر عن تفسير شعره. أو يتعجّب من سهولة الشعر ما دام البحر هو البحر. أو يتعجَّب من حقِّ الواقع البسيط في الكلام:

ــ ألستَ أنت، يا أخ، مَنْ يُدخل البحر إلى الشعر، حين تحمل البحر على كتفيك وَتُثَبِّتُهُ أين تشاء. ألست أنت، يا أخ، من يفتح فينا بحر الكلام على مصراعيه؟ ألست أنت بحر الشعر وشعر البحر؟

ــ أنا بريء. أنا أدافع عن حقِّي وعن ذاكرة أبي، وأحارب الصحراء.

ــ وأنا أيضاً... ولكن البحر، يا أخي، هو البحر.

وإليه سنمضي بعد قليل، في سفن نوح الحديثة، في أزرق يسفر عن أبيض لا نهائي، ولا يُسفر عن ساحل. إلى أين.. إلى أين يأخذنا البحر في البحر؟ وهنا لم أمت. لم أمت بعد. سأنام. ما النوم؟ ما هذا الموتُ السحريّ المفروش بأسماء العنب؟! جسد ثقيل كالرصاص يرميه النوم في سحابة من قطن. جسد يتشربُ النوم كما يتشرَّب النبات المهجور رائحة الندى. أدخل في النوم، رويداً رويداً على وقع أصوات بعيدة، أصوات قادمة من ماض مبعثر على تجعُّد السرير والأيام. أقرعُ باب النوم من عضلات ترتخي وتتوتر. يفتح لي ذراعه. أستأذنه في الدخول فيأذن لي. أدخل. أشكره. أمدحه. أحمده. النوم يناديني وأنا أنادي النوم. النوم سواد يتفكك تدريجياً إلى رمادي وأبيض. النوم أبيض. انفصالٌ وأبيض. استقلالٌ وأبيض. ناعم وقوي وأبيض. النوم صحوة التعب وأنينُه الأخيرُ.. وأبيض. للنوم أرض بيضاء وسماء بيضاء وبحر أبيض، وعضلات قوية، عضلاتٌ من زهر الياسمين. النوم سيِّد، أمير، ملك، ملاك، سلطان، وإله. أستسلم إليه كما يستسلم العاشق لمدائح المرأة الأولى. النوم جواد أبيض يطير على سحاب أبيض. النومُ سلام. النوم منام يخرج من منام:

ــ هل أنتَ حيّ؟

ــ في منطقة وُسْطى بين الحياة والموت.

ــ هل أنت حي؟

ـ كيف عرفت أني أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

ـ لأَنك أيقظتني الآن حين تحركت في بطني. هل أنت حيّ؟

ـ لا أعرف، لا أريد أن أعرف. ولكن هل يحدث كثيراً أن يوقظنا من المنام منامٌ آخر هو تفسير المنام؟

ـ هذا ما يحدث الآن.. هل أنت حي؟

ـ ما دمتُ أحلم، فأنا حيّ لأَن الموتى لا يحلمون.

ـ هل تحلم كثيراً؟

ـ حين أقترب من الموت..

ـ هل أنت حيّ؟

ـ تقريباً، ولكن في الوقت مُتّسعاً للموت.

ـ لا تمت

ـ سأحاول

ـ هل أحببتني؟

ـ لا أعرف

ـ هل تحبني الآن؟

ـ لا.

ـ الرجل لا يفهم المرأة

ـ والمرأة لا تفهم الرجل..

ــ لا أحد يفهم أحداً

ــ ولا أحد يفهم أحداً

ــ لا أحد يفهم..

ــ لا أحد..

ــ لا أحد..

حَيرُةُ العائد

مقالات مختارة

المحتويات

I ـ هنا/هناك... الآن

في وداع تونس	٢٠١
البحث عن الطبيعي في... اللاطبيعي	٢٠٥
المكان في مكانه	٢١٥
البيت والطريق	٢٢١
المنفى المتدرج	٢٢٩
في تحرير الجنوب	٢٣٩

II ـ أكثر من وداع

رسالة الغائب إلى الغائب	٢٤٧
الساخر من كل شيء	٢٥٥
طريق العودة هي طريق المعرفة	٢٦١
فدوى	٢٦٧
كما لو نودي بشاعر أن انهض	٢٧١

فاجأنا بأنه لم يفاجئنا ٢٧٩
تأخر حزني عليه ٢٨٥
الراقص في حقل الألغام ٢٩١
شاعر نادر ٢٩٥
يد ترى، وقلب يرسم ٣٠١
صديقي العابس ٣٠٧

III ـ ولادة الشعر العسيرة

مَطَرُ السَّياب ٣١١
هل ما زال الشعر ضرورياً؟ ٣١٧
الشعر بين المركز والهامش ٣٢١
شاعر الجميع ٣٢٥
سعدي في السبعين ٣٢٩
آخر مرة/أول مرة ٣٣٣
مهنة الشاعر ٣٣٧
الولادة على دفعات ٣٤٣

I ـ هنا/ هناك... الآن

في وداع تونس

عما قليل يخرج الفلسطينيون من آخر هذه الزيارة إلى أول العودة، يخرجون من رحلات البحر إلى خطوة أولى على البر، يخرجون على خطى الأقدام المرتدة إلى البيت الأول من رحيل المعنى والسلالة، إلى أقدم مدينة قد تأذن لهم للمرة الأولى في تاريخ تجربتهم المعاصرة بالتأمل الحرّ في الدلالات وقد تأذن لهم أيضاً بالمفاضلة بين جمالية الأسطورة ولبس الراهن، بين واقعية الحلم وعبثية الواقع.

ألم يكن ذلك ما كانوا يسعون إليه في مشروعهم المتوتر لتعديل التراجيديا الإنسانية المحكومة بشروط لم تعجبهم ولا مرة واحدة وهو أن يجترحوا بأدوات الخارق إمكانية إنجاز العادي والمألوف.

نحن الآن عاديون، عاديون أو أقل أو أكثر. لنا موطن قدم يابس في ساحة الوطن الخلفية. وبنا ما يشبه القادمين للتو من أحلامهم

وقد رأوا مادة الحلم الخام المرسومة بالأبيض والأسود تمدهم بما افتقدوه من حاجة إلى الفكاهة.

ونحن الآن ــ والحمد لله ــ عاديون، مكشوفون وجهاً لوجه أمام شمس السؤال:

هل تتسع أرض الحلم لما يبقى فينا ولنا فيها من حلم؟

وهل في وسع الحلم أن يحلم أكثر؟ بالطبع نعم. فينا أكثر من أرض، وعلى الأرض أكثر من منفى وفينا النازل من صورته التي ما زالت معلقة على الجدار وعلى التابوت. فكيف نتدرب على القطيعة المفاجأة؟ كيف نألف الحوار مع الآخر الذي هو أنا هذه المرة.

تلك أسئلة سنحيلها على قصائدنا القادمة التي لن تنفصل عن بداياتها، كما لن تنفصل عن بحة الملح وعن حور الحور. وأما الزبد فقد ذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فقد مكث في أرض القصيدة.

ليس هذا هو السؤال:

السؤال الساخر الآن هو سؤال سياسي. كيف نعرف أن الغيم حقيقي أيضاً ويدرك بحاسة اللمس؟

وهو أيضاً سؤال أمني: كيف ندقق في هوية الفراشة وهي تمر على حاجز الواقع؟

وهو أيضاً سؤال إداري: كيف نوزّع خبز اللغة على الحراس التائهين في ثنائية البيت والطريق؟

وهو أيضاً سؤال تربوي: كيف نقنع طلاب المدارس بكتابة أسمائهم على الحجارة لتصبح رفاً من حمام؟

وهو أيضاً سؤال ثقافي: كيف لا تسقط الذاكرة في إغراء الاعتذار الدارج؟

وهو أيضاً سؤال إبداعي: كيف نحول موطأ القدم في الساحة الخلفية المليئة بالألغام والفقر إلى شروط حياة صالحة لتأسيس وجود إنساني حرّ قابل للتطور ولكسر قيود الفارق بين الدولة والوطن؟

وهو أيضاً سؤال إعلامي: كيف نحرر الوعي العالمي من الفارق الخادع بين صورة السلام التلفزيوني وبين مفهوم السلام الحقيقي؟

وهو أخيراً سؤال عاطفي: كيف نشفى من حب تونس؟ كيف نشفى من حب تونس الذي يجري فينا مجرى النفس؟

لقد رأينا في تونس من الألفة والحنان والسند السمح ما لم نر في أي مكان آخر. ولذلك نخرج منها كما لم نخرج من أي مكان آخر.

نقفز من حضنها إلى موطىء القدم الأول، في ساحة الوطن الخلفية، بعدما تجلت لنا فيها، في البشر والشجر والحجر صور أرواحنا المعلقة كعاملات النحل على أزهار السياج البعيد.

في هذا الوداع، نحبك يا تونس أكثر مما كنا نعرف، نرسِّب في صمت الوداع الحزين شفافية تجرح ونصفّي كثافة مركزة إلى حدّ العتمة التي تحل بالعشاق.

ما أجمل الأسرار الكامنة وراء الباب الموارب، وراء بابك وهو المساحة المثالية لتعامل الشاعر الحاذق مع العناصر التبادلية للقصيدة.

فهل نقول لك شكراً؟!

لم أسمع عاشقين يقولان شكراً. ولكن شكراً لك لأنك أنت من أنت.

حافظي على نفسك يا تونس. سنلتقي غداً على أرض أختك: فلسطين.

هل نسينا شيئاً وراءنا! نعم، نسينا تَلَفُّتَ القلب وتركنا فيك خير ما فينا، تركنا فيك شهداءنا الذين نوصيك بهم خيراً.

البحث عن الطبيعي في... اللاطبيعي

لا أعرفُ، لا أعرفُ تماماً ماذا يعني هذا الاقترابُ الجغرافيُّ من مكان الاسم، لأن الغموض المخيِّم على الحدود الفاصلة بين الثنائيات: الليل والنهار، المنفى والوطن، والشعر والنثر، هو من أشدّ أنواع الغموض كثافة وشفافيّة في آن واحد.

بَيْدَ أنّ فضيلة هذا الغموض، هنا والآن، هو أنه قادرٌ على كتابة هجاءٍ أليفٍ لوضوح المنفى، قبل أن يتساءل عمّا إذا كانت هذه اللحظةُ الانتقاليةُ هي لحظة قطيعةٍ بين الخروج والدخول.

وسيحتاجُ الفردُ، فينا، إلى تدريبٍ يوميٍّ خاصٍ على التحرُّرِ التدريجيِّ من ظلالِ المعنى الثقيلة، وهي تنتقل من زمنٍ إلى آخر، وعلى التحرُّرِ أيضاً من مُقارناتٍ لا تُسفِرُ عمّا ينفعُ حياتنا العملية المضطربة. فليست الثنائيّات التي تسكننا محدَّدة إلى حدٍّ تعريف

الشيء بعكسه: أن أكون هنا لا يعني أنني لم أعُدْ هناك. وألّا أكون هناك لا يعني أنني هنا.

وسيحتاجُ الفردُ فينا أيضاً إلى التأكُّدِ مِنْ أنّه عثرَ على حواسّه الشخصية، كاملةً وعاملةً كما ينبغي لها أن تعمل، بلا وسيط أو توسُّط.

كما ستحتاجُ الجماعةُ، في كلِّ فردٍ منّا، إلى إعادة تنظيمِ زحامها الجديد وعزلتها الجديدة معاً، وإلى شيء من التخصُّصِ بين ما هو عامّ وما هو خاص.

لا لشيء... إلَّا للتأكُّدِ من جاهزيتنا لخوضِ معركة الدخول في طورِ العاديِّ، أو الطبيعي. فهل آن لنا أن نسأل إنْ كانَ الشِفاءُ من الصورة الجاهزة عن أنفسنا، ومن جرحِ ذاتٍ نأتْ عن ذاتها... ممكناً؟

وهل يمكننا أيضاً أن نهبط، سالمينَ، مِنْ سماءِ الأسطورةِ إلى ما تيسَّرَ لنا مِنْ أرضِ الاسم والهوية، من أرضِ الواقع؟ وهل في مقدورنا أن نواصلَ مشروعَ الرحيلِ الملحميِّ، في حَمْلَةٍ شِعريّة نعرفُ، منذ البداية، مصائرَ رُموزِها سَلَفاً. وأنّ السيدة هيلين قد أُعيدَتْ، على عُكازَيْن، إلى زوجها منذ النشيد الأول الذي لم نكتبه بعد؟

هذه هي تينةُ البيت، فتفيأ ظِلَّها ــ تلك هي الأغنية البسيطةُ التي سَيَكتُبها العائدُ إلى البيت. أما مَنْ لم يترُكِ البيتَ أصلاً، لم يذهب ولم يَعُدِ، فله أغنيةٌ مختلفةٌ وحنينٌ مُقابل إلى استمرار التاريخِ في اللغةِ، وامتداد اللغةِ في التاريخ.

وسواءٌ أكانت قليلة أم كثيرة تلك الجماعاتُ التي رحلَتْ وعادتْ، لتَضْحَكَ أو لتبكي، سيان، فليست تلك هي القاعدة. إنَّ اجتيازَ هذا المترِ الترابيِّ، الفاصلِ بين المنفى والوطن، لقادرٌ على تحويل الجسد إلى روحٍ في إشراقاتِ الفرَح. ولكنَّه ليس كافياً، بَعْدُ، للاحتفال بعيد الاستقلالِ، كما يعلمُ الجميع. كما أنَّ أدواتِ التعبير عن الحريَّةِ ليست هي الحريّة.

ولذا، يَنقَضُّ السؤالُ على السائل:

هل في وُسْعِكَ أن تكونَ طبيعياً في واقعٍ غير طبيعيّ؟

لا شيءَ يبدو طبيعياً في هذا المخاض الذي تتبادل فيه البدايات والنهايات لعبة الكراسي. صحيحٌ أن الحرب تبدو وكأنها انتهت. ولكنَّ السلامَ لم يبدأ. فليسَ من أسماءِ السلامِ الجميلة أن يُضْرَبَ الحصارُ العسكريُّ على مجتمع اختارَ السلامَ جواباً على سؤاله الوجوديِّ والوطني، بعدما أنقذَ هويته من خطرِ التلاشي في الآخرِ من جهة، ومِنْ خطَرِ الانغلاق مِنْ جهة ثانية.

وليسَ مِنْ أسماء التعايُشِ الجميلةِ ألَّا يُسْمَحَ للشعب الفلسطينيِّ بتحقيق «التعايُشِ الجغرافيِّ» بين مُدُنه وقُراهُ وريفه، بالتعايُشِ مع ذاته، «عقاباً» له على قراءة تاريخ بلادهِ المعاصر، بطريقةٍ صاغتْ مشروع حياةٍ مشتركةٍ مع الآخر، على أرضٍ مشتركة، ولغدٍ مشترك.

لا حاجة بنَا للوقوف طويلاً أمام المفارقةِ التي تدفَعُ الضحيّة إلى البحثِ عن حلٍّ لمشكلتها يتوازي مع البحث، في الوقت ذاته، عن حلٍّ لمشكلة ضحيَّة أُخرى تحوَّلت دولتها إلى جلاَّدها. فذلك

متروكٌ لكُتَّابِ التراجيديّات الكُبْرى، إذا كان لها مكانٌ في هذا الزمان.

لكنَّ الضحيّة، فينا وقد ضاقتْ ذرعاً بمكانتها وبحاجتها إلى البطولة، تُدْرِكُ أنّها لن تنتقلَ إلى سِجالِها مع نفسها، ومع الآخر، لإنجازِ مكانةِ العاديِّ، إلّا بفضلِ التاريخ، على الرغمِ من أنَّها ضحيّةُ التاريخ!

وتُدرِكُ أنَّ حاجتها الـمُلِحَّة إلى البحث في هويتها، والبحثِ عن هويتها، ليست ناجمةً عن رغبةٍ في التحديقِ النرجسيِّ في الصورة، أو الانزواءِ في الصَدَفة، أو الإفراط في الافتتانِ بالخصائص، بقدرِ ما هي شكلٌ من أشكالِ استراتيجيات الدفاعِ عن النفسِ أمامَ سياسةِ النفي والإلغاء، في الطريقِ من الصراعِ الوطنيِّ على الهويّةِ إلى تحقُّقِها في حياةٍ طبيعيةٍ... تأذنُ للإبداعِ الحرِّ بجمالياتِ الصراعِ مَعَ الهويّة، إذا شاء. إذْ يُعَبِّرُ هذا الصراعُ عن أقصى درجات الحُرِّيَّةِ والانتماء، حينَ يُصبحُ في مقدورِ الثقافة أن تُحاكِمَ ذاتها وتُنَشِّط أسئلتها المرجأة التي تمسُّ بعض مُحَرَّمات مجتمعها، كأنْ يتعرَّضُ الوطنُ نفسُهُ إلى السخرية، عندما يتحرَّرُ هو والسخرية معاً من حالةِ الطوارىء!

من حصارٍ إلى حصار، تُحْرَمُ التأمُّلاتُ من حريَّةِ الحركةِ واختراق النمَط، ما دامت حبيسة انخراطها في سؤال العيش، وسؤال البقاء، وحاجات الإنسان الأوليّة إلى خبزٍ ومأوى وعَلَم ونشيدٍ وشرطة. وهكذا يتجلّى سؤالُ البحثِ عن العاديِّ والطبيعيِّ بصفته سؤالَ البحثِ عن معجزة جديدة، وسؤالاً مطروحاً على جماعةٍ لم يتمكَّن أفرادها من التأمُّلِ الطويلِ في فرديتهم المستقلّة.

فَمِنَ المفارقات المميّزة لحياتنا الانتقالية أنَّهُ كلَّما تطوَّرَ الكلامُ الإجرائيُّ في تفاصيلِ «عملية السلامِ» تدهورَ مستوى الأسئلةِ الكُبرى، والأسئلةِ الإنسانيّة الصُغرى، وتعمَّق الإحساس بالاحتلال، وضاقتْ بِنَا أرضنا المحرَّرة الموضوعة في أقفاصٍ، لا دليلاً على جراحِ السلام، كما قد يظنُّ البعض، بل دليلاً على مدى افتقارِ عمليةِ السلامِ هذه، كما يصوغُها الجانبُ الإسرائيليُّ حتى الآن، إلى جوهرِ السلام المتمثِّل ـ على الأقلِّ ـ بوضوحِ الطريقِ إلى نوعيَّة استقلالنا وكميّة حريَّتنا، ودليلاً على أن الخطوة الأولى، إذا ما راوَحَتْ مكانَها، ليست كافية لتلخيص مسيرةِ الآمالِ التي رافقتها، حينما انتقلَ الاحتلال مِنْ غُرفةِ النومِ إلى غُرفةِ الاستقبال!

وهكذا، ما زالَ من السابقِ لأوَانِه الاعتذارُ عن كتابةٍ لم تقفِز من سياقِ شرطها التاريخيّ إلى الميتافيزيقيا من جهة، وعن كتابةٍ لم تؤجِّل حداثتها إلى أن تنضُج ظروف مجتمعها الموضوعية من جهة أخرى.

وما زالَ مِنَ السابِقِ لأوَانِه تحريضُ الأحلام الصغيرةِ على مُحاسبةِ الأحلامِ الكبيرةِ عمَّا فعلت بها لتحرمَها مِنَ استخدامِ الملابسِ الداخليَّة أشرعةً لسُفُنِ الرحيلِ الشراعيّة، ما دام البحرُ في مِثْلِ هذه السهولة، وما دامَ الملاَّحُونَ لا يحلُمونَ بأكثر من زراعةِ البقدونس في أحواضِ بيوتهم.

لا، لم يَكُنِ البحرُ طيِّعاً إلى هذا الحدِّ، ولكن لا وظيفة للأحلام الكبيرة، أصلاً، سوى توفير المناخِ الملائم لانسياب الأحلامِ الصغيرةِ للعاديِّ فينا، المحرومِ مِمَّا يُوَفِّرُهُ السلامُ مَعَ الآخرِ مِنْ سلامٍ مَعَ النفسِ القلِقة.

لم يحدث ذلك لسببٍ أبسطَ من تعقيداتِ العلاجِ النفسيِّ، ومِنْ مُساءلةِ الثقافةِ عن مدى ابتعادِها أو اقترابِها مِنْ حاضرٍ ما أنْ تُسمّيهِ حتى يَختفي. لم يحدث ذلك لأنَّ السلامَ لم يتحقَّق بعد، ولأنَّ بلادنا ما زالت مُحتلَّة، على الرغمِ من الثُقوبِ المحرَّرةِ العاجِزَةِ عن تعريف الغابة بشجرة مرسومة، والمُطالبة باستبدالِ الواقع، كما هو، بصورةٍ ما ينبغي أن يكونَ عليه، والـمُطالبةِ أيضاً بمُصالحة التاريخِ بالتصفيق له وهو قادمٌ من بعيدٍ... وبالتدرُّبِ على انتظارِ المُعجِزَةِ من خلْوَةِ الذاتِ إلى ذاتها عند الحاجز، وبإعلاء الجحيم، في الواقع، إلى مرتبة النعيمِ في اللُّغة.

وإذا لم نَنْجَح في امتحانِ الـمُعْجِزَة: إذا لم نَنْجَح في تحقيقِ الاكتفاء الذاتيِّ والطَّفْرَةِ الاقتصادية، داخلَ الثقْبِ المعزولِ عَنِ الثَّقْبِ المعزولِ، وعَنِ المحيط، وعَنْ باطِنِ الأرض، وحافةِ السَّماء، فما علي «الشريكِ» الإسرائيليِّ إلّا أنْ يُعلِنَ: لا تلومُوا غيرَ أنفسِكُمْ على أنّكم غيرُ جديرين بالاستقلال، لاَ تلومُوا غيرَ أنفسكُمْ!

في وُسعِنا أنْ نلومَ أنفسنا أيضاً. لِمَ لا؟ فمِنْ واجبنا أنْ نُتْقِنَ فَنَّ النقدِ والنقدِ الذاتيِّ، وأنْ نختلفَ في موضوعِ الإدارة والوزارة والاستعارة والحِجاب والقافية وشروطِ الطاعةِ وبرامجِ الإذاعةِ. ولكنَّ ذلك لا يشملُ عدَمَ التمييز بين الاستقلال والاحتلال. فهُنَا نقطةُ الالتقاء المركزيَّة بينَ المعارضةِ والسلطة التي يُنْظَرُ إلى مشروعها السياسيِّ باعتباره مشروعاً مُضاداً للاحتلال، فذلك هو جَوْهَرُ شرعيّتها الوطنيّة. بعد ذلك، ومَعَ ذلكَ، نتناقشُ حولَ سلامَةِ العلاقةِ بين الإطارِ والمحتوى، بين الشكلِ والمعنى، وبين الأداة والفكرة، من منظور الإدراك الوطنيِّ العامِّ بأَنَّ اختيارَ طريق السلامِ الحقيقيِّ هو اختيارٌ لا يَحتمِلُ التراجُعَ أو الجمودَ الذي يُبشِّرُنا به

الطرفُ الإسرائيليُّ بالقولِ حيناً، وبالفعلِ دائماً.

لا نستطيعُ الدخولَ في عقل الآخر، لنَفهمَ كيفَ يَفْهَمُ إمكانيَّة تحقُّقِ السلام بالإصرارِ على الاستحواذ الكُلّي على الأرض والتاريخ، وبالإعلان عن أنه صاحبهما الوحيد، صناعة وكتابة، دون أن يُشْبعَ غريزة الحفريات التي لم تُثبت خُلُوَّ هذا التاريخِ وهذه الأرضِ من السكّان.

إنَّ تحويلَ هذا الهاجِسِ إلى سياسةٍ تُؤسِّسُ السلامَ على استحضارِ شبَحٍ من أجلِ الاحتفال بتغييبه، حقوقاً وشرعيَّة، سيجعلُ المسرحيَّة خاليَة من أيِّ شيء... عدا افتتانِ مؤلِّفها بقدرته على الاحتفاظ بتماسك الخُرافة مَعَ ما بعدَ الحداثة... الصهيونية، الأولى خاليةٌ من الشعب الفلسطيني، والثانيةُ مُتحرِّرةٌ من عُقدةِ المسألة الفلسطينية، التي تمَّ حلُّها دونَ حل!

لا. لا حياة طبيعية مَعَ الاحتلال، وتحتَ الاحتلالِ. ولا حياة طبيعية أيضاً مع النفسِ لمن يواصل الاحتلال. وهذا ما باحَ به الكاتبُ أ. يهوشع حين طالبنا بمساعدته على إقامة علاقة طبيعيةٍ مع نفسه المتوتِّرَة.

نعم، في وُسْعِ الضحيَّة أنْ تُقدِّمَ المعونَة الأخلاقية للضميرِ المعَذَّبِ في مجتمعِ جَلادها، في حالةٍ واحدةٍ فقط: حين تتمكَّنُ الضحيَّةُ مِنْ إبداعِ حياتها الطبيعية. ولا يحدُث ذلك إلّا بعد الاعتراف بحقّها في الوجودِ، والاعتذار عمَّا لحِقَ بها مِنْ ظلم، وما يستتبع هذا الاعتذار من إجراءات.

لكننا ما زِلنا هناك... في منطقةِ الصراعِ على قراءةِ الماضي: مَنْ

ظَلَمَ مَنْ؟ ومَنْ يعتذِرُ لِمَنْ؟

إنَّ الموقفَ الإيديولوجيَّ الإسرائيليَّ في عمليَّة السلامِ التي تُحرِّكُها السُّلحفاةُ، ما زالَ يُمْلي على الفلسطينيينَ شُروطَ بقاءٍ تعكسُ عقليَّةً تاريخيَّةً تَفترَضُ أنَّهُمْ، أيْ الفلسطينيين، من فُلُولِ الغُزاةِ العربِ لأرضِ إسرائيل، وتُطالبهُم بقراءةِ تاريخهم ووجُودهم على هذه الأرض باعتبارهِ وجوداً غيرَ شرعي.

بينما يتمتَّعُ الموقِفُ الحداثيُّ ، البراغماتيُّ الإسرائيليُّ بقِسْطٍ من التسامُحِ، ضروريٍّ لتحريك قطارِ السلامِ الإسرائيليِّ ــ العربيِّ، فيعَتَرِفُ لهؤلاء السكانِ المقيمين على أرضه «يهودا والسامرة» بحقِّ الإقامة الطويلة في ضواحي المستوطناتِ اليهودية...

بهذه المعالجة، يتمكّنُ الإسرائيليُّ مِنْ تنظيفِ ذاكرةِ الفلسطينيِّ الـمُشَوَّشَةِ، ومِنَ الانصراف إلى إقامة العلاقاتِ الطبيعيةِ مَعَ نفسه، دون أن يرتَبِطَ ذلك بحقّ الفلسطينيِّ في امتلاكِ شروطِ التحرُّرِ والاستقلال، أو حتى الحقوق المدنيّة والمساواة، مِنْ أجلِ تطبيعِ علاقاتِهِ مَعَ نفسه.

لا تنفي الهويَّة الهويَّة. إنَّ ما يُرْبِكُ الهويَّة ويُوَتِّرُها هو اشتراطُ تَشكُّلِها بنفي هويَّةِ الآخر. فإلى متى يجري البحثُ عن الطبيعيِّ في ما هو خارجهُ: في إصرارِ الإيديولوجيِّ الإسرائيليِّ على إقامة حدوده، التي لا حُدودَ لضيقِها وسِعَتِها، في وُجودِ الآخرِ... غيرِ الموجودِ، وعلى تشكيلِ صورتهِ، وصوتهِ، وعلاقتهِ بذاتهِ ــ الموضوع، ورَدِّ فِعْلِهِ الباقلوقي علَى ما يُريدُ له أن يكون، وأن لا يكون.

أمَّا نحنُ، فما علينا إلّا أن نكونَ كما نُريد لنا أن نكون: طبيعيين في حياةٍ طبيعية. تلك هي معركتنا التي نخوضها بكلِّ ما نملكُ مِنْ شَهْوَةٍ إلى الحريَّةِ وإلى السلام. ولن نعودَ إلى الوراءِ، لن نعودَ إلى المنفى، إلّا... لمتطلبات النشيد!

المكان في مكانه(*)

كنتُ هنا، منذ قليل، في أول لقاء على هٰذه الأرض، يجمعني بما كان فيّ من أمس، وبما سيكون عليَّ أن أكونه، في غد، بعد قليل.

في ساحة مجاورة لهذه الساحة، في ساعة الغروب ذاتها، شاهدتُ على مرأى منكم، ورُبّما على أيديكم، صورة ولادةٍ معنوية جديدة لشاعرٍ لم يألف أن يُولد مرَّتين، وإن ألِفَ أن يموت أكثر من مرة، على طريق العودة إلى البيت.

لا أحد يعود. لا أحدَ يعود تماماً إلى مَنْ كانه وإلى ما كان فيه. لا أحد يعود إلّا جماعة أو مجازاً. ومجازاً عدنا. فنحن في حاجة رمزيّة إلى تحميل عودة الأفراد بمدلولات عامة، فلعلَّ ربيعاً ما،

(*) [ألقيت هذه الكلمة بمناسبة منح جامعة بيرزيت الدكتوراه الفخرية للشاعر عام ١٩٩٦].

حقيقياً أو متخيّلاً، يندلع من جناح سُنُونُوة واحدة.

لا لشيء نُكابِدُ هذا الفرح الصعب، إلّا لاستنباط ما هو جوهريّ أكثر: عودةُ الروح الدائمة إلى الإرادة الضرورية لمواصلة السير الشاقّ إلى أرض الغد، لنتمكن من اجتراح معجزتنا الوطنية في تحريك هذا الحاضر من المكانة التاريخية الـمُعَدَّة له، بكل ما في القوة من حماقة وخرافة، للثبات في المعنى الجامد، وللقطيعة مع الزمن المتحرك.

ولا شيء في حياتنا جدير بأن يُكرَّم سوى حقنا في حياتنا ذاتها.. حياتنا التي كدنا أن ننساها في زحام البحث عن معنى خارجها. وكان خارجُها كثيراً، إلى حَدّ خُيِّل لنا، معه، أن الوطن قد هاجر، فلم نكد نعرف هل نحن هنا أم هناك. وها نحن قادرون على الافتتان بحقيقة واحدة: ما زال المكان في مكانه!

لعل الحيرة هي الوصف التقريبيّ لحالتنا الذهنية الراهنة المحرومة من مرجعية المقارنة. إذ يُراد لنا أن ننخرط، دفعة واحدة، في مختبر الوعي التجريبي الذي لا يعود بالصراع على الوعي إلى أية معايير، سوى نزعة الآخر للتحكُّم في نسيج وجودنا، وفي صوغ مصيرنا بطريقة لا تفتقر إلى العدالة فحسب، بل تحفل بكل عوامل التغييب الكامل للذات، ذاتنا، عن ذاتها.

إن الانتقال المفاجىء من مرحلة تاريخية محدّدة إلى مرحلة شديدة الغموض، يغيب فيها جوهر السلام عن عملية السلام، وتسودُ فيها انقلابات المعاني والمفاهيم بطريقة فوضوية، هو ما يدفع الوعي العام إلى عذاب الحيرة، ولكنه لا يُعَطِّل حيوية نشاطنا الثقافي ويُهَمِّشُهُ

كما يقول المتشائمون منا، بل يعود به إلى أسئلته المبدئية، وربما التقليدية حول علاقته بالواقع.

ليس هذا الواقع في حاجة إلى المزيد من الشكوى والهجاء، ولا يستحق بالطبع أي ثناء. وليس من الطبيعي أن ننصرف، الآن، إلى أسئلة التطبيع القصوى مع شيء أو أحد، وإلى الاستجابة للمطالبة بتطهير الذاكرة مما علق بها من لغة الصراع، وإلى تعديل حبكتنا التاريخية في اتجاه الاعتذار عن سيرتنا، ما دام الاحتلال، المعلن والمبطن، الرسمي والعلني، جاثماً على حياتنا، وما دامت المستوطنات تُقَطِّع جسد الأرض وتبتلعها، وما دام الحصار يهبط بنا من سؤالنا الوطني إلى بدائية الوجود، وما دمنا محرومين من ممارسة حقنا المقدّس في السيادة والاستقلال والحياة الإنسانية العادية.

فليس السلام سجناً أو معسكر اعتقال.

وليست السلطة نقابة وطنية لإدارة شؤون السجناء.

وليس الوطن مشهداً طبيعياً للزيارة العابرة.

لقد مشى الفلسطيني طويلاً على درب الآلام لبلوغ السلام الحقيقي العادل الذي يوفر له، وللآخر، شروط الحياة الإنسانية والوطنية والإبداع الحرّ، وقَبِلَ مبدأ التعايش المتكافىء على أرض وطنه التاريخي، استجابة لعملية التطور التاريخي الدامية التي جعلت من هذا الوطن بلداً لشعبين، بعدما دفعت بالشعب الفلسطيني إلى إحدى أكبر المصائر التراجيدية في هذا العصر.

ومن دون أن تأنس الضحيّة إلى قدرها، وتصاب بداء التنافس على المكانة العالمية للضحية، كما فعل سواها، لتبرير خروجه على المعايير

الإنسانية العامة، وتجريد ضحيته من مكانها ومن اسمها لتبرير الإمعان في إنكار وجودها، والاحتفاظ لنفسه باحتكار صفة الضحية التي أعطت لنفسها الحق في أن تكون جلاّداً مدججاً بالسلاح النووي وضحية في آن واحد.

من دون تقمُّص هذه النفسية وهذه العقلية، أشهر الفلسطيني الأمل في وجه الألم، وخاض معارك الدفاع عن اسمه وهويته وتاريخه وبلاده، ليحلّ البطلُ فيه مكان الضحية، وليتمكن من تحقيق وجوده الإنساني العادي في وطنه البسيط.

فهل تتيح ظروف هذا الواقع المأساوية له أن يتعايش مع ذاته الإنسانية المنتقلة من صورة الضحية إلى صورة البطل إلى صورة العادي؟

لا عودة إلى الوراء. ولكن، من أين لنا القدرة على جعل العدو، الذي حوّلناه إلى خصم، شريكاً لنا في مواصلة السير إلى أمام؟

تلك هي معضلتنا. ولكن في هويتنا الحضارية ما يكفي لوضع هذا الحاضر في مكانته من التاريخ. وفي تجربتنا الوطنية الخاصة ما يُحَفِّزُنا على الإيمان العنيد، بأن من استطاعوا الصمود الفذّ في معارك الدفاع عن هويتهم ووطنهم في الحروب الخاسرة، قادرون على الإمساك بمستقبلهم في السلام الخاسر. فنحن لسنا قلعة محاصرة إلى الحدّ الذي يتصوره الآخر. نحن جزء من محيط شاسع تُشكّل القدس موضع القلب فيه. وفيه من عناصر القوة الكامنة ما يعيد إلى عملية السلام ما تفتقر إليه من مبادىء العدل والمساواة والحرية.

ومهما كانت الحيرة، أمام هذا الواقع، متأرجحة بين النصف الفارغ أو الملآن من الكأس، فليس في وسع الثقافة أن تعيد النظر في طبيعتها ودورها. فبما هي معرفة، هي عامل أساسي في تكوين الوعي. ومن هنا مكانتها في التعامل مع الواقع، لا انسجاماً ولا تكريساً، بل إسهاماً في نشر الوعي الجماعي بضرورة تغييره. ولستُ هنا لأشيد بدور مثقفينا، وجامعاتنا وبخاصة جامعة بيرزيت، في الدفاع عن ثقافتنا القومية وعن تحصينها ضد أخطار التشكيك بالذات. ولكنني أود الإشارة إلى سعة المجال التاريخي الذي ينبغي لمشروعنا الثقافي أن يتحرك فيه، وهو مطالب بالامتداد على رقعة مجالات معرفية شاسعة في مقدمتها: حماية ذاكرتنا الجماعية، وحقنا في سرد روايتنا التاريخية، والدفاع عن وعينا التاريخي، وتطوير آليات التعبير عن انتمائنا القومي والإنساني، وتعميق ثقافة الديموقراطية والحرية والكرامة، ومفاهيم حقوق الإنسان.

إن طبيعة أية ثقافةٍ أصيلة، باعتبارها وطنية وإنسانية في آن معاً، تجعلها قادرة على صيانة خصوصيتها وهويتها في الوقت الذي تتفاعل فيه وتتحاور مع الثقافات الأخرى التي تُكَوِّن، بمجموعها، الثقافة العالمية.

ومن هنا، فإنها قادرة على التمييز بين ما هو إنساني وما هو عنصري في ثقافة الآخر، وعلى إدراك المشترك الإنساني الذي آن لنا أن نطوِّر وسائل حضورنا الحيّ فيه، من موقع خصوصية متحررة من عقدة النقص ومن عقدة الانغلاق معاً.

لا نريد أن نكون أبطالاً أكثر،

ولا نريد أن نكون ضحايا أكثر،

لا نريد أكثر من أن نكون بشراً عاديين.

البيت والطريق(*)

أرجو أن تأذنوا لي بالتعبير عن حيرة عاطفية، فليس سهلاً على المرء، حتى لو كان شاعراً ضالاً، أن يجد نفسه بين أهله دفعة واحدة، دون أن يضطرب. فالسعادة المفاجئة هي أختُ الحَرَج. وأنا سعيدٌ ومُحْرَجٌ: سعيدٌ لأني الآن معكم، هنا في الجليل الجميل، مُبْتَدَأ الكلام وخَبَرِه. ومُحْرجٌ، لأني لا أقوى على النظر في ماضيَّ الذي يُوَبِّخُني قائلاً: أين كنت؟ دون أن تغرورق اللغة بدمعها السرّي.

كأنني لم أنتبه إلّا الآن إلى ما فعل الزمنُ بي. أما كان في وسعه أن يُعَلِّمني الحكمة، كما علّمني التاريخُ السخرية بثمن أقلّ من الرحيل؟

(*) [ألقيت هذه الكلمة في احتفال خاص في مدرسة كفر ياسيف/ الجليل التي درس فيها الشاعر].

مرَّ أربعون عاماً، منذ زوَّدني هذا المكان الأجمل بعُدَّة السفر الطويل على طرق لم يكن واضحاً منها إلّا أوّلها. أما آخرها، فتلك أُمنيَةٌ تتقاذفها مغامرة الحياة وسِجالُ العلاقة بين الخطوة والطريق. لكنَّ إغواءَ الشعر فينا يحثُّ السائرَ الحالمَ على ابتكار جهاته، بذكاء القلب وطيشه، مُتوهِّماً أن طريقه هي خطاه، وأن الطريقَ المعبَّد ليس طريقَ الحالمين.

وكأنني أحلُمُ بأنني أرى في الحلم أني أفيق من حلمي. وحين أعود الآن إلى هذا المكان زائراً، أتساءل: هل يزور المرء نفسه؟ ولا أعرف إن كانت لغتي التي تعلَّمتُ الكتابة بها هنا، ما زالت صالحة للتعبير عن رموز لا تجد مجالها الحيوي إلّا في الرحلة، من فرط ما أدمنت الحضور في الغياب، ولا أعرف أيضاً إن كان في وُسعِ لغتي أن تألف مرجعيَّاتها الأولى، منذ حوَّلَتِ المسافة الماكرةُ كلَّ حجرٍ هنا إلى طائر هناك. وهل أستطيع أن أعيد الصورة الشعريّة إلى عناصرها الأولى، بطريقةٍ لا تمدح المنفى إلّا على دوره في رفع العاديّ إلى المُقدَّس؟

لعلَّ هذا هو امتحاني في ثنائيّة البيت والطريق. أمّا البيت، فلا يليقُ به إلّا المعنى الخالي من البلاغة. ولكن، هل عدتُ حقاً؟ وهل عاد أحد إلّا مجازاً؟ سأجد صعوبة بالغة إن حاولتُ الإمساك بأولى المفردات، للتأكد من صحة مكانتها في السياق، فقد اختلط الواقعي بالأسطوري، والتبس البعيد على القريب. بيد أن النهر ليس هو الينبوع.

مِن هذا المكان الجليلي، وُلدتُ مِن لغتي تدريجيّاً، ولم أكمل ولادتي بعد، فلا فرد يستطيع الاطمئنان إلى جوابه الشخصي عن

سؤال كان جماعياً منذ البداية، منذ مأساة الاقتلاع الكبير... إلى ملهاة سلام لا يعتمد إلّا موازين القوى مرجعيّة وحيدة. فماذا تفعل اللغةُ أكثر من الدفاع عن ثقافتها، عن ذاكرة جماعيّة ومكان مكسور، وهوية؛ وعن عناد الأمل المُحاصَرِ بالقنوط والتشكيك. فما من شيءٍ غير الخيال بقادر على إعادة تركيب الزمن المُنكسِر، أما الواقع، فهو كالتاريخ، مِن صُنع إرادة البشر القادرين على وضع الزمان الصحيح في المكان الصحيح.

كان هذا المكان كبيراً عليّ حين كُنت صغيراً فيه. كان مَعْلَماً ومُعَلِّماً. فمنه أخذتني الحياة إلى أسئلتي الأولى، وإلى اختباراتي الأولى. منه أُخِذتُ إلى زنزانتي الأولى... إلى امتحان حريَّتي الأوَّل. ومنه ذهبت إلى قصائدي الأولى التي أخذتني، وما زالت، إلى عذاب غربة لا شفاء منها، مهما اطمأنَّ الشعر إلى قدرته على تثبيت المكان في اللغة، وإلى تشييد منطقة حُرَّة في أعالي الكلام.

مِن هُنا، من كفر ياسيف من الجليل، بدأ أول الطريق إلى وضع الهاجس الشخصي والسؤال الذاتي في مكانه من السؤال العام، واتّضح الوعيُ الأوّل بالتلاحُمِ التلقائي بين الذاكرة الجمعيّة والذكرى الشخصيَّة، حين كانت هذه القرية/ البلدة تحمل من الإشارات والمعاني أكثر من مساحتها الجغرافيّة. فلم نتعلَّم من المدرسة بقدر ما تعلّمنا من محيطها، من الصراع الملتبس الاسم على هويّة المكان وعلى هوية الكائن، من غاب منه ومن حضر. ومن وقف، مثلي، بين المنزلتين حاضراً غائباً. ولعلَّ أحداً لم يُسأل كما سُئِل كلُّ واحد منّا: مَنْ أنت؟

لم يكن الجواب في حاجةٍ إلى تعقيد: أنا ابن هذه الأرض وابن

تاريخها، لولا إلحاحُ الاقتلاع المدجَّجِ بالسّلاح وبالأسطورة على الزجّ بنا في معركة الصراع على شرعيّة الوجود، وجودنا. إذ كان يقترح علينا تبنّي رواية تاريخٍ آخر، يبدأ من الأسطورة ولا ينتهي إلّا بتفريغ التاريخ من محتوياته ومنّا. إذ، لم يكن لتاريخ هذه الأرض من عَمَلٍ إلّا انتظار امتلائها بأمس الآخر الأبدي!!

لم يكن ذلك يعني صراعاً على الحاضر وحده، بل على الماضي أيضاً، إذ لم يكن وجودنا هنا، إذاً، إلّا احتلالاً!! ولم يكن الموجود فينا أكثرَ من شبحٍ زائر يقتضي تنظيفُ الأرض منه ارتكاب بعض المجازر بحقِّ البعض، ووضع بقيَّة الشبح في شاحنات الترحيل. أما النّاجون من المذبحة ومن الشاحنة، الصامدون الذين آثروا الموت على الرحيل، فسيصارعون طويلاً من أجل الحصول على إقامة دائمة في هامش المواطنة، وعلى مساواة شكليّة في حق الاقتراع على دين الدولة اليهودية. وهكذا لم تتمكن «واحة الديموقراطية الغربية» من إرجاء البوح بنزعتها العرقية، منذ البداية.

لم ينس أحد قصَّته، لا ماضِيَه ولا حاضره. ولم نكن في حاجة إلى انتظار المؤرخين الجُدد، لنحمِّل الدولة الإسرائيلية المسؤولية عن الظلم التاريخي الذي ألحقته بالشعب الفلسطيني، دون أن تعترف أو تعتذر، لتحسين مناخ السلام، على الأقل. لم ينسَ أحد قِصَّته، فما زال الدفاع عن حقوق المواطنة مرتبطاً بالدفاع عن حق العودة. وما زال اللاجئون في بلادهم لاجئين في بلادهم، وفي منأى عن أي تفاوض خارجي أو داخلي. فالمواطنة ليست بديلاً أو تعديلاً عن حقوق المواطنين، ولا حلاً لمشكلة اللاجئين في بلادهم.

إن للأقلية القومية ذاكرة جماعية، لها تداعياتها ومطالبها الثقافية

والحقوقية والسياسية، ودورها في وعي ذاتها، وفي تحديد سياسة الدولة تجاهها، وتجاه قضية شعبها التي لن تتشظَّى هويَّتُهُ الوطنية إلى هويَّات مبعثرة ومتنافرة، مهما ابتعدت مسيرة السلام أو اقتربت من جوهر السلام.

وفي هذا المكان الذي دَرَّبني على الربط بين المسألة الديموقراطية والمسألة القومية من جهة، وعلى التمهُّل في البحث عن حلّ نظريّ أو عمليّ للتوتُّر القائم بين الجنسية والهُويَّة، من أجل ترجيح سؤال البقاء في الوطن على أي سؤال آخر، من جهة ثانية، أشعر بخشية خفيفة وخفيَّة من تداعيات الانقلابات الدولية والإقليمية على طريقتنا في محاكمة تجربتنا السابقة بمعايير «الآن» الضاغطة، وخارج سياقها التاريخي، فصوابُ فكرةٍ ما، كفكرة العدالة الاجتماعية، وحق الشعوب في التحرُّر، وحقوق الإنسان، لا يقاس دائماً بنجاحها الآني، ولن تصبح أفكاراً بالية لأن أداة تطبيقها قد فشلت هنا أو هناك. لذا، لا يحقّ لأحدٍ بأن يطالبنا بالاعتذار عن الإيمان بمثل هذه القيم الإنسانيّة الخالدة. ولا يحقّ لأصحاب الخيار الصهيوني بأن يطالبونا بتقويمهم على أنهم كانوا مستقبليين بعيدي النظر، لا لشيء إلّا لأن المشروع الصهيوني نجح في احتلال المزيد من الأراضي العربية، واستطاع أن يجد منصبَ سفيرٍ إسرائيلي شاغراً في موريتانيا!

لكن شعوري بالعنفوان هنا أقوى من شعوري بالقنوط، وبالخشية من سقوط المعنى في البراغماتية المبتذلة السائدة. فإن ملحمة الصمود الطويلة على هذه الأرض كانت أحد العوامل الرئيسة التي لم تأذن للخرافة الصهيونية الكبرى «أرض بلا شعب» بأن تعمِّر طويلاً. وفي هذا الصمود اليومي البطولي حافظ شعبنا، هنا، على

وحدة مكوّنات هُوِيَّته القوميّة والثقافيّة على أرضه، وعلى إبقاء ملفّ القضيّة الوطنيّة الفلسطينيّة مفتوحاً، كما حرم المشروع الإسرائيلي من تحقيق حلمه بإقامة دولة طاهرة العرق على حساب تطهير الأرض من شعبها الأصلي. وهكذا لم يَسْلم المشروع من بذور ثُنائيّة القومية، الأمر الذي يعرّض تجاهُلَه الديموقراطية إلى امتحان يومي، كما تعرّض الديموقراطية الحرصَ على طهارة الدولة اليهودية، غير اليهودية ديموغرافياً، إلى امتحان آخر. لذا، لا يَسْلَمُ أحد، حتى الـمُنْتَصِر، من سؤال الهُويّة المُتوتّر. فإما التحصُّن في القلعة حرصاً على نقاء الهُوية، وإما الخروج إلى الأفق حرصاً على الحياة في المستقبل، حتى لو كان أحدُ شروطها انفتاح الذات على الآخر، واختلاط الهُويَّة في ما ليس منها. فإذا كان من الطبيعي أن تخشى الناس من الحروب، فإنه ليس مألوفاً ولا طبيعيّاً أن يتحدث أحد عن خطر السلام!

لستُ هنا لأذكِّر أحداً بقصَّته. بل لنتذكر معاً حكايتنا الجماعية... أيام كان الطريق أصعب وأوضح. أيام لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى هذا البلد، ولم يكن الحكم العسكري المباشر قد رفع قبضته الفولاذية عن أحد، ولم يسلم الـمُدرِّسون ولا الطلبة من الـمُلاحقة. أيام لم تكن الوطنيّة، ولا عكسها، مُجرَّد وجهة نظر. أيام لم نجد كتباً كافية للتعلم. أيام كان حاييم نحمان بياليك يطرد أبا الطيب المتنبي، وأحاد هعام يطرد ابن خلدون من برامج التعليم. أيام كانت «بياعر بحديره» ضرورية أكثر من جحيم دانتي. وأيام كان «يوم الاستقلال» هو المناسبة الوحيدة لزيارة أنقاضنا بلا عقاب. ذكرى تذكِّر بنقيضها. أيام كنا صغار السن كبار النفوس والمحن. أيام لم نعرف من هو المسيحيّ فينا ومن هو المسلم. لم تَعْتَدِ الكنيسة على الجامع، ولم يستفزَّ الجامعُ الكنيسة. أيام كان الديـنُ للَّه والوطنُ

للجميع. وأيام لم نتذكّر من سيرة صلاح الدين إلّا تحريره بلادَ الشام والقدسَ من الصليبيين، ولم يكن في سيرته ما يصلح لإشعال نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين.

في تلك الأيام، دلّتنا كفر ياسيف على بوصلة الشمال، على أوَّل الوعي، وعلى أوَّل الطريق، وعلى أُولى الخطوات. على السجن الأوَّل، وعلى حرياتنا الصغرى، وعلى طموحاتنا الأولى وخياراتنا الصعبة، وعلى أوَّل الكتابة، وعلى ما يدلّنا على أننا جزء من جماعة قوميّة، أيام كان انتماؤنا لمصلحة الشعب العامة، لا للعائلة أو القبيلة أو الطائفة.

هل مرَّ أربعون عاماً حقاً دون أن أنتبه إلى ما فعل بي الزمن. لا أحد يعود إلى مرآته الأولى إلّا ليهرب من ذاته الأولى إلى ذاته الثانية. أو ليقفز من وجهه إلى قلبه، ومن قلبه إلى ماضيه. لكن الماضي لا يصلح للإقامة الدائمة، بل لزيارة ضرورية، نُحاكِم خلالها أفعالنا، ونَجُسّ ما في الزمن من تاريخ، ونسأل: هل كُنّا جديرين بأحلامنا الأولى، وأوفياء لأرضنا الأولى؟ أما أنا، فلعلي لا أستطيع الإجابة، ولكني أحيل الأسئلة كُلَّها إلى هويتي الشخصية الوحيدة: قصيدتي. أمَّا الزَبدُ فيذهب جُفاءً، وأمَّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض... وفي الشعر.

وهكذا أجد نفسي هنا. لم أذهب ولم أرجع، لم أذهب إلّا مجازاً. ولم أُعُدْ إلّا مجازاً.

المنفى المتدرج(*)

لم تنته الطريق لأقول، مجازاً، إن الرحلة ابتدأت. فقد تُفضي بي نهايةُ الطريق إلى بداية طريق آخر. وهكذا تبقى ثُنَائيَّةُ الخروج والدخول مفتوحةً على المجهول.

كنت في السادسة من عمري حين خرجتُ إلى ما لا أعرف، حين انتصر جيشٌ حديث على طفولة لم يكن يأتيها من جهة الغرب إلّا رائحة البحر المالحة، وغروب شمس الذهب على حقول القمح والذرة. لم تتحول السيوف إلى محاريث إلّا في وصايا الأنبياء. وانكسرت محاريثنا في الدفاع عن طمأنينة العلاقة الأبدية بين ريفيّين طيِّبين وأرضٍ لم يعرفوا غيرها ولم يولدوا خارجها، أمام حرب الغرباء المدججين بطائرات ودبابات وفَّرت لرواية حنينهم

(*) [شهادة نشرت في مجلة Geo الفرنسية في عددها المكرس لـ «فلسطين: رحلة في قلب شعب»].

البعيد إلى «أرض الميعاد» شرعيَّة القوة. كان الكتاب يتغذى من القوة، وكانت القوة في حاجة إلى كتاب.

منذ البداية، صاحب الصراع على الأرض صراعٌ على الماضي والرموز. ومنذ البداية، كانت صورة داود هي التي ترتدي دروع جوليات، وكانت صورة جوليات هي التي تحمل حجر داود.

ولكن ابن السادسة لم يكن في حاجة إلى من يُؤَرِّخ له، ليعرف طريق المصائر الغامضة التي يفتحها هذا الليل الواسع الممتد من قرية على أحد تلال الجليل، إلى شمالٍ يضيئه قمر بدويّ مُعَلَّق فوق الجبال: كان شعب بأسره يُقتلع من خبزه الساخن، ومن حاضره الطازج ليُزجَّ به في ماضٍ قادم. هناك... في جنوب لبنان، نصبت خيام سريعة العطب لنا. ومنذ الآن، ستتغيَّر أسماؤنا. منذ الآن سَنَصيرُ شيئاً واحداً، بلا فروق. منذ الآن، سَنُدْمغ بختم جمركي واحد: لاجئون.

ـــ ما اللاجىء يا أبي؟

□ لا شيء، لا شيء، لن تفهم.

ـــ ما اللاجىء يا جدي، أريد أن أفهم.

□ أن لا تكون طفلاً منذ الآن!

لم أعد طفلاً، منذ قليل. منذ صرت أميِّز بين الواقع والخيال، بين ما أنا فيه الآن وما كان قبل ساعات. فهل ينكسر الزمان كالزجاج؟ لم أعد طفلاً منذ أدركت أنّ مخيمات لبنان هي الواقع وأن فلسطين

هي الخيال. لم أعد طفلاً منذ مَسَّني نايُ الحنين. فكُلَّما كبر القمر على أغصان الشجر حضرت فيَّ رسائل مبهمة إلى: دار مُرَبَّعة الشكل، تتوسطها تُوتَةٌ عالية، وحصان متوتر، وبرج حمام، وبئر. على سياجها قفيرُ نحل يجرحني مَذَاقُ عسله، وطريقان معشوشبان إلى مدرسة وكنيسة، واسترسال يفيض عن لغتي...

هل سيطول هذا الأمر يا جدي؟

إنها رحلة قصيرة. وعمّا قليل نعود.

لم أعرف كلمة «المنفى» إلّا عندما ازدادت مفرداتي. كانت كلمة «العودة» هي خبزنا اللغوي الجاف. العودة إلى المكان، العودة إلى الزمان، العودة من المؤقت إلى الدائم، العودة من الحاضر إلى الماضي والغد معاً، العودة من الشاذ إلى الطبيعي، العودة من علب الصفيح إلى بيت من حجر. وهكذا صارت فلسطين هي عكس ما عداها. وصارت هي الفردوس المفقود إلى حين...

حين تسلَّلنا، عبر الحدود، لم نجد شيئاً من آثارنا وعالمنا السابق. كانت الجرافات الإسرائيلية قد أعادت تشكيل المكان، بما يُوحي بأن وجودنا كان جزءاً من آثار رومانية، لا يُسمح لنا بزيارتها. وهكذا لم يجد العائد الصغير إلى «الفردوس المفقود» غير ما يشير إلى أدوات الغياب الصلبة، والطريق المفتوحة إلى باب الجحيم.

لم أكن في حاجة إلى مَنْ يؤرِّخني، أنا الحاضر الغائب. ولكن المخرجة السينمائية سيمون بيطون ستذهب بعد خمسين عاماً إلى مسقط رأسي لتصوير بئري الأولى وماء لغتي الأول، وستصطدم بمقاومة من سكان المكان الجدد، وتسجِّل هذا الحوار مع المسؤول

عن المستوطنة الإسرائيلية:

ـ لقد وُلد الشاعر هنا.

□ وأنا أيضاً. حين وصل أبي إلى هنا لم يلق سوى الأطلال. أعطونا خياماً ثم أكواخاً. أنفقتُ عشرين عاماً في بناء بيت لي، وتريدينني أن أعطيه إياه؟

ـ ما أريده هو أن أصوِّر هذه الأطلال، أطلال ما تبقى من بيته. إنه في عمر والدك، ألا تخجل؟

□ لا تكوني ساذجة، إنهم يريدون حقّ العودة.

ـ أتخاف من أن يحصلوا عليه؟

□ نعم!

ـ وأن يطردوك كما طردناهم؟

□ أنا لم أطرد أحداً. أنزلونا من الشاحنات وقالوا لنا: ههنا تدبروا أمركم. لكن من هو درويش هذا؟

ـ إنه يكتب عن هذا المكان، عن شجرات الصبّار هذه. عن هذه الأشجار، وعن البئر.

□ أية بئر. هناك ثماني آبار. كم كان عمره؟

ـ ستّ سنوات.

□ وعن الكنيسة؟ هل يكتب عن الكنيسة!؟

كانت هناك كنيسة لكنها دُمِّرت. أبقوا على المدرسة من أجل البقرات الحلوبات والعجول.

ـ حوَّلتم المدرسة إلى إسطبل؟

□ لِمَ لا؟

ـ صحيح، لِمَ لا بالنهاية؟ هم كان عندهم حصان. هل ما زال هناك بعض أشجار الفاكهة؟

□ طبعاً، حين كنا لا نزال أولاداً اعتشنا على ثمارها: تين وتوت وكل ما خلق الله. إنها كل طفولتي تلك الأشجار.

ـ وطفولته أيضاً.

لم تكن صحراء إذاً، ولا خالية من السكان. يولد طفل في سرير طفل آخر. يشرب حليبه. يأكل توته وتينه، ويواصل عمره، بدلاً منه، خائفاً من عودته، وخالياً أيضاً من الإحساس بالإثم، لأن الجريمة من صُنع أيدٍ أخرى ومن صناعة القدر. فهل يتسع المكان الواحد لحياة مشتركة؟ وهل يقْوى حلمان على الحركة الحرة تحت سماء واحدة، أم أن على الطفل الأول أن يكبر بعيداً وحيداً بلا وطن وبلا منفى، لا هو هنا ولا هو هناك.

سيموت جدي كمداً، وهو يطل على حياته التي يعيشها الآخرون، وعلى أرضه التي سقاها بدموع جلده ليورثها لأبنائه. ستقتله رائحة

الجغرافيا المنكسرة على أطلال الزمان، لأنَّ حق العودة من رصيف الشارع إلى الرصيف الآخر، لا يتحقق إلّا مع مرور ألفي عام على غياب يكفي لتطابق الخرافة مع الحداثة.

أما أنا، فسأبحث عن «أخوّة الشعوب»، في حوار لا ينتهي، عبر باب الزنزانة، مع سجان لا يكفُّ عن الإيمان بأني غائب.

ـ مَنْ تحرس إذاً؟

□ نفسي القلقة.

ـ مم أنت قلق يا سيدي؟

□ من شبحٍ يطاردني. كلما انتصرتُ عليه ازداد ظهوراً.

ـ ربما لأن الشبح هو أثر الضحية على الأرض؟

□ لا ضحيَّة سواي. أنا الضحية.

ـ ولكنك القويُّ. القادرُ، السجّان، فلماذا تنازع الضحية على مكانتها؟

□ لأبرِّر أفعالي، لأكون على حق دائماً، لأصل إلى مرتبة القداسة، ولأنجو من داء الندم.

ـ ولماذا تحتجزني هنا. هل تظنني شبحاً؟

□ ليس تماماً. بيد أنك تحفظ اسم الشبح.

لعل الشعر هو حافظ الاسم بجنوحه الدائم إلى تسمية العناصر والأشياء الأولى في لعبة لا تبدو بريئة لمن يُسَيِّجُ وجوده بالاستحواذ المطلق على المكان وذاكرته، على التاريخي والغيبي معاً. لعلَّ الشعر لا يكذب ولا يقول الحقيقة أيضاً شأنه شأن الحلم. ولكن تجربة الاعتقال المتكررة أضاءت لي الوعي بجمالية الشعر وجدواه أو فاعليته. لا، لم يكن الشعر لعبة بريئة ما دام يدُلُّ على كائن كان ينبغي له ألّا يكون.

لكن المنفى ينبت مرة أخرى كالحشائش البرية تحت ظلال الزيتون. وعلى الطائر وحده أن يُوَفِّر للسماء البعيدة نقطة العلاقة بأرض أُخرجتْ من خصالها السماوية.

لا تتمتع جغرافيات كثيرة بوفرة التعدد الجمالي الذي تمتاز به أرضنا العاجزة عن إجراء الانفصال الضروري عليها بين الواقع والأسطورة. كل حجر هنا يروي، وكل شجرة تحكي عن الصراع بين المكان والزمان. كلما ازدادت وطأة الجمال ازداد إحساسي بخفَّة الغريب: أنا حاضر وغائب وسجين. نصف مواطن ولاجىء كاملُ الحرمان. أذرع شوارع حيفا، على سفح الكرمل الموزع بين البحر والبرّ، وبي عطش إلى توسيع رقعة الأرض بحريّة لا أجدها إلّا في قصيدة تأخذني إلى الزنزانة. منذ عشر سنين لا يؤذن لي بالخروج من حيفا. ومنذ اتسعت دائرة الاحتلال الإسرائيلي عام ٦٧ ضاقت مساحة إقامتي: لا يؤذن لي بمغادرة غرفتي منذ غروب الشمس حتى شروقها. وعليَّ أيضاً أن أثبت وجودي في مركز الشرطة في الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم. أما ليلي الخاص، ليلي الشخصي فلم يعد لي: من حق رجال الأمن أن يطرقوا بابي

في أية ساعة شاءوا، للتأكد من أنني موجود!

لم أكن موجوداً. كنت أرغم على العودة إلى المنفى التدريجي تدريجياً، منذ اختلطت حدود الوطن والمنفى في ضباب المعنى. وكنتُ أحدس بأن في وسع اللغة أن ترمِّم ما انكسر، وأن توحِّد ما تشتت. ولعل «هُنا» يَ الشعرية، المتحولة من أفق إلى قيد، كانت في حاجة إلى توسيع منطق البعيد.

لكن المسافة بين المنفى الداخلي والخارجي لم تكن مرئية تماماً. كانت مجازية ما دامت هذه البلاد، معنىً، أكبر من مكانها. وفي المنفى الخارجي أدركتُ كم أنا قريب من بعيد معاكس، كم أنَّ هناك كانت هنا. لم يعد أيُّ شيء شخصياً من فرط ما يُحيل إلى العام. ولم يعد أي شيء عاماً من فرط ما يمسُّ الشخصي. ستطول الرحلة على أكثر من طريقٍ غالباً ما يُحْمَلُ على الكتفين. ستتأزم هوية مُحَرَّمة تُسْتَعْصَى على التلخيص بـ: هجرة وعودة. ولا نعرف أيّنا هو المهاجر: نحن، أم الوطن. والوطن فينا بتفاصيل مشهده الطبيعي، تتطور صورته بمفهوم نقيضه. وسيُفسَّرُ كل شيء بضده. سينمو كثير من النرجس الجريح على أرض الهامش المؤقتة. ستحلُّ اللغة محلَّ الواقع، وتبحث القصيدة عن أسطورتها في مجمل التجربة الإنسانية، وسيصير المنفى أدباً، أو جزءاً من أدب الضياع الإنساني، لا لتبرد نار التراجيديا الخاصة بل لتدخل في تاريخها البشري العام. لكن الإسرائيليين سيطاردون هذه المكانة. سيقولون إنهم هم المنفيون. هم المنفيُّون الذين عادوا، وإن الفلسطينيين ليسوا منفيين، بعدما عادوا إلى العيش في مجالهم العربي! ستجرَّد الضحية مرة أخرى من اسمها. فكما أن من حقَّ الضحية الخاصة أن تخلق ضحيتها، كذلك من حقِّ المنفيّ الخاص أن يخلق منفيَّه!

سيُتاح لي، بعد ما يزيد على ربع قرن، أن أرى جزءاً من بلادي، غزة التي لم أرها من قبل إلّا في قصائد شاعرها الراحل معين بسيسو الذي جعلها جنّته الخاصة. الطريق إليها عبر صحراء سيناء موحش، يُسامره نبت صحراوي هنا وهناك، نخيل حار ودبابة تذكارية، وبحر على الشمال. أما مشاعري فقد كانت مُرتَّبة بعقلانية باردة حيناً، ونهباً لخبرة مَنْ يعرف الفارق بين الطريق والهدف حيناً آخر. تكاثر النخيل فجأة في العريش. ها أنذا أقترب من المجهول الذي تمنيت لو يطول. ولكن سلطة الوعي على القلب تتراخى تدريجياً: هيّا بنا قبل أن يهبط المساء. انتظر، قال لي صاحبي وزير الثقافة، فالوطن في متناول اليد. والوطن هو ما تحسّ به الآن. هو هذا التوجُّس وهذا الاضطراب. قلت: لعله هو هذا المساء الذي يتأهب فيه الحلم ليصبح أكثر واقعية.

لا أحلم الآن بشيء. من هنا تبدأ فلسطين الجديدة: من هذا الحاجز الإسرائيلي. سيارة جيب عسكرية، علم، وجنديّ يسأل المرافق بعربية رخوة: شُو معك؟ فيقول له: معي وزير، وشاعر. أتحاشى النظر إلى كاميرات المصورين الباحثة عن فرح العائدين إلى الجنة. وتلسعني أضواء المستوطنات وحواجز الجيش الإسرائيلي على جانبي الطريق. ولعلَّ أول ما يفاجئني هو انكسار القوام الجغرافي وتشوُّه الخريطة. ولكن للمفاجأة جوابها الجاهز: هذه هي البداية. غزة وأريحا أولاً، فنحن في أول الطريق، في أول الأمل.

لم أتمكن من الوصول إلى أريحا. فكيف أصل إلى الجليل، وطني الشخصي؟ كان ذلك مشروطاً بشروط قال لي إميل حبيبي إنه يخجل من نقلها. لكنه لم يعرف أنه سيرحل بعد عامين، وأن جنازته ستوفِّر لي فرصة حزينة لأفرح بعودة قصيرة إلى الجليل، إذ

حصلت على تصريح لمدة ثلاثة أيام للمشاركة في تأبين إميل حبيبي ولزيارة بيت أمي. وهناك احترقتُ بلهفة العودة، فمن هنا خرجت وإلى هنا أعود. ورأيتُ كيف يستطيع المرء أن يولد من جديد: كان المكان قصيدتي.

لم ينقصني شيء لأحقِّق موتي المشتهى في ذروة هذه الولادة. بيد أني، وأنا أحرم من اكتمال الدائرة، كنتُ أدرك أن انسلاخ الأسطورة عن الواقع ما زال في حاجة إلى مزيد من الماضي، وأن تحرُّر الواقع من الأسطورة ما زال في حاجة إلى مزيد من المستقبل. وأما الحاضر، فلم يكن أكثر من زيارة يعود الزائر بعدها إلى توازنه الصعب بين منفى لا بدَّ منه وبين وطن لا بُدَّ منه. فلا يُعرَّفُ هذا بعكس ذاك، ولا ذاك بنقيض هذا. ففي كل وطن منفى، وفي كل منفى بيت من شِعْر.

ولم أعد بعد. لم تنته الطريق لأقول مجازاً إن الرحلة ابتدأت.

في تحرير الجنوب(*)

لا تحتاج البلاغةُ إلى أكثر من زيارةِ مصدرها الأول، لتُدركَ كم أنهكَتْها جماليّاتُ الحزن على واقع، أدَّى بها الإفراط في وصفه الواقعي، إلى الإحباط من جهة، وأدَّى بها التأمُل العميق في حركته إلى إحياء الأمل، من جهة ثانية. ومنذ البدء، لم يكن للقول من معنى إلّا إذا كان حافزاً للفعل.

هكذا يحتفل شعرُ الجنوب اللبناني، شقيق الشمال الفلسطيني، بانتصار الفعل على واقع الاحتلال، وبانتصار القول الشعري على اغتراب اللغة عن مجالها الحيوي، وبعودة الخيال إلى أصله، إلى الواقع... ليصير لبيت الشعر بيتٌ من حجر. ومن دون أن نَسْأل: «وماذا عن اليوم التالي؟» يأخذنا هذا العيد النادر إلى آفاقٍ مفتوحة

(*) [أُلقيت هذه الكلمة في احتفال جامعة بيرزيت، بتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي ٢٠٠٠].

على المعاني. إذ، لا أَحد يندم على الحرية.

لم يفطَن العربُ إلي ما فيهم من عَطَشٍ إلى الفرح كما يَفْطَنُون الآن، لقد اتخذ الأملُ مكانةَ العَوْرة التي تُغَطّى بكثافة الحجاب وبسيولة الخطاب. لكن قطرةً من أرض الندى كانت كافيةً لانفتاح الشهيّة العاطفية، وربما الفكرية، على فَرَحٍ جماعيّ وحّد فيها وَعْيَ الهزيمة القابلةِ لأن تنكسر، ووَعْيَ المقاومة القادرةِ على أن تنتصر.

قد لا يصلح المثال اللبناني لأن يحتذى، بحذافيره، في كل مكان. وقد لا تكون المقارنةُ بينه وبين ظرفٍ آخر، شديدِ التعقيد، أكثرَ من وليمة لتعذيب الذات بلا سبب. بيد أن البديهية التي لا تُبْتَذَلُ بمرور الزمن، تُعَلِّمنا أن تحرُّرَ الإرادة شرطٌ لتحرير الأرض. وأَنَّ في أعماق كل شعب طاقة روحية قادرة على ابتكار بلاغتها الوطنية التي تتلاءم مع الظرف الخاص والمحدّد، لذلك نُصَفِّق للبنان.

نُصَفِّقُ للبنانَ الجميل، نصفِّق له بلا تَوْرِيَةٍ أَو تأويل. كنا نحبّه، ونحبّه اليوم أكثر. لا لأن ذكرياتنا تمشي، هناك، على غير هدى في الجنوب الذي اختلط دَمُنا بعشبه وترابه، ولأن شهداءنا الذين قادَنا دَمُهم إلى هنا، هم أزهارُنا السماويَّةُ الباقيةُ هناك... بل لأنه انتصر على خرافته: على ضعفه الفولكلوري المُراوِغ. وانتصر على أسطورة الاحتلال الإسرائيلي الذي لا يخضع للضغط. ولأنه أَحيا في مرآة الاحتلال صورةَ سايغون المنهارة، التي فتحت تشوّهاً في صورة الذات الإسرائيليّة عن ذاتها.

ونحبُّ اليوم لبنان أكثر، لأنه انتصر أيضاً، ولو إلى حين، على ثقافة الهزيمة المتفشِّية في مواعظ النُخَب العربية التي حوَّلت

مفهومي الحرية والتضحية إلى مادة يوميَّة للسخرية، والتي تتربّص ــ منذ الآن ــ بتداعيات اليوم التالي المأمولة، عساها تعيد إليها إنتاجَ التبشير بعَبَثِيَّة الاعتراض على قَدَرٍ إسرائيلي لا يُرَدّ!

كل ما في لبنان اليوم جميل: عودة أَهل الجنوب إلى أرض الجنوب. فجرٌ واسع بلا احتلال. مساء آمن على الشرفة.. بلاغةُ العجائز في التَشَبُّه بالشجر العتيق. تحطُّم سجن الخيام أو الباستيل. تعميمُ النصر على جميع طِوائف الشعب اللبناني وقواه السياسية، وعلى قصر بعبدا أيضاً. الأَرُزُّ المنثورُ على المحَرَّرين وعلى المحُرِّرين، والأرزُ القادم من الشمال إلى الجنوب. تبادل الشتائم على جانبي الحدود الدولية. سخرية الأطفال ممّن كانوا يروِّعونهم.

وكُلُّ ما في لبنان اليوم جميل: انتقال الهامش إلى المركز. تَبَلْوُرُ الهوية بوعيٍ جماعيّ أَقوى من الفسيفساء. منحدرات الجبال والتلال، والليلُ النهاريُّ على قطيع الماعز الجريء، والعشبُ اليابس في طبيعة لم تكترث بالغزاة، وآثار الاحتلال أَيضاً جميلة حين تتحوَّل مُقْتَنِياتٍ للمتاحف: دباباتٌ وآليات وغنائمُ حربية تشير إلى أَنَّ احتلالاً ما كان هنا، وفرَّ قبل الفجر، دون أَن يجد الوقت الكافي لارتداء ملابسه الفولاذية.

لكن الجنود الإسرائيليين فرحون هم أَيضاً. نعم. قد يفرح المرء بالهزيمة إذا كانت هي الطريق الوحيد إلى السلامة، وإلى اللحاق بما تبقَّى له من حياة. أَمَّا القادة الذين سَمّوا احتلالَ جنوب لبنان انتصاراً للأمن الإسرائيلي، فإنهم سَمّوا الانسحاب انتصاراً أَيضاً، لا لشيء إلّا لمعالجة النرجس الجريح. وهكذا، حَمّلوا صَنيعتهم «جيش لبنان الجنوبي» المسؤولية عن الانهيار، فانخدشت كرامة «حلفاء

الشيطان» وقالوا للشيطان: أَنت الذي خان.

تَتَكَرَّرُ الأخطاءُ التاريخية لأن أَحداً لا يتعلَّم إلّا من تجربته. فهل يتعلَّم أَكاديميّو الاحتلال الإسرائيلي، ذوو الخبرة الطويلة في هذا المضمار، شيئاً من تجربتهم التي دامت حوالى ربع قرن في جنوب لبنان؟ في مقدمة هذا الشيء البسيط: أن الزمن، زمنَ الاحتلال، لا يُضَيِّعُ حقَّ أحدٍ في العودة إلى بلاده، ولا يُصَنِّعُ حقاً مضاداً يدعي أَنه «الأَقدم والأَحدث» معاً، مهما نجحت الوقائع الجديدة في تعديل الجغرافيا والديموغرافيا. ومن هذا الشيء البسيط: أَن الاحتلال هو الأب الشرعي للمقاومة.

فَهَلْ توفِّر هذه التجربةُ فرصةً لعودة الإسرائيلي الهادئة إلى محاسبة الذات، التي أَدمنت الخروج عن حدودها، وهل توصله إلى التساؤل عن مدى تحمّله نفسَهُ العليا المثقلةَ بالاستثناءات والخصوصية، والتي لا تكفُّ عن مطالبةِ الآخرين بالتطبيع مع حقِّها في الهيمنة والتعالي على التاريخ، دون أَن تجد الوقت لإقامة علاقات طبيعية وعادية مع ذاتها، لأنها منهمكة في حشر الآخر في ما تحدِّده له من «آنٍ، وهنا».

ليس هنالك نصر نهائي ولا هزيمة نهائية، فهذان المفهومان يُتْقنان لعبة التناوب والاحترام المتبادل، لكي يكمل السيِّدُ التاريخُ حركته اللانهائية. المهم هو: ماذا يفعل المنتصر بالنصر، وماذا يصنع المهزومُ بالهزيمة. ولعلَّ بعض الهزائم صالح لبلوغ البشر مرحلة النضج المعنوي والأخلاقي. ولعلَّ بعض الانتصارات أَخطر على البعض من الهزيمة، لأنه يُعْفيه من ضرورة الإصغاء إلى صوت الزمن. لقد انتصرت إسرائيل على العرب أكثر من طاقتها على تحمُّل تبعات

نصرها، إذ صار دماغها العسكري أكبر من جسدها، فأصبحت أَسيرةً لفائض قوة جشعة، دون أن تحسب أيَّ حساب لقدرة المقاومة الشعبية على تحييد هذه القوة.

هذا ما فعلته الانتفاضةُ الفلسطينية أَمس. وهذا ما فعلته المقاومة اللبنانية اليوم. لقد أَرغمت الأُولى إسرائيل على الاعتراف المتأخر بوجود الشعب الفلسطيني وعلى الانسحاب، أو إعادة الانتشار، من جزء من الأرض الفلسطينية المحتلة. وأَرغمت الثانيةُ إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان لأنها لم تعد قادرة على تحمّل ثمن الاحتلال، لا لأنها انتبهت فجأة إلى قرارات مجلس الأمن. وهكذا، فإن الدولةَ التي لم تَكُفَّ عن القول إن العرب لا يفهمون غير لغة القوة، هي الدولة نفسُها التي يقول انسحابُها إنها هي نفسَها لم تفهم غير لغة القوة.

إن سؤال اليوم التالي عمَّا سيفعل اللبنانيون بانتصارهم بعدما أَنجزت المقاومةُ المسلحةُ برنامجها الوطني، وعن مدى انسجام برنامجها الاجتماعي مع متطلبات المرحلة اللبنانية القادمة، وعن تداعيات الانسحاب المحلية والإقليمية، وغيرَهُ من الأسئلة السهلة والصعبة، لن يُوقفَ عدوى الأمل الكبير الذي أَيقظه لبنانُ الصغير في قارةٍ عطشى إلى الحرية والديموقراطية.

لقد استعادتْ ثقافةُ المقاومة، بمعناها الواسع، بعضَ أَسلحتها الفكرية التي صادَرَتْها برغماتيَّةٌ مُبْتَذَلَةٌ لا تميِّز بين التسوية والسلام، ولا توازن بين الدفاع عن الحقوق وبين إدراك الممكن!

وأَما السؤال عما سيفعل الإسرائيليون بما أَصابهم في جنوب لبنان،

فإنه منوط بنوعية استخلاص العبرة. فإذا كانوا يعتبرون الانسحاب نصراً، فلينتصروا إذاً في سائر الجبهات... فلينسحبوا من الضفة الغربية ومن القدس العربية ومن الجولان. فلينسحبوا منتصرين، أو فلينتصروا منسحبين، فلا مشكلةَ لنا مع التسمية. وماذا لو انتصر الكائن البشريُّ على حماقته؟ إنه بدايةُ الرشد، ومقدِّمةٌ واعدةٌ بعقد السلام الطبيعي مع الذات. فقد آن للعقل الإسرائيلي المدبِّر أن يتحرر من عقدة التفوق ومن عقدة الخوف، اللتين تضعان السلام لنا بديلاً للتحرر، ورموز الأشياء بديلاً عن الأشياء، والاحتلال العلني أو المبطن شرطاً لِقبول التسوية.

إن اختيار الفلسطينيين طريقَ السلام هو اختيار لا تراجع عنه، لأنه مرتبطٌ بمصلحتنا الوطنية العليا ومُسَلَّح بتقاليدنا النضالية الغنية بالتجارب. فليس السلامُ هبةً من أحد، ولا هو عطلة نهاية الأسبوع. إنه معركة قاسية يقودها وعيُ مقاومة الاحتلال والتبعية، ووضوحُ الهدف الوطني في الاستقلال والسيادة.

فما دامت ثقافةُ المقاومة جزءاً من نسيج المجتمع، فإن الانسحاب ممكن...

وما دام الانسحاب ممكناً

فإن السلام ممكن،

ولا تحتاجُ البلاغةُ إلى بليغ!

II ـ أكثر من وداع

رسالة الغائب إلى الغائب(*)

غائباً آتي إلى غائب، فلا أدري إن كنتَ هناك أم هنا، ولا أدري هل جسدي هو كلامي أم كلامي هو جسدي. ولكنني في الحالين غائب!

لا صورة للمعنى بلا مبنى. ولا أرض للقصيدة غير تلك الطعنة التي تحفرها السماء، بقرن غزال، على حافة الأرض.

هل دخلت من هناك؟ أم خرجت إلى ما أنت فيه، بحثاً عن أمثالي العائدين في عربات المهاجرين إلى صورتهم وهي تكبر وحدها، في الليالي القديمة، دون أن تنتبه إلى تدخل الشبح أو الشاعر.

ولكن، لماذا تفتح أبواب التأويل على مصاريعها لهذا التاريخ المهلك

(*) [في ذكرى توفيق زياد].

من مصارع العشاق؟ أليس في تلك الطريق الموغلة في القدم وفي الخرافة، بين أريحا والقدس.. ما يكفي لنتخلص من وطأة الأساطير، ولنخلو قليلاً إلى ضجر الرصيف وموهبة التدرب على عطلة الصيف، وعلى رائحة اليود القادمة من بحر بلا قراصنة؟

فلتغفر لي، إذاً، غيابي عن الواقعي لأغفر لك ذهابك إلى الأسطوري، فيكون لحضوري هذا، في ما تركت من غياب ساخن، لسعة اللقاء بأمس لاحق، لا لوعة الندم على غد سابق.

ولتغفر لي ثانية، أني أوسّع ـ لأكون قريباً من الأرض ـ ثنايا ظلك على الظل، وأجلس قليلاً في ما يبدو لي أنه شكل لي، لك، أو للشكل!

فكيف تحط الغيمة على حجر دون أن تجرحه، ودون أن تتلاشى فرحاً صوفياً في أرض صغيرة كحبة السمسم، وكبيرة كالله يؤمها الأنبياء، والغزاة أيضاً، من كل لغة ومن كل خطيئة، ليصغوا إلى ماء الله في حصاها من جهة، وإلى ما يحول هذا الماء إلى نبيذ أو دم، من جهة أخرى.

تلك هي حسرتي، في ساعة العصر هذه، حيث أخرج من ذاتي إليك، بسنونو حنين يشبه الكلمات. فأراك وقد خرجت من ذاتك إليَّ، بكلمات هي إلى الحجل أقرب، طيفاً يستضيف طيفاً، على هواء يتدلى علينا من سماء أليفة وخفيفة برسالة سيدنا الناصري، وهي تهدي الجلاد، قبل الضحية، لا لشيء... إلّا لأن الجلاد لا يعلم. ولأنه خير للضحية أن تعلم جلادها من أن تتعلم منه.

وأما نحن الذين لم يتخلوا عن ثالوثهم الأرضي المقدس: الحرية،

والمحبة، والسلام، ففي وسعنا أن نواصل حركة المعنى العابرة للزمن، والدفاع عن سيرة العشب فوق القلاع القديمة، وعما تبقى فينا من أرض وسماء.

ولا شأن لي ولك، ونحن في مضيق الوقت هذا، في طلب مساواة عصية بين ضحية وضحية، وفي موازاة نوعية عذاب إنساني بكمية عذاب إنساني مقابل، فتلك مجادلة لا تنتهي بنا إلّا إلى العبث أو الخطأ.

بيد أن ما يجرح طيفك وطيفي في مضيق المكان هذا، هو أن يظلا مطالبين بالانفصال أكثر عما كان، وعما هو كائن، وعما سيكون، أو بالتطابق مع صورة يرسمها الآخر لنا، بقوة اللاهوت والسيف معاً، وفقاً لموازين قوى تتحول إلى شريعة من حقها أن تنطق «ابن البلد» برواياتها عن الحقيقة، كأن تؤرخ لغربته على الأرض، أرضه، منذ بدء الخليقة.. وكأن تطالبه بالاعتذار عن وجود ما كان له أن يوجد، وعن هوية لم يكن من حقها أن تولد!

ليس ذلك هو سؤال الغريب للغريب، لا غريب أبي حيان التوحيدي، ولا الغريب فيك أو فيَّ. ولكن صوتاً ما فينا سيقول لنا: إن لم نكن قادرين على العودة إلى ما كنا، فلنذهب معاً إلى ما نريد أن نكون، لأن للتاريخ مجرى، وإن لم تكن له دائماً غاية واضحة، ولأن للضحايا حياة أخرى، هنا وفينا، حياة تعلمنا الثأر من قوة السيف بتحويل السيوف إلى محاريث، وبانفتاح الهوية على الهوية، فلا هوية تحيا من ذاتها المنغلقة على ذاتها وعلى ثباتها. فتلك هي «عبقرية الغيتو». وأما المألوف الإنساني، وهو غاية البشر الساعين إلى تطوير الإنساني فيهم، لتصبح التجربة الإنسانية إنسانية

حقاً، فلا يتحقق إلّا في خروج الذات الطوعي إلى الآخر.

وهذه هي أرضك، أرض الذات والموضوع أرضك، وينبوع الهوية الإنسانية، الزمنية والروحية، المتعددة في الماضي الثابت وفي الحاضر المتأزم، وفي الغد المفتوح، أرض البداية السحرية المشرعة على بدايات لا نهاية لها. من هجرة وبقاء، من اجتثاث وانبعاث، من سبي وعتق، من غرب وشرق، وهي ما هي عليه، أرض أرضها وسمائها، وأرض شعبها الصابر القادر على أن يكون ما هو عليه، من صلابة الجليل ومراوغة الأقحوان على طريق الربيع، وعلى ثياب الفتيات الخارجات إلى مرج بن عامر، والقادر على أن يكون واحداً في جماعة وجماعة في واحد، وحارساً لعلاقة لا تنفصم بين هويته وهوية الأرض.

أليس هذا هو صوتك، المعلق على أغصان الشجر وعلى ساحات الذاكرة الجماعية، منذ ربطت معركة هذه البقية الباقية من أبناء شعبك، من أجل البقاء والتعبير الحرّ عن الهوية الوطنية والثقافية والمساواة والتعايش المتوازن، بحق شعبها في العودة وتقرير المصير الحرّ والاستقلال، ليكون للسلام الحقيقي جدول أعمال واقعي، وأرض صلبة للتعايش والتسامح؟

هذه هي أرضك، أرض السلام المفقود، وأرض السلام الموعود في نهايات نفق رأيت الضوء في آخره، أمامك. ولم تشهد إلّا صواب الطريق، وصواب الفكرة التي لم تقسها بنجاح القوة الآني في فرض فكرتها المضادة.. فقد يصلب المسيح إلى حين. وقد يرفع سبارتاكوس على أسنة الحراب. ولكن روما أعيدت إلى رشدها!

فليس سلام السادة والعبيد إلّا سلاماً عابراً كسحابة صيف. أما سلام الحرّ مع الحرّ، وسلام السيد مع السيد، فهو المطر المشترك على جفاف الأرض المشتركة، فليس في الغد ما يكفي من الوقت إذا لم يكن الحاضر ملكيتنا المتساوية.

فمن أنت، ومن أنا؟

لا عرافات ماكبث.

ولا سؤال هاملت.

بل رائحة المريمية في شاي أهلي، وفي ناي الغريب، هي ما يحاصرني منذ عشرات السنين.

وهكذا لم نذهب، ولم نعد إلّا في ما يجعل القصيدة تكويناً على تكوين، وإن اختلفت طريقة الشاعر في الوصول إلى الفاعلية الجمالية. ولكن ما يجمعنا في طريقنا الواحد، من البيت إلى العالم، هو الاحتفاظ بقدرة الحدس على إبقاء مغامرة الكشف طريقاً، والطريق مغامرة كشف. دون أن يتمكن قطّاع الطريق من نهب اللغة أرضها، أو نهب الأرض لغتها. لذلك كان علينا أن نشير، منذ البداية، إلى نار القبيلة المشتعلة على أعالي القافية!

ولكن الشاعر يعمل، وحده، بلا علماء آثار وأجناس ومؤرخين وحرّاس. يعمل وحده، بقليل من العشب اليابس والملح والغيوم، لا ليجعل المستقبل القريب أقل بعداً فقط، ولا ليجعل الماضي البعيد أكثر قرباً أيضاً، بل ليتمكن مما هو أبسط: ليتمكن من إعادة سقف عالمه الشخصي المنهار بين يديه إلى ارتفاع الشجرة، مشيراً بطريقته

الخاصة إلى أن وجوده ما زال موجوداً، وإلى أنه هو الذي يعبّر عن ذاته، لا شخص آخر يحتلها برضاه!

وهذه هي أرضك، قد تمنحني ليلة من جسدها على مهب حب قديم. وقد لا تفعل، فأمضي إلى ليلتي المنتقاة من حبر المتنبي المشعّ على منفى لا يعذبني فيه إلّا أنه غيرها. وأما المهاة، بما حولها من صيّادين باكين من نجاتها، فهي ابنة ألفاظنا الملقاة على رائحة الماء.

أذلك هو نعيم الغريب، أم تلك هي الجحيم، بيت من الشعر شارد بلا بيت؟ لك أم لي هذا الجناز المفتوح بلا بداية ونهاية؟ أم للشهداء الذين لم يكبروا أبداً، فلم تتغير وجوههم ولا أحلامهم تغيّرت، فأين تفعل القصيدة فعلها: في القلب وهو يقفز، كالدوري الشقيّ، على مشهده الحرّ، أم في الوجه وهو يسترد نظرته الأولى إلى القمر؟

أما وأنت من أنا، وأنا من أنت، فما علينا إلّا أن نأخذ العبارة من إغواء الاستعارة ونعيدها إلى أمها.

فلا تمض، أيها الشاعر، إلى ما هو أبعد. فالبعيد هو هذا القريب. ليس للأَرض أب سوى الله. ولكن للأرض أماً واحدة هي: أرضنا!

وها أنذا أمامك. قد أرى لغتي على الأشجار دانية، فأهمس قرب هذا البعد: كنت أبحث عن موطىء في المكان وعن ملجأ في الزمان، ولكنني أبحث الآن عن بلدي في العبارة. ألم يبق منا سوى ذكريات الحجارة عنا، فخذ من يدي مفردات الحنين لآخذ من يدك الماء، وأحمل مزامير قلبي لأحمل هذا الهواء على كاهلي من سماء إلى أختها، مثلما يحمل الموتى أساميهم. يا أخي

الناصريّ، تطلّع إلى شعبك وهو يحمل عنك الرسالة، رسالة الناصرة إلى جوارها وإلى العالم، رسالة سلام الحرّ للحرّ. وسلام الحيّ للحيّ. تطلّع إلى كلماتك أيها الشاعر وهي تحفر اسمك، بقرن الغزال، على صدر هذه الأرض المعذبة.

الساخر من كل شيء(*)

الآن وأنت مسجّى على صوتك، ونحن من حولك، رجوع الصدى من أقاصيك إليك.

الآن لا نأخذك إلى أي منفى، ولا تأخذنا إلى أي وطن. ففي هذه الأرض من المعاني والجروح ما يجعل الإنسان قديساً منذ لحظة الولادة، وشهيداً حيّاً مضرجاً بشقائق النعمان من الوريد إلى الوريد.

كان لي موعد معك، هنا في ناصرة البشارة والإشارة، فانتعلتُ قلبي وحملت هواجسي في يدي: هل أصل هذه المرة إلى جنة الجحيم هذه؟! أم سيعلمني السراب ثانية أن للأرض أرضاً أخرى

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين إميل حبيبي في الناصرة في ٣/٥/١٩٩٦].

قريبة منها وبعيدة؟ ولم تكن أنت ذريعة للنداء. كنت العناق البعيد. أما كان في وسعي أن أجد الاثنين، دليلي وسبيلي؟! أم أن المصائر اعتادت على لعبة الحضور والغياب! على إيقاظ القلب من سكرته: لا تحلم بما لا تستحق. فليس هذا اللقاء سوى وداع.

مَن يودع مَن، أيها الساحر الساخر من كل شيء؟ ومن وقفتي هذه بالذات؟ فها أنذا أراك تغمز المشهد بنظرتك الشقيّة، لا لشيء إلّا لأنك تعرف نفسك وتعرفنا واحداً واحداً منذ أقدم الفاتحين حتى آخر العائدين. وتعرف أن الذات، لا الموضوع، هي ما يجعل المرء يركض من المهد إلى اللحد بحثاً عن ذاته التي لا تجد ذاتها، إلّا إذا امتلأت بخارجها. وكم كابدتَ في هذه الرحلة. كم كابدتَ كي تجد الأدب هناك في تلك المنطقة المتوترة من السؤال. فكنت كما تريد أن تكون وكما لا تريد. وحيداً في زحامك ومزدحماً في وحدتك. ولكن حدود الكون كانت واضحة فيك من غير سوء. هنا على هذه الأرض القديمة الصغيرة يجري الحوار بين الواقعي والخرافي، بين الزمني والروحي، بين النسبي والمطلق، بين الزائل والدائم، بين الحق والباطل، بين الحرب والسلام. وهنا.. هنا البداية وهنا النهاية.

باقٍ في حيفا، حياً وحياً.

باقٍ في حيفا، هو الاسم الذي سمّيت به اسمك. لا لتميز بين صعود الجبل وبين هبوط الجبل. ولا لتحدد الفارق بين الباقي في منفى هويته، وبين العائد إلى هوية منفاه. بل لتفعل فعلتك الخاصة بالأسفار، ولتحفر فوق المخطوطات ما لست في حاجة إلى تأكيده، إلّا لمواجهة زمن طال فيه الشك شرعية الأم. حين صار في وسع

القوة الواثقة من امتلاك الحاضر، أن تضع الماضي على مائدة التساؤل، لتملي عليك روايتها: حجراً في مواجهة بشر.

لم يرتكب شعبك من خطيئة سوى اسم هذه الهوية الذي تحفره في قطعة من رخام وفي الذاكرة الجماعية:

باقٍ حيث ولد في المكان الذي واصل فيه سليقة العلاقة العضوية المستمرة، وبلا قطيعة، بين الأرض وتاريخها ولغتها. وتابع فيه الإصغاء المرهف بخشوع ومحبة إلى كلام السماء إلى الأرض. ليعيش حياته البسيطة قنوعاً بحصته من الماء والهواء والضوء وتبدّل الفصول والغزوات، لتصبح الأرض التي غابت عنها طبيعتها أرض التعددية والتسامح والسلام.

لقد شاءت طبيعة التطور التاريخي في تقاطع المصائر الإنسانية أن تجعل هذه الأرض بلداً لشعبين، بعدما تعرض شعبها الفلسطيني إلى المصير التراجيدي المعاصر وبذل تضحيات تفوق طاقة البشر لتثبيت هويته الوطنية، وحقه في الاستقلال. وكنت أنت منذ البداية وحتى هذه اللحظة، أحد المنابر المتحركة الأقوى والأعلى، الداعية إلى سلام الشعوب بحق الشعوب. السلام القائم على العدل والمساواة ونفي احتكار الله والأرض، للوصول إلى المصالحة التاريخية الحقيقية بين الشعبين، مع قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

والآن وأنت مسجّى على هذا المفترق، على لون هذا الغسق الداكن مدمى بالأمل وبخيبة الأمل، باليقين وبالشك معاً، فإن أكثر من جيل واحد من الباقين هنا يعبّر عن دَيْنه لك، للطريقة التي حللت بها جدلية التوتر الوجودي والثقافي بين الجنسية والهوية،

بطريقة وحيدة هي البقاء والدفاع عن حقهم في المساواة، وإمداد عناصر الهوية بمكوناتها الثقافية، الوطنية والقومية التي لا وجود لهم بدونها.

فطوبى لك أيها المعلم الذي جعل الحنين فاكهة، وسيّج الحيرة بزهرة القندول.

كم أنت يا حبيبي، كم فيك من تناقض هو أحد مرايا تناقضاتنا التي تكسر اللغة من فرط نزوع المأساة إلى ارتداء قناع الملهاة. في كل واحد منّا واحد منك ونحن جميعاً فيك. وفي كل لحظة من زماننا أكثر من تاريخ يتبّدل قبل أن يمنحنا فرصة للتكيّف أو فرصة للتذكّر. تاريخ ينقضّ علينا كقطار عشوائي، فماذا تفعل في انتحار الرحمة؟ لم تكن السخرية خيارك الأدبي بقدر ما كانت حجتك في وجه هذا العبث، وطريقة في اختيار برج للرصد، ونقطة للوقوف على قدم المساواة مع الخصم ومع القدر معاً.

إذا كنّا نلعب، فتلك هي شروط اللعبة، لساناً بلسان، لا طائرة ضد طائر. وفي هذه المنطقة أيضاً يتبطّن المعنى معنى ثانياً، ويلجأ الفرد إلى ذاته ساخراً من عبء رسالتها فيخف الحمل الثقيل من أجل الانتقال إلى حمل أثقل، في صحراء الإيقاع الذي لا يتوتر إلّا لينسجم بين السياسي والأدبي. لا، لن تستطيع العودة إلى الوراء لإجراء التعديل المبتغى على مصيرك. تلك كانت حسرتك الأخيرة، أن تتخلى عن السياسة منذ البداية لتكون أديباً منذ البداية. فأنت من أنت ابن شرطك التاريخي وابن ذاتك. وليس من شيم هذه البلاد أن ترحم أبناءها ليكونوا عاديين كسائر البشر. وليس من شيمها أيضاً أن تأذن للضحية بلوم نفسها. وفيك من

المساحات والأصوات، فيك من تقاطع الطرق وحوادثها، فيك من البطل والضحية والشاهد، فيك من الأنا والجماعة والآخر، ما كان يُعجِز الفرد فيك عن أن تكون الراوية، لأنك أنت، أنت الرواية المفتوحة على الجهات كلها والمفارقات كلها والأسئلة كلها ما عدا سؤالاً واحداً: هل انكسار الإطار هو هزيمة المعنى، وهل هزيمة الأداة هي موت الفكرة؟

والآن وأنت مسجّى على فكرتك ذات الأقانيم الثلاثة، الحرية والعدل والسلام، فإن شعبك بأسره، شعبك العربي وأشقاءه من آخر الصحراء حتى آخر البحر، وأصدقاءه الأوفياء، أصدقاءك، من قوى السلام في هذه البلاد وفي العالم يزدادون وفاءً لفكرتك فتلك هي وصية الحرّ للحُرّ، وتلك هي هوية وجودنا الإنساني المشترك على أرض المعاني الإنسانية العريقة والتعددية الثقافية والدينية والقومية. أرض السلام العطشى إلى السلام.

فانهض معنا يا أبا سلام لنمضي قليلاً معك وإليك، إلى هناك، إلى حيث تريد أن تنام حارساً دائماً لتلفُّت القلب إلى حيفا. واغفر لنا يا معلمنا ما صنعت بنا وبنفسك. اغفر لنا أننا سنعود بعد قليل إلى أنفسنا ناقصين.

طريق العودة هي طريق المعرفة(*)

كُلُّ موت هو موت أَوَّل. مفاجىء، صاغق، غير معروف وغير مألوف.

لن نألف الحديث عن إبراهيم أبو لغد باستخدام فعل الماضي الناقص. فما زلنا معه، حوله، وهو يواصل البحث الحماسيّ عن حياة مختلفة في ساحة هذه الزنزانة، عن حياة تتَّسع لحلم عادي، يحقق فيها الفرد والجماعة حرية الاختيار لطريقتهم الخاصة في الإقامة على هذه الأرض.

لقد أشاح بوجهه عن شبح الموت، وتابع التحديقَ إلى تفاصيلِ صورةِ غدنا. كان يعرف أننا لا نعرف أنه يعرف ما نعرف عن سَفَرِهِ القريب إلى المطلق المجهول. لكن كان، حتى اللحظة

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين المربي إبراهيم أبو لغد في رام الله].

الأخيرة، عاكفاً على العمل لوطنه الزمني كأنه يعيش أبداً، معنا، فينا، وفي الأجيال القادمة. لأن سؤالَ الحياة هو سؤالُهُ الأبدي. ولأن فلسطينه ــ الواقعية والمتخيَّلة، هي صورة الجحيم والفردوس معاً. ولأنَّ سدرة المنتهى تنمو في مدينة يافا.

رآها في أوَّل العمر. وفي ما يُشبه تداعيات الخطيئة الأولى، وجد نفسه في قافلة الترحيل الجماعي مُعَاقَباً بالطرد من الجنة، لا لأنه اقترب من شجرة المعرفة المحرمة، بل لأنه لم يقترب منها. فأدرك آدمُ الفَتَى أن طريقَ العودةِ، الفرديةِ والجماعيةِ، هي طريقُ المعرفة.

من هنا تفتَّح وعي إبراهيم أبو لغد بحيوية البُعْد التعليمي والثقافي في الصراع المرير على استعادة الحق، الذي لم يُسْلَب بقُوَّة السلاح وحده، بل بسُلطة المعرفة التي وُظِّفت لبلورة الوعي الزائف المزيِّف لإفراغ الأرض الفلسطينية من أهلها ومن حقيقتها التاريخية، ولإبقاء السيف أقوى من الدم وأبلغ...

لم يأتلف مع منفاه الطويل الذي احتل فيه مكانةً أكاديمية عالية. فقد ظلَّ مشدوداً إلى هنا، مُكرِّساً كفاءاتِهِ العلمية والأخلاقية لتأسيس ثقافة الحق الفلسطيني. وكَكُلِّ مُبَشِّرٍ كبير، لم يكتب كثيراً بقَدْر ما انخرط في القتال الفكري اليومي، دفاعاً عن الأمل المحاصر بموازينِ قوى لا يكسر وطأتها إلّا تفاؤل الإرادة، حيث يرتبط الفكر بالعمل، وحيث تصبح المعجزة مشروعاً قابلاً للتحقيق. قطرةً قطرةً تمتلىء البئر، وخطوةً خطوةً ينفتح الطريق.

تعرَّفتُ إليه قبل حوالَيْ ثلاثين عاماً في بيروت. من اللحظة الأولى يجعلك تواصل معه ماضياً مشتركاً وذكرى قديمة. إنه صانع

الذكريات بامتياز، لا لأنه خريطة ناطقةٌ بالأمكنةِ والأشخاص فحسب، بل لأنه جاهزٌ للصداقة. أَليف، وَأَلُوف، ووُديّ وودود. لا عُمْرَ له لأنه ممتلىء بالأعمار، إلى حدٍّ لا يأذن لك بإدراك الفارق بين مترادفات الزمن. ولا يأذن لك بالانتباه إلى اختلاف، فهو أَخوي لا أَبويّ. ومن فرط ما هو مُعَلِّم، يصغي إليك بتواضُعِ مَنْ يريدُ أن يعرف، ثم يستدرجك إلى أسئلةِ حريريةِ الصُنع، لأن حكمته وثقافته منتشرتان في النسيج لا في الشكل.

وفي حصار بيروت عشنا معاً. وبحثنا معاً عن الخبز والماء، وعن متر مربع آمن من الصواريخ. ولكنه كان مُنْشغلاً بتجاوز حدود جهنم، مسكوناً بأسئلة اليوم التالي: ماذا بعد بيروت؟ وكيف ستحافظ التجربةُ الوطنيةُ الفلسطينية على مخزونها التراكمي؟ إذ لا ينبغي لنا أن نبحث عن بداية جديدة منقطعة عن السياق. وكان من القلائل الذين لم يروا في الخروج من بيروت نهاية. إذ رأى فلسطين أمامه: سنعود.

في علاقته بفلسطين مزيجٌ من صوفية وبرغماتية. لم يؤمن بإمكانية التوصل إلى حلٍّ عادلٍ في الظروف الراهنة. فالحلّ والعدل، الآن، مفهومان متناقضان. إذ، كيف يكونُ من العدل ألّا تكونَ يافا فلسطينية؟ لكنه يضع هذا السؤال في غرفة الأشباح، ليتسنّى له التعاملُ مع الواقع والعملُ على تغييره. لذلك، لم يؤمن أيضاً بالمغامرة، فتبنّى برنامج الحلّ الممكن لترسيخ الكينونة الوطنية، ولتمكين الشعب الفلسطيني من الحضور في التاريخ، بعدما تمَّ طرده من الجغرافيا والتاريخ ومن الوعي الإنساني.

في كلِّ واحدٍ منا أَثر من إبراهيم، فلم ينجُ من حبّه أَحد. ولم يَنْجُ

من عدوى إيمانه العُضال أحد. فيا ليتنا نبلغ صبر النَّمْل فيه، والمثابرةَ على العمل. كان يُوَزِّع جسمه في جسوم عديدة، ويفيض. كأنَّ يومه مُرَكَّبٌ من زمن مختلف، كيوم صديق عمره إدوارد سعيد الذي كان ينتظر وصوله بحنين التوأم الروحي إلى التوأم. وكان يجد في كل يوم من أيام صراعه الأخير مع الألم وقتاً للنشوة بلقاء إدوارد: سنحتفل به كما يجب. وسأخرج معه إلى أي مكان.

كنت في الغرفة المجاورة حين توقَّف إبراهيم عن الانتظار. سالت دموع كثيرة على الرغم من أننا كنا نعرف هذه النهاية. لكن الموت هو دائماً موت أَوَّل. هل الزمن الفاصل بين الحياة والموت قصير ووهميّ إلى هذا الحد؟ وحدها، صورة يافا على الجدار منعتنا من القول: باطل، باطل الأباطيل...

لقد أنجز إبراهيم حقَّ العودة بطريقته الخاصة. منذ عاد إلى الوطن أَعلن أنه لا يريد الموت في مكان آخر. كان له ما أَراد. بَيْدَ أن هذا الإعلان كان إعلاناً أَدبياً مجازياً. فلم يعد إبراهيم ليموت، بل عاد ليُسهم في تطوير الحياة التعليمية. عاد لينشر رسالة المثقف الفلسطيني إلى ذاته وإلى مجتمعه وإلى العالم: التمسُّك بحق العودة.. والمشاركة في صون الذاكرة العامة، وفي بناء تصورٍ أَجمل للمستقبل، مهما كان الحاضر هشَّ التكوين، ومهما أَسفرت التجربة عن خيبات.

كان حالماً، لا واهماً. وكم نحن في حاجة إلى الحالمين الكبار. فهو يدرك أن العودة الحقيقية هي العودة الجماعية. ولكنَّ في عودته الفردية دلالة أَخلاقية، وتعبيراً عن التزام حرّ بمصير شعبٍ اعتزَّ

بالانتماء إليه... إلى طاقته الفذّة في الصمود ومقاومة الاحتلال، وإلى جنونه اللامحدود بالحرية. عاد إبراهيم إلى الأرض التي لم يكفّ عن مديح جمالياتها. عاد ليغرس فيها شجرة المعرفة، فكان هو الشجرة. لقد وُلد في يافا. وعاد إلى يافا ليبقى، هناك، إلى الأبد، قرب سدرة المنتهى!

فدوى

فدوى، أختنا الكبيرة، ودّعت زملاءها من نافذة بيتها في نابلس، كما ودَّعت عشرات من الأحياء والشهداء. ولولا الحب، لولا الحب الذي هو شرط حياتها لكادت أن تكون خنساء العرب الفلسطينيين، في بلد صار فيه الموت هو سيّد الكتابة.

لم تعش كما تشتهي. لم تشأ أن يكون كل شيء واضحاً إلى هذا الحد الفاضح. ففي الضباب تأويل. وكم قالت لي كلما التقينا: كم أتمنى أن أعرف طريقي إلى غموضٍ ما في الشعر. كانت تطلب الغموض، لتقول أكثر مما قالت ربما من المسكوت عنه في قلبها، فقد ظنَّت أن في الغموض حرّية، وشاعريّة لا تُغريها تسميةُ الواضح.

لكنها أتقنت الشعر بصراعها مع سهولة الوضوح. فهل هنالك ما هو أوضح من أن تكون المرأة امرأة؟ وهل هنالك ما هو أصعب من

أن تكتب الأنثى أنوثتها في مجتمع ذكوري الثقافة؟ لا تحتاج ثورة المرأة على سجنها إلى نظرية، فمن حسيَّتها يتشكَّل وعيها الأول بذاتها. وهكذا كانت رحلتها الجبلية، تفسيراً لخلفية شعرها الرومانتيكي المبشر بتمردها على ما أَعدت لها «الرجولة» من مصير. وهكذا ارتبط شعرها، منذ البداية، بإعلان حقها في الحب، أي حقها في الحرّية.

أَحببنا شعر فدوى، لأنه كان يغوينا، من فرط بساطته، بتدوين عواطفنا الصغيرة وهمومنا الشخصية كيوميات خاصة، ولأنه كان يرشد الإحساس إلى البوح، ففي كل كائن بشري شاعر خفيٌّ لا يحتاج إلى سيف وفرس وبطولة ليمتلك حق الكلام.

لم تواصل فدوى تقاليد الشعر الفلسطيني المنخرط في صوغ صوت الجماعة المعرضة لخطر الاقتلاع. لم تكمل صوت أخيها إبراهيم الهجائي والـمُحرِّض، على الرغم من دوره الحاسم في تشجيعها على كتابة الشعر. جلست في ركنها الأنثوي، وأصغت إلى قلبها وجسدها، وإلى ما يخاطبهما من شعر رومانتيكي قادم من العالم الخارجي، وجدت فيه صوت الذات الباحثة عن حريتها الشخصية لتكون مؤهلة لوعي تحررها الوطني.

صحيح أن فدوى كتبت شعراً في التراجيديا الفلسطينية، وكيف لها ألّا تكتب! لكن صوتها الخافت كان مختلفاً، كان صوت المرأة العاشقة، المتأمِّلة، المعذَّبة، الوحيدة، الذي لا يشبه صوتاً آخر. كانت من الجماعة وخارجها في آن معاً. لقد عاصرت شعراء النكبة، ولم تكن منهم. عاصرت شعراء الحداثة العربية ولم تكن منهم. وعاصرت شعراء المقاومة، ولم تكن منهم. لقد حافظت

على هويتها الشعرية الخاصة بها. وحافظت على ما يشبه «الثابت» في الشعر، وهو النزعة الرومانسية. وحافظت على ما يشبه «الثابت» في الرومانتيكية، وهو الحب خلاصاً وجواباً، ومداواةً للذات، ومقاومةً لعالم فقَدَ الرحمة. وبالحب، بالحب وحده يكون الشعر عزاء، وطريقة لبلوغ سلام مع النفس ومع الآخرين.

لكن زلزال حزيران ٦٧، أَخرج الشاعرة عن طورها الشعري، فأحدث خلخلة ما في لغتها الحريريّة الصُنْع، وزجّ بسليقتها وأَخلاقيتها الأدبية الرفيعة في هذا السؤال الصعب: ماذا يفعل الشاعر في زمن المحنة؟ إذ صار على الشاعر أن يخرج من ذاته إلى خارجها، وصار على الشعر أن يشهد.

زارتنا في حيفا... أسيرةً تسعى إلى أسرى، قرأت علينا قصيدتها الأولى في المحنة الجديدة: «لن أبكي». لكنها كانت تبكي كحمامة. لم يعد الغناء الرومانتيكي جواباً على الكراهية والوحشية، وعلى واقع لا يأذن للكلمات بأن تواصل انفصالها السابق عن فخاخه، ولا يأذن لها بالاستمرار في البحث عن «الشعر الصافي»، ولا يتيح للشخصية أن تكشف عن خصوصيتها.

كانت خصوصية الشعر الفلسطيني، في تلك اللحظة التاريخية، تُحدّد بموضوعه وبمكان كتابته، حيث التقت الأصوات كلها في قصيدة واحدة. وصار كل اسم يدلُّ على اسم آخر، ولم تعد القصيدة في حاجة إلى التوقيع. ففي وسع القارىء، وحتى الناقد، أن يُعَرِّف الخصوصية الشعرية الفلسطينية باللا خصوصية الشخصية!!

هل تلك هي إحدى أعراض مُهمَّة الشاعر في زمن المحنة، أم تلك هي تداعيات ما يتطلبه الواجب؟ لا أدري، فلعل سؤال الشعر عن حدود طبيعته الخاصة، قد أُرجىء إلى شرط آخر تخف فيه حدَّةُ التوتُّر بين الجمالي والضروري. لكن، حين يطول زمن الطوارىء، يجد كل شاعر وقتاً للتأمل في خصوصيته، وليدرك أن فاعلية الشعر تأتي من جماليته، وأن جمالية الشعر تأتي من طريقته الخاصة في التعامل مع الواقع العَيْني، وتحويله إلى واقع لغوي مجازي.

وهذا ما فعلته فدوى التي واصلت الكتابة عن ذاتها العاشقة حتى ما بعد الثمانين، دون أن تتنازل عن وفائها للوطن والإنسان والمشاعر الإنسانية والطبيعة، ومن الصعب أن نعثر على تطابق أكبر من التطابق الشفَّاف بين شخصية فدوى العذبة وشعرها العذب. بين تقشُّفها في العيش وتقشفها في اللغة: انكسرت جيتارة الألم، واستمر النغم.

كما لو نودي بشاعر أن انهض(*)

على أربعة أحرف يقوم اسمُكَ واسمي، لا على خمسة. لأن حرف الميم الثاني قطعةُ غيار قد نحتاج إليها أثناء السير على الطرق الوعرة.

في عام واحد وُلدنا، مع فارق طفيف في الساعات وفي الجهات. وُلدنا لنتدرّب على اللعب البريء بالكلمات. ولم نكترث للموت الذي تَدُقُّهُ النساءُ الجميلات، كحبة جوز، بكعوب أحذيتهن العالية.

عالياً، عالياً كان كُلّ شيء... عالياً كالأزرق على جبال الساحل السوري. وكما يتسلّقُ العشبُ الانتهازيّ أسوارَ السلطان، تسلّقنا أقواسَ قُزَحٍ، لنكتب بألوانها أسماء ما نحبُّ من الأشياء الصغيرة والكبيرة:

(*) [في ذكرى ممدوح عدوان].

يداً تحلب ثدي الغزالة،

مجداً لزارعي الخسّ في الأحواض، شغف الإسكافيّ بلمس قَدَم الأميرة، ومصائر أخرى لجمهور مطرود من المسرح.

لم ننكسر بِدَويٍّ هائل كما يحدث في التراجيديات الكبرى، بل كأشعة شمس على صخور مُدَبَّبة لم يُسْفَكْ عليها دم من قبل، لكنها أخذت لون النبيذ الفاسد. ولم نصرخ، هناك، لأنه لا أحد، هناك ليسمع:

أو يشهد.

دَلَّتني عليك تلك الضوضاءُ التي أحدثتها نَمْلَةٌ بين الخليج والمحيط، حينَ نَجَتْ من المذلَّة، واعتَلَتْ مئذنةً لتؤذن في الناس بالأمل،

ودلَّتكَ عليَّ سخرية مماثلة!

ولما التقينا عرفتك من سعالك، إذ سبق لي أن حفظتُهُ من إيقاع شعرك الأول، يُفْزِعُ القططَ النائمة في أزقة دمشق العتيقة، ويبعثر رائحة الياسمين.

لم يكن لنا ماضٍ ذهبيّ على أهبة العودة، كما يدّعي رواد المقهى الخائفون من القبض على قرون الحاضر الهائج كالكبش، ولا غَدٌ أكيد، خلفنا، كما يدّعي رُوَّاد الشعر الخالي من الملح، المتخم بفراغ المطلق.

لم نبحث إلّا عن الحاضر.

ولكننا، من فرط ما أُهِنّا، بشَّرنا بالقيامة بصوت مرتفع، أثار علينا غضب الملائكة المنذورين لصون اللغة الصافية من غبار الأرض، والباحثين عن الشعر الصافي في جناح بعوضة.

ودُعِينا، في غرف التشريح مُعَقَّمةِ الهواء والكلام، إلى بَتْر المفردات كثيرةِ الاستعمال. وسرعان ما علاها الصدأ من قلَّة الاستعمال، وفي أوّلها: الحياة... ومشتقّاتُها. لكننا آثرنا أن نخاصم الملائكة .

ممدوح، لا أطيق سماع اسمك الآن، لأنه يذكّرني بما ينقصني من رغبة في الضحك معك على عَوْرةِ بَرَدَى المكشوفة كأسرارنا القوميةِ. ولأنه يذكّرني بمدى حاجتي إلى استراحة من الركض آناء النوم، بحثاً عن حلم مسروق، أراه واضحاً وأحاور السارق. ويذكّرني اسمك بما أنا فيه من طقطقة كأني حبّةُ بلُّوط في موقد.

لهذا، أكتب اسمك ولا أَلفظه، ففي الكتابة يتموَّج اسمك على ماء الحضور. وفي الكلام أسمع وحش الغياب يطاردني من حرف إلى حرف، ليفترس الشِلْوَ الأخير من قلبي الجائع إلى هجائك المادح.

ممدوح! ماذا فعلتَ بك وبنا؟ فلم نعد نحزن من تساقط شعرك المبلّل بالزيت، فإنك تستعيده الآن من عشب الأرض. ولكن، في أَية ريح أخفيت عنا سعالك، فلم يعد في غيابك مُتَّسع لغياب آخر.

لا لأن حروف اسمك هي حروف اسمي، لا أَتبيَّـنُ مَنْ منّا هو الغائب، بل لأن الحياة التي آلَفَتْ بين ثعلبين ماكرين لم تمنحنا الوقت الكافي لنقول لها كم أَحببناها، وكم أَحببنا فُجُورها وتقواها... فتركَتْ ثعلباً منَّا بلا صاحب.

لا جلجامش ولا أنكيدو. لا الخلود هُو المبتغى ولا قُوَّةُ الثور. فنحن الخفيفين الهشين، كواقعنا هذا، لم نطلب أكثر من وقت إضافي لنلعب بالكلمات لعباً غير بريء، هذه المرة، أو لنورث ما لم نَقُلْه بعد مَنْ لم يقل بعد. ولنجعل من الشعر مزاحاً مستحبّاً مع العدم. لكن حرف الميم الثاني في اسمك واسمي ظلَّ قطعة غيار لا تنفع.

ممدوح! هذا هو وقت الزفاف الفاحش بين الرعد والصحراء، شرق الشمال، لإنجاب الكَمْأ إعجازيّ التكوين. صِفْ لي ولادة الكَمْأَة أَصفْ لك عجزي عن وصف سر القصيدة، فانظر شرق الشمال!

هي حسرةُ التعريف. أَنين الرمل على الشاطىء حين يرفع القمر، بأصابعه الفضية، سروالَ البحر وقتَ الجَزْر، ويرشّ علينا قصيدةَ حبّ إباحيةَ التصوُّف.

فاغضُضْ من صوتك، لا من بصرك، وانظر. فمنذ ولادة اللغز الكوني، والشعرُ مختبىء في أشدِّ المواقع انكشافاً. ويظهر جلياً جلياً في اللامرئيّ من سماء مسقوفة بكفاءة الغيب.

ممدوح! كُلُّ الأزهار شريفة حين تُترك لحالها، ما عدا القرنفلاتِ الحمرَ التي يضعها الجنرالات، ما بين وسامٍ ونجمة، على بزّة سوداء أو كحلية... لخداع أرامل الشهداء.

وكل اليمامات نظيفة، حتى لو بالَتْ على شرفاتنا والوسائد، ما عدا اليمامات التي يُدَرِّبها الغزاة والطغاة معاً، وعلى حدة، على الطيران الرسمي في أَعياد ميلادهم، وفي مناسبات وطنية أَقلّ أَهمية.

الآن، لا أَتذكَّر شيئاً منك. فالذكرى تلي الحرب والموت والزلزال. وأَنت، ما زلت معي تكتب هذه المرثية، على هذه الورقة البيضاء، في هذا الليل البارد... أَو نكتبها معاً لشاعر محبط. فلعلّها لا تعجبه فيتوقف عن اغتيال نفسه، إلى أن يقوم غيرنا بكتابة مرثية أَفضل، لا تعجبه هي أَيضاً، فينتظر غيرها ويحيا أكثر.

كما لو نُودي بشاعرٍ أن انهض من هذا الألم.

وأنسى الآن، لتبقى معي، أكثر من غَلَسٍ لم يدركنا ولم ندركه قبل أن تُفْرِغَ آخر كرمِ عِنَبٍ مقطّر في كَأسك التي لا تخلو أبداً إلّا لتنكسر، أيها العاصرُ الماهر!

ليس هذا مجازاً، بل هو أسلوب ليلٍ لا يصلح إلّا ضيفاً، وأَنت المضيف الباذخ. وإن افتأَتَ عليك، كصديقٍ حامضِ القلب، عامَلْتَهُ

بالحسنى وأَرَقْتَ عليه حليب الفجر.

لكني لا أَنسى ضحكتك التي تشبه شجرةَ زنزلخت مبحوحةَ الأغصان، عالية وعريضة، لا تاريخ لها منذ صار التاريخ قهقهة عابثة. ومنذ عادت الجرار إلى حفظ الصدى، كالزيت، خوفاً عليه من آثار الشمس الجانبية.

كم حيَّرني فيك انشقاق طاقاتك الإبداعية عن مسار التخصُّص، كعازفٍ يَحَارُ في أية آلةٍ موسيقية يتلألأ. لم أَقل لك إن واحداً منك يكفي لتكون عشيرة نحل تمنح العسل السوري مذاق المتعة الحارق. بحثتَ عن الفريد في العديد، دون أن تعلم أن الفريد هو أنت. وأنت أمامك بين يديك. ألا ترى إليك، أم وجدت نفسك أصفى في تعدُّدها، يا صديقي المفرط في التشظّي ككوكبٍ يتكوّن.

فَصَصْتَ الثوم للقصيدة لتحمي شرايينها من التصلُّب. فالشعر، كالجسد، في حاجة هو أيضاً إلى عناية طبية، وإلى فِصَادٍ كُلّما أُصيب الدم بالتلوث. آه، من التلوّث الذي جعل الإيقاع نشازاً، واستبدل حفيف الشجر بموسيقى الحجر، واعتبر الحياة عبئاً على الاستعارة!

لكن هذا لم يهمك، لأن الحياة لا تُوهَب لتُعَرَّفَ أَو تُعْرَضَ للنقاش، بل لتُعاش... وتعاش بكاملها، وتُلْتَهم كقطعة حلوى إلهية، أو شفتين ناضجتي الكرز. وقد عِشْتَهَا كما شئت أنت، لا

كما هي شاءت. أَحْبَبْتَها فأحبَّتك. وشاكست ما يجعلها أَحد أَسماء الموت، في عصر القتل المعولم الذي يمنح القتلى قسطاً من الحياة لا لشيء... إلَّا لينجبوا قتلى.

يا ابن الحياة الحرّ، أَيها المدافع عن جمال الوردة العفوي، وحرية العشاق في العناق على مرأى من كُهَّان الطهارة اللوطيين! مَنْ بعدك سيسخر ممَّنْ يتقنون تسمية الآلهة، ولا يقوون على تسمية الضحايا؟ يأنفون من الانتباه إلى دم مسفوك على طريق المعراج، ويسرفون في التحديق إلى غيمة عابرة في سماء طروادة، لأن الدم قد يلطخ نقاء الحداثة المتخيَّلة، ولأن الغيم سرمديّ الدلالات. لعلَّهم على حق، ما دامت هزائمنا تستدعي تطوير النقد إلى هذا الحد!

لكن هذا أَيضاً لا يهمك، أيها المتعالي على التعالي، أَيها العالي من فرط ما انحنيتَ بانضباطِ جنديٍّ أمام سنبلة، ونظرت، حزيناً غاضباً، إلى أَحذية الفقراء المثقوبة، فانحَزْتَ إلى طريقها الممتلىء بغبار الشرف. الشرف؟ يسألك المترجم: ما معنى هذه الكلمة؟ فلم أجدها في الطبعات الجديدة من المعاجم.

ممدوح، يا صديقي، لماذا كما يفعل الطرخون خانك وخاننا قلبك؟ لماذا لم تعلم كم نحبك؟ لماذا تمضي وتتركني ناقصاً؟ لماذا... لماذا؟

ياسر عرفات(*)
فاجأنا بأنه لم يفاجئنا

١

فاجَأنا ياسر عرفات بأنه لم يفاجئنا. كأنّ تطابقاً بين الشخص المريض والنص المريض قد حدَّد مسبقاً صورة النهاية، وحرم البطل التراجيدي من إضفاء خصوصيته على القَدَر. فلا معجزة هذه المرة، ولا مفاجأة، منذ أصبحت التراجيديا، المصورة في مسلسل تلفزيوني طويل، يومية ومألوفة وعادية!

لقد أعدَّنا ياسر عرفات، تدريجياً، لوداعه المتواصل أكثر من مرة،

(*) [كتبت هذه الكلمة يوم رحيل ياسر عرفات].

وعوَّدنا على موت غير عادي وغير معلن، بغارة من طائرة حربية، أو بسقوط طائرة مدنيّة في صحراء. لكنه ــ والأقدار تُضفي عليه سحر الأعجوبة ــ كان يسبق الموت إلى الحياة، فنحيا معه في رحلة أدمنَّا خلالها الرحيل إلى هدف يتلألأ بجماليات المستحيل، وبشاعرية رعوية تُعيننا على طول الطريق.

من منفى إلى آخر، كان الموضوع ينأى عن أرض الموضوع... ويدنو، في بلاغةٍ ترسم اللافتات بدمٍ قلنا إنه يخصب الفكرة، وينعش الذاكرة، ويرفع الحدود عن العلاقة بين الواقعي والأسطوري. كنا في حاجة إلى أسطورة أنجزنا بعض فصولها. لكن الأسطورة في حاجة إلى واقع، فهل سينجح الأسطوري في امتحان العمل على أرض الواقع؟ إنه سؤال مُؤجَّل!

هو، ياسر عرفات، من استطاع أن يروِّض التناقض في المنافي، بمزيج من البراغماتية والدين والغيبيات. وتحوَّل، بديناميكيته الخارقة وتماهيه الكامل بين الشخصي والعام وعبادة العمل، من قائد إلى رمز شديد اللمعان.

لم يزاول مهنة الهندسة لتعبيد الطرق، بل لشقّها في حقول الألغام. قد يحتاج التاريخ إلى وقت طويل لترتيب أوراق هذا الرجل ــ الظاهرة. لكنه سيمنحه رتبة الشرف في علم القدرة على البقاء منذ الآن، ومنذ الآن سيتوقف طويلاً عند مغامرته ــ المعجزة: إشعال النار في الجليد. فقد قاد ثورة معاكسة لأي حساب، لأنها ربما جاءت قبل أوانها، أو بعد أوانها ربما. أو ربما لأن موازين القوى

الإقليمية لا تأذن لأحد بإشعال عود كبريت قرب حقول النفط... وعلى مقربة من الأمن الإسرائيلي!

لم ينتصر في المعارك العسكرية، لا في الوطن ولا في الشتات. لكنه انتصر في معركة الدفاع عن الوجود الوطني، ووضع المسألة الفلسطينية على الخارطة السياسية، الإقليمية والدولية، وفي بلورة الهوية الوطنية للفلسطيني اللاجىء المنسيّ عند أطراف الغياب، وفي تثبيت الحقيقة الفلسطينية في الوعي الإنساني، ونجح في إقناع العالم بأن الحرب تبدأ من فلسطين، وبأن السلم يبدأ من فلسطين.

وصارت كوفية ياسر عرفات، المعقودة بعناية رمزية وفولكلورية معاً، هي الدليل المعنوي والسياسي إلى فلسطين.

لكنه، وقد اختزل الموضوعات كلها في شخصه، صار ضرورياً لحياتنا إلى درجة الخطر... كرَبِّ أسرة لا يريد لأولاده أن يكبروا لئلا يعتمدوا على أنفسهم. لذلك أعدَّنا، أكثر من مرة، للتعوُّد على الخوف من فكرة اليُتم، وعلى الخوف من احتضار الفكرة في حال غيابه الجسدي. ومن فرط ما ناوش الموت ونجا، امتلأ لا وعيٌ فلسطيني خرافي بشعور ما بأن عرفات قد لا يموت! وهكذا لامَسَت أسطورته حدود الميتافيزيقيا.

لكن المفاجآت كانت تعمل في مكان آخر. فهذا الكائن الرمزي العائد من تأويلات إغريقية، كان في حاجة إلى التخفيف من عبء أسطورته، لأن البلد في حاجة إلى بناء وإدارة، وإلى التخلّص من

الاحتلال بوسائل جديدة. وهو الآن مكشوف أمام الجميع، عرضة للمس والهمس والمساءلة. ومن سوء حظ البطل أن عليه أن ينتصر على الأعداء في معارك غير متكافئة، من جهة... وأن يصون صورته في المخيلة العامة من نتوءاتها الداخلية.

لكن، وهو المشبع بثقافة صلاح الدين التفاوضية، وبتسامح عُمَر، لم يأتِ على حصان أبيض، ولا ماشياً أمام جَمَل... فلا مكان للخيل والإبل في بلاغة الأزمنة الحديثة. بل جاء إلى واقعه الجديد محمولاً على اتفاق أوسلو، ذي الجوهر الأمني الخالي من الإفراط في التفاؤل، والمفتوح على غموض النوايا. لكنه عاد، وفي ذهنه خاطرة مرِحة: حتى النبي موسى لم يعد إلى «أرض الميعاد»!

هي خطوة أولى نحو الدولة، يقول، ويعلم أن فلسطين ما زالت هناك: في القضايا المعلّقة على مفاوضات الوضع النهائي، حول القدس وحق العودة وغيرها من القضايا الشائكة. والطريق إلى هناك لا يمر من أوسلو، بل من مرجعيات الشرعية الدولية.

وكان يعلم أن تلك المرجعيات لم تعد صالحة تماماً في عالم القطب الواحد، الذي رفع الدولة الإسرائيلية إلى مرتبة المقدس الذي يُلهم «البيت الأبيض» بتعاليمه السماوية! ويعرف أيضاً أن المراسم الرئاسية، وبطاقات الهوية، وجوازات السفر لا تعني، بالنسبة إلى المسؤولين الإسرائيليين، إلّا ضرورة إلهاء المحرومين من الاستقلال بوجبات رمزية سريعة لا تشبع الهوية الجائعة. ويعرف أيضاً، وأيضاً، أنه قد انتقل من المنفى إلى سجن مؤثَّث بصور الأشياء لا بحقيقتها، وأنه في حاجة إلى إذن بالانتقال من سجن في رام الله

إلى سجن في غزة.

ولا بأس من سجاد أحمر... ونشيد.

من هنا، بدأت محنة الرئيس، وداؤه السياسي والمعنوي. فهذا الأسير العظيم، المحكوم بالشروط الإسرائيلية القاسية، لا يستطيع التقدم نحو الفهم الإسرائيلي لعملية السلام، ولا يستطيع التراجع إلى أبجديات الصراع التقليدية. ولا يعزِّيه أن من ندم على أوسلو، وخان تداعياتها هو «الشريك الإسرائيلي» الذي لم يعد شريكاً. فما العمل؟

لم يختلف أحد على حق الفلسطينيين في المقاومة، فكانت الانتفاضة الثانية تعبيراً طبيعياً عن إرادتهم الوطنية، وإصرارهم على إعادة الحياة إلى الأمل بسلام حقيقي، يحقق لهم الحرية والاستقلال. لكن أسئلة كثيرة طرحت حول الوسائل التي ينبغي أن تخدم هذا الهدف، وتجنُّب الفلسطينيين خطر استدراجهم إلى الحلبة العسكرية التي تَشَهّاها شارون، ليدرج حربه على الكيانية الفلسطينية الوليدة في سياق الحرب العالمية على الإرهاب منذ أضاعت أميركا الحدود بين مفهوم المقاومة ومفهوم الإرهاب.

لم يعد أمام ياسر عرفات إلّا الرهان على قَدَرٍ لا يستجيب، وعلى معجزة لا تُطيع هذا الزمن. المقاطعة، مقره ومنزله الوحيد، تنهار عليه غرفة... غرفة. وهو يردِّد في نبرة نبوية: «شهيداً، شهيداً، شهيدا..»، فيثير في النخوة العربية قشعريرة كهربائية عابرة.

لكن تكرار أخبار المأساة يجعلها عادية. وهكذا صار حصار عرفات أمراً مألوفاً... ثلاث سنوات من تسميم الحياة، ثلاث سنوات من استنشاق الهواء الفاسد، ثلاث سنوات من الهجاء الأميركي «لم يعد ذا صلة»، ثلاث سنوات من الكدّ الإسرائيلي لتجريد عرفات من صلاحيته وصلاحية رمزيته. بيد أن الفلسطينيين قادرون دائماً على الترميز: حصار الرئيس رمز لحصارنا، ومعاناته رمز لمعاناتنا. فهو معنا، وفينا، ومثلنا، نحبُّه لأننا نحبه. ونحبّه لأننا لا نحبّ أعداءه.

لم يفاجئنا هذه المرة. فقد أعدَّنا لوداع لا لقاء بعده. خرج المحاصر من حصاره ليزور الموت في المنفى، وليزوِّد الأسطورة بما تحتاج إليه من مكر النهاية. لقد منحنا الوقت ليتدرب الحزن فينا على أدوات التعبير اللائقة، ولنبلغ سن الفطام التدريجي. في كل واحد منا شيء منه. هو الأب والابن: أبو مرحلة كاملة من تاريخ الفلسطينيين، وابنهم الذي أسهموا في صوغ خطابه وصورته.

لا نودِّع الماضي معه... ولكننا ندخل، منذ الآن، في تاريخ جديد مفتوح على ما لا نعرف. فهل نعثر على الحاضر، قبل أن نخاف الغد؟

تأخَّر حزني عليه

٢

تأخَّر حزني عليه قليلاً، لأني كغيري توقَّعْتُ من سيِّد النجاة أَن يعود إلينا، هذه المرة أيضاً، ببداية جديدة. لكن الزمن الجديد أَقوى من شاعرية الأسطورة ومن سحر العنقاء . وللتأبين طقس دائم يبدأ باستعمال فعل الماضي الناقص: كان... كان ياسر عرفات الفصل الأطول في حياتنا. وكان اسمه أحد أسماء فلسطين الجديدة، الناهضة من رماد النكبة إلى جمرة المقاومة، إلى فكرة الدولة، إلى واقع تأسيسها المتعثِّر. لكن للأبطال التراجيديين قدراً يشاكسهم، يتربّص بخطوتهم الأخيرة نحو باب الوصول، ليحرمهم من الاحتفال بالنهاية السعيدة لعمر من الشقاء والتضحية. لأن الزارع في الحقل الوعر لا يكون دائماً هو الحاصد.

(*) [ألقيت هذه الكلمة في أربعينية ياسر عرفات].

يُعَزِّينا في هذا المقام أن أفعال هذا القائد الخالد، الذي بلغ حدّ التماهي التام بين الشخصيّ والعام، قد أوصلت الرحلة الفلسطينية الدامية إلى أشد ساعات الليل حلكة، وهي الساعة التي تسبق الفجر، فجر الاستقلال المُرّ، مهما تلكأ هذا الفجر، ومهما أُقيمت أمامه أسوار الظلاميين العالية. ويُعَزِّينا أيضاً أن بطل هذه الرحلة الطويلة الذي وُلد على هذه الأرض الشرسة، قد عاد إليها ليضع حجر الأساس للمستقبل، وليجد فيها راحته الأبدية، لتغتني أرض المزارات بمزار جديد.

الرموز أيضاً تتخاصم، كما يتخاصم التاريخ مع الخرافة، والواقع مع الأسطورة. لذلك كان ياسر عرفات، الواقعيُّ إلى أقصى الحدود، في حاجة إلى تطعيم خطابه بقليل من البُعْد الغَيْبيّ، لأن الآخرين أضافوا إلى الصراع على الحاضر صراعاً على الماضي، لمحو الحدود بين ما هو تاريخي وما هو خرافي، ولتجريد الفلسطيني من شرعية وجوده الوطني على هذه الأرض. لكن البحث عن الحاضر هو شغل الناس وشاغلهم، وهو عَمَلُ القائد المتطلّع إلى الغد.

وكان ياسر عرفات الناظرُ إلى الغد والعميقُ الإيمان بالله وأنبيائه، عميقَ الإيمان أيضاً بالتعددية الثقافية والدينية التي تمنح هذه البلاد خُصُوصيتها، التعددية المضادة للمفهوم الحصري الإسرائيلي. وكان في بحثه الديناميكي عن الغد في الحاضر يبحث عن نقاط الإلتقاء، ويشكّل سداً أمام الأصوليات. لم يكن تَديُّنُه حائلاً دون علمانيته. ولم تكن علمانيته عبئاً على تدينه. فالدين للّه والوطن للجميع.

مَنْ منّا لم يقف حائراً أمام قُوّة إيمانه بالعودة القريبة. كان بصره كبصيرته يخترق الضباب الأسود. كنت شاهداً عليه وهو يستعد

لركوب البحر من بيروت إلى ما لا نعرف، إلى مجهول بعيد. سأله أوري أفنيري: إلى أين أنت ذاهب؟ فردَّ على الفور: إلى فلسطين. لم يصدِّق أحد منا هذا الجواب الهارب من الشعر. فلم تَبْدُ فلسطين، من قبل، بعيدة كما تبدو من هذا البحر.

كان خارجاً من حصار شارون. نجا من ملاحقة الطائرات ومن عدسة القنَّاص. ومضى في رحلة أوديسية، محملاً بنهاية مرحلة، ليقول: أنا ذاهب إلى فلسطين.

أعاد ترميم الرحلة والحكاية. نجا من غارة على غرفة النوم في تونس. ونجا مرة أخرى من سقوط طائرته في الصحراء الليبية. ونجا من آثار حرب الخليج الأولى، ونجا من صورة الإرهابي، واستبدلها بصورة الحائز على جائزة نوبل للسلام. وحقَّق نبوءته التي سكنته طيلة العمر: عاد إلى أرض ميعاده، عاد إلى فلسطين.

لو كانت تلك هي النهاية، لانقلبت التراجيديا الإغريقية على شروطها. لكن شارون العائد من ضواحي بيروت نادماً على ما لم يفعل، سيلاحق خصمه الكبير في رام الله، سيحاصره ثلاث سنوات، سيحول مقره أطلالاً، وسيسمّم حياته بالحصار والعزلة، وسيحرمه من الموت كما يشتهي: شهيداً في مقره. فإن شارون لا يحارب الشخص ونصَّه الوطني فحسب، بل يحارب إشعاع الرمز في الزمن، ويحارب أثر الأسطورة في ذاكرة الجماعة.

لكن ياسر عرفات، الذي يعي بعمق ما أعدّ لنفسه من مكانة في تاريخ العالم المعاصر، أشرف بنفسه على توفير وَجَع ضروري للفصل الأخير من أسطورته الحية. فطار إلى المنفى ليلقي عليه تحية

وداع، أسلم معها روحه، فالبطل التراجيدي لا يموت إلّا في المنفى. وفي طريق عودته المجازية، عرَّج ذو الهوى المصري على مصر ليسدِّد لها دَيْنَها العاطفي. وعند عودته النهائية، التي لا منفى بعدها، ألقى النظرة الطويلة الأخيرة على الساحل الفلسطيني المغروز كسيفٍ في خاصرة البحر... ونام. تدثَّر الجسدُ الخفيفُ بأرض الحلم الثقيل، ونام... لا لينهض كصنم أو أيقونة، بل فكرةً حية تحرضنا على عبادة الوطن والحرية، وعلى الإصرار على ولادة الفجر بأيدٍ شجاعة وذكية.

إن صناعةً للوهم تزدهر الآن في مَكان آخر. فعلى مستويات عالمية وإقليمية يجري الاحتفال المبكر برؤية فجر كاذب، يبزغ من رحيل عرفات الموصوف بأنه كان العقبة الرئيسة أمام تقدم عملية السلام. ليكن، فما هي الرؤية الجديدة؟ سيُمْتَحن القانون الدولي والمرجعية الدولية ما دامت العقبة قد زالت، فهل سيزول الاحتلال؟ لن ينتظر العالم طويلاً ليدرك أن لاءات شارون الأربع، التي تبنَّاها الرئيس الأميركي، لا تشكل العقبة الكبرى أمام السلام فحسب، بل تجعل السلام مستحيلاً، لأنها تجعل إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة أمراً مستحيلاً، فلا يستوي السلام مع استمرار الاحتلال والسيطرة على مصير الشعب الفلسطيني، كما لا يستوي المؤقت مع الأبدي. فمن، بعد عرفات، سيرضى بشبه دولة مؤقتة إلى الأبد؟

سنفتقده دائماً، في الأزمات وفي المفاوضات، وفي جميع نواحي حياتنا، لأنه جزء عضوي منها، ولأنه فريد وبلا مدرسة. فالعرفاتية لا تقوم إلّا على صاحبها، لأنها موهبة خاصة، حيوية وألفة ونشاط خارق، ومزايا شخصية لا تُورث، وفوضى ونظام معاً، وعلاقات حميمة مع الناس جعلت الكاريزما العرفاتية ما هي عليه. بعد

عرفات لن نعثر على عرفاتية جديدة. لقد أَغلق الباب على مرحلة كاملة من مراحل حياتنا الداخلية. لكن الباب لن ينفتح، بغيابه، على قبول الشروط الإسرائيلية التعجيزية لتسوية لم يبق فيها للفلسطينيين ما يتنازلون عنه. هنا، تواصل العرفاتية فعلها. وهنا، لا يكون عرفات فرداً، بل تعبيراً عن روح شعب حيّ.

في كل واحد منا ذكرى شخصية منه، وعناق وقبلة. وفي كل واحد منا وعيُ هوية لا تعاني من قلق التعريف: لن نكون فلسطينيين إلّا إذا كنا عرباً. ولن نكون عرباً إلّا إذا كنا فلسطينيين. فهذه الهوية مستعصية على المراجعة والتفاوض، سواء قام الشرق الأوسط أو لم يقم. ولن نكون ما نريد أن نكون إلا إذا عرفنا كيف نوقف عملية الخروج من تاريخنا ومن التاريخ الإنساني، وكيف نعود إليهما، بكل ما أوتينا من طاقات وتجارب ومواهب.

وتلك كانت محاولة ياسر عرفات الدؤوب: الانتقال من الدور الذي تحتلّه ضحية التاريخ إلى المشاركة في صناعة التاريخ.

الراقص في حقل الألغام(*)

كلما التقيتُ باسمه، أَصغيتُ إلى أُغنية صغيرة تمجِّد قِران الفُتُوَّة والوعي، واقترانَ الرأي بالشجاعة... ثم حزنت، لا لأنَّ عمر الورد قصير، بل لأن الوردةَ لم تُكْمل تفتُّحها الساطع على سياج يحترق!

كان سمير مهووساً بالسباق على طريق الغد، ليبقى الفتى الأوَّل. وكان له ما أَراد: فإن مَنْ سَبَقَنا إلى الغياب لن يكبر مثلنا. هناك، حول صورته، سيجد الزمنُ نفسَهُ، كعربيّ معاصر، عاطلاً عن العمل!

أَمّا نحن، أصدقاءه وعُشَّاقَ بيروتَ المفجوعين، فلن نعتذر عن حلم جميل، مهما ارتدى من أَقنعة الفجر الكاذب. ولن تُغرينا تعاليم

(*) [ألقيت هذه الكلمة في أربعينية سمير قصير].

التوازن باتهام شهيد الحرية والحب بالتهوّر، كما قد يفعل المحاسبون المَهَرةُ في مؤسسات العواطف والأفكار.

بل نسأل القاتل: أَما كان في وسعك أن تكتب مقالة في جريدة تُثْبتُ فيها أن سمير قصير على خطأ، ولا يستحقُّ الحياة في لبنان، ولا في بلد آخر؟

البراهين كثيرة. تبدأ من خلل فادح في خريطة يافا، ومن سُلالة لا تستقيم، على الرغم من صحّة الولادة، مع معبودات الطائفة والعائلة والقبيلة... ولا تنتهي عند حرمان الغريب من حقه في العمل اليدوي والفكري، ومن إبداء الرأي في المناخ المتغيّر في المحيط والعالم.

لم نقل له من قبل: ما أَجملك! فقد كان يعرف ذلك أكثرَ مما ينبغي، ويعلنه نيابةً عنا. لكنَّ للغياب استرجاعاً لزمن أُصيب بالفصام.

في لحظة واحدة، في انفجار واحد، ينقلب فعل المضارع إلى فعل ماضٍ ناقص يحتكر الذكرى، ويُنْقصُ المكان. ويصبح ما بعده ظلاماً يدرك بالحواسّ الخمس... فبأيّ قلب أُناديه: يا صاحبي! لماذا جعلتنا نحبك إلى هذا الحد؟

لم نجتمع إلّا لنضحك من امتلاء النرجس بالحكمة. فالطفل المعجزة ــ كما سمّيناه ــ كان سعيداً بأن يكبر كاتباً ومثقفاً وعاشقاً، دون أَن يتخلّى عن خصوصية اللقب الذي يضمن له صورةَ يوسف بين إخوته، وسيرةَ الفارس المنذور للدفاع عن حرية غريبة الأطوار، وعن ديموقراطية شاذّة.

سمير قصير، الراقص الرشيق في حقول الألغام، الساخر من كل انسجام مع عبودية مفروضة أو مختارة، هو أحد أسماء التفوُّق على صَدَفة الهوية وعلى التخصّص في مُدَوَّنةٍ واحدة. لذلك صدَّق أَن في وسع الفلسطيني أن يكون لبنانياً، وأن في وسع اللبناني أن يكون فلسطينياً عربياً، وأَنَّ من واجب العربي أن يكون مشاركاً بالتفكير ـ على الأقل ـ في التداعيات التي تتركها انقلابات العالم المعاصر على ما يُعَدُّ له من مصائر. وصدَّق أن ثقافة الديموقراطية لا تنتهك ـ بالضرورة ـ مقدساتِ التراث القومي!

لذلك لم يقع في شَرَك السؤال الزائد عن حاجتنا إلى الوجود: مَنْ أَنا؟ فهذا المواطِن المتعدِّدُ المتجدِّدُ المتنوِّرُ المتطور لا يحتاج إلى برهان على شرعية الأمّ. لم يقاوم الأصولية بأصولية مضادة، ولا الطائفية بطائفية مُضْمَرة. هويَّتُهُ مفتوحة على غدٍ ينبغي أن يكون مفتوحاً للجميع، وعلى حداثةٍ لا معنى لها ـ في شرطنا التاريخي ـ إلّا بارتباطها بمشروع تحرر شامل المستويات:

من حق الطفل في مساءلة أَبيه إلى حقّ المرأة في خلع الرجل، إلى حق المواطن في تغيير الحاكم، إلى حق الفرد والمجتمع في مقاومة الاستبداد والاحتلال معاً، إلى حقِّ الشاعر في التخلُّص من الانضباط للقافية، إلى حق الحالمين بأن يحلُموا بأنهم أَحرار، إلى حق الكاتب في التمييز بين معنى الموت ومعنى القتل!

أَلهذا استحقَّ سمير قصير القتل؟

ملءُ قلبي هجاء لسادة هذا الزمن الذي لا يُسْأل فيه عن اسم القاتل، بل يُسأل عن اسم القتيل التالي. كأن القاتلَ هو الغامضُ

الثابت، والقتيلَ هو الواضحُ المتغيّر. وهكذا تتحول شخوص المسرحية الدموية جمهورَ مشاهدين يتفرجون على مصائرهم المدوّنة، ويتحول جمهورُ المشاهدين شخوصاً في مسرحية لم يقرأوا نَصَّها.

وملءُ قلبي رثاء مادح لمن كتبوا بالجمر أَحلامهم، دون وَجَل من ضُبَّاط الليل، أو خجلٍ من عورة الحقيقة.

وملء قلبي بكاء مالح على لبنان الجميل، الذي أُشبعَ بلاغةَ مديحٍ لا يريده، واخْتُزل إلى حدّ الخَنْق بصور مستوحاة من أغنيات عن براءة ريفية، ومشهدٍ طبيعيّ لا يرى منه العابرون إلّا الأخضرَ المُصفَّى بأبدية الأزرق. أما الأحمر الدامي فلا يراه غيرُ الموغلين في كتابة المستقبل، وملاءمة الصورة مصدَرَها. لقد نزف لبنان، الحائرُ المحيِّرُ، كثيراً من الدم لصوغ هويته التعددية، وللخروج من ثقافة الطائفة والعائلة إلى أفق أرحب، فإلى أين؟ إلى أية هاوية يجره الخائفون من خصوبة الهوية ومن فتنة الأمام؟ إلى أيِّ وراءٍ يريد أَن يرجعه مهندسو الظلام؟

يقول المجاز الأكيد: إنها ساعة المخاض الطويلة. وإن الحرية، على ما فيها من جماليات، قد تتوحَّش ليلة العرس، وتتعطَّشُ إلى دم عُشَّاقها. فذلك هو حنّاؤها الباذخ قبل انصرافها إلى شؤون التدبير المنزلي.

وسمير قصير هو واحد من أجمل هؤلاء العُشَّاق.

شاعر نادر(*)

في أُمسية غيابٍ كهذه، وفي المكان هذا، كُنَّا في العام الماضي ننثُرُ ورد الحبّ على اسم الراحل ممدوح عدوان. لم يحضر محمد الماغوط كاملاً، لعجز عُكّازه عن إسناد جبل. لكنه حضر صورةً شاحبة وصوتاً مُتَهدِّجاً، ليذكِّر بأنَّ للوداع بقيّة.

ذهبنا إليه في صباح اليوم التالي. كانت العاصفةُ مسترخيةً على أريكة، تشرب وَتَضْحكُ وتدخِّنُ وتعانق زوّارها. كانت العاصفة مَرِحةً فَرِحَةً بما تبقّى فيها من هواء وضيوف، ولا تأسف على ما فعلت باللغة وبالنظام الشعري. فهي لا تُعْرف إلّا من آثارها عندما تَهدأ. هدأ الماغوط ونظر إلى آثاره برضا الفاتح المرهق.

قُلْنا له وقال لنا ما يقول العارفون بأن اللقاء وداع. وضحكنا كثيراً

(*) [في ذكرى محمد الماغوط].

لنُخْفِيَ خوفاً أثارَهُ فينا انكبابه على ترتيب الموعد القاسي مع سلامه الداخليّ، فمثل هذا المحارب لا تليق به السكينة.

لكنه لم يكن حزيناً ولا خائفاً مما يتربّص به. وَضَعَ الماضي كُلَّه على المائدة، ووزَّع على كل واحد منا حصَّتَهُ من الذكريات والمودة. قرأ لنا ما يدوّنُ من خواطر يومية عاجلة، فهو في سباق مع معلومٍ يشاغله بالطرق على فولاذ المجهول.. وحيَّاني بقصيدة، فخجلْتُ وقلتُ في نفسي: لماذا لم يصدِّقني من قبل؟

وهو، الذي لا يحبّ الإعلام، ابتهج بوصول فريق إذاعيّ، رُبّما ليُعْلِنَ وصيَّتهُ الأخيرة على الملأ: أوصيكم بالحب... فهذا الغاضب من كل شيء لم يغضب إلّا لأن الحُبَّ في هذا العالم قد نضب. ولم يغضب إلّا لأن زنزانة هذا العالم ما زالت تَتَّسع لسجين رأيٍ مختلف. ولأن أرصفة هذا العالم ما زالت تزدحم بالفقراء والمشرّدين. ولم يغضب إلّا لأن لفظة الحرية، بمعناها الشخصي والعام، ما زالت مُسْتَعْصِيَةً على العرب والعاربة والمستعربة... والإعراب!

فوجئنا بصحافي يسألنا بلا رحمة: هل جئتم إلى الماغوط لحضور جنازة مُبَكِّرة؟

تحسَّس كلٌّ واحد منا قلبه وتلعثم، إلّا هو، هو النسر الوحيد في ذِروته، ملتفاً بكبرياء الأعالي وبمصاهرة البعيد. لم يكن سؤال الموت سؤالَهُ ما دام يكتب... ففي كل كتابة إبداعية نصرٌ صغير على الموت، وهزيمةٌ صغرى أمام إغواء الحياة التي تقول للشاعر: هذا لا يكفي، فما زالت القصيدة ناقصة!

وكنا نعلم أَننا جئنا للقائه لنتدرب على وداعه.

رحل الماغوط، ونقص الشعر. لكنه لم يأخذ شعره معه كما فعل الكثيرون من مجايليه الذين صانوا سلطتهم الشعرية في حياتهم بحُرَّاس النقد والأحزاب. فهذا الوحيد الخالي من أية حراسة نظرية وتنظيم إعلامي، لم يراهن إلّا على شعريته وحريّته، وعلى قارئه المجهول الذي وجد في قصيدته صدى صوته وملامح صورته، بعدما أَقامت كلماتُهُ المكتوبةُ بالجمر جسر اللقاء بين الذات والموضوع، وبين الذات وما تزدحم به من آخرين.

وهو، هو الذي جاء من الهامش واختار هامش الصعلوك، كان نجماً دون أن يدري ويريد. فالنجومية هي ما يحيط بالاسم من فضائح. وشعره هو فضيحتنا العامة، فضيحة الزمن العربي الذي يهرب منه الحاضر كحفنة رمل في قبضة يد ترتجف خوفاً من الحاكم ومن التاريخ. حاضر يقضمه ماضٍ لا يمضي وغد لا يصل. كم أخشى القول إنَّ الزمن الذي هجاه الماغوط ربما كان أَفضل من الزمن الذي ودّعه. فقد كنا ذاهبين، على الأقل، إلى موعد مرجأ مع أَمل مُخْتَرَع. لا بأس من أن يكون ماضينا أفضل من حاضرنا. ولكن الشقاء الكامل هو أن يكون حاضرُنا أَفضل من غدنا. يا لهاويتنا كم هي واسعة!

رأى الماغوط الهاوية فخاف. خاف بشجاعة المقاوم. فنظر إلى الأفق بعيون الشاعر الطائر، فخاف ثانية، وقاوم الخوف برؤيا الشاعر الحالم. فماذا على الشاعر أن يفعل غير أن يُخْلص مَرَّتين: مرةً لانتمائه إلى الواقع، ومرة لتجاوز الواقع بالخيال وبصناعة الجمال؟

لكن هذا الخائف على عفوية الحياة، وعلى العلاقة السرّية بين الأشياء والكلمات، رأى الخوف كما تُرَى المواد الأولية لبناء الكابوس، فقاومه بحرية الكلمات في تحرير صاحبها وقارئها، وقاومه بالتخلّي عن حنين اللغة إلى ماضي أطلالها وقصورها معاً، وبفروسيةِ مَنْ لا يملك شيئاً ليخسره، وأكاد أقول: بمغامرةِ يأسِهِ اشتقَّ الأمل لغيره، فأخاف ما يخيفه، كما تخيف الملحمة الشعرية الموت المتربِّص بأبطالها وقرائها الخالدين. لقد أخافت لغةُ الماغوط الساخنةُ الساخرةُ الجميعَ من فرط قوة الهشاشة في أعشابها، ومن فرط دفاعها عن حق الوردة في حماية خصائصها.

وهو فضيحة شعرنا. فعندما كانت الريادةُ الشعريةُ العربية تخوض معركتها حول الوزن، وتُقَطِّعهُ إلى وحدات إيقاعية تقليدية المرجعية، وتبحث عن موقع جديد لقيلولة القافية: في آخر السطر أم في أوّله... في منتصف المقطع أم في مقعد على الرصيف، وتستنجد بالأساطير وتحار بين التصوير والتعبير، كان محمد الماغوط يعثر على الشعر في مكان آخر. كان يتشظّى ويجمع الشظايا بأصابع محترقة، ويسوق الأضداد إلى لقاءات متوترة. كان يُدْرِكُ العالم بحواسّه، ويُصْغي إلى حواسه وهي تُمْلي على لغته عفويتها المُحَنَّكة فتقول المدهش والمفاجىء. كانت حسيَّتُهُ المرهفة هي دليله إلى معرفة الشعر... هذا الحدثِ الغامضِ الذي لا نعرف كيف يحدث ومتى.

انقضَّ على المشهد الشعري بحياء عذراء وقُوَّة طاغية، بلا نظرية وبلا وزن وقافية، جاء بنصّ ساخن ومختلف لا يسميه نثراً ولا شعراً. فشهق الجميع: هذا شعر. لأن قوة الشعرية فيه وغرائبية الصور المشعة فيه، وعناق الخاص والعام فيه، وفرادة الهامشيّ فيه،

وخُلُوَّهُ من تقاليد النظم المتأصِّلة فينا، قد أَرغمنا على إعادة النظر في مفهوم الشعر الذي لا يستقر على حال، لأن جِدَّة الإبداع تدفع النظرية إلى الشكّ بيقينها الجامد.

لم يختلف اثنان على شاعرية الماغوط، لا التقليدي ولا الحداثي، ولا مَنْ يودّ القفز إلى ما بعد الحداثة. حجتهم هي أن الماغوط استثناء، استثناءٌ لا يُدْرَج في سياق الخلاف حول الخيارات الشعرية. لكنها حجة قد تكون مُحَاتِلَة، فما هي قيمة الشاعر إذا لم يكن استثناء دائماً وخروجاً عن السائد والمألوف؟ لذلك، فنحن لا نستطيع أن نحبَّ قصيدة الماغوط ونرفض قصيدة النثر التي كان أحد مؤسِّسيها الأكثرَ موهبة. وإذا كانت تعاني من شيوع الفوضى والركاكة وتشابه الرمال، على أيدي الكثيرين من كُتَّابها، فإن قصيدة الوزن تعاني أيضاً من هذه الأعراض. الأزمة إذاً ليست أزمة الخيار الشعري، بل هي أزمة الموهبة، أزمة الذات الكاتبة. فنحن القرّاء لا نبحث في القصيدة إلّا عن الشعر، عن تحقق الشعرية في القصيدة.

سرُّ الماغوط هو سرّ الموهبة الفطرية. لقد عثر على كنوز الشعر في طين الحياة. جعل من تجربته في السجن دلالة وجودية. وصاغ من قسوة البؤس والحرمان جمالياتٍ شعريّة، وآليةَ دفاعٍ شعري عن الحياة في وجه ما يجعلها عبئاً على الأحياء.

وهو الآن، في غيابه، أَقل موتاً منا، وأكثر منا حياة!

يد ترى، وقلب يرسم(*)

إذا كانت حياةُ الفنّان المستمرةُ هي أَعماله التي تُجدِّد حياتها بمنأى عنه، فنحن اليومَ وغداً لا نُودِّع إسماعيل شموط... بل نستقبله عائداً من معركتين منتصراً:

الأولى ـ صراعُ الفنِّ مع الموت القادرِ على إِتْقان مهنته الأبدية، والعاجزِ في الوقت ذاته عن تعريف الخلود الذي لا شأن له به. فالخلود هو صناعة الفنان، آثارُهُ التي نحدِّق إليها مُنْبَهِرينَ بِتحوُّل المخلوق إلى خالق.

والثانية ـ هي صراع الفن مع وِحشية التاريخ الذي اقتلع بجرافته العملاقة شعباً من جُغرافيته، وأَلقى بفتىً يافع إلى البريّة، مُحَمَّلاً بسؤال ما زال يطاردنا: إلى أَين؟

(*) [في ذكرى اسماعيل شموط].

هل كان الفتى يعلم أَنَّ بوسع ريشته الطريَّة أن تُعيد بناءَ ما انكسر من المكان والزمان؟ ألموهبة تسبق وعي المهمة. ومن التجربة وُلدت هذه الموهبةُ التي أدركت في ما بعد أنَّ عليها أن تخوض حرب الذاكرة ضد النسيان. وانتصر الفنانُ على ما أُعدَّ له ولشعبه من مشروعِ خروجٍ من التاريخ إلى التيه والنسيان.

نحن هنا، إذن، للاحتفال بقدرة الروح الإبداعية على الاختراق، وعلى تعميم الرجاء والعزاء لموتى لم يموتوا، ولأحياء لم يضيقوا ذرعاً بحياتهم. نحن هنا لتحية إسماعيل شموط، لا لأنه كان رائد الفن التشكيلي الفلسطيني، كما دَرَجْنا على هذا القول السهل الذي لا معنى، فنيّاً، له، ولا لأنه أقام أول معرض للرسم الفلسطيني، ولا لأنه كان رئيس اتحاد التشكيليين العرب، فتلك أوسمة تليق بجنرال متقاعد، لا بفنان أمضى أكثر من نصف قرن في البحث عن هوية فنية متداخلة مع هوية شعب حُرم من التأمُّل الحرّ في ذاته الإنسانية خارج ما أُعدَّ له من مصائر.

إسماعيل فينا سيرة ومسيرة. ذاتٌ ذابت في الموضوع، وأقامت الموضوع في الذات، ومن فرط ما هُوَ هُوَ وليس هو في آن واحد، خُيِّل إلينا نحن المُثْبتين في زَيْت اللوحة، أننا شظايا قصائد أعاد الفنان تشكيلها وتجميعها في إطار.

لا يحتاج الفلسطيني كثيراً إلى صرامة النظرية ليتساءل عن علاقة الشخصي بالعام، وعن تحديد مفهوم الالتزام، فهو يولد متورطاً بالسليقة. في كل سيرة شخصية سيرةٌ عامة. وفي كلِّ فردٍ جماعة. يكفي أن يتذكر إسماعيل طفولته في اللد ليرسم جمال الطبيعة، وهجرتَهُ ليرسم أحزان النكبة، وصباه بائعاً متجولاً للحلوى ليرسم

الشجن، وتلّ الزعتر ليرسم المأساة والبطولة، وحصار بيروت ليرسم الصمود والغضب، وصبرا وشاتيلا ليرسم الضمير الدولي طعاماً للكلاب الضالة، والانتفاضة ليرسم الأمل. ويكفي أن يتذكر الغد ليرسم المرأة.

في الذاكرة فردوس مفقود. وفي الواقع، لا مكانَ للفرح الصغير إلّا إذا مرَّ يومٌ واحد بلا مجزرة. عندها يرتاح اللونُ الأحمر من الصراخ ليتقدمَ أَصفرُ الأقحوان بحياء إلى اللوحة. كأنَّ إسماعيل لصّ نبيل يتربَّص بفرح قليل... فيه من جمال السراب وعدُهُ بالعطش.

أَلهذا تطلُّ من سكتشاته الشفَّافة امرأةٌ عاريةٌ كطيفٍ سريعِ الاختفاء، لا خوفاً من تمام، بل خوفاً من مشاهدين ظنَّ إسماعيلَ أنهم لن يغفروا للفلسطينيِّ المُنَمَّط اختلاسَ النظر إلى رخام أنثويّ فاتن.

هنا، ينقضُّ علينا السؤال: هل قُدِّر للجماليات أن تبقى أسيرة التراجيديات؟ ليس هذا قلقي وحدي، بل قلقَ إسماعيل الذي رسم لنا صُوَرَنا المتحوِّلة، فرسمنا له صورته الثابتة. كم حاول أن يتمرد علينا وعلى نفسه، وأَبقى تمرده سِرّاً للقلق. وحاول أن يغيِّر ويتغيَّر فعدَّد أشكاله وألوانه وغيَّرها داخل الثابت المتوقع. لا هنا إلّا هناك. لم يسعَ إلى تحرير الذات المُبدعة من موضوعها، بل حاول أن يوسِّع ضفاف الموضوع لتتَّسع لما في الذوات الفردية من تعدّدٍ وتفرّد وطبائعَ ونوازعَ ليست كلُّها وطنيةً بالضرورة. لكنه توجَّس من سوء فهم يضع حواجز التمييز بين الوطني والإنساني، ولا يرى مجالاً حيوياً للهوية الوطنية خارج الصَدَفَة، من فرط ما تتعرض له

هذه الهوية من تهديدٍ خارجها.

هل حُكم علينا بأن ننهمك إلى ما لا نهاية بتقديم البراهين على أننا نحن نحن، وعلى أننا كائنات بشرية لا أشباح، وعلى أن لنا بلاداً هي أرض لا بطاقةٌ بريدية؟ ربما... ربما. ولكن في وسع الفن أن يستبدل البرهانَ بالبديهة، وأن يتساءل: إلى متى يظلّ الوطنُ في حاجة إلى براهين جمالية وإلى متى يظلّ الفن في حاجة إلى براهين وطنية؟ قال رسام فرنسي: «إن البراهين تُضجر الحقيقة». ومن سوء حظنا التاريخي أن هذا القول قد لا يَخُصُّنا.

هل لنا أن نسأل إن كان إسماعيل شموط قد ضَحَّى بإمكاناته الفنيّة الهائلة من أجل البرهان؟ كلا. الأصح هو أن نقول إنه كرَّس طاقاته الفنية وحياته كلها ليؤرِّخ للتراجيديا الفلسطينية المستمرة، بلوحاتٍ تشهد على بطولات شعب حوَّل اليوميَّ إلى أسطوري بصموده أمام مشروع الموت السياسي، وبشَبَقِهِ إلى حياةٍ لا تُعرَّفُ ماهيّتُها إلّا بالحرية. وتشهد على قوة الروح الإبداعية المنتصرة على الزائل بالخالد. فصار إسماعيل أيقونة فنية ووطنية. صار الرسام هو اللوحة.

لا يأذن إسماعيل لأحد منّا بأن ينساه، فهو المُواظِب على الصداقة مُواظَبَتَهُ على العمل، يتفقَّدُنا في كل مناسبة. ولا يرحم قلبه المفتوحَ كحديقةٍ عامة من أعباء الحب. هو الصديق الدائم المبتسم المتواضع المحتشم كعشبة. كان صديقي إلى حدّ أنه لم يسألني لماذا لم أعلِّق لوحةً له على أَحد جدراني المتنقّلة. وكنتُ صديقه إلى حدّ أَنني لم أسأله لماذا لم أَر كتاباً لي في بيته. وكان لصداقتنا مكانُ ولادةٍ بعيد: صوفيا. هناك التقينا منذ حوالي أربعين

عاماً، وتآخينا كجناحيْ طائر: أنا القادم من أرض ذاكرته، وهو القادم من مستقبل منفاي. وكلما التقينا تذكرنا صوفيا كأننا بلغاريان منفيّان!

وفي بيروت، مع شفيق الحوت وسائر الأحبة، صرنا أُسرة واحدة منكبة على قراءة أحوال الغيب والغد، سالمين من عدوى الوهم تارة، ومصابين بتداعياته تارةً أُخرى. وفي بيت إسماعيل، نسمع أزيز الرصاص القادم من حماسة جامعة بيروت العربية، ونواصل الاستماع إلى الموسيقى والشعر. وبينما يصمت زوجا الكناريّ العاشقان، تواصل أسماك الحوض الملونة سباحة النوم. أما سمسم السعدان الذي اكتفى من لغة البشر بالإشارات الخائبة، فقد لجأ إلى روضة أطفال لتعليم الإشارات بعيداً عن لغة الرصاص.

افترقنا، دون أن أسأل إسماعيل: لماذا لا يرسم سمسم والسمك وزوجي الكناري؟ ودون أن أقول له: حافظ على الذاتي، ولو قليلاً، من جَشَع الموضوع. ودون أن يقول لي: حافظ على الموضوع من جنوح الاستعارة.

إسماعيل شموط: يدُهُ هي التي ترى

وقلبه هو الذي يرسم!

صديقي العابس

جوزيف سماحة، صديقي العابس، كان يفاجئنا أحياناً بابتسامة ما، في آخر الليل، لا تبلغ حدَّ الضحك. وكان يفاجئنا أَحياناً باختفاءٍ ما في جزيرة بعيدة. لكننا لم نتوقع أن يفاجئنا بالسفر إلى لندن، ليعبث بنا كما لو كان مؤلفاً تراجيدياً يرقد في نصّه المعتم، على مرأى من مشاهدين أُغمي على بعضهم من الصدمة.

هو، ليس كذلك. لم يكن ساخراً إلى هذه الدرجة. فهو الذي لا يضحك ولا يبكي.

كل شيء فيه كان معدّاً لحبّ الحياة بفجورها وتقواها: قوة حصان لم يمرض. وبسالة فارس لم يترجّل، وأَملٌ جَشِعٌ لا يتوقّف عن الثرثرة. وبصيرة مثقف لا يؤجّل كلمة اليوم إلى الغد. مناضل وبوهيمي. صديقُ الوحيدات في الليل، ورفيق العاطلين عن العمل والبهجة. حيويّ ذكي يبحث عن الاختلاف في كل شيء، وعن

الخصومة على كل شيء، لأن الإجماع من صفات القطيع.

رفع المقالة اليومية والأسبوعية إلى مستوى الأدب السياسي الرفيع، ببهاء العبارة ودهاء الحجة. لم يستطع أَحد، حتى من خصومه، تجاهل ما يكتب. وما يكتب ليس خاطرة عابرة. في ما يكتب تحريض على التفكير. وفي ما يكتب كثافةُ معرفةٍ وإحالاتٌ إلى مراجع ومصادر، يومية وموسوعية. مقالته التي تحلِّل الخبر والحدث صارت هي الحدث والخبر.

هو الحائر الخلّاق الذي لا يَكُفُّ عن الشك في اليقين. عدوّ الجمود الفكري والعقائدي والسياسي. تقلباته الفكرية هي سرّ حيويته، وهي التعبير عن حيرة المثقف الباحث عن الحقيقة في فوضى التحولات. لكنَّ فيه ثابتاً لم يتعرض للمراجعة: هو عداؤه النهائي للمشروع الإسرائيلي، بتفرعاته الإقليمية والدولية. وعداؤه للاستبداد الكوني الذي تمثله الهيمنة الأميركية.

مقالاته في الحرب والسلم تحمل تعقيد المفهومين: فليست الحرب، في حقول النفط وعلى حافة الترسانة النووية، نزهة بلاغية. وليس السلم ممكناً. لكن المقاومة ضرورية وممكنة.

بيروت ناقصة بعده. صباحها ناقص وليلها ناقص. وثقافة المقاومة نقصت أَحد منظّريها الكبار. وحياتنا ناقصة: فمن يزيدنا ذكاء كلما حاورناه وشاكسناه. وأَحببناه أكثر؟

جوزيف نائم، ولا يستطيع أَحد إيقاظه، لأن نومه، هذه المرة، عميق. لكن ذكراه صاحية.

III ـ ولادة الشعر العسيرة

مَطَرُ السَّياب(*)

كنت أنتمي إلى جيل وقف مذهولاً أمام فوضى القيامة. فقد انكسر المكان، بما فيه من سيرة وكائن، وأحدث ما يشبه القطيعة بين الذات وأبعادها، وما بين الحاضر والأمس. وحين كنا نتطلع إلى مصائرنا القادمة إلينا، واحداً واحداً، كان شكل الجماعة يتكثف كالشبح القادر على امتلاك المكان، وعلى مغادرته في آن واحد.

أما الصراخ الذي لا بد منه، كما يحدث عادة في ليل الكابوس، فلم يكن كافياً إلّا للتأكد من بقاء الحواس في مجال عملها المتبدل.

جيل مرمي على كواهله: عليه هو وحده أن يكون العناصر الأولى

(*) شهادة قدمها الشاعر في ندوة حول الذكرى الثلاثين لرحيل السيَّاب، أقامها معهد العالم العربي في باريس.

لتكوين حياة متخيّلة، على مرأى من الحياة الواقعية. وعليه هو أن يكون الـمُكون.

لعل ذلك كان هو الإرهاص الأول لحاجتنا الإنسانية إلى معالجة البكاء بالغناء. ولعل ذلك كان الإصغاء الأول لضرورة الشعر. ولكننا كنا محرومين من إمكانية اللعب البريء، في الوقت الذي كنا نفتقر فيه إلى مهارة اللعب بالكلمات وفي الكلمات.

كانت اللغة التي ورثناها، بلا انتظام، قد بلغت حدّ الإشباع في وصف ما لا يقترب من وصف حالتنا الجديدة. ولكنها هي، تلك اللغة، ما يُشير إلى هويتنا وإلى شكل وجودنا ونسيجه. وفيها، لا في الواقع الطارئ، نعثر على دفاع الجسد عن الروح، وعن حاجة الروح إلى جسد.

وهناك، كثيراً ما التقى الواقع باللاواقع، واندفعت الحادثة اليومية إلى البحث عن شخوصها في ما يُحاذيها من أساطير تُغري المشاهد باحتضان الماضي الذي لا يمضي، ليواصل الزمن نسق إيقاعه المنتظم، ولنتمكن من الإقامة على تلك الأرض التي انتقلت فينا من وظيفتها الرومانسية إلى احتلال مرتبة الجوهر الـمُقدس.

لكن للشعر أيضاً أسئلته المركبة، أسئلة لم نواجهها في البداية: كيف يمتلك وجوده التاريخي بتعبيره عن لحظته التاريخية من جهة، وكيف يمتلك ما يتيح له الإفلات من ضغط الراهن ليعيش في لحظة تاريخية أخرى؟

لم يكن جيلي المحاصر ثقافياً، آنئذٍ، شديد الإصغاء لدويِّ الانفجار العميق في الحياة الثقافية العربية، وفي بُنية القصيدة الباحثة عن

ذاتها الجديدة ورؤياها الجديدة، في علاقتها وتعبيرها معاً، بالبنى العربية المحتقنة بالصراع الاجتماعي والطبقي والوطني. ولم يكن أيضاً شديد الإصغاء لصراع الخيارات الشعرية وتوتُّر البحث عن مرجعيات التجديد.

لم يتجاوز سؤالنا الشعري مساحته الموضوعية: جدل العلاقة بين النص والواقع. «على الشعر أن يُعبّر وأن يحرِّر، أن يُعَبِّر وأن يغيِّر ــ تلك مساحة رحبة تتسع لما لا نهاية له من الخلاف أو الاختلاف بين أبناء جيل كان يبحث، بسليقة الممارسة لا بالمعرفة، عمّا يُحرِّره ويحرر لغته من القهر ومن التقليد، وعن انسجام مُحكم بين الجمالية والفاعلية.

ولم يكن الصدى، الذي يخترق الحائط بين الداخل الثقافي الوطني وبين الخارج العربي، كافياً لتطوير أسئلتنا الأولية ووضعها في سياق العملية الشعرية العربية، التي كانت تتم فيها ولادة الجديد من ذاته التاريخية ومن علاقتها بالآخر، عبر استيعاب محاولات التجديد المتداخلة وتجاوزها.

ولكن صدى السيَّاب، ذا الرجع المتدفق، كان كافياً، إلى حدّ ما، لتوليد الرغبة في إحداث قطيعة ما بين لغة الماضي من جهة، وبين الرغبة في امتلاك أرض الماضي باللغة، عبر إدراك شعري جديد لحركة المعنى ولشكل هذه الحركة.

تعرَّفتُ على شعر بدر شاكر السيَّاب، دفعة واحدة، من خلال عمله الكبير «أنشودة المطر»، فعثرتُ على ضالة المثال الشعري دفعة واحدة. اخترقني النهرُ ولم أَعُدْ بعد القراءة، منْ كُنْتُهُ قبل القراءة.

كانت الفتْنَةُ والجرح يصعدان بي إلى نقاط التقاطع الغامضة التي يتحقق فيها الشعر، ثم يتكتمُ على سرِّه ليبقى مطلباً، ولتبقى غايةُ الشعر الخاصة هي الشعر.

كان هذا المؤسس الأكبر يزوّدنا إبداعياً بما يُؤرق الحدس ويضيئه، كيف يكون الشعر فعلاً، بتفجير طاقته المشعّة على خلق شعائره الخاصة، وإطلاق الحلم إلى حُرّيته الأقصى، انسجاماً مع توق الإنسان إلى تجاوز كل ما يُعوق إنسانيته من ناحية، وكيف تحرر هذه الرؤيا ذاتها بتحرير أدوات التعبير عن ذاتها من فتنة التراث الشعري من ناحية أخرى. أي كيف تدرج مسألة الشكل، واللغة، والعروض في سياق هذه الرؤيا.

جاءنا صوت السيَّاب الفردي، وقد اكتملت فيه العلاقة بين رموزه الشخصية وأسماء مكانه الخاص وبين عناصر أسطورته الجماعية، التي وجدت مدارها في حركة الكون، التي لا تعرف السكون. وقرأنا فيه الشهادة الأنضج على حركة الزمن العربي وعلى ما يعتمل في باطن الواقع وظاهره من صراع. وقرأنا فيه نصَّ الفضاء الذي كشف عنه السيَّاب أمام حركة القصيدة العربية الحديثة، وقد تأسست لا في الكتابة وحدها، بل في القراءة أيضاً: فقد استطاعت قصيدة السيَّاب، أكثر من سواها، ترسيخ شرعية الشعر الحديث في ذائقة القارىء وفي وعيه الثقافي، باستجابتها إلى شروط تجديد لا تسبِّب الاغتراب ولا القطيعة مع تاريخها.

إنها قصيدة قادمة من قدرة اللغة على تجديد حيويتها وحركتها، وعلى التذكير بذاكرتها المُشعَّة بجماليات عربية لا تَنْتهكُ، كما يشيع البعض، متطلبات الحداثة. إنها قصيدة تتمثَّل روح الزمن

الجديد بفتح بنيتها على إيقاعه، وبقدرتها على بناء أسطورتها المعاصرة، من ذاتها، لا بالاعتماد الدائم على رموز أسطورية قادمة من خارجها، وبتطوير إمكانيات التفعيلة بمرونة لا توقظ الرتابة ولا تستغني عن ضرورة المتعة، وبرؤيا حديثة لا تحتاج إلى افتعال خصومة بين طرفي الفعل الشعري: الفاعلية والجمالية.

لقد أسهم شعراء كثيرون، قبل السيَّاب ومعه وبعده، في إنجاز عملية التحول التدريجي والتراكمي التي أدت إلى ما وصل إليه المشروع الشعري العربي الحديث، وانفتاح القصيدة العربية على إمكانيات تطور لا حدود لها. ولكن، لعلنا ما زلنا قادرين على المجاهرة بأن لبدر شاكر السيَّاب، ذي الموهبة الجارفة والقلق المعرفي، الدور الإبداعي الأبرز في تحقيق الطفرة. إذ، لا يعنينا من عملية التأسيس أيُّ جدول زمني، من كتب التفعيلة قبل الآخر؟ بقدر ما يعنينا تحقق التأسيس في الإنجاز الإبداعي. ولعلنا قادرون على القول أيضاً أن مرحلة الازدهار السيّابي، القصيرة زمنياً، ما زالت تحمل القسمات الأساسية لحركة الشعر الحديث في تطورها اللولبي. وأن البذور التي تركها السياب في حقل التجربة الشعرية العربية ما زالت تنبت في هذا الحقل الواسع، وما زال مطر السيَّاب يتساقط على جفاف أيامنا. لا لأننا ما زلنا نقرأ في شعره لحظة تأزمنا التاريخية، بمستوياتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وترددها أمام حيرة الاختيارات فحسب، بل لأن المرحلة الانتقالية الواسعة التي يمثِّلها السيَّاب بين ماضي الشعر العربي وبين مستقبله ما زالت مفتوحة أيضاً للمزيد من الأسئلة.

وما زلنا نقرأ فيها أيضاً مناطق الاضطراب الشعري التي تتميز بها حركة الأنهار العنيفة، كأن تضطرب العلاقات التبادلية بين عناصر

القصيدة، وكأن يفيض الشعر عن حدود القصيدة، وكأن تفتك الأسطورة المستعارة بحركة نمو القصيدة، وكأن يستبدّ الحنين القديم بالقافية، فتدور على نفسها، وغيرها من الظواهر التي تتسم بها البدايات الكبرى عادة، ولكنها أسئلة ما زال السيَّاب قادراً على إيقاظها فينا.

لم أتعرف إلى السيَّاب الشخص، فليس في وُسْع جميع الأبناء أن يتعرفوا إلى آبائهم الشعريين الشرعيين ـ وهذا حسن رُبما. بيد أن صورة هذا الصوت القلق، الحزين، المريض، ابن بويب وخالقه، ابن جيكور ومؤسسها، ابن العراق وجرحه، ابن تاريخ الشعر العربي ومحوِّل مجراه، هي أحد أسماء مرآتنا، التي تعكس حنيننا الجارف إلى وضع رموزنا الشخصية في مكانها من نظام الكون، على أرض الأسطورة المهدَّدة بالسقوط، لنقنع أنفسنا مرة أخرى بجدوى هذا العبث الجميل، وبأن الشعر ما زال ضرورياً وما زال ممكناً، ولنجدد إقامتنا على الأرض: أرض اللغة، ولغة الحلم.

هل ما زال الشعر ضرورياً؟(*)

ليس من عاداتنا أن نكرّم الأحياء، لذلك يساورني خوف من نفسي، فلعلي اقترفت موتاً دون أن أنتبه إلى أن تلك الحادثة، التي أردتها أن تكون سرّية، قد بلغت مسامعكم.

أليست تلك هي فضيحة الشاعر الذي لا يكتفي بالإفلات من صورته في عملية الإنصات إلى صرخة ولادته من ذاتها، لا لأن قطيعة أريد لها أن تكون كاملة قد دفعته إلى أن يكون «آخَر» أناه، بل لأنّ أناه ذاتها لن تكون إحدى ممتلكاته الخاصة مهما حاول ذلك. فبقدر ما ينقّب هناك، بقدر ما يدفع إلى كتابة تكوين فوق التكوين، وإلى شدّ البداية إلى بدايتها، فيجد نفسه هناك، في رجع الصدى البعيد الذي يزوّد نشيده بمشترك العزلة الجميلة على

(*) [كلمة الشاعر في اختتام ندوة نقدية تكريمية في مدينة قفصة التونسية ـ ١٩٩٥].

الأرض، وقد أقام ـــ راحلاً ـــ في خيمة الوجود الشعري، دون أن يتمكن من الإقامة الجسدية على أرض هويته الخاصة.

•

تلك هي أرضي، أرض سمائي. ولست مكلَّفاً إلّا من الغياب بكتابة أسماء حضورها الجغرافي والثقافي والحضاري والإنساني، في كتابها، وفي كتاب الشعر العربي. وهل هي كتابة على كتابة سابقة؟ ربما... فلست إلّا ما أعرف. ولكنّ إفراط الكتابة السابقة في خفّتها اللاهوتية يكسرني ويكسر واقعاً تكسره الهشاشة من شدّة ما امتلكه السيف الممتدّ إلى جسدي وإلى لغتي وإلى غدي السابق، في صيرورة مصير إنساني لا تدافع عنه تراجيديته وحدها، بل حقّه في الكلام عن ذاته العادية، إسوة بما يفعل الأدب المعاصر، الساعي إلى التحرّر من البطولة ومن ضغط الجماعة، من الأسطورة ومن الراهن معاً. فهل أُذن له بذلك؟ هل أُذن له أن يخرج إلى المطلق من تاريخية لا يعترف لها بأي تاريخ؟

لم أولد في مكانين، ولكن في وسعي أن أموت في أكثر من مكان. وفي مقدوري أيضاً أن أولد وأموت في كل قصيدة. تلك هي حرّيتي، فلماذا يكون مكان ولادتي الجغرافي نقيضاً لهذه الحرية؟ وبعيداً عن شاعرية بلادي التاريخية، أرضاً وميثولوجيا تشير إلى عمل الآلهة وإلى كتابة التكوين، وإلى إفراط البشر في خطاياهم، ممرّات لهويات وحضارات، وزمناً متروكاً لإعادة التأليف المعاصر، وشعباً هو ما هو عليه من ولوج المألوف في الخارق، ومن سموّ الأحلام وانكسارها... بعيداً عن كلّ هذا وذاك، فهي أرض قرب الأرض، وهي نزوع الأسطورة البحرية إلى شبق الرسوّ على متر من برّ.

فهل في مكان ولادتي ما يفقر الشاعرية الإنسانية، أم فيه ما يغنيها، بتذكير الإنسان بسيرته في تاريخ الكون والكلمة، وفي فتح المعنى على معنى آخر، وفي قدرته على إنقاذ الواقع بالأسطورة، وفي عودة الأسطورة إلى عناصرها وإلى أهلها؟ لا حاضر للغة الشاعر إلّا في ماضيها، وإلّا فسأجيء إلى اللغة للتوّ، من الفراغ. فلماذا كان النقد يخجل من وطني كما لم يخجل من وطن أحد؟

إن إحدى مآسي طروادة المتراكمة هي أنّ أحداً لم يبحث عن الألواح التي دوّن عليها شاعرها سيرتها. من حسن حظي، أو من سوئه، أنني لست طروادياً. ومن حسن حظي أنني ما زلت أعبّر عن إنسانية تدافع عن خلاصها الشعري. وهي إنسانية تكثّف، وتتعرّف على ذاتها الثقافية والتارخية تعرّفاً سلبياً، ولا بأس، من خلال علاقتها بأثينا التي أصبحت رومانية. ففي شعرنا العربي، إذاً، ما زال هناك الكثير مما لا يُقال، ما دام هذا آتياً من سياق بعيدنا الذي آن للغتنا، ذات الجماليات الفذة، أن تهيئه لاستقبال حداثة لا نشارك في صوغ منظوماتها الكونية، ونكتفي باستهلاكها كسائر الموادّ الأخرى.

وسوء حظي (في أنني لست طروادياً) هو أنني لو كنت ذلك فسأكون موضوعاً أنثروبولوجياً، لا لشيء إلّا لأنّ علماء الإغريق قد ارتاحوا إلى انتصارهم، فأحبّوا أن يضفوا مزايا إنسانية على ضحاياهم.

لا، لا أستطيع أن أضع الضمير في مواجهة لا مبرر لها مع الجمالية؛ ولا أستطيع أن أخون حواسّي كلّها، أو بعضها، لأنتمي إلى جسد حداثة مشوّه يغيّر اسمه وملامحه في كلّ لحظة. ولكني،

وأنا مُثقَل بما لا يعينني، أعرف كيف أموت وأولد في سياق قصيدة لا تبحث، وهي تكتب، عن هدف سوى شعريتها التي لا تستطيع أن تتحرر من ضغط تاريخها إلّا في تجدّد تاريخيتها من خلال الاندماج فيها، لا الاغتراب عنها.

هذا هو المعنى الذي أدركه في تكريم المشروع الشعري العربي، الذي أحاول أن أسهم فيه بجدلية حياة وموت، رحيل وبقاء، حضور وغياب، لنتمكن معاً، من مراكز الثقافة العربية وأطرافها، من أن نحقق حضورنا الشعري المشترك في الذات وفي الآخر؛ في الذات التي انفصلت عن نفسها لترى إلى نفسها وهي تحاول أن نعيش الوجود شعرياً مهما كان الثمن، ومهما كان حجم القطيعة التي تقترح علينا الغياب عن الذات، وعن الآخر معاً. لقد متُّ بما فيه الكفاية، وما أسعدني أن أشهد هنا، في قفصة، قصة ميلادي. لا أعرف كيف أشكر نقادي وزملائي الشعراء الذين يدرّبونني على طريقة جديدة في فهم نفسي الشعرية. ولكنني أعرف كيف أحبّ أهل قفصة التونسية العربية، لا لأنها تكرّمني، بل لأنها شديدة الوفاء لذاكرتها، لحياتها، للغتها، ولبحثها عن الشعر في الشعر والحياة، ولأنها تجيبنا من جديد وبطريقتها الكريمة الأصيلة عن سؤالين يعذّبان نهاية القرن:

هل ما زال الشعر ضرورياً؟

وهل ما زال الشعر ممكناً؟

الشعر بين المركز والهامش(*)

لا أعرف كيف أصوغ شكراً أكاديمياً مناسباً، على هذه اللفتة الكريمة: إحدى أعرق الجامعات الأوروبية، جامعة لوڤان، تمنح شاعراً عربياً شهادة دكتوراة فخرية. ستكون كلمات الشكر احتفاءً بالمشترك الإنساني والجمالي الذي يحقّقه الشعر، واعترافاً بالخصوصية التي يزداد تجلّيها صعوبة... بعدما بلغت التقنيات الشعرية الحديثة مستوى من التطور والتجريب و«تدفّق الأسرار»، يهدّدنا بفائض التشابُه بيننا، وبين الشعر والنثر، وباغتراب الشعر والشاعر معاً عن مكانة أقلّ سعادة، في المجتمع.

لم يعد في وسعنا، في نهايات هذا القرن الشعري، أن نطبّق فوارق المستوى الثقافي والاجتماعي والعلمي بين العالم العربي والغرب،

(*) [كلمة الشاعر في احتفال منحه شهادة دكتوراة فخرية من جامعة لوڤان البلجيكية ــ ١٩٩٨].

تطبيقاً أوتوماتيكياً على العلاقة بين مستوى تطوّر الشعر العربي الحديث وحركة الشعر العالمية الحديثة. ومن هنا، فإن الإصغاء إلى الشاعر العربي قد ينتهي إمّا بصدمة، وإمّا بخيبة أمل. ربما لأن هوية الشعر القومية لم تعد تعبّر عن نفسها إلّا بشكل خفيّ، أو مشهدي، أو عن حركة مختلفة في الزمن... أي في منزلة ملحقة بهوية الإنسان الإنسانية التي يقولها الشعر المولود من ماضي غربتنا الواحد على هذه الأرض.

بين غربة البدايات الأولى وبين الاستلاب المعاصر، مروراً بتغيّر النظرة الأولى إلى قدرة الشعر على تغيير العالم، يواصل الشعر حضوره كممارسة جوهرية، ويحقّق «عَوْلَمَته» الخاصة به، عولمته المتحررة من هيمنة المركز، ومن خوف الأطراف على هوياتها المحلية.

هنالك حَسَدٌ طيّب تجاه مكانة الشاعر العربي المعاصر في مجتمعه. تلك المكانة التي شكّلت صورتها من زمن مضى تحتاج الآن إلى مراجعة وتدقيق. فهل ما زال العرب حقاً هم شعب الشعر، لأنهم لا يملكون من القوّة إلّا قوّة اللغة؟ إن مكانة الشعر العربي الحالية في تراجع أيضاً، في تراجع صحّي ومَرَضي معاً، بعدما فرض إيقاع الزمن العالمي الحديث انقلاباً عربياً في النظرة إلى الشعر وإلى نظام المعنى... حيث لم يعد مفهوم «الشاعر» ترجمة حرفية للمعنى العربي «العارف»، وحيث تبدّل مفهوم البطل، أمام إلحاح الرؤية الحديثة، لمصلحة الهامشي، العبثي، أو اليوميّ العادي البسيط.

بين الخوف من المدينة التي لم تنشأ بعد، وبين الخوف من القبيلة التي لم ترحل بعد. بين سؤال ما بعد الحداثة في مجتمع ما قبل الحداثة، باستثناء حداثة المؤسسة الأمنية، تتأزّم أسئلة الحداثة الشعرية

العربية وتتشظّى إلى حداثات لا يجمعها غير الشكل. بعضها يستجيب إلى انفتاح اللغة على التاريخ وعلى الواقع والقارىء. وبعضها يغلق اللغة على ذاتها بعيداً عن المعنى وعن الزمن.

لذلك سيبقى سؤال الحداثة في المجتمع العربي المطحون بأسئلة وجوده الأساسية سؤالاً متأزّماً وغريباً، إذا لم يوضع في سياق التحرّر. وهكذا لا يكون هناك ما هو أسوأ من الشعر السياسي، بمعناه المباشر، إلّا الإفراط في تعالي الشعر عن قضاياه السياسية، بمعناها العميق، أي الإصغاء إلى حركة التاريخ والمشاركة في اقتراحات المستقبل. فتلك هي سياسة مضادة تغيّب الشاعر عن فضائه الجيو ــ سياسي، وتعزله عن الكينونة المشتركة وعن المجتمع.

صحيح أن التحوّلات الاجتماعية المتسارعة، وهيمنة وسائل الإعلام، وانتهاك اللغة بتحويلها إلى لغة استهلاكية، قد أسهمت في تراجع الإصغاء إلى الشعر. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الشاعر قد أسهم في هذه الظاهرة منذ أصبح مفتوناً إمّا بعزلته المعقّدة، وإما بجماهيريته البسيطة. في الحالة الأولى جعل الغموض صورة لـ «أنا» لا تحتوي غيرها ولا تذهب من الذات إلى العالم. وفي الحالة الثانية جعل الوضوح رسالة نهائية تقتل المتعة التي نبحث عنها في الشعر، وتترك القارىء عاطلاً عن العمل. هنالك، إذاً، ما هو أسوأ من الغموض المُعْتم، هو الوضوح التعليمي الذي يحرم القارىء من المشاركة في عملية الإبداع، وإعطاء حياة ثانية للقصيدة.

فهل نحن في آخِر الشعر؟ كلا. فما لا نعرف أوّله لا نعرف نهايته. ولكن الشعر أيضاً في حاجة إلى أزمات لكي يعرف ماهيته، ويتطوّر إلى ما لا نهاية.

شاعر الجميع

شموع كثيرة تُضاء لنزار قبّاني. لكنها أقلّ من الشموع التي أضاءها الشاعر، طيلة خمسين عاماً، للعشاق وللمدافعين عن حرية الجسد والوعي والأرض. هو الشاعر الـمُتَفرِّد منذ قصيدته الأولى، حتى صار «ظاهرة شعبية» في الشعر العربي المعاصر، الذي أنزله من أبراج النُّخْبة وليالي الإلهام إلى متناول الأيدي، كالخبز والورد، حتى كاد أن يكون شاعر الجميع.

هو صاحب الحضور الأكبر في الوجدان العام. صاحب القصيدة ـــ الأغنية الأكثر انتشاراً وتحريضاً على الحب والغضب، وعلى احترام الأناقة والجمال. ينتشر اسمه في الدفاتر الأولى ومطالع الرسائل، وفي إصغاء الجسد إلى حركة الملح الإيروسي في الدم... وفي ما يقوله الياسمين لأزقّة دمشق الغريبة في قرطبة، وينتشر على يد طفل فلسطيني تخدش ليل الاحتلال في القدس.

في عذوبته قسوة الحرير على الصدر الغضّ. وفي قسوته عذوبة

انتحار الأنهار في البحر. عاشق الثُّنائيات الحادة والألوان الساطعة. بَرِم بالرماديِّ وشروط الهدنة، وبجُنوح الشعر إلى الخروج من الحسيّ إلى المجرد. إذا كانت السماءُ موجودةً في كل مكان، فلماذا يبحث عنها خارج مصدرها الدنيويّ؟

في وُسْع نرجسه أن يتسلّل من صورته إلى الآخرين، فليس الحب إلّا تَعَرُّف الذات على ذاتها في حوارها مع آخر يخرجها من الصَّدفة إلى الوجود.

وهكذا يصبحُ تأمُّلُ النرجس في الماء مرايا لعُشّاق آخرين. ويصبح الشاعر مرجعية عاطفية لأجيال لا ترى في شعره تقلبات عواطفها أمام سَفَر العيون إلى الأزرق والأخضر والمجهول، بل تعثر فيه أيضاً على جدل الحب مع سؤال التحرر، تحرر الجمال والرغبة من سجن التابو.

مسكونٌ بالحرية إلى حدّ عشق الفوضى والتدمير، وهناك... على ضفاف المرأة، حيث يقيم الوطن المهدّد والمهان، يتسلّح النرجس الهشُّ بالمخالب والأشواك، وتعلو قافية السيف على المفردات، فلعلّ بمقدور هذا البريق أن يضيء ليل الوعي العربي المحدِّق إلى الهاوية. أهذا هو نزار قباني، صوت الحليب والزَّغب؟ هو.. هو عندما يغضب.

لعلّ سيرة نزار الشعرية اكتملت، الآن، أو منذ سنين. لقد ترافق اكتمالها مع وصول رحلة الوعد الجماعية بحثاً عن حرية الجسد والوعي وانفصال القبيلة عن المدينة، إلى مضارب قبائل جديدة، فاتخذ صراخ الشاعر شكل البيان المبحوح، المحبط إلى درجة استبدل معها الغناء بالهجاء، ولم يعد في حاجة إلى مفردات

جديدة، فغرف من قاموسه الذي أصيب بالإرهاق الجمالي من فرط ما حوّله التداول إلى ماركة مسجلة.

لذلك، لا يُقرأ نزار مُتَقَطِّعاً، أو قصيدة قصيدة. قراءته الأفضل هي أن يُقرأ أثره الاستثنائي في لغة الشعر التي نقلها من مستواها المفرط في الرصانة، أو الشعرية المتعالية، إلى مستويات لم تألفها من قبل، وأدرجها في لغة الحياة اليومية العصرية، فصار الشعر ملكية عامة، مصاحباً لأدوات التدبير المنزلي والجمالي، وتعبيراً سلساً عن العادي والمألوف والبسيط في الحياة والشعر والسياسة. لقد نزع عن الشعر هالته البعيدة، فأجرى المصالحة التاريخية الكبرى بين القصيدة وبين الطلبة الصغار، وربات البيوت، والموظفين، وأصحاب المهن... ورؤساء الدول.

لم ينتبه للنقد، أحدث قطيعته الكبرى مع بُنْية الشعر التقليدي المحافظ، دون أن يُطيل الإصغاء إلى إغواء الحداثة وأسئلتها الفكرية، لأن العتبة الواسعة بين مرحلتين تاريخيتين هي ساحته التي تتّسع له وحده لمواصلة التجديد والتطوير على طريقته الخاصة، وبلغته التي لم تكن في حاجة إلى توقيعه.

ولم ينتبه أيضاً إلى الغبار الذي تثيره خيولُهُ الجامحة، كتهمة الإفراط في جلد الذات، وتمجيد الذكورية الاستعلائية، إذ كان واثقاً من صواب قلبه، ومن أنه صنع للمرأة أكثر مما صنع بها. لم يعترف شاعر قبله، ومثله، بحقِّ المرأة في مثل هذا التعبير المباشر والصريح عن نفسها، عما يدور في خلَدها وفي جسدها من أفكار وأسرار. بيد أنه ليس شاعر المرأة وحدها، إنه شاعر الجميع.

سعدي في السبعين

منذ قرأت شعر سعدي يوسف، صار هو الأقرب إلى ذائقتي الشعرية. في قصيدته الشفّافة صفاءُ اللوحة المائية، وفي صوتها الخافت إيقاعُ الحياة اليومية.

وقد أُجازف بالظن أنه، ودون أن يكتب «قصيدة النثر» السائدة اليوم، أَحدُ الذين أصبحوا من ملهميها الكبار، فهي تتحرّك في المناخ التعبيري الذي أَشاعه شعر سعدي في الذائقة الجمالية، منذ أَتقن فَنَّ المزج بين الغنائية والسردية.

وهو أَحد شعرائنا الكبار الذين قادهم الشعر أَو قادوه إِلى التمرّد على تعالي اللغة الشعرية، وإِلى تأسيس بلاغة جديدة، ظاهرُها الزُهْدُ، وباطنُها البحث عن الجوهر... ليصبح الشعر في قصيدته هو الحياة بسليقتها وتلقائيتها، والحياة هي الشعر، حين تكتبه ذاتٌ ليست ذاتية تماماً. فقد تماهت الذات مع الموضوع، وتآلف الموضوع

مع الخصوصية الذاتية... دون أن يتخلّى الشاعر عن قدر من «حياد» موضوعي، يخفِّف عن القصيدة طابعها الأوتوغرافي، ويُوَفِّر لها استقلالاً عن سيرة صاحبها.

الشاعر أم القصيدة؟ ليس هذا سؤال سعدي يوسف، فقد بلغ من النضج خبرة قادرة على أن تجعل حياة الشاعر وحياة النَّصِّ واحدة ومنفصلة في آن واحد، فهو يعبِّر عن نفسه، ولا يعبِّر عنها وحدها، في اللقاء الحميم بين داخله الذاتي وخارجه الموضوعي في عملية مركَّبة يتبادلان فيها الأدوار.

سعدي يوسف، الذي يحاور نَصُّه الشعري تاريخ الشعر، لا يشبه شاعراً عربياً آخر. لكن الكثيرين من الشعراء أرادوا أن يشبهوا سعدي، وعانوا مما سمّاه هارود بلوم «قلق التأثير».

لقد بهرتني بساطةُ سعدي المعقّدة، في نزوعها إلى البحث عن شعرية الأشياء الصغيرة الكامنة في نثر الحياة، والبحث عن العلاقات السرية بين اليومي والتاريخي. وبهرني أكثر من ذلك إلحاحُهُ في محاولة الإمساك بالحاضر الهارب.

وإذا كان صحيحاً أَن في داخل كل شاعر مجموعة من الشعراء ــ كما يقول أوكتاڤيو باز، وأن النص هو محاورة مع نصوص أخرى، فإن سعدي يوسف كان أحد الشعراء الذين درَّبني شعرهم على التنقيب عن الشعري في ما لا يبدو أنه شعري، وأغراني بمقاومة الإغراء الإيقاعي الصاخب، وبالاقتصاد في البلاغة.

وكم سُئلت عن فترات بَيَاتٍ شعريٍ مررت بها، وكنت أَقول دائماً: ما دام سعدي يوسف يكتب، فإنني أشعر بأنه يكتب نيابةً عنِّي!

صديقي منذ ثلاثة عقود. لم نتوقف عن صيانة المودّة المتبادلة، النادرة بين الشعراء، منذ التقينا للمرّة الأولى في بغداد. كان في آخر الليل متهوّراً يقود سيارة هرمة، كادت تسقط بنا في دجلة. كم خفت من موت عبثي ينتظرنا في قاع النهر. لكننا اليوم، نحتفل بعيد ميلاده السبعين. هو في لندن، وأنا في رام الله.

أتذكره في منافيه العديدة، في بيروت، وفي عدن، وفي نيقوسيا، وفي باريس، وفي عمّان... يعتني بأصص الصَبّار.

لقد أدمن سعدي يوسف المنفى، فصار جزءاً عضوياً من حياته ومن لغته، لا باعتباره مكاناً جغرافياً تقيضاً للوطن فحسب، بل باعتباره مجالاً حيوياً لتعرّف الذات إلى نفسها في الآخر، وللتأمل في الأشياء الأولى من بعيد، وباعتباره ثيمة أدبية تعبّر عن غربة وجودية.

كنا دائماً نؤمن بأن الغد أجمل. لكن التاريخ يفاجئنا دائماً بخيبة أَمل جديدة، تغري الشاعر بمديح أمس. بيد أنَّ الشعر لا يمتثل إلى هذه المحنة، لأنه أدمن النظر إلى أبعد... وإلى أعلى!

آخر مرة / أول مرة(*)

... لن أتكلَّم عن كتابي الجديد، لأنّني ـ أولاً ـ لا أُحبُّ هذا النوع من النرجس. ولأنّني ـ ثانياً ـ لسْتُ من هؤلاء الشعراء الذين يدعمون مشروعهم الشعري بمشروع نظريّ شديد الإحكام، يُخضع حرّيتهم الإبداعية، وحرية القارىء في التأويل، إلى مفهوم كامل أو نهائي عن الشعر، وهو مفهوم تُعَرِّضُهُ أسبقيَّةُ الإبداع للتبدّل الدائم.

ولأنّ الشعر لا يتحقق إلّا بعد أن يحوِّل الشاعرُ «ما هو عام» إلى شخصي، ولأنّ الشعر يُحَوِّل، فور تحققه، كُلَّ ما هو شخصي إلى «عام»، فإن في وسع الشاعر أن يعترف دائماً بأنه لا يعرف كيف فعل ذلك أثناء الكتابة.

إنَّ صراع هذه القصيدة مع تجربة موت شخصي لم يكن في

(*) [كلمة الشاعر في حفل التوقيع على «جدارية» الذي أُقيمَ في رام اللّه].

حاجة إلى الإشارة الواضحة إلى أن حياتنا العامة هي في حالة صراع جماعي ضد موت الهوية والمعنى. وإنّ انتصار الشعر على الموت المجازي، منذ كان الشعر، ربّما يحمل دلالة قريبة أو بعيدة إلى قيامتنا الجديدة.

بَيْدَ أنَّ مساحة أرض الصراع اتسعت، وخرجت من المكان المحدَّد والزمن المحدد، لتلتقي مع تساؤل الكائن البشري عن مأزقه الوجودي، عَبر أزليّة السؤال الأوّل عن الموت الأوّل، وعَبر تقاطع الميتافيزيقيا مع التاريخ.

لذا، في مقدورنا أن نجد الخاص في العام والعام في الخاص، دون أن نخسر شيئاً أوسع من ثقب الإبرة، وما حُدِّد لنا من حيّز ضيّق حرَمَنا من طرح أسئلتنا العميقة عن الوجود. صحيح أن الحرمان قد دفعنا إلى وضع جغرافيتنا الخاصة في مرتبة «المُقدَّس» الذي نرى من خلاله الكون. ولكن من الصحيح أيضاً أن نَتساءَل، شعرياً، هل من الممكن إنجاز حداثة حقيقية دون أن نَحُول دون تحوُّل هذا المقدَّس إلى عبء على الرؤية والرؤيا والمنظور؟

أكتب في كل مرة، كأنّني أكتب لأوّل مرّة، وربما لآخر مرّة. وسيكون عليَّ، وحدي، أن أسعى منذ الآن إلى تجاوُز هذه القصيدة/ الكتاب، لا لشيء إلّا استجابةً لنزعةٍ هدم المنجز ــ فالمنجز سجن ــ وللبحث عن الجديد ــ فالجديد أُفق.

فإذا كان الشعر صراعاً ضد الموت، بتأويلاته ومستوياته المتعددة، فإنه أيضاً صراعٌ ضد ذاته، ضدَّ موته الاختياري حين يصبح تقليدياً

ونمطياً ومألوفاً، وحين يطمئنُّ إلى أشكاله واستعاراته الجاهزة وخياله الـمُرَوَّض.

من هنا، أُرحِّب بمغامرات القطيعة، وبالتطورِ من داخل السياق وحتى من خارجه. القطيعة النسبية بين الأجيال، والقطيعة مع التقاليد الوطنية المعروفة في الشعر الفلسطيني، والقطيعة الممكنة بين الشاعر وتراثه الشعري الخاص والعام. فالشعر دائماً هو ما لا نعرفه، هو القادم المجهول. ولعلَّ أسوأ تعريف للشعر هو أن يُعَرَّف، فالـمُعَرَّفُ ممتلك. ولعلَّ أجمل الشعر هو ما يغيِّر مفهومنا عن الشعر.

لكنّني سأُسْأَل: ما دام الأمر كذلك، فلماذا الجدارية؟ إنّ الجدارية هي العمل الفني الذي يُنْقَش، أو يُرْسَم، أو يُعَلَّق على جدار، ظنّاً ممن يفعل ذلك أنّ هذا العملِ جدير بأن يحيا، وبأن يُرى من بعيد... مكانيّاً وزمانيّاً. فهل أصابني مَسّ من هَوَس البحث عن الخلود حين اخترت هذا العنوان الذي يُذَكِّر، في سياق الشعر العربي، بمكانة الـمُعلَّقة؟

كلاّ. لقد استبدّ بي هاجسُ النهاية، منذ أدركت أنّ الموت النهائي هو موت اللغة. إذ خُيِّل إليَّ ــ بفعل التخدير ــ أنني أَعرف الكلمات وأَعجز عن النطقِ بها. فكتبتُ على ورق الطبيب: «لقد فقدتُ اللغة»... أي لم يبق مِنّي شيء. لم يبق مِنّي أكثر. فمَنْ أنا بلا لُغَة!

لذلك، لم أَتوقّع لهذا العمل أَن يُنجز. كان المعنى الوحيد لوجودي هو أن أَتمكّن من الكتابة للمرّة الأخيرة، وحين كتبتُ هذه القصيدة

طيلة العام الماضي، استبدّ بي هاجسُ نهايةٍ أُخرى: لن أَحيا لأكتبَ عملاً آخر. لذلك سمَّيته «جدارية» لأنّه قد يكون عملي الأخير الذي يُلَخِّص تجربتي في الكتابة، ولأنّه نشيدُ مديحٍ للحياة.

لكنّه، وما دامَ قد كُتِب، فإنّ عليه أن يَنسى قصّته وإدراكه أنّ الموت هوِ عذاب الأحياء. وما دُمْتُ قد عشتُ مرّة أخرى، فإنّ عليَّ أن أَتمرَّد على كتابي هذا، وأن أُحبَّ الحياة أكثر، وأُحبّكم أكثر...

مهنة الشاعر(*)

لستُ من الذين ينظرون إلى المرآة برضا. المرآة هنا هي انكشاف الذات في صورة صارت ملكية عامة... أي صار من حق غيرها أن يبحث عن ملامح ذاته فيها. فإذا وجد فيها ما يشبهه أو يعنيه من تعبير وتصوير، قال: هذا أنا. وإذا لم يعثر على شراكة في النصّ/ الصورة، أشاح بوجهه قائلاً: لا شأن لي!

كَمْ أخشى هذا التعليق الذي صار رائجاً في العلاقة بين الكثير من الشعر الحديث وبين أغلبيّة القُرّاء، منذ استمرأ الكثيرون من الشعراء توسيع الهُوَّة بين القصيدة وكاتبها الثاني: المتلقِّي، الذي لا يتحقّق المشروع الشعري بدونه، وبدون تحرّكه في اتجاه النص. التّهَمُ متبادلة بين الطرفين. لكن أزمة الشعر، إذا كانت هنالك أزمة، هي

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل التوقيع على كتاب «كزهر اللوز أو أبعد» في رام اللّه].

أزمة شعراء. وعلى كل شاعر أن يجتهد في حلِّها بطريقته الإبداعية الخاصة.

أَعلَمُ أنني سأُتَّهم، مرة أخرى، بمعاداة شعر الحداثة العربية التي يُعرِّفُها العُصَابيُّون بمعيارين: الأول: انغلاق الأنا على محتوياتها الذاتية دون السماح للداخل بالانفتاح على الخارج. والثاني: إقصاء الشعر الموزون عن جنَّة الحداثة... فلا حداثة خارج قصيدة النثر. وتلك مقولة تحوَّلت عقيدةً يُكَفَّرُ مَنْ يقترب من حدودها متسائلاً. وكُلُّ مَنْ يُسَائِلُ الحداثة الشعرية عمّا وصلت إليهِ يُتَّهَم، تلقائياً، بمعاداة قصيدة النثر!

لم أَكُفَّ عن القول إن قصيدة النثر التي يكتبها الموهوبون هي من أهم منجزات الشعر العربي الحديث، وإنها حقَّقت شرعيتها الجمالية من انفتاحها على العالم، وعلى مختلف الأجناس الأدبيّة، لكنها ليست الخيار الشعري الوحيد، وليست «الحلّ النهائيّ» للمسألة الشعرية التي لا حلَّ لها، فالفضاء الشعري واسع ومفتوح لكل الخيارات التي نعرفها والتي لا نعرفها. ونحن القرّاء لا نبحث في التجريب الشعري المتعدِّد إلّا عن تحقُّق الشعرية في القصيدة، سواء أكانت موزونةً أم نثرية.

وأَعلم أيضاً أن مجموعتي الشعرية الجديدة، كسابقاتها، ستُزوِّد خصومي الكثيرين بمزيد من أسلحة الاغتيال المعنوي الشائعة في ثقافة الكراهية النشطة. سيُقال ــ كما قيل ويُقال ــ إنني تخلّيت عن «شعر المقاومة». وسأعترف أمام القضاة المتجهّمين بأنني تخلّيت عن كتابة الشعر السياسي المباشر محدود الدلالات، دون أن أتخلَّى عن مفهوم المقاومة الجمالية بالمعنى الواسع للكلمة... لا لأن

الظروف تغيَّرت، ولأننا انتقلنا «من المقاومة إلى المساومة»، كما يزعم فقهاءُ الحماسة، بل لأنّ على الأسلوبية الشعرية أن تتغيَّر باستمرار، وعلى الشاعر أن لا يتوقف عن تطوير أَدواته الشعرية، وعن توسيع أفقه الإنساني، وأن لا يكرِّر ما قاله مئات المرات... لئلّا تصاب اللغة الشعرية بالإرهاق والشيخوخة والنمطية، وتقع في الشّرَك المنصوب لها: أن تتحجّر في القول الواحد المعاد الـمُكرَّر. فهل هذا يعني التخلّي عن روح المقاومة في الشعر؟

أَما من دليل آخر على المقاومة سوى القول مثلاً: سجِّل أنا عربي، أو تكرار شعار: سأُقاوم وأُقاوم؟ فليس من الضروري، لا شعرياً ولا عملياً، أن يقول المقاوم إنه يُقاوِم، كما ليس من الضروري أن يقول العاشق إنه يعشق. لقد سمَّانا غسان كنفاني «شعراء مقاومة» دون أَن نعلم أَننا شعراء مقاومة. كنا نكتب حياتنا كما نعيشها ونراها. وندوِّن أحلامنا بالحرية وإصرارنا على أن نكون كما نريد. ونكتب قصائد حبّ للوطن ونساء محدَّدات. فليس كل شيء رمزياً. وليس كل خَصْر شجرة نخيل خصر امرأة أو بالعكس!

لا يستطيع الشاعر أن يتحرَّر من شرطه التاريخي. لكن الشعر يوفِّر لنا هامش حريّة وتعويضاً مجازياً عن عجزنا عن تغيير الواقع، ويشدنا إلى لغة أعلى من الشروط التي تُقيِّدنا وتُعرقل الانسجام مع وجودنا الإنساني، وقد يُساعدنا على فهم الذات بتحريرها مما يُعيق تحليقها الحرّ في فضاء بلا ضفاف.

إن التعبير عن حقّ الذات في التعرّف إلى نفسها، وسط الجماعة، هو شكل من أشكال البحث عن حريّة الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة. ومن هنا، فإن الشعر المعبِّر عن سِمَاتنا الإنسانية وهمومنا

الفردية ــ وهي ليست فردية تماماً ــ في سياق الصراع الطويل، يُمثِّل البعد الإنساني الذاتي من فعل المقاومة الشعرية، حتى لو كان شعر حُبّ أو طبيعة، أو تأمُّلاً في وردة، أو خوفاً من موت عادي.

ليس صحيحاً أنه ليس من حق الشاعر الفلسطيني أن يجلس على تلَّة ويتأمَّل الغروب، وأن يصغي إلى نداء الجسد أو الناي البعيد، إلَّا إذا ماتت روحه وروح المكان في روحه، وانقطع حبل السُرَّة بينه وبين فطرته الإنسانيّة.

وليس الفلسطيني مهنة أو شعاراً. إنه، في المقام الأول، كائن بشري، يحبُّ الحياة وينخطف بزهرة اللوز، ويشعر بالقشعريرة من مطر الخريف الأول، ويُمارس الحبّ تلبيةً لشهوة الجسد الطبيعة، لا لنداء آخر... وينجب الأطفال للمحافظة على الاسم والنوع ومواصلة الحياة لا لطلب الموت، إلّا إذا أَصبح الموت فيما بعد أفضل من الحياة! وهذا يعني أن الاحتلال الطويل لم ينجح في محو طبيعتنا الإنسانية، ولم يفلح في إخضاع لغتنا وعواطفنا إلى ما يريد لها من الجفاف أمام الحاجز.

إن استيعاب الشعر لقوَّة الحياة البديهية فينا هو فعل مقاومة، فلماذا نتّهم الشعر بالردة إذا تطلَّع إلى ما فينا من جماليات حسّيّة وحرية خيال وقاوم البشاعة بالجمال؟ إن الجمال حرية والحرية جمال. وهكذا يكون الشعر المدافع عن الحياة شكلاً من أشكال المقاومة النوعية.

هل أتساءل مرة أخرى إن كان الوطن ما زال في حاجة إلى براهين شعرية، وإن كان الشعر ما زال في حاجة إلى براهين وطنية؟ إن

علاقة الشعر بالوطن لا تتحدَّد بإغراق الشعر بالشعارات والخريطة والرايات. إنها علاقة عضوية لا تحتاج إلى برهان يومي، فهي سليقة ووعي وإرادة. ميراث واختيار. مُعْطىً ومبدع. ولكن الشعر الوطنيّ الرديء يسيء إلى صورة الوطن الذي يشمل الصراع عليه وفيه مستويات إبداعية لم ننتبه إليها دائماً.

لذلك، فإن حاجتنا إلى تطوير أشكال التعبير عن الجوانب الإنسانية في حياتنا العامة والخاصة، بتطوير جماليات الشعر، وأَدبيّة الأدب، وإتقان المهنة الصعبة، والاحتكام إلى المعايير الفنية العامة، لا إلى خصوصية الشرط الفلسطيني فقط، هي مهام وطنية وشعرية معاً، وهي ما يؤهِّل شعرنا للوصول إلى منبر الحوار الإبداعي مع العالم، فيصبح الاعتراف بقدرتنا العالية على الإبداع أحد مصادر الانتباه إلى وطنِ هذا الإبداع. فكم من بلد أحببْناه، دون أن نعرفه، لأننا أحببنا أَدبه!

هكذا تمّحي الحدود بين وطنية الشعر وبين نزعته الدائمة لاجتياز حواجز الثقافات والهويات، والتحليق المشترك في الأفق الإنساني الرحب، دون أن ننسى أن للشعر دوراً خاصاً في بلورة هوية ثقافية لشعب يُحارب في هويته.

نعم، على الشعراء أن يتذكروا كل العذاب، وأن يُصْغوا إلى صوت الغياب، وأَن يُسَمُّوا كل الأشياء، وأن يخوضوا كل المعارك. ولكن عليهم أيضاً ألّا ينسوا واجبهم تجاه مهنتهم. وألّا ينسوا أن الشعر لا يُعرَّف، أساساً، في ما يقوله، بل بنوعية القول المختلف عن العادي، وألّا ينسوا أن الشعر متعة، وصنعة، وجمال. وأن الشعر فرح غامض بالتغلُّب على الصعوبة والخسارة، وأنه رحلة لا تنتهي إلى

البحث عن نفسه في المجهول.

وأنا هنا، لا أُدافع عن كتابي الجديد الذي لم يعد لي. ولم أَعد أتذكر شيئاً منه، منذ خرج مني وأَدخلني في مأزق السؤال الفادح: ماذا بعد؟ بل أدافع عن حقّ الشعراء في البحث عن شعر جديد، يُنَقِّي الشعر مما ليس منه. فإن شقاء التجديد المتعثِّر أَفضل من سعادة التقليد المتحجِّر.

الولادة على دفعات(*)

نادراً ما أقرأ مقدمات الشعراء لأعمالهم، وإن فعلتُ ذلك فلكي أحتفي بالفارق الجميل بين ما يودُّ الشاعر أن يقوله عن قصيدته.. وبين ما تقوله قصيدته. فالقصيدة كثيراً ما تُفْلتُ من سياق التفكير بها ومن مشروعها الذهني، ولا تخضع خضوعاً كاملاً لوضوح الفكر الذي يُحركها. وكأنها، إذ تستقل في صيرورتها الذاتية، تستقل أيضاً عن شاعرها.

فماذا سأفعل بما هو مطلوب منّي بإلحاح: أن أقدم هذه المختارات؟

سأقول أيضاً: إن المختارات تنطوي دائماً على خدعة، ففي وُسع مَنْ يختار أن يصنع بشاعره ما يشاء: أن يختار البؤرة المشعة في

(*) [مقدمة المختارات الشعرية الصادرة عن دار غاليمار تحت عنوان «تضيق بنا الأرض»... وقصائد أخرى].

القصيدة تاركاً جانباً ما تُحدِّق إليه من ظلام، مهملاً سياقها العام... سياق القصيدة وموقعها من شعر الشاعر. وفي وسعه أن يفعل العكس: أن يختار منها طريقها النثري إلى الشعر. وفي وسعه أيضاً التركيز على صورة، أو استعارة، أو خلاصة، أو حكمة شعرية.. منحازاً إلى طريقته في فهم الشعر. وطبقاً لهذا الفهم الخاص نجعل من شاعر عاديّ شاعراً استثنائياً، ومن شاعر استثنائي شاعراً عادياً.. باستحضار البؤر المشعة أو باستبعادها.

وهكذا، يبقى السؤال مثيراً للشكوك: هل نستطيع التعرف إلى حقيقة الشاعر الشعرية من خلال المختارات؟ سيبقى الجواب نسبياً وقابلاً للتضليل. ولكن السؤال التالي هو الأصعب: هل نستطيع التعرف إلى لغة الشاعر الجمالية من خلال مختارات مترجمة من لغة إلى أخرى؟

غنيّ عن القول أن لكل لغة نظامها الدلالي وأسلوبيتها الخاصة وتركيبها النحوي. وبما أن اللغة في الشعر ليست وسيلة أو أداةً فقط لنقل المعنى، والمعنى في الشعر ليس سابقاً لبنية القصيدة، فإن على الترجمة أن تنقل ما ليس وسيلة للنقل أصلاً.. إلى نظام لغة أخرى. وهنا، لا يكون المترجم ناقلاً للكلمات، بل مؤلِّفاً لعلاقاتها الجديدة. ولا يكون مصوّراً لضوء المعنى، بل راصداً للظل ولما يومئ لا لما يقول. لذا، يتحول مترجم الشعر إلى شاعر موازٍ، متحرّر من نظام اللغة الأصل، يفعل في اللغة الثانية ما فعله الشاعر في اللغة الأولى.

في فسحة التحرر هذه، تُرتكَب الخيانة الجميلة التي لا بُدّ منها، الخيانة التي تحمي لغة الشعر المنقول من عِناد وطنيّتها، ومن

اندماجها الكامل في مناخ لغة أخرى، في آن واحد. فعلى الشعر أن يحافظ على نَفَسِه الإنساني العام، القادم من بعيد مشترك من ناحية، ومن ناحية أخرى، عليه أن يحافظ على ما يدُلنا على أنه مترجم، أي قادم من خصوصية تجربة أخرى، عبَّرت عن نفسها بتركيب لغوي مختلف وفي سياق مرجعية ثقافية مختلفة. ولعلّ ذلك هو ما يُغرينا بقراءة الشعر المترجم، لا للحوار مع المشترك والمختلف، والبحث عن غنى التجربة الشعرية الإنسانية وتنوعها فقط، بل أيضاً لفتح قابلية التأثر التي تحتاج إليه لغتنا الشعرية، أية لغة، لتجديد أسلوبيتها وبناء جملتها، عن طريق الإصغاء إلى تجربة لغة أخرى.

هنا، يمتلك المترجم/ المبدع سلطة البناء والهدم. فكم من قصيدة كبرى قرأناها بأكثر من ترجمة، فلم تكُن هي ذاتها، لا بسبب تعدُّد مستويات قراءتها، بل بسبب تحكّم المترجم في مساراتها وطريقة تنفّسها، فلم تعد قصيدة شاعرها فقط، بل قصيدة مترجمها/ شاعرها المؤول أيضاً. ولا يهمنا في هذا المجال إن كانت أفضل من الأصل أو أسوأ.

كيف نُصدِّق الشعر المترجم إذاً؟

سنصدّق منه ما يتخفّى، وما يتحفّز للظهور، ذلك الظلّ المطلّ من خلف الكلمات، وربما ذلك البُعد الذي يشير إلى وجوده ويغيب.

وكيف نصدِّق المختارات التي اختارها الشاعر، وهنا، كيف تصدقونني؟

إن العنوان الثانوي لهذه المجموعة «مختارات شخصية» هو عنوان

مجازي، لأنها ليست شخصية تماماً. فلو كان الأمر متعلقاً بي وحدي، دون تدخُّل أيِّ اعتبار آخر، لما اخترتُ من شعري إلّا ما كتبته في العقدين الأخيرين. لأن كل عمل جديد لي ينزع إلى قطيعةٍ ما قائمةٍ على استمرارية. في كل عمل جديد محاولة لهدم ما سبق من خلال تطوير ما كان يبدو لي هامشياً وثانوياً، وتقريبه من المركز. ربما لأنني لا أسكن النهر، بل أقيم على الضفاف. وربما لأن الزمن يعلمني الحكمة، بينما يعلمني التاريخُ السخرية، أو ربما لأنني أكبر وأقترب من أسئلة ميتافيزيقية تتلاءم مع حيرة الوجود، وقد تحمي اللغة الشعرية من سرعة الراهن.

بيد أن صورتي العامة أقوى من قلقي. فأنا المسمّى «شاعراً فلسطينياً»، أو «شاعر فلسطين» مُطالب ـــ منِّي ومن شرطي التاريخي ـــ بتثبيت المكان في اللغة، وبحماية واقعي من الأسطورة، وبامتلاكهما معاً لأكون جزءاً من التاريخ وشاهداً على ما فعله التاريخ بي في آن واحد. لذا يتطلبُ حقي في الغد تمرداً على الحاضر، ودفاعاً عن شرعية وجودي في الماضي الذي زُجَّ به إلى المناظرة، حيث تصبح القصيدة دليلاً على وجود أو عدم. أما سُكّان القصيدة، فلا يكترث بهم مؤرخو الشعر.

حين بدأتُ الكتابة، كنتُ مسكوناً بهاجس التعبير عن خسارتي، عن حواسي، عند حدود وجودي المحدّد، وعن ذاتي في محيطها وجغرافيتها المحدّدين، دون أن أنتبه إلى تقاطع هذه الذات مع ذات جماعية. كنتُ أسعى إلى التعبير، غير حالم بتغيير أيّ شيء سوى نفسي. ولكن قصتي الشخصية، الاقتلاع الكبير من المكان، كانت قصة شعب كامل. لذلك، وجد القرّاء في صوتي الخاص صوتهم الخاص والعام. فعندما كتبتُ حنيني إلى خبز أمي وقهوتها، داخل

السجن، لم أقصد تجاوز تلك المساحة العائلية، وحين كتبتُ اغترابي في بلادي وشقاء الحياة والتوق إلى الحرية، لم أقصد إلى كتابة «شعر مقاومة» كما سمَّاه النقد العربي، ووجد فيه القرّاء العرب تعويضاً شعرياً مبالغاً فيه عن هزيمة العرب في ما سُمِّي بحرب الأيام الستة.

حين أتذكر الآن تلك المرحلة، أتذكر قدرة الشعر على الانتشار حين لا يطلب العزلة هدفاً ولا يطلب الانتشار أيضاً. فلا الانتشار ولا نقيضه يصلحان معياراً للحكم على جمالية الشعر. كما أن هنالك ما هو أسوأ من الشعر السياسي، هو الإفراط في تعالي الشعر على السياسة، بمعناها العميق، أي الإصغاء إلى أسئلة الواقع وإلى حركة التاريخ، والمشاركة الضمنية في اقتراح الأمل. فاللاسياسة هي أيضاً سياسة مبطنة.

من هذا المنظور، لا تستطيع هذه المختارات أن تخدع قارئها أو شاعرها، بفصل البدايات عما وصلت إليه تجربتي الشعرية الآن. وهكذا، لا أستطيع تحديد النقطة التي حدثت فيها القطيعة النسبية في سياق الاستمرارية، لأن العملية متداخلة متشابكة، ولأن كل مرحلة سابقة تحمل بذور تطور المرحلة اللاحقة.

يهمني كثيراً أن أطوّر شعري بطريقة نوعية. ولكن هل يمكن فصل ذلك عن الحالة التراكمية؟ لا أدري. وهكذا أرى في مرحلة المنافي امتداداً للصوت الذاتي/ الجماعي على أرض عمل أخرى، أوسع في الجغرافيا وفي التنوع الثقافي واللغوي، يرافقها تطوّر في المعرفة، وإعادة نظر دائمة في مفهوم الشعر، واقتراب من الإدراك الشعري للتجربة الإنسانية.

إن صَبْر المسافة، ومساحة التأمُّل من بعيدٍ ما، توفّر للشاعرية فرصة للتخفيف من درجة حماسة اللغة، وفرصة النظر إلى ذاتها وأدواتها بطريقة أبرأ وأهدأ من ناحية، وتُحملها من ناحية أخرى أعباء استحضار المكان بذاكرته وعناصره خالياً من الغبار ومن الروتين!

إنني شديد الإصغاء إلى حركة الزمن، وإلى إيقاعات المشهد الشعري العالمي، لا أتوقف عن التدرب على كيفية الاقتراب من توفير حياة خاصة للقصيدة بشرطها التاريخي وباستقلالها عنه معاً. ولا أتوقف عن تدريب القصيدة على الاقتراب من سُلالتها الأسطورية، لا بالاعتماد على رموزها فقط، بل بإنجاز بنيتها الأسطورية المعاصرة من عناصرها الذاتية.

ولكن، كيف للشاعر أن يُتقن الرحلة من داخله إلى خارجه، ومن خارجه إلى داخله، دون أن يغرق في «أناه» ودون أن يفقدها، بتحويلها إلى ناطقة باسم الجماعة، وكيف يحميها من قصْديَّة التمثيل؟

لعل مصدر الشعر واحد، هو هويتنا الإنسانية، من ماضي غربتها على هذه الأرض إلى حاضره المغترب. لقد وُلد الشعر من أولى أسئلة الدهشة عن وجودنا، من ذلك البعيد الذي تساءل فيه طفلنا الإنساني عن أسرار وجوده الأولى. من هنا لم تكن العالمية، منذ البداية، إلّا محلية.

في سياق السفر الواحد من الذات إلى العالم، في هذا السياق المتعدد اللغات والمناطق ودرجات التطور التاريخي، تتوحد التجربة الشعرية الإنسانية، وتحقق «عولمتها» الخاصة بها، متحررة من هيمنة المركز وتبعية الطرف، بإسهام كُلّ محلية شعرية في صوغ ما نسميه الشعر العالمي.

لكن، لا بُدّ للجهات من تسميات على ما يبدو. فماذا يعني أن أقول إن شعري قادم من الجنوب، من شرط تاريخي لم تتحقق فيه حرية الفرد ولا تحرر الجماعة، ومن بلد انكسرت فيه العلاقة بين المكان والزمان، وتحول فيه الكائن إلى شبح؟ إن ذلك لا يرمي إلى أكثر من الإشارة إلى مأزق الحداثة الشعرية العربية، على طريق الرحلة من القبيلة التي اندثرت خيامها إلى المدينة التي لم تنشأ بعد. ماذا تفعل الحداثة في مجتمعات عربية تعيش مرحلة ما قبل الحداثة؟ من الطبيعي أن تبقى هامشية ومجازية. ومن الطبيعي أيضاً أن تتشظّى إلى حداثات لا يجمعها غير الشكل.

ليس الغموض هدف الشاعر. لكنه ينتج من التوتر بين حركة القصيدة وبين ما يحركها من فكر، وعن التوتر بين حالتها النثرية وحالتها الإيقاعية، وهذا الغموض، الشبيه بإيماءات الظلال، هو أحد أشكال صراع اللغة الشعرية مع الواقع الذي لم يعد الشعر مشغولاً بوصفه، بل بالنفاذ إلى جوهره، وبصراع اللغة مع مرجعياتها. ولعل هذا النوع من الغموض هو الفضاء المفتوح لدور القارىء في منح القصيدة حياةً ثانية، إذ يُوَفِّر له دوراً إبداعياً في القراءة والتأويل، بدلاً من تلقي الرسالة كاملة نهائية. فليس هذا الغموض نقيض الوضوح، بل نقيض الوضوح التعليمي الذي يترك القارىء عاطلاً عن العمل.

ولكن، لا غموضي ولا وضوحي هو ما أنقذ شعري من القطيعة مع قارىء يجدّدني وأجدّده. فمن مفارقات تجربتي الشعرية أنها كلما طوّرت أدواتها التعبيرية وأسلوبيتها، حَفّزت قارئها إلى القبول بالمزيد من التجديد، فتقاربت ذائقة الشاعر والقارىء الجمالية. ربما لأن اقتراحاتي الشعرية تنبع من سياق تاريخ الشعر العربي وإيقاعاته ومن

داخل جماليات اللغة العربية. ومن المعروف أن القصيدة العربية الحديثة لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن دفعة واحدة.

صحيح، أنه ليس هنالك من شاعر حقيقي يأذن لأي اعتبار خارجي، ولا لأي قارىء بأن يراقب عملية الكتابة الشعرية. لكن الشاعر قارىء شديد المطالبة. وهو القارىء الأول لنصه. وما تنقيح النصّ مراراً إلّا فعل قراءة كاتبة، يخضع لمعايير واعية لمدى ما في الذات الشخصية من لقاء مع ذوات أخرى.

لكل شاعر طريقته الخاصة، أو تقاليده، في الكتابة، وأنا من أولئك الذين يكتبون النص مرتين: في المرة الأولى تقودني سليقتي الشعرية ولا وعيي. وفي المرة الثانية يقودهما إدراكي لمتطلبات بناء القصيدة. وغالباً ما لا تشبه الكتابة الثانية صورة الكتابة الأولى، لا تشبهها أبداً.

إن أحد تدريباتي على امتحان قصيدتي هو أن أنساها لفترة طويلة. وحين أعود لزيارتها للتحقق من طبيعتها الشعرية أحكم عليها بمدى الشبه بينها وبيني. فإذا تعرفت إليها من الوهلة الأولى أدركتُ أنها تقلدني أو أنني أقلّد نفسي. أما إذا أحسستُ بأن شاعراً آخر هو الذي كتبها، متجاوزاً الشاعر الذي كنتُه، أدركت أنها قصيدة جديدة.

ولكن، من يعنيه هذا السر؟

إن ما يعنيني في هذه المختارات، التي شارك في اقتراحها عدد من الأصدقاء، هو أن تكون أمينة وصادقة في تمثيل تجربتي الشعرية وتطورها، زمنياً وجمالياً، كما هي في بحثها عن الشعر في

القصيدة، وفي بحثها عن القصيدة في الشعر.

قليلون هم الشعراء الذين يولدون شعرياً دفعة واحدة. أما أنا، فقد ولدت تدريجياً وعلى دفعات متباعدة. وما زلت أتعلّم المشي العسير على الطريق الطويل إلى قصيدتي التي لم أكتبها بعد.

يوميّات الحزن العادي

المحتويات

القمر لم يسقط في البئر	٣٥٧
الوَطن... بين الذاكرة والحقبة	٣٧٩
يوميات الحزن العادي	٣٩٩
من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً	٤٢٩
الفرح.. عندما يخون!	٤٥١
تقاسيم على سورة القدس	٤٦٩
صمت من أجل غزة	٤٧٥
ذاهِبٌ إلى العالم غريبٌ عن العالم	٤٨١
ذاهِب إلى الجملة العربية في الخامِس عشر من أيار	٤٨٩

القمر لم يسقط في البئر

ــ ماذا تفعل يا أبي؟

□ أبحث عن قلبي الذي وقع في تلك الليلة.

ــ وهل تجده هنا؟

□ أين أجده إذن! أنحني على الأرض وألتقطه حبات حبات كما تجمع الفلاحات، في تشرين، حبات الزيتون.

ــ ولكنك تلتقط حصى!

□ شيء كهذا يمرن الذاكرة والبصيرة. وما أدراك، قد يكون هذا الحصى تكلس قلبي. وإذا لم يكن ــ أكون قد تعودت على محاولة البحث وحدي عن شيء حين ضاع ضيّعني. وإن مجرد البحث عنه دليل على أنني أرفض الاندماج في ضياعي. وعلى

الطرف الثاني من المحاولة دليل على أنني ضائع طالما لم أجد الشيء الذي أضعته.

ــ وماذا تفعل أيضاً يا أبي؟

□ أعثر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة إلى كلمات تجعلني في حوار مع البلد البعيد. نصير لغة قابلة للتجسيد.

ــ ألا تقول كلاماً آخر؟

□ أقول لكنني لا أفهمه، وتصير المرأة التي أخاطبها غربة ثانية.

ــ حين كنت صغيراً.. كنت تخاف القمر؟

□ يقولون ذلك. ولكن ليس صحيحاً أن الأطفال يخافون القمر دائماً.

.. لولاه لكنت يتيماً قبل أواني. لم يكن قد سقط في البئر. كان أعلى من جبيني وأقرب من شجرة التوت التي توسطت دار جدي. وكان الكلب ينبح عندما يقترب. وحين دوّت أول رصاصة دهشت لحفلة زفاف تحدث في المساء. وحين ساقوني إلى القافلة الطويلة رافقنا القمر إلى طريق عرفت فيما بعد أنها طريق المنفى. ولولاه ــ كما قلت لك ــ لضعت عن والدي.

ــ ماذا تذكر أيضاً؟

□ أذكر أني تعلمت السفر وحدي في سن مبكرة. سافرت أمي

إلى عكا فغضبت لأنها تركتني. وكم كنت أحب عكا! كانت أبعد نقطة في العالم قبل سنين. وصارت الآن ــ ويا للمفارقة ــ أبعد نقطة في العالم مرة أخرى. كنت أحمل خمس سنين وأمشي على الشارع الأسود في اتجاه عكا.

ــ وكيف عرفت الاتجاه؟

□ كان الشارع المعبّد السائر نحو الغرب لا يعني إلّا السفر إلى عكا. كان الحرّ شديداً فبكيت من الشمس والعطش. وجلست مراراً لأستريح. فكرت بالعودة فخجلت من الهزيمة.

ــ ماذا كانت تعني الهزيمة لك؟

□ أن أطلب شيئاً ولا يتحقق. أن أبدأ ولا أكمل. وأكملت طريقي إلى عكا. ووقفت عند مدخلها أمام مفترق طرق. كان استخدام الاتجاه الذي جئت منه ساقطاً من حسابي. جربت الاتجاه الجنوبي فأوصلني إلى هضبة رملية تطل على البحر. ليست أمي هنا. فعدت إلى المفترق. جربت الاتجاه الشمالي، فكان يقود إلى بيروت. وليست أمي هناك. فعدت إلى المفترق. جربت الاتجاه الغربي فأوصلني إلى قلب المدينة. دخلت مكاناً وطلبت ماء، فأسقوني وسألوني عمن أبحث فقلت: أبحث عن أمي.

ــ كيف يبحث طفل قروي عن أمه في مدينة مزدحمة؟

□ كما فعلت أنا. كنت واثقاً من أنني سأجدها بين آلاف الوجوه، ولولا خوفي من المساء الذي صار يقترب لما عدت إلى القرية وحدي. ولكن طفلاً في الخامسة لا بد من أن يهزم. عدت

إلى مفترق الطرق واستعملت الاتجاه الذي جئت منه خائباً. خشيت من الليل القادم من السهل فوقفت على حافة الشارع. وقفت سيارة شحن وسألتني إلى أين أنا ذاهب، فقلت إلى البروة. كانت أمي في البيت، وكان أهل البيت والجيران يبحثون عني في كل آبار القرية. حين يضيع الطفل فلا بد أن يكون قد سقط في بئر. بكت أمي وبكيت معها، وحين أكملت فرحتها ضربتني، فأخذني جدي وأعطاني حلوى.. وانتهى سفري الأول.

هذا هو طعم عكا الأول. دائماً أبحث فيها عن شيء لا أجده. فتشت فيها عن أمي، فكانت قد عادت إلى القرية. وبعد سنين فتشت فيها عن حبيبتي، فكانت تزف إلى رجل آخر. وفتشت فيها عن عمل، فكان الفقر يلاحقني. وفتشت فيها عن شعبي فوجدت الزنزانة والضابط الوقح. كانت آخر حدود العالم، وأولى المحاولات والخيبة. وكان سورها يتآكل في الزمن.

ــ تذكر شيئاً آخر عن بداية العالم؟

□ أذكر شكلاً غامضاً ساعدني على الاستعانة بالخيال والحلم. كان الواقع يتعرض لعملية انقطاع قبل أن يأخذ شكله النامي في وعيي. وفي ظروف لاحقة كان لزاماً عليَّ أن أعود إليه لأحتفظ بوجودي، فكان الحلم هو المكمّل. وهذا ما يجعلني في حالة حلم دائم محدوداً بمبررات الضرورة، لا منطلقاً بأجنحة الوهم المترف. تصير الأرض صخرة وعصفوراً في آن واحد. فالواقع على حالته الراهنة ــ حتى وإن لم يكن قانونياً ــ لا يعود جزءاً منك بدون رباط الحلم الذي يصير أكثر واقعية من شجرة ثابتة. والحلم على حالته العامة ــ وإن لم يكن مترفاً ــ لا يعود حافزاً لك بدون

ارتباط بصخرة مهما تغيّرت أشكالها. صحيح أن الأشياء لا تكون مقدسة إلى هذا الحدّ إلّا إذا كانت حالتها محكاً لانتمائك إلى الوجود، إلّا إذا كانت موضع صراع. ولكن كونك محروماً منها ليس هو الحيوية الوحيدة لثمنها العزيز إلى هذا الحد. وإلّا، فكيف نفهم إقدام فقراء البلدان المستلبة على الموت في سبيل العودة إلى فقر قديم؟ ثمة شيء ننساه في زحمة التسابق على حفظ الجُمل الثورية الجميلة. هذا الشيء هو الكرامة البشرية. ليس وطني دائماً على حق. ولكنني لا أستطيع أن أمارس حقاً حقيقياً إلّا في وطني.

ـ لماذا تتحاشاني.. هل تبتعد عن الأيام القديمة؟

□ لأفسر لك أني لا أدافع عن سعادة قديمة، ولا أتغنى بتعاسة ماضية. ليس للعمال وطن؟ ولكن للمحرومين من الوطن وطناً. ومن حسن حظنا ـ ربما ـ أن وطننا حق وجمال. إنه لم يأخذ هذا الشكل اللاذع في جماله من إسقاطات حرماننا عليه. إنه حلم في واقعه وواقع في حلمه. نحن لا نشتاق إلى قفر. ولكننا نشتاق إلى جنة. نشتاق إلى ممارسة إنسانيتنا في مكان لنا.

ـ قف عند هذه النقطة!

□ لقد وقفت حياة آلاف الضحايا والشهداء عند هذه النقطة. لم يكونوا مخدوعين. بعضهم ما رآه، فمات من عدوى الحب. ولكن الخارطة ليست على خطأ دائماً، وليس التاريخ على خطأ دائماً. لماذا اجتمع الأنبياء والفقراء والغزاة على حبه حتى درجة القتل؟ إن الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الأبيض المتوسط مع خاصرة الكرمل تنتهي بولادة بحيرة طبريا. وهناك بحر، سموه البحر الميت

لأنه ينبغي أن يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملّة. ومن شدة ما ازدحم الجليل الأعلى بالغابات، كان لا بد أن تبرهن القدس على أن الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة. هذا هو وطني. ولم يكن والد صديقي المقيم في بيروت يبالغ حين شمَّ تفتّح أزهار الليمون في بيارات يافا في موعدها.. ومات.

ـ هو الفردوس المفقود؟

□ احذر هذا المصطلح. لأن القناعة به تسليم بحالة قانونية ووجودية بلغت حدّ النهاية. الفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلق وبين الفردوس المفقود بالمعنى الفلسطيني هو خلو حالة الحنين والانتماء النفسي والشرعي من منطقة إلصراع. ما دام الصراع قائماً، فإن الفردوس لا يكون مفقوداً، بل يكون محتلاً وقابلاً للاستعادة. لا أعني الارتكاز على مفهوم خسارة المعركة، وعدم خسارة الحرب الذي ينطوي على دفاع عن النفس أمام خسارة المعركة. ولكني أعني أنه ليس بوسع الفلسطيني أن يعامل وطنه بهذا المفهوم، كما يعامل العرب الأندلس، وكما ينتظر المؤمنون الجائزة. إن بين فلسطين والأندلس فرقاً يشبه الموت. وأن بعض السياح الثوريين ممن ينظرون إلى المسألة من زاوية التشابه حسن النيّة وسيىء النتيجة ينطلقون من موقع الجمالية الشكلية وضبط التضامن. إنهم سيبكون أكثر منك لو سلمت بهذا التشابه وحاصرت حقوقك ووجودك بسياج الحنين الملهم. ولكن حين يلجأ الحنين إلى البندقية تعبيراً عن بعد المسافة بين فلسطين والأندلس، فستجد هؤلاء السياح المغرمين ببكائيات الشعوب القديمة يحتجون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي. إن فكرة الفردوس المفقود تغري المفتقرين إلى موضوع مؤثر ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية

بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة، لأنه يشبهها ولأنه ممكن.

ـ ألم تقف، يوماً، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة؟

□ قبل هذا، لا تملك الطفولة دعوى في المكان. ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائماً وطنك، إلّا إذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية. إذا كانت الولادة فردية واصطناعية، فإن المكان يكون صدفة. وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود ويسرائيل في مكان واحد الآن. أن يتناسل غزاة في أرض الآخرين لا يؤلف حقاً وطنياً لهم. ولكن أن يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها. والحيلولة القسرية دون تكامل هذا الوضع الآن، بسبب النفي، لا تغير شيئاً حاسماً في تركيب الأشياء. أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم إلّا إذا كان نتيجة زواج الشعب والأرض والحق. الولادة المعادية تتم الآن نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة. ومن هنا، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة.

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة. وقد ساعدني على عدم الاقتراب من الإحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجْداني، لأن رحيلي لم يكن اختيارياً. لم يكن سفراً. كان نفياً وطرداً. ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها ومقاومتها من داخلها بل في العودة إلى جذوري.. التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني إليها. نحن الآن في سن أكبر،

وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني إلى ظروف المنفى الداخلية وحدها، فذلك يشكل انتصاراً لأسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم أن يوقع بين الجرحى وإدارة المستشفى. لا أقول هذا لأشيد بحسن الإدارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة يجب ألا يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا.

لم تكن قادراً على لجم الغضب حين كان أترابك في المنفى ينبهونك إلى أنك فلسطيني، وليس من حقك أن تتفوق في الدروس. كانت تلك الإهانات أول مفاتيح وعيك بحالة ستسيطر على كيانك بعد بضع سنوات، تفهم عندها أن قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة. ولكنك في السن المبكرة إياها تلمست، بشكل غريزي، أن خلاصك من الإهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الإهانة. وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري ــ لا الصدفي ــ بعالمك الأول. فتحولت قريتك الغامضة ذات الأزقة الضيّقة الواقفة على مرتفع صغير في سهل عكا، إلى حلّ لمشكلة لا تفهمها. ومن هنا، صارت أشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها، أسلحة تبرهن بها على تشابهك العادي مع الآخرين، وأدلة على امتلاكك لشروط إنسانية لا تشكل سبباً لتعرضك إلى الإهانة. وكان إحساسك بهذا البرهان يلتهب، بشكل خاص، في أيام الأعياد. كان الأطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد. وكنت تقف مع أبيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس لا تعرف مصدره.

ـــ متى حدث ذلك؟

□ في عام ١٩٤٩. بعد عام على الرحيل.

ـــ ولماذا لم يحدث في عام ١٩٤٨.. في عام الرحيل؟

□ آه. كنا سياحاً يومها. كان جدي يحمل كيساً كبيراً من النقود، وينزهنا في لبنان. يأخذنا إلى كروم التفاح لنختار الفاكهة المعلّقة على الشجر، ويأخذنا، كل أسبوع، إلى بيروت التي كانت أول مدينة أراها بعد عكا. لم تكن هجرة.. كانت سفراً ونزهة. كنا ننتظر انتصار الجيوش العربية على الغزاة خلال أسابيع ونعود بعدها إلى البروة. لم نسكن مخيماً، مررنا في رميش، ثم بتنا ليلة في بنت جبيل التي ازدحمت بصراخ المنفيين وكانت حظيرة بشرية. كانت الليلة الثانية التي نبيتها خارج البيت. الليلة الأولى كانت في أحد مضارب البدو في الجليل حيث أكل عشرات من «الضيوف» بيضاً مقلياً من إناء واحد. وفي جزين ـــ حيث أقمنا ـــ رأيت السواقي التي تسكن البيوت، ورأيت الشلال. وحين اشتد البرد هناك انتقلنا إلى الدامور وعبرنا كروم الموز، ولعبنا على الشاطىء، وسبحنا في البحر. عبرت الشارع الواسع يوماً قبل أخي الذي لحق بي، فضربته سيارة لم تصبه بجروح ولكنها أصابته بذهول لم ينج منه إلّا بعد سنين. وكان جدي قارئاً جيداً للصحف التي وعدته بالعودة القريبة. وكنا نتحلق حوله وهو يقرأ الأخبار بنبرة عالية ونظارة نازلة. وكانت الجريدة تنقله من حزم الأمتعة إلى التريث قليلاً ومن ثم إلى الانتظار، حتى لاحظنا وهناً بطيئاً يزحف إلى نبرته التي أخذت بالانخفاض ونظارته التي أخذت بالارتفاع إلى مكانها الطبيعي. وفي ليالي الشتاء كان

إخوان الغربة والسمر يتبادلون الرأي حول المعارك الدائرة على أرض فلسطين، وقرأوا عن سقوط البروة.

ـ ألم تسقط من قبل؟

□ سقطت ليلة واحدة، ثم حرّرها أصحابها الفلاحون بأسلحتهم البدائية وبمساعدة من القرى المجاورة. وفور تحريرها استعدوا لجمع الحصاد الذي كان ينتظرهم على البيادر. ولكن جيش الإنقاذ استولى على القرية، بعد تحريرها، ولا نعرف كيف استلمها اليهود بعد ذلك.

بعد عشرين سنة، وبعد سقوط مدن عربية كثيرة لم تعجب آرائي التي عبّرت عنها بلغة عبرية لصديقي، رجلاً كان يجلس في المطعم، فانبرى للدفاع عن الظلم الإسرائيلي بذريعة ظنّها مفحمة. قال لي إنك لا تعرف العرب ولو كنت تعرفهم لما تكلمت عن العدل بهذه اللهجة. طلبت منه أن يزيدني علماً، فقطّب حاجبيه وسألني إن كنت قد سمعت بقرية اسمها البروة، قلت: لا، فأين هي؟ قال: لن تجدها على سطح الأرض، فقد نسفناها ومشطنا أرضها من الحجارة ثم حرثناها وأخفيناها تحت الأشجار. قلت: لإخفاء الجريمة؟ احتجَّ مصححاً: بل لإخفاء جريمتها تلك الملعونة. قلت: وما جريمتها؟ فقال: لقد قاومتنا.. حاربتنا. كلّفتنا خسائر كثيرة واضطررنا إلى احتلالها مرتين. في المرة الأولى، كنا نتناول طعام العشاء، وكان الشاي ساخناً، ففاجأنا الفلاحون واستردوها منا. كيف نقبل هذه الإهانة؟ أنت لا تعرف العرب وها أنذا أقول لك.

حين أخبرته أنني عربي وأنها قريتي حاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام. ثم دعاني لزيارة دكانه الذي يعرض فيه للمزاد العلني الأمتعة والأدوات المنزلية المسروقة من مدينة القنيطرة.

بعد أيام، كانت مستوطنتان يهوديتان تحتفلان باليوبيل الفضي لنشوئهما على أراضي البروة. وكنت أتحدث في مؤتمر صحافي عن الظلم اللاحق بالعرب، فتصدى لي مراسل صحيفة «الاستيطان». لوحّت له بنبأ الاحتفال، فحاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام.

هكذا هم.. يرتكبون الجريمة وينفونها. وحين تواجههم الضحية ينحرفون بالكلام إلى السلام.

«وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا فيها. ومدناً لم تبنوها، فأقمتم بها، وكروماً وزيتوناً لم تغرسوها، وأنتم تأكلونها».

ـ وهل حدث أن زرتها بعد ذلك؟

□ حين أدرك جدي أن وجودنا في لبنان ليس سفراً ولا نزهة، وأن الحرب انتهت بسقوط كل شيء، وأدرك أن الكروم التي غرسها يأكلها اليهود، وهي تتحول في يده إلى بطاقة الإغاثة، بدأ يشعر أن الخروج خطأ. صار يعي الغربة والنفي، فلجأ إلى استرداد الآمال المعلّقة على الجبوش بضرورة استرداد انتمائه الواقعي إلى أرضه بحضور عملي. هذه الصدمة التي خلقتها خيبة الاعتماد على سلاح يحمله آخرون ـ وأنت أعزل إلّا من الحق، خلقت «وعي التسلل» إلى الأرض المحتلة مهما كان الثمن والنتيجة، من أجل تحقيق الحضور والتخلص من الإهانة. تسللنا في الليل الوعر

تحت خطر الموت. لم نذهب سوية خوفاً من تفكك العائلة في حالة تعرض قافلة المتسللين إلى الخطر. التقينا بعد ليلتين من الزحف المضني في قرية هناك. ها نحن مرة أخرى في فلسطين. هذه هي العودة. لم نعرف أننا سنستبدل اللجوء في لبنان باللجوء في الوطن. ولم نعرف أن حضورنا الجسدي في الوطن هو غياب في القانون الذي وضعه الغزاة بسرعة بالغة . سمونا «الحاضرين الغائبين»، كي لا يكون لنا حق في شيء. ولكننا عرفنا أن آلافاً من العائدين كانوا يوضعون ــ فور إلقاء القبض عليهم ــ في شاحنات عسكرية ويقذف بهم إلى الحدود كما تقذف البضائع الفاسدة. وكنا نعرف أن مئات منهم قتلت بالرصاص كي تكف عن محاولة التفكير بالعودة. وعرفنا أن زوج خالتي ــ مثلاً ــ تسلل من لبنان منذ ذلك الحين ولم يصل حتى الآن. أيهما أكثر إيلاماً: أن تكون لاجئاً في أرض سواك أم أن تكون لاجئاً في أرضك! هذا سؤال يطرحه على الدوام القهر النفسي الذي يخلقه الواقع الإسرائيلي حين يرى المواطن العربي المحراث الإسرائيلي وهو يغوص في ترابه وجسده، لاستخراج الحنطة والعنب من أجل القادمين من كل أنحاء العالم، وهو يمنع من مجرد الحج إلى أرضه، هل يكون التراب قدسياً إلى هذا الحدّ؟ بالنسبة للفلسطيني نعم. تحاط القرى بسياج من الأنظمة العسكرية يكلف اختراقها سجناً وغرامة. والقرى التي عوقبت بالهدم ــ وهي عشرات ـ- إما بسبب خصوبة أرضها وإما بسبب مقاومتها السيف الطالع من التوراة ــ يمنع أصحابها من الاقتراب منها مهما طرأت تغييرات على سياج الأمن الإسرائيلي. من هنا، كان الوصول إلى القرية مستحيلاً. اكتشفنا أن العودة لم تكن حلاً لمسألة معيشية ولا حلاً لاغتراب نفسي. ولكنها كانت تعميقاً للحضور الذاتي وبديلاً للنفي الاختياري

ومجازفة في الاقتراب من أصول الحق والهوية. هذه هويتي وما أشد اغترابي. ولكن اغترابي هنا إيجابي لأن مصدره خارج عن إرادتي ولأنني حاضر. والحرقة التي تشحن علاقتي بالتربة المقدسة الممنوعة تتحول إلى طاقة للرفض. وعلى الطريق من دير الأسد إلى عكا تقف البروة على الهضبة إياها. لم تدلني عليها اللائحة التي تحمل اسماً آخر. دلّتني عليها شجرة الخروب الضخمة التي بدأت منها البحث عن أمي قبل سنين. ودلّتني عليها حبات قلبي التي اكتنزت بالمطر والحنين. ليس المكان مساحة فحسب. إنه حالة نفسية أيضاً. ولا الشجر شجر. إنه أضلاع الطفولة. كان البكاء ينهمر من أطراف أصابعي أيضاً. ومرّت سيارة الباص بسرعة. وعند العودة تجددت أحزان طفولتي. هذا الحلم الواقف أمامي، لماذا لا أرتديه مرة لأقول وصلت إلى اللذة القاتلة؟! إن الجنود يحرسون الحلم، وسأدخله حين ينامون؟

ــ وهل ناموا.. ودخلت؟

□ حدث ذلك في وقت لاحق. لم يعد البكاء لائقاً بمن هم في مثل سني. كنت أختبر قدرتي على مواجهة الطفل الذي تركته هنا في السابعة من العمر. صار الشوك أطول مني ومنه فضعنا معاً. لم نعد نعرف أيّنا سيعثر على الآخر. ولكنني لم أر، من قبل، عصافير بمثل هذه الألوان الخضراء والزرقاء. جرحتني شوكة حادة، ففرحت لأنها نقطة الوصول. كنت غارقاً في الإحساس بالحج، ولكن لم أجد الكعبة. من أعطى الأرض هذه الوحشية إلّا الهجر؟ كبرت أشجار الصبّار التي رمى الإنكليز أبي فيها وقطعوها عليه بالفؤوس، فأخرج الطبيب من جلده مائة شوكة غير التي اختفت في اللحم. من أكثر حظاً يا أبي؟ ذاك الذي أكل الشوك وواصل تربية

الأرض، أم ذاك الذي جاء إلى الأرض فلم يجد إلّا الشوك؟ وهذا الراعي الصغير الذي أدهشته تحيتي: من أين أنت؟ من اليمن؟ أخبرته أنني من هذه القرية، فظنني رومانياً لأنه يعتقد أن هذه الأطلال آثار قرية رومانية.

«وإذا رحلنا إلى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعوّدين عليه، مثل الأفاعي الكبيرة، سأستخدم أهل البلاد ــ قبل أن أعطيهم أعمالاً في البلدان المجاورة ــ ليقضوا على مثل هذه الحيوانات وسأعطي جوائز كبيرة لمن يأتي بجلد الأفاعي وبيضها» هكذا قال هرتسل.. ولعل هذا الراعي القادم من اليمن يحسبني أبحث عن أفعى.

واصلت طريق الشوك والحجارة القديمة بحثاً عن الطفل الذي تركته هنا. لم أجد شجرة التوت التي كان يتسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها. لا شيء.. لا شيء إلّا هيكل كنيسة ضاع منها الجرس. دخلت الكنيسة، فكانت الأبقار تجترني بكسل. ما عاد بوسعي أن أرضى بالأطلال تجسيداً للحلم، لأن انتمائي لم يعد غريزياً.. صار أكثر وعياً، وصار مضمون الحلم ــ لا انفجاره ــ هو قضيتي.

ــ لم تقل لي لماذا خرجتم. لماذا لم تصلوا إلى هذه القناعات إلّا بعد هذه الخسارة؟

□ أبي يقول إنهم لم يفهموا ماذا يحدث. كانت معركة عابرة مضمونة النتيجة كما تصوروا. كان الخروج من القرى تخليصاً للجسد من الموت دون أن يقابله معنى التنازل عن الأرض. لم

تكن فكرة الوطن تحتاج ــ على ما يبدو ــ إلى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط. لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين، ولم تكن الدعوة إلى البقاء ــ على ما يبدو ــ جزءاً من المعركة لأنها لم تكن محددة القوى والأبعاد، هل يعني ذلك أن الحسّ الوطني كان رديئاً؟ كلاّ. بدليل أن الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء أنفسهم وبدوافع وطنية خالصة. ولكن التنظيم كان هو الرديء. وكان الانطباع الشائع ــ أو الخديعة إذا شئت ــ يقول أن الخروج مؤقت، لأيام معدودة. فلماذا يموت الأطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني إذا كان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معاً؟ إن الإسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حسّ الانتماء إلى الوطن والافتقار إلى الجدارة بوطن تخلوا عنه بسهولة. والإسرائيليون لا يخدعون إلّا أنفسهم حين يصدقون ادعاءهم، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت ببنادقهم وخناجرهم التي أضافت سبباً قوياً لدفع العرب إلى الخروج. ووضعوا أمامهم الاختيار التالي: إما الموت، وإما النزوح لعدة أيام. وإن تفريغ فلسطين من العرب لم يكن إجراء طارئاً استدعته ظروف، بل كان خطة ثابتة في استراتيجية العمل الصهيوني قبل إنشاء إسرائيل، وخلال الحرب، وبعدها. وقد نفّذوها بالعنف المسلّح، ووجدوا فتوى دينية في مثال يهوشع بن نون وفي أن «يوم الرب هو يوم إرهاب» ووجدوا فتوى سياسية لها في أمثلة تطبيقاتهم. ومناحيم بيغن هو الذي قال: «لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة إسرائيل». ولم يخفوا الغاية من مذبحة دير ياسين، وقتها، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي: إما أن تخرجوا وإما أن يحدث لكم ما حدث في دير ياسين. وفي كل القرى التي احتلوها، فيما بعد، كانوا يجمعون

السكان في الساحة ويبقونهم ساعات تحت الشمس، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم أمام الاختيار ولكي تصل أنباء المجزرة إلى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا أحقادهم التاريخية المكبوتة. ووجد الإسرائيليون أيضاً فتوى قانونية تقول أن العرب باعوا أراضيهم. ومن المؤسف أن تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه الكذبة الإسرائيلية، دون أن يحاول أصحاب هذه القناعات معرفة أن اليهود لم يملكوا حتى عام ١٩٤٨ أكثر من ٦ بالمائة من مجموع أراضي فلسطين.

ــ وأنتم .. فاذا فعلتم بأرضكم؟

□ اسأل عما فعلت بنا الأرض؟ قتلت جدي من القهر والانتظار. وشيبت أبي من الكدح والبؤس. وأخذتني إلى الوعي المبكر بالظلم. كان جدي ملاكاً موفور الحال. وحين حدث ما حدث، وصار هو «حاضراً غائباً» كان يقضي أيامه أمام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر إلى مدينة عكا لا لشيء إلّا ليرى أرضه من خلال نافذة سيارة الباص. يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات.. وينتظر. هو الذي رباني وكنت أحبه أكثر من أبي الذي كان مشغولاً بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر. علّمني جدي القراءة ومساحة الأرض وأعمار الزيتون. وكان يشتري لي كتباً من عكا ويأخذني إلى أصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم، ولا يخطىء إلّا في قراءة سورة يس. يقرأ لهم من سيرة عنترة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية إلى أن ينام. وفي الصباح أذهب إلى المدرسة التي لا تسجل اسمي لأن أبي غير مسجل في ملفات الحكومة. من ذهب إلى لبنان وعاد بعد عام أو

عامين لا يعود مواطناً. ومن جاء من وارسو بعد ألفي سنة يملك الحق والوطن!

وفي ساعة متأخرة من الليل يدق ضابط الشرطة باب البيت الطيني بعصاه، ويوقظ الأسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والأبناء الأربعة ــ وكلهم مكدس في غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبخ. يتوجه الضابط إلى الجدّ ليسأله: هل عاد أبناؤك من لبنان؟ يعترف الجد «بالجريمة»، ويسوق الضابط الأب والعم إلى الاعتقال بتهمة التسلل إلى بلادهما!

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الأمل، فانتقل إلى قرية أخرى قريبة من أرضه. وذات صيف احتال على القانون، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه. وهكذا أتيحت الفرصة لصاحب الأرض أن يشتري ما تنتجه أرضه. وكان جدي قليل الدراية بالتجارة، فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم. وشرح لي، تحت الشمس، تاريخ هذا التراب الذي لا تجد فرقاً بسيطاً بينه وبين جلده. كان تعلق جدي بشكل الانتماء الوطني المتجسد في ملكية التراب وحنينه إلى إعادة الصلة المقطوعة، قانونياً، والمتلاحمة، تاريخياً ووجدانياً، أقوى من البؤس المفاجىء الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقه. فلو كان انتماؤه معيشياً لحل المشكلة بفك هذا الانتماء الذي سيضمن له الرخاء. ولكنه آثر الحرمان على بيع الأرض، لم تعد الأرض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل أن تتحول إلى شرط الكرامة. صارت تعني له الآن، بعد مصادرتها، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى. وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من ساحة الجريمة

والعذاب «لن أبيعهم أرضي حتى لو مت جوعاً»، وقد أورث هذا المعنى لأبي الذي كان امتحانه أقصى وأعنف. إنه يعيل أسرة من ثمانية أفراد تسكن بيتاً من الطين لا يصلح حظيرة لحيوان مدلل. ولا مصدر رزق للأسرة الكبيرة التي تطالب بالأكل والثياب والدواء والكتب غير انتحاره البطيء على مقالع الحجارة، يصحو في الخامسة صباحاً ويعود في الخامسة مساء إلى النوم ليصحو قادراً على مواصلة العذاب اليومي. كان المقلع بعيداً في منطقة سموها منطقة مناورات عسكرية، وكان الوصول إليها يقتضي التوقيع على وثيقة الموت التي تحمل تنازل حاملها عن حياته وإهداءها إلى دولة إسرائيل في حالة تعرضه للموت.

نصحوه ببيع أرضه ليخفف من عبء لا يحتمله «لن أبيع ولو مت بين الصخور». كان يقول دائماً: ليس العمل الأسود عيباً ولكن الضمير الأسود هو العيب. كنت في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية حين ألقيت قصيدتي الأولى على جمهور كبير جمعه أعوان الحكم العسكري للاحتفال بذكرى قيام إسرائيل. قلت كلاماً ضد الحكومة والانتصار وضد الظلم والاستعمار، فجنّ جنون مختار القرية المسؤول عن الاحتفال وقال: هذا الصبي جاء ليخرب بيتنا بعدما خرب بيته وبيت أهله. لماذا لا يراعون أصول الضيافة..؟ وغيره من الكلام الذي نسمعه الآن. وفي اليوم التالي استدعاني الحاكم العسكري واسمه دوف، فوبّخني وضربني فما بكيت. وحين قال لي: سأمنع أباك من العمل في مقلع الحجارة وأقطع عنه تصريح الموت، بكيت في طريق العودة إلى البيت، لأن هذا معناه أن أزداد جوعاً وبرداً، وألّا أنتقل إلى المدرسة الثانوية ذات التكاليف الباهظة، فليس التعليم مجانياً كما يظن البعض. وفي البيت شجّعني أبي وقال الله يرزقنا. كان أبي بطل الصبر والأمل ولم يزل.

وكانت عين الماء شحيحة في القرية وما عندنا مال لاستئجار بئر. واللاجئون ملعونون في بلادهم وخارج بلادهم. لا يعطينا أحد ماء بالمجان إلّا السماء أيام الشتاء. فكانت أمي تقضي نصف نهارها في انتظار امتلاء الجرة من عين الماء التي تعطي قطرات بخيلة. كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت. وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة وبلا انقطاع وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين إلى أشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية. لم تذهب يوماً إلى أعراس القرية ولكنها أول من يذهب إلى جنازة في القرية والقرى المجاورة. عاجزة عن الفرح قادرة على البكاء. وبارعة في السخرية.

وكان عمي ينفّذ وعد هرتسل، فيعمل أجيراً عند سكان المستوطنة التي قامت على أرضه وأرض أبيه، في أعمال البناء والترميم والفلاحة وغيرها من الأعمال السوداء «التي لم يتعود عليها اليهود» ولا يحصل على جائزة لأنه لم يحمل لهم جلد الأفاعي وبيضها، ولكنه كان يسرق عنقوداً من العنب من الدالية التي غرسها وصارت ملك اليهود. وفي المساء يجمع أهل البيت ليوزع العنقود حبة.. حبة.

هكذا، آثروا جميعاً، بالفطرة والكرامة، أن يبقوا في وضع خانق طال توقيته، لأنه يحفظ لهم الحق في سعة العالم والغد، على أن يستريحوا قليلاً مقابل التنازل عن قطعة أرض تفقدهم عالمهم الذي ليس لهم.. وليس لأعدائهم، ولكنه لأبنائهم.

ــ وماذا أخذتَ عنهم؟

□ المعاني ذاتها ولكن في إطار مختلف. كان انتظارهم سلبياً، وكانت الأرض تعني لهم تفاصيل من التراب والكروم وملكية تصون الكرامة والعيش. أما بالنسبة لأبناء جيلي فإنها تعني ــ بالإضافة إلى ذلك ــ ساحة صراع ومستقبل. فالحنين طاقة إنسانية غير متحركة. إنه سلاح سلبي. وقد أخذ الصراع أشكالاً متدرجة أولها الرفض والإيمان بالقدرة على التغيير، ثم الصراع ضد القوى والظروف التي جعلت مواطناً بلا وطن، في إطار عمل جماعي لا يحاصر نفسه بالذكريات، بل يطلقها باستشراف حياة أخرى عن طريق الممارسة اليومية. الانتماء إلى الأرض ــ الوطن لا يحقق فعالية إلّا إذا ارتبط بانتماء إلى قوة من قوى الصراع. هكذا أدركنا في جيل مبكر.

ــ كان هذا ممكناً؟

□ في إطار الاختيارات المحدودة.

ــ من أين كان يأتي الأمل؟

□ من الخارج.. من الخارج دائماً، إن الأسرى يصارعون ضمن إمكاناتهم. ولكن تحطيم السجن كلياً لا يأتي إلّا من النافذة: وكانت النافذة أوسع في البداية، لأن الأخوة كانوا أقرب.

ــ من أين يأتيك الحزن؟

□ من مسام جلدي.

ــ ومن أين يأتيك الفرح؟

□ من بكاء الأطفال القادمين إلى الجحيم، ومن أحذية المقاتلين الذاهبين إلى الجنة.

ــ تذكر متى افترقنا؟

□ حين مات جدنا ولم يدفن في قبر اختاره. ولم تخجل الإذاعة.

ــ ولماذا تذهب إلى العالم دائماً؟

□ أنا لا أذهب إلى العالم. ولكن العالم هو الذي يأتي إليَّ دائماً.. ويحاصرني.

ــ متى نلتقي ثانية؟

□ حين تدق جدار صدري وتقفز منه لتجلس في مواجهتي كعادتك. ولكن لا تكثر من زياراتك.. أرجوك. لا ينقصني حزن وبراءة.

ــ تقتلني؟

□ حين يقتل الإنسان طفولته ينتحر. وأنا بحاجة إليك كشهادة على جيل. لا تأتِ كثيراً لأن البشاعة تملأ المدن. وأصدقائي يموتون كثيراً هذه الأيام.

ــ لا تنسني.

وعاد إلى صدري ليتسلق جذع شجرة التوت في ساحة البيت القديم، ويقطف القمر الذي لم يسقط في البئر.

الوَطن... بين الذاكرة والحقبة

١

□ ما هو الوطن؟

الخريطة ليست إجابة. وشهادة الميلاد صارت تختلف. لم يواجه أحد هذا السؤال كما تواجهه أنت. منذ الآن وإلى أن تموت، أو تتوب، أو تخون. قناعتك لا تكفي، لأنها لا تغير ولا تفجّر ولأن التيه كبير. ليست الصحراء أكبر من الزنزانة دائماً. وما هو الوطن؟ ليس سؤالاً تجيب عنه وتمضي. حياتك وقضيتك معاً. وقبل ذلك وبعد ذلك ـــ هو هويتك. من أبسط الأمور أن تقول: وطني.. حيث ولدت. وقد عدت إلى مكان ولادتك ولم تجد شيئاً. فماذا يعني ذلك؟ ومن أبسط الأمور أن تقول أيضاً: وطني.. حيث أموت. ولكنك قد تموت في أي مكان، وقد تموت على حدود مكانين. فماذا يعني ذلك؟ وبعد قليل.. سيصبح السؤال أصعب.

لماذا هاجرت.. لماذا هاجرت؟ منذ عشرين عاماً وأنت تسأل: لماذا هاجروا؟ ليست الهجرة إلغاء للوطن. ولكنها تحويل المسألة إلى سؤال. لا تؤرخ الآن. حين تفعل ذلك تخرج من الماضي. والمطلوب هو أن تحاسب الماضي. لا تؤرخ إلّا جراحك. لا تؤرخ إلّا غربتك. أنت هنا.. هنا. حيث ولدت، وحيث يأخذك الشوق إلى الموت. وما هو الوطن؟ ولكنك جزء من كل، والكل غائب، ومعروض للإبادة. ولماذا صرت تخشى القول: إن الوطن هو المكان الذي عاش فيه أجدادي؟ لأنك ترفض ذريعة أعدائك. هكذا يقولون.

ـ ماذا تعلمت في المدرسة؟

□ «سلام على العصفور العائد من بلاد الشمس إلى نافذتي في المنفى. أخبرني أيها العصفور عن حال أهلي وأجدادي».

ـ والأغنية السابقة؟

□ ألغوها.

ـ ماذا كانت تقول الأغنية التي ألغوها؟

□ عليك مني السلام.

يا أرض أجدادي

ففيك طاب المقام

وطاب إنشادي.

لا فارق كبير بين الأغنيتين، غير الفارق بين الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب. كلتا الأغنيتين تعلن الحب للأرض ذاتها. وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالانتماء إلى الأجداد. الأولى ــ لشاعر يهودي عاش في روسيا. والثانية ــ لشاعر عربي عاش في فلسطين وما رأى المنفى وما سمع به. بعد قليل، تغلبت الأغنية الأولى على الثانية، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد. وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم. وصار طريقهم إلى المستقبل مرهوناً بإتقان أغاني الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا. والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة إسرائيل وبتهمة اللاسامية. ثم كبرنا قليلاً، فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة، ولم نأخذ من المتنبي إلّا «فيك الخصام وأنتَ الخصم والحكم».

هم الخصوم والحكام..

وهم الذين يحددون لنا «ما هو الوطن»:

«تخرج مع موسى من مصر هارباً. تضرب البحر بعصا. ينشقّ البحر. يمر بنو إسرائيل، ثم يلتهم البحر أعداءهم. تبقى في صحراء سيناء أربعين عاماً. تتصالح مع الرب. وتعود..».

هم الخصوم والحكام.

وهم الذين يحددون لنا «ما هو الوطن»:

«جلس تيودور هرتسل وفكّر بمصير شعبه المضطهد. ألّف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد إلى أرض الخلاص الوحيد.. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي إلّا بالعودة إلى وطن الأجداد.. إلى فلسطين».

وحين تسأل المدرس عن مصير الشعب العربي الفلسطيني وعن وطنه، يهمس في أذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسية التاريخ. ولكن، حين يكون المدرس يهودياً يترجم لك ما قاله حاييم وايزمن في مجلس السلام في باريس عام ١٩١٩: «إن أرض إسرائيل يجب أن تكون يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية». وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينيين يطمئنك إلى أن وايزمن قد أضاف: «أن الصهيونيين لن يدخلوا أرض إسرائيل كالغزاة. لن يطردوا أحداً».

لن يطردوا أحداً...

٢

لا تسأل أستاذ التاريخ. لقمة عيشه يأخذها من الأكاذيب. وكلما ابتعد التاريخ، عادة، كلما اقتربت الكذبة من البراءة، وقلّ أذاها. وأستاذ التاريخ هذا يعرفك جيداً. على بعد خمس دقائق من المدرسة يخرج شارع من عكا إلى الشرق في اتجاه صفد. وفور خروجك من عكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضر. على هذه الرابية، ولدت قبل قليل. ما زالت طفولتك قريبة من كل شيء.. من الرابية ومن السهل ومن الشارع الأسود ومن طلقات الرصاص الأولى. لولا القمر، ليلتها، لفقدوك

إلى الأبد، واستبدلوك بشيء آخر، كما فعلت أم من حيفا ليلة غاب القمر. هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئاً حسبته طفلها وقفزت إلى أقرب زورق. في البحر الذاهب إلى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة ومن يومها، أصيبت بالجنون. كم طفل تحول إلى وسادة. وكم وسادة تحولت إلى طفل. وما هو الوطن؟ وطن الأم طفلها ووطن الطفل أمه. «والفلسطينيون باعوا أراضيهم وهاجروا» ـــ هكذا يقول الأصدقاء والأعداء على السواء. الموت ليس استشهاداً حين يكون بالمجان. ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الآن. أن تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديداً صحيحاً لمفهوم الوطن. ليست هذه حرباً ولا كفاحاً هذه مجزرة. والذين يقولون الآن أن الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة. وكانوا يعتبرون الحرب نزهة والرحيل رحلة.

وليلتها، لم تفهم شيئاً، سألت أباك، فنهاك عن السؤال لأنك صغير، وضعوك في قرية مجاورة. وذهبوا. وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهم لم يطردوا أحداً. وفي جنوب لبنان تصبح لاجئاً تأكل من وكالة الغوث، وتنتظر العودة. وفي جنوب لبنان تعرف، للمرة الأولى، ما هو الوطن. هو هذا الشيء الضائع. هو هذه العودة المنتظرة. وحين تعود بعد عام أو عامين إلى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعاً.

لا تخبر أحداً أنك كنت في لبنان.

أين كنت إذن؟

في مضارب البدو شمال فلسطين.

بعد قليل، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة. اسمها إسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه.

ــ وماذا لو قلت إني جئت من لبنان.

ــ لأنك عدت متسللاً والدنيا تغيّرت. لن نحصل على بطاقة هوية. في كل أسبوع جنازة في القرية. الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبرد والرصاص. وأستاذ التاريخ يقول لك إن اليهود لن يطردوا أحداً... وحين تسأله: كيف تكون إسرائيل يهودية كما تكون إنكلترا إنكليزية دون أن يطردوا العرب، ينهاك عن الأسئلة ويقول لك: التاريخ تاريخ، والسياسة سياسة. وعلى بعد خمس دقائق من هذه القرية، يخرج شارع من عكا إلى صفد. هذا الشارع، بالنسبة إليك، ليس طريقاً ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك. الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جاءوا من اليمن. في اللحظة التي وصلوا فيها إلى أرضك حددوا مصيرهم ومصير أبنائهم. وفي الوقت ذاته حددوا مصيرك. في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئاً. إذا وطئت قدماك هذه الأرض ــ أرضك ساقوك إلى المحكمة، ومن المحكمة إلى المنفى. وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حيناً وبالخيال آخر. وهنا، تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن؟ هو الشوق إلى الموت من أجل أن تعيد الحق والأرض. ليس الوطن أرضاً. ولكنه الأرض والحق معاً. الحق معك، والأرض معهم. وحين امتلكوا الأرض بالقوة صاروا يتحدثون في الحق

المكتسب. كان «حقهم» تاريخاً وذكريات. وصار أرضاً وقوة. وأنت بلا قوة ـــ فقدت التاريخ والأرض والحق.

٣

«اسمع.. يأتي المهاجرون، ويأخذون هذه الأرض، وتصير جميلة.

«نفتح حانوتاً، ونبني مدرسة، وكنيساً. وستكون هنا أحزاب، وسنتناقش حول عدة أمور. سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها. وتحيا خزعة العبرية! ومن سيتصور أن خربة خزعة كانت هنا. طردناهم وورثناهم. جئنا، أطلقنا النار، حرقنا، نسفنا، ونفينا».

ليس هذا كلاماً عربياً. إنها صرخة ضمير نادرة أطلقها أديب إسرائيلي قبل أكثر من عشرين سنة، تعطي تحديداً دقيقاً لحقيقة مفهوم الوطن. ترد على التاريخ وعلى أستاذ التاريخ. هكذا قام «الوطن» الإسرائيلي: لا بالحق، ولا بالتاريخ، ولا بالهرب من الاضطهاد. بالعنف وحده: طردناهم وورثناهم. أحرقنا ونسفنا ونفيناهم. ولكن الصرخة نادرة وسط ضجيج الدعاية والأكاذيب. وحين تسير، معهم، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون. ولكنهم يختتمون المناقشة بهذا التقرير الدائم: لا مفر. وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء إلى حق يعتاد عليه الناس.

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد. فلسطين كلها ترجمت على هذا النحو، إن الإسرائيلي يسكن بيتاً مسكوناً بالأشباح، ولكن انصرافه إلى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صدّ كل ما يعيق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميره من التساؤل عن فظاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته. ومع مرور الأيام، تنكمش صورة

العربي وتذوب. كانت عبئاً على الضمير، ثم تحولت إلى ديكور طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من إبادته، ولا حق لها بالوطن.. لا حق على الإطلاق.

خلال حرب حزيران/ يونيو، فوجىء كثير من الجنود الإسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة. وبأنهم يتذكرون وطناً ضاع. وأكثر ما فاجأهم هو أن الأطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن ما زالوا متعلقين بهذا الوطن. وروى جندي إسرائيلي أنه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد أن السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة. إنهم موزعون وفقاً لما كانوا عليه. القرية ذاتها والشارع ذاته. وقد اهتاج الجندي.

لماذا؟

ــ كنت عاجزاً عن الفهم. لقد مرّت تسع عشرة سنة وما زالوا يقولون: نحن من بئر السبع!

وقال لي جندي شاعر إنه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوماً واحداً في حياته إلّا حين دخل إحدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الأخيرة. كان في الزيّ العسكري. ورأى طفلة في الشارع تنظر إليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال. من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك أنه محتل. لم يخفِ الجندي دهشته من رفض عيون الطفلة. قال: هذه الطفلة.. من أين جاءت بالذاكرة؟ ومن علّمها أن لها وطناً.. من علّمها!

صراع بين ذاكرتين!

الذاكرة اليهودية تشكل إحدى الدعاوى الأساسية لادعاء الحق في

فلسطين. ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الآخرين في التمتع بحاسة الذكريات. والإسرائيلي يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية، ويرفض الاعتراف بهذه الذاكرة. على الرغم من أن أحد شعاراتهم القومية شعار «لن ننسى». ومن قضايا التعليم الإسرائيلي الأساسية والأولى في سلّم الأولويات الصهيونية إبقاء الوعي العام في حالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية، كانوا يقولون دائماً: «لتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم». وبعد الكارثة التي تعرض لها يهود أوروبا على أيدي النازية أصبح الشعار الأساسي عندهم: «لن ننسى.. ولن نغفر». وفي كل عام، يحيي الإسرائيليون ذكرى ضحاياهم. تتعطل كل مرافق الحياة في إسرائيل. وهناك متاحف خاصة وتعليم خاص وبرامج خاصة لتذكير الجيل الجديد بالكارثة. وفي كتاب «الإسرائيليون» لعزريا إيلون فصل خاص عن هذا الموضوع، يقول فيه: «إن إحياء ذكرى الكارثة يُقر، في نظر الجيل الصاعد، إحدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية، وهي أن اليهودي بدون وطن سيبقى حثالة بشرية وفريسة للحيوانات الشريرة». ويعترف الكتاب بأن السياسة الإسرائيلية تستغل الكارثة لأغراض ابتزازية.

إن الثقافة الإسرائيلية تلحّ على إشباع المواطنين بذكريات كارثة أوروبا لتعميق إحساسهم بغربتهم وعزلتهم عن العالم. ويشكل هذا الإحساس عنصراً جوهرياً في بنية النفسية والمزاج الإسرائيليين. ومن هنا، تكون تنمية الذاكرة الإسرائيلية مكرّسة لغرض سياسي محدد: الإلحاح على الإسرائيلي بأنه دائم التعرض للإبادة، وأن العودة إلى «أرض إسرائيل» والصمود فيها هو الأمان التاريخي والسياسي الوحيد، ولتعميق الدعوى الصهيونية على فلسطين.

ليس من واجب اليهودي، وحده، ألّا ينسى مذابح النازية. كل الناس الذين لم تمت ضمائرهم، وكل أصدقاء الحرية يشاركون ضحايا النازية إحياء الذكرى واستخلاص العبرة. وخاصة عندما يتكرر التشابه التاريخي بين النازية وبين حركات عنصرية في عالمنا اليوم. ومهما بلغت درجة العداء الإسرائيلي ــ العربي، فليس من حق أي عربي أن يشعر بأن عدو عدوه صديقه، لأن النازية عدوة كل الشعوب. هذا شيء.

ولكن تمادي إسرائيل في تفريغ أحقادها بشعب آخر.. هو شيء آخر. فالجريمة لا تعوض بالجريمة. وأن يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتكبوها لا يمكن أن يكون تعويضاً عن الكارثة. إن الإسرائيلي يباهي الدنيا بأنه رائد اللجوء والغربة في التاريخ، حتى حوّل هذه الصفة إلى ميزة وامتياز. ولكن من يملك حاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزاً كل العجز عن إدراك هذه الحاسة لدى الآخرين. وليس من القسوة أن نقول إن سلوك الإسرائيليين الصهيونيين ضد شعب فلسطين الأصلي هو تطبيق متشابه للممارسة النازية ضد اليهود أنفسهم. وليس من القسوة أيضاً أن نقول إن سلوك الإسرائيليين والحركة الصهيونية في علاقاتها الدولية يوحي بملاحظة أنها تتاجر بدم الضحايا اليهودية. بالمال والعتاد اللذين تأخذهما ثمناً لضحايا النازية تقتل شعباً آخر. ومن هنا، ليس من القسوة أيضاً القول أن الطريقة التي تحيي بها إسرائيل ذكرى ضحايا النازية تتّسم بالابتزاز، لأن الهدف السياسي من إشباع الإسرائيلي بحسّ الكارثة مكرّس لإشباعه، في الوقت ذاته، بالحاجة إلى الانتقام لا من قاتله.. بل من ضحية أخرى هي الشعب الفلسطيني. إن الصهيوني الوقح لا يخجل من الاعتزاز بأن فقدان ستة ملايين يهودي ــ إذا صحّ الرقم ــ قد أعطاه وطناً!

٤

لا يعترفون بحقك.. ولا يعترفون بذاكرتك

ذهبت إلى مركز الشرطة في الرابعة بعد الظهر. وأعلنت أنك موجود. قال صديقك: تعال إلى مغامرة. إن اقتحام الجمال مغامرة حقاً. إلى الجنوب من حيفا ــ على الشارع المحاذي للبحر الأبيض، تشعل سيجارتك في الريح ولا تطفئها إلّا في جرحك المفتوح. تنحرف السيارة إلى الشمال قليلاً فتجد نفسك في كنز. على المدخل لافتة بالعبرية تقول «هنا عين هود». اسم القرية عين حوض ولكن حرف الضاد يستعصي على الترجمة. يسقط الوطن، ولا يسقط حرف. وما هي عين حوض؟ بيوتٌ عربية باقية من الخارج كما تركها أصحابها. كل بيت يختبىء في غابة ويستقل عن العالم، في واد يحمل ثلاث هضاب وطريقاً صغيراً إلى البحر. السكان الأصليون نقلوا إلى قمة أحد التلال المطلة على جرحهم المفتوح في الوادي. لماذا هذه السادية؟ يرون إلى بيوتهم وسكانها الجدد وإلى أرضهم التريكة ولا يقوون على زيارة العشب والحجارة. وأكثر من ذلك لا يعترفون بذاكرتهم.

لصديقي صديق رسام إسرائيلي يقيم في هذه القرية. أصرَّ على الاحتفاظ بالبيت العربي القديم على حاله. «ديكور جميل يذكرني بالشرق» هكذا قال الرسام الذي روى لنا قصة فراره من النازية. سألناه عن علاقته بالأرض التي يسكنها الآن. فأجاب بأنه يحبها. ذكرناه بأن مجرد حاجته إلى ديكور عربي ليربطه بالشرق يلغي أصالة ارتباطه بهذه الأرض، ويعطيه صفة السائح. قال: ليس لي مفر. ثم دلّنا على التشابه التاريخي بين العرب واليهود. إن صفة

اللجوء تجمع بينهما. والآن، يشترك كل واحد منهما في تشكيل بنية الآخر. قلنا: إن ما يجمعهما هو، في الوقت ذاته، نقطة الصراع بينهما. لقد تخلصت من اللجوء والتشرد لتدفع الطرف الآخر إلى نقطة الدائرة ذاتها. وهكذا تكون المعادلة متناقضة. حين تجد نفسك تلغيني من وجودي، وحين أتمسك بوجودي تتحول العلاقة ما بيني وبينك إلى صراع. لا لأني أعترض على خلاصك وعلى احتمال المشاركة في الوجود، ولكن لأني أعترض على إلغائي الناجم عن الطريقة التي تمارس بها وجودك.

لا تنتهي المناقشة في مثل هذه الحالات، لأن الاعتراف بالحق نفي. فعلى بعد خطوات منا يجلس أهل القرية الأصليون وينظرون.. وليست صهيونية عربية ــ كما يدّعون ــ أن يتمسك العربي بذاكرته عقدين من الزمن. إن طرح الذاكرة الصهيونية في ادعاء الحق هو ضعف إسرائيلي أكثر من كونه ذريعة. فالاحتكام إلى الذاكرة يبطل الدهشة الإسرائيلية الناتجة من تمسك الفلسطيني بذكريات طازجة. إن الذي أباح لنفسه أن يذرف الدموع على ألفي سنة لا يستطيع اتهام من يبكي منذ عشرين سنة فقط بالوقوع في الوهم. واحتكار البكاء ــ إذا جاز التعبير ــ ليس صفة قومية تدعو إلى الاعتزاز. وفي الخامس عشر من أيار/ مايو ــ وفي ساعة محددة في الصباح ــ تنطلق صفارات الإنذار في كل أنحاء إسرائيل لتعلن الوقوف حداداً على الذين سقطوا في «حرب التحرير». السائر يتسمّر أينما كان. والسيارات تقف. والأعمال والماكنات تتوقف إعلاناً عن الحداد الذي يسبق الاحتفالات والفرح. وماذا يفعل العربي؟ يبكي في القلب أو ينفجر من الضغط. إن إعلان ميلاد إسرائيل هو في الوقت ذاته إعلان وفاة الوطن الفلسطيني. هذه اللحظة، إذن، هي الزمن الفاصل بين

حالتين. ولكنك ممنوع من التذكر والذكرى. تكون محاربة الذاكرة الفلسطينية، إذن، هدفاً صهيونياً ومطلباً قومياً من الدرجة الأولى. لا. ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك. وفي هذه اللحظة ــ المفارقة تلتقي دموع الأضداد. أنت تبكي على وطن ضاع. وهم يبكون على من ضاعوا بحثاً عن «وطن» وُلِد.

تقف في الشارع الذي يلتهمك وتلتهم الغيظ والقهر. ما هو الوطن؟ أن تحتفظ بذاكرتك ــ هذا هو الوطن. إن أحزانهم كثيرة. كل أعيادهم حزينة. ولكنه حزن الذكريات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجم الكون. في الليل يرقصون بجنون، يقبلون على الحياة بجنون. لماذا تطالبهم بأن يفهموك. كنت تقول دائماً: ليتني أكتب مقالاً واحداً دفاعاً عنهم.. وأموت. لا يبدو أن النفط العربي سيتيح لك تحقيق هذه الأمنية الخبيثة. إن أحزان المنتصرين نفاق وخداع، وليست دليل رقيّ بقدر ما هي دليل نقص. لقد حملوا أحزان التاريخ وأفرغوها بك أنت. وأنت مطالب بألّا تحزن. ممنوع من الحزن يا عربي!.. هم يحيون ذكرى الحجارة والمومسات وأبطال العدوان، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقية، وأنت ممنوع من إحياء ذكرى أحد أو شيء. أكثر من ذلك: يدعونك إلى الاشتراك في احتفالات انتصارهم عليك. وإذا رفضت عوقبت. لم يسمحوا لك بإحياء ذكرى ضحايا كفر قاسم. إن ضحاياهم ــ كل ضحاياهم سقطوا بأيدي سواك. وضحاياك ــ كل ضحاياك سقطوا بأيديهم. حين تأتي ذكرى كفرقاسم يحاصرون القرية والمقبرة، ويمنعون الناس من الدخول، لأن الحزن ممنوع. وأكثر من ذلك: يصادرون مزيداً من الأراضي في الجليل.. يترجمون الجليل من جديد بمدينة يهودية «كرمئيل». يتظاهر سكان ثلاث قرى عربية سلبت أراضيهم. يحاصرون. يعتقلون، وتنتصر «كرمئيل».

ويختارون يوم الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفر قاسم بالذات. لا استفزازاً ولا سادية ولا استهتاراً فقط بل مظاهرة قدرة على القهر أيضاً. هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين. فماذا يعني قولك ــ يا صديقي الرسام ــ أن تشابه اللجوء يجمعنا؟ لا شيء.. لا شيء إلّا الابتزاز. اللاجئون الذين شرّدتهم النازية وجدوا وطناً لهم في فلسطين. واللاجئون الذين شرّدتهم الصهيونية.. أين يقيمون.. أين؟

٥

ذلك الطفل الذي أسلمته رحم أمه إلى الأرض، وأسلمته الشرطة إلى المنفى، وأعاده الحنين إلى أرض مفترسة، لم يدرك أنه مطالب بفلسفة الأشياء، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية معيار لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة. لماذا تكون قدرتك على تحديد «ما هو وطنك؟» برهاناً على شرعية انتمائك إلى هذا الوطن. الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن. أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطناً. إن إحساسك بالحاجة إلى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة. فتلك الصخرة، بالنسبة إليك، اجتهاد فكري. وهي، بالنسبة لصاحبها، سقف وجدار. والصخرة لا تكون صخرة إذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات. الصخرة تكون صخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية. وماذا تقول لي أيضاً؟ كانت صحراء هذه البلاد! لا تذهب بعيداً في الأكذوبة. فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الأيام. لا يحق لك أن تحاسبني على

الجدارة. فلست محامياً للرمل أو الحدائق. ما جئت لتدافع عن حق الرمل في الماء ولا عن حق الشجر في الخضرة، لو كانت بلادي كذلك لما أغرتك باحتلالي.. وحرقي.. وطردي. ولم نبلغ، حتى الآن، مرحلة الوقوف أمام دائرة الطباشير لأننا لم نحتكم. ومن هو القاضي؟ أنت! كيف تكون الخصم والحكم في آن معاً إلّا إذا كنت حبيبي. وعلاقتي بك ليس علاقة حب. كنت تدّعي علاقة القربى والدم والآن تدّعي حق الجدارة للانتصار في محكمة دائرة الطباشير. أنت ترسم الدائرة حيناً وتمحوها حيناً آخر. فأنت لا تعترف بوجودي وتلغي علاقتي بهذا الوطن، وتقول إنها علاقة طارئة قابلة للزوال. وبأية وسائل برهنت؟ بالعنف وحده، بالقوة وحدها. هكذا الدنيا.. ذريعة القوي، دائماً، أقوى. بالقوة وحدها حددت شكل علاقتك بوطني، وشكل علاقتي بهذه العلاقة.

«العرب موجودون في فلسطين في علاقة «أنا وهو»».

«أما اليهود، فموجودون في فلسطين في علاقة «أنا وأنت»».

هذا صوت الفيلسوف الوجودي مارتين بوبر.

يقول: إن الإنسان يرتبط بما حوله عن طريقين: طريق «أنا وهو» وطريق «أنا وأنت». علاقة «أنا وهو» توجد في المكان والزمان وتخضع لقانون السببية. وفي هذه العلاقة لا تظهر الحرية، بل الضرورة. أما علاقة «أنا وأنت» فتوجد خارج الزمان والمكان وهي مستقلة عن قانون السببية، وتظهر هنا الحرية لا الضرورة. على هذا الأساس، يكون الوجود غير الحقيقي للإنسان عندما يوجد في علاقة «أنا وهو». والدين اليهودي هو الدين الحقيقي الوحيد القائم

على أساس علاقة «أنا وأنت». ولأن اليهود متمسكون بهذا الدين الحقيقي، فإن الشعب اليهودي هو الشعب المختار. وبناء على ذلك، فإن دولة إسرائيل يجب أن تقوم في فلسطين. فإن علاقة اليهود بفلسطين ليست كعلاقة العرب بها، لأن العرب موجودون في فلسطين بعلاقة «أنا وهو» ولذا من السهل قطع هذه العلاقة ومن الممكن نقلهم إلى أمكنة أخرى..

ولكن أديباً إسرائيلياً آخر أكثر اقتراباً من الحياة والواقع يخرق علاقة الحرية القائمة بين اليهود وفلسطين حين تصل هذه العلاقة إلى مستوى التطبيق العملي، وتخلق حالة نادرة من حالات الإحساس بالإثم. فالإيديولوجية غالباً ما تبدو نظيفة لأصحابها وهي مجردة، وحين تترجم إلى ممارسة تأخذ شكل الجريمة. في قصته التي أثارت جدلاً يصور أبراهام يهوشع حالة من حالات ارتطام «براءة» الإيديولوجية الصهيونية مع الواقع الذي خلق جريمة بحق شعب آخر. لقد ألصق النقاد الصهيونيون بالكاتب تهمة التخريب والدعوة إلى الانتحار، والتماثل المازوكي مع العدو. القصة تدور في حرش من أحراش «الكيرن كايميت» موّلته مجموعة من اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل، وأقيم على أنقاض قرية عربية. بطل القصة طالب إسرائيلي لا اسم له، يبحث عن العزلة ليتسنى له كتابة أطروحته عن الحملة الصليبية. وقد اقترح عليه موظف عجوز ومثالي مسؤول عن الأحراش أن يعمل حارساً للحرش من خطر الحرائق. يحمل الطالب كتبه وأوراقه وينصرف إلى الحرش المعزول، لا يربطه بالعالم الخارجي إلّا منظار وجهاز تليفون يتصل بمركز إطفاء. ليس صدفة أن يختار الكاتب مسرحاً لقصته حرشاً أقامته الكيرن كايميت على أنقاض قرية عربية، فحرش الكيرن كايميت الذي يرمز إلى تحقيق الحلم الصهيوني قائم على أنقاض القرية العربية التي ترمز إلى مأساة

الشعب العربي الفلسطيني الناتجة من تحقيق الحلم الصهيوني. وليس صدفة أيضاً أن يكون موضوع أطروحة الطالب «الحروب الصليبية» التي تحمل شيئاً من التشابه التاريخي بين الماضي والحاضر.

لم يكن الطالب الإسرائيلي وحيداً في الغابة أو الحرش. هناك فلاح عربي سابق قطعوا لسانه في الحرب «نحن أم هم، هذا لا يغير شيئاً» وقد بقي العربي مع أنقاض قريته يعمل عاملاً في الغابة ومعه طفلة صغيرة. الثلاثة يقيمون في مكان واحد، بلا مبالاة في البداية ثم بتوتر متصاعد ــ على خلفية أشجار السرو الصغيرة ولافتات تحمل أسماء المتبرعين اليهود المحترمين «لويس شفارتس من شيكاغو»، «ملك بوروندي»، وفود رسمية، سيّاح، وزوار، يشعر الطالب بأن مشيتهم الاحتفالية في الغابة تشبه قافلة من الصليبيين. تقول إحدى الزائرات: نريد أن نسأله سؤالاً بسيطاً. نريد أن يبتّ الأمر. أين تقع بالضبط القرية العربية المشار إليها على الخارطة؟ من المفروض أن توجد هنا في المنطقة قرية عربية مهجورة. ينظر إليهم الطالب ــ الحارس بدهشة. قرية؟ كلا. لا توجد هنا قرية. الخارطة على خطأ.

كان الطالب، في البداية، يقضي الليل والنهار بحثاً عن علامات حريق في الغابة. يجرب صفارة الإنذار. يراقب حركات العربي ويشك في أنه يعد عملية انتقام. ثم يتضح تدريجياً أن الطالب ــ الحارس يريد أن تندلع النار في الغابة. لقد حاول ذلك بالنفط الذي أحضره العربي لهذا الغرض. ولكن المحاولة تفشل. ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقتهما وثيقة. الطالب يحدث العربي الشيخ عن تاريخ الحملات الصليبية. والعربي الأبكم يصدر أصواتاً وحشية ويجيب بحركات يديه. «يريد القول أن بيته هنا وقريته هنا. وقد

أخفوا كل شيء ودفنوه في الغابة الكبيرة».

عندما يشعل العربي النار في الغابة، يشتعل الطالب حماسةً وسعادة. ويشاركه العملية. إنه لا يطلب النجدة. سواه استصرخ رجال المطافىء، ولكن بعد فوات الأوان. ومع الفجر يسير بطل القصة على آثار الحريق. ورويداً رويداً تظهر خلال الدخان والضباب القرية العربية الصغيرة، «تولد من جديد كالرسم التجريدي وككل ماضٍ زال»... يقول عزريا ألون صاحب «الإسرائيليون»: من الواضح أن الغابة ترمز إلى المجتمع الإسرائيلي الجديد الذي قام على أنقاض مجتمع آخر. ويقول المؤلف في حديث صحافي إن قصته ليست إيديولوجية ولكنها وصف وضع قائم في البلاد، حيث أقيم شيء على أنقاض شيء آخر. ثمة إحساس بالإثم.

تجد بعض النماذج من تجلي الإحساس بالإثم في الأدب العبري الحديث لدى تناول موضوع بناء المجتمع الإسرائيلي والصراع على «وطن» واحد بين الإسرائيليين والعرب. ولكنه إحساس بالإثم صادر عن الثقة بالنفس. إنه نوع من أنواع اعترافات القوي في حالة صفاء إنساني. يمزج قوته وانتصاره بشيء من مسحوق الليبرالية والإنسانية بعد فوات الأوان وانتهاء المذبحة. ولكنه ليس في أي حال من الأحوال تعبيراً عن توبة أو ندم. إنه شديد الشبه بمحاورات القاتل الداخلية بعد إتمام العملية. فالأديب الأميركي مثلاً يصور مأساة الهنود الحمر ويبدي بعض العطف عليهم.

يستغرب كاتب إسرائيلي غياب ظاهرة حساب النفس والإحساس بالإثم لدى الطرف العربي. وهذا الاستغراب، بحد ذاته، دليل على

الرغبة في عقد المساواة بين القاتل والضحية. يطالبهما بالجلوس والبكاء على التعاسة المشتركة: تعاسة المنتصر الذي كسب وطناً ولم يسلم من ارتكاب الظلم، وتعاسة المهزوم الذي خسر وطناً ويطلب عدالة المعاملة ممن أخذ وطنه. كيف يحاسب العربي نفسه؟ وكيف يشعر بالإثم؟ إذا شعر بالإثم، فإنه يشعر به تجاه نفسه وتجاه وطنه لا تجاه الذي هزمه واحتل وطنه ونفسيته.

لن تسأل بعد الآن عن معنى الوطن..

الخارطة ليست إجابة، لأنها شديدة الشبه بالرسم التجريدي. وقبر جدك ليس إجابة لأن غابة صغيرة كفيلة بأن تخفيه. وأن تبقى بجوار الصخرة ــ ليس أيضاً إجابة كافية لأن اغترابك ليس شيئاً مادياً فقط. لم يحتلوا الأرض والعمل فحسب لقد احتلوا النفسية والمزاج والصلة ما بينك وبين الوطن حتى صرت تتساءل عن معنى هذا الوطن. تشغلك همومك اليومية وصراعك من أجل الحياة عن الإحساس بحقيقة أنك محتل أحياناً. مواطن من الدرجة الثانية؟ ليس هذا السؤال. لن تكون قضيتك ديموقراطية ولا إنسانية فحسب. وليس عذابك الشخصي ناجماً عن سلوك شخصي.

«اهدأ ــ تسلم» ليست نصيحة بريئة. هي دعوة إلى نفض يديك من تراب الوطن الذي لا تجد له اسماً. سحبوا الأرض من تحت قدميك فاختبأت تحت جلدك. عذبوك، فلم تعترف إلّا بمزيد من الحب المجنون لأسباب عذابك. لا التهديد من الداخل يمحو انتماءك ولا الوعود من الخارج تعطيك الأمان. تحمل صليبك وتمضي إلى ميعاد انتحارك. ولا تقول «نعم». والاغتراب الذي يأتيك من كل الأيام يتحول إلى هدنة مع الريح تحت صرير السلاسل. في السجن تعانقك الحرية. وفي السجن تمتلىء بالوطن

أيضاً. الصراع هو الإجابة، إذا صارعت انتميت. والوطن هو الصراع. بين الذاكرة والحقيبة لا حلّ سوى الصراع. الحق ـــ والحرية ـــ والانتماء ـــ والجدارة لا تعلن إلّا بالصراع. لم يكتفوا بالاستيلاء على كل شيء. يريدون أن يستولوا أيضاً على انتمائك لتكون الواقعة بينك وبين الوطن. ليصير الوطن هو العبء والقيد والألم. ولكنك لن تجد الحرية خارج هذا القيد، ولن تجد الراحة بعيداً عن هذا العبء، ولن تجد الفرح خارج هذا الألم. الوطن في ذاكرتك وفي خلايا جسمك يشتبك مع الوطن في قبضات أيديهم وحقائبهم «العائدة».

يوميات الحزن العادي

١

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

ــ من شدّة الانحناء صار ظهري قوساً، فمتى تطلق سهمك؟

[تمد يدك إلى يدك، فتجد حفنة طحين]

* * *

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

ــ من شدّة الانحناء صار ظهري قنطرة، فمتى تعبر؟

[تحاول أن تحرك رجلك، فلا يتحرك الحديد]

* * *

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

ــ من شدّة الانحناء صار ظهري علامة استفهام، فمتى تجيب؟

[المحقق يدير أسطوانة عليها تصفيق كثير].

* * *

حين شتّتتهما العاصفة، كان الحاضر يصرخ بالماضي: أنت السبب. وكان الماضي يحول جريمته إلى قانون. أما المستقبل فقد كان شاهداً محايداً.

وحين هدأت العاصفة، كانت الانحناءة قد اكتملت، وتحولت إلى دائرة لا تعرف بدايتها من نهايتها.

٢

ــ ضع فاصلة وراء كل تنهيدة، وقل لنا: من أنت؟

وحين أفاق من الغيبوبة كان دمه قد جفّ.

□ أنا من الضفة الغربية.

ــ ولماذا عذبوك؟

□ وقع انفجار في تل أبيب، فاعتقلوني.

ــ وماذا تفعل في تل أبيب؟

□ أعمل في البناء.

لم تكن حالة عمل العمال العرب من الضفة الغربية أو قطاع غزة في المدن الإسرائيلية قد تحولت إلى ظاهرة عامة. ولعل الرأي العام العربي، بعد الهزيمة الأخيرة مباشرة، كان يطالب العمال العرب بالمجاعة تعبيراً عن الصمود ورفض الاحتلال، دون أن يفكر أحد من المسؤولين بالاهتمام بمسألة تأمين سبل المعيشة للسكان الواقعين تحت الاحتلال من أجل ضمان استمرارهم في الصمود وعدم التعاون مع الغزاة.

□ عندما تسكت المدافع، من حقي أن أشعر بالجوع.

ماذا تقول لمن يطرح السؤال بهذا الشكل؟ ليس بوسعنا أن نطحن الأناشيد الحماسية والخطب الحماسية ونعجنها ونحولها إلى خبز.

إن أخطر شيء هو أن يتحول الوطن، تحت الاحتلال الأجنبي، إلى رغيف خبز. ولكن السيىء أيضاً هو أن يدفع المواطنون الواقعون تحت الاحتلال إلى المجاعة في حالة الصمت العسكري والسياسي السائدة.

□ في حالة الحرب والمعارك لا نفكر كثيراً بمستوى المعيشة. أعلنوها معركة أو حرباً وخذوا منا كل التضحيات. ولكن حين تسكت المدافع، فمن حقنا أن نشعر بالجوع.

ولماذا تنسى أو تتناسى أن إسرائيل بنيت بسواعد عربية.

يا للمفارقة.. ويا للعار!

٣

يقدمون لك تفاحة حمراء، ويسألون: هل ذقت التفاح السوري؟

ما أجمل التفاح في السجون. هو الشيء الوحيد الذي يحول لون الرماد إلى لون النار.

تقول لهم: إن التفاح السوري يملأ الأسواق الإسرائيلية. وأن التفاح السوري يهزم التفاح الإسرائيلي.. أكبر، وأجمل، وأرخص. يشتريه اليهود بلا حرج، على الرغم من احتجاج الكيبوتسات التي هبطت قيمة تفاحها، لأنه أكبر.. وأجمل.. وأرخص!

ــ وماذا جاء بكم هنا أيها الأشقاء السوريون؟ كنا نعد العدة للقائكم في بيوتكم لا في السجون.

□ لقد ألقوا علينا القبض بتهمة التسلل من دمشق إلى القنيطرة.

ــ كل عودة تسلل. هذا هو حظ العرب.

□ .. وقالوا إننا جئنا للتجسس!

ــ تجسس على المنازل والكروم؟!

□ شيء كهذا!

ــ وهل اتهموكم بأنكم تسرقون تفاحكم؟

□ لم يقدموا لائحة الاتهام بعد.

ـــ كم قضيتم في الاعتقال؟

□ أحد عشر شهراً وأسبوعاً وثلاثة أيام.

ويسألونك فجأة:

أنت تعرفهم، فهل تظن أنهم سيتهموننا بأننا سوريون؟

ـــ ألستم كذلك؟

□ نعم. نحن سوريون.

ـــ وهل هي تهمة؟

□ لا نعرف...

٤

ـــ من أين أخي؟

□ من غزة.

ـــ ماذا فعلت؟

□ ألقيت قنبلة على سيارة الغزاة، فانفجرت بي.

ـــ و

□ ألقوا عليَّ القبض، واتهموني بالانتحار.

ـــ اعترفت طبعاً؟

□ ليس تماماً. قلت لهم إن محاولة الانتحار لم تنجح. ولذلك حرّروني من الرحمة وحكموا عليَّ بالسجن المؤبد.

ـــ ولكنك كنت تنوي القتل لا الانتحار؟

□ يبدو أنك لا تعرف غزة. المسافة هناك شيء وهمي.

ـــ لا أفهمك جيداً.

ـــ يبدو أنك لا تعرف غزة، فمن أين أخي؟

□ من حيفا.

ـــ ماذا فعلت؟

□ ألقيت قصيدة على سيارة الغزاة، فانفجرت بهم.

ـــ و

□ ألقوا عليَّ القبض واتهموني بالقتل الجماعي.

ـــ اعترفت طبعاً؟

□ ليس تماماً. قلت لهم بأن محاولة القتل نجحت. ولذلك أعطوني الرحمة، فاستجابوا إلى طلبي، وحكموا عليَّ بالسجن لمدة شهرين.

ــ لا أفهمك جيداً.

□ يبدو أنك لا تعرف حيفا. فالمسافة هناك شيء وهمي.

جاء الحارس. وضعه في زنزانة. وأطلق سراحي!

٥

ــ اذهبي.. وتعالي، ريثما أصحو من اللذة.

وابتعدي عني قليلاً، لكي ينفصل الحلم عن عظامي.

أنا علّمتك التدخين. وأنت علّمتني مرافقة الدخان.

اذهبي.. وتعالي!

ــ وماذا قلت لها أيضاً؟

لم أحدثها عن الحب. كان كلامي غامضاً ولا أفهمه إلّا حين تنام. وكانت تغني كثيراً، ولا أفهم غناءها إلّا في الحلم. وهي جميلة.. جميلة. يوم رأيتها سقط الغيم على دماغي، فخطفتها إلى البيت، وقلت لها اعتبري ذلك حباً.

تضحك.. تضحك في أحلك الساعات.

وكنت أناديها باسم مستعار لأن ذلك أجمل. أقبّلها، وبين القبلة والقبلة أشتهيها وأشعر أنها ستضيع مني لو توقفت عن القبل.

بين الرمل والماء، قالت: أحبك.

وبين الشهوة والعذاب، قلت: أحبك.

وحين سألها الضابط عما تفعله هنا!؟ أجابت: من أنت؟ فأجابها: ومن أنت؟

قالت: أنا حبيبته، وجئت أودعه حتى باب السجن أيها المجرم. ماذا تريدون منه؟

قال: اعلمي أنني ضابط.

قالت: وأنا سأصبح ضابطة في العام القادم أيها المجرم!

.. وأبرزت شهادة الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية. فحيّاها الضابط بابتسامة وسحبني من ذراعي إلى زنزانتي.

وفي العام القادم كانت الحرب. وعدت إلى الزنزانة من جديد. وفكّرت بها: ماذا تفعل الآن؟ كانت في مدينة نابلس أو في مدينة أخرى واحدة من الفاتحين.. تحمل بندقية خفيفة. ولعلها تلك اللحظة كانت تأمر الرجال برفع أيديهم أو بالركوع على الأرض. أو لعلها كانت تشرف على استجواب أو تعذيب فتاة عربية في مثل سنها.. وفي مثل جمالها السابق.

لم تقل وداعاً

ولم تقل لها: اذهبي وتعالي.

لقد علمتها التدخين، وعلمتك مرافقة الدخان.

٦

ــ نكتب مسرحية مشتركة؟

□ نكتب.

ــ نبحث عن نقطة التقاء؟

□ نبحث

ــ نطرح القضية بكل حدّتها؟

□ نطرح.

ــ ليكن بيت متنازع عليه هو عقدة المسرحية.

□ ليكن.

ــ نلتقي بعد شهر؟

□ نلتقي.

في تلك اللحظة، كانت خديجة تودع ابنها في المخيم، وتسلمه مفتاح البيت الذي اشتهر في حيفا باسم «البيت الأحمر».

وفي تلك اللحظة، كانت ساره، المقيمة في «البيت الأحمر»،

تودع ابنها الذي لبّى إشارة في الراديو تأمره بالالتحاق بوحدته العسكرية.

التقى الشابان القادمان من اتجاهين متعاكسين في نقطة ما من الغابة، واشتبكا وليس مهمّاً أن نعرف أيهما قتل الآخر.

ـ هل أكملت الفصل؟

□ أكملت.

«في المهجر، لم يعلّمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن يهوديتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك فقد علمني الحياة».

ـ وأنت ماذا كتبت؟

□ «في المهجر، لم يعلمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن فلسطينيتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك، فقد علّمني الحياة».

ـ هذه نقطة التقاء هامة.

ـ والبيت الذي يستقطب مصيرنا، هل هو نقطة لقاء أم نقطة وداع؟

□ إنه نقطة صراع.

ـ كيف تحله المسرحية؟

□ لنقل: إن الحق لا ينبع من الإرث، بل من الحاجة والجدارة. وعلى أساس ذلك، لا يكون الرجل الذي بنى هذا البيت منذ خمسين سنة صاحب الحق فيه الآن، لأن رحيله عنه ـ تحت أي ظرف من الظروف ـ هو بمثابة تخل عن حق لا يحتاجه. أما المالك الحالي، فقد بذل جهداً في السيطرة على هذا البيت الذي لا يملك سواه.

ـ وأين العدل في المسرحية؟

□ العدل.. العدل. لنبحث عن العدل معاً في اللحظة الراهنة. لنجعل حالة تأنيب الضمير مناخاً سائداً في البيت ريثما يفعل الزمن مفعوله. ليكن التعبير عن الشعور بالإثم لدى اليهودي تعويضاً عن ضياع البيت بالنسبة للعربي.

ـ نلتقي بعد شهر لأضع صيغة أخرى لعدل أكثر عدالة؟

□ نلتقي.

وفي تلك اللحظة، كانت بيوت أخرى في مدن أخرى، تستبدل سكانها. وكانت مفاتيح جديدة تتكدس فوق المفاتيح القديمة في المهاجر العربية التي تضيق مساحتها حرباً بعد حرب. وفي الليل، يحمل شبان مفاتيحهم ولا يعودون!

٧

ـ لماذا هذه الغطرسة؟ لقد ورثت ديني وقوميتي، ولم أواجه لحظة اختيار واحدة. والآن أسألكم: من اختار منكم أن يكون يهودياً..

من؟

□ هذا هو الفرق بيني وبينك: أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني اخترت أن أكون يهودياً.

ــ كيف؟

□ تلك مسألة غير قابلة للشرح. اليهودية لا يفهمها إلّا اليهودي. وهذا هو مصدر اعتزازي الذي تسميه غطرسة.

ــ إنني أفهم أن تكون أنك اخترت أن تكون صهيونياً.. أن تكون إسرائيلياً. فهل تعني ذلك؟

□ لا أعني ذلك تماماً. أعني اخترت يهوديتي والتزمتها.

ــ وكيف يتجلى هذا الالتزام؟

□ بالوطن التاريخي.

ــ وما هو هذا الوطن التاريخي، هل هو غامض كانتمائك. هل اخترته أم ورثته؟

□ غامض وواضح معاً. اخترته وورثته معاً.

كان المتحدث كاتباً. وكان يتمرد على الفواصل التي يضعها البعض بين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية. ويعتقد أن اليهودية لا تتجلى إلّا بالصهيونية، والصهيونية لا تكرس إلّا بالإسرائيلية. ومن هنا، يكون التخلي عن الصهيونية تخلياً عن اليهودية.

وحين تسأله عن التحديد العملي لمصطلح الوطن التاريخي، يذكرك بالحوار الشهير الذي دار بين بن غوريون ومفكر عربي سنة ١٩٣٦، أيام كانت فلسطين حلماً صهيونياً. سئل بن غوريون عن ذلك الوطن التاريخي، فأجاب أنه المنطقة المفتوحة للاستيطان اليهودي.

ــ وما هي تلك المنطقة؟

□ أرض إسرائيل.

ــ وما هي حدودها؟

□ حدود أرض إسرائيل معروفة في التاريخ.

ــ ولكن الحدود أمر مصطنع. تكون اليوم هنا، وتكون غداً هناك.

□ أرض إسرائيل هي تلك الأرض الواقعة بين البحر المتوسط غرباً، والصحراء شرقاً، بين سيناء جنوباً، ومنابع الأردن شمالاً.

ــ إنك تضم عبر الأردن أيضاً!؟

□ بالطبع، فالأردن ليس حداً لأرض إسرائيل. إنه نهر في أرض إسرائيل.

وكان حاييم وايزمن يقول: «إنني أعرف أن الله وعد بني إسرائيل بأرض إسرائيل، ولكنني لا أعرف الحدود التي عيّنها الرب».

في ذلك الوقت، كانت ملايين العرب تضحك ساخرة من أحلام

وايزمن، وبن غوريون. وحين تنظر اليوم إلى الحدود السرية «التي عيّنها الرب» والتي تجاوزت فلسطين إلى ما هو أبعد ترى أن «الواقع الإسرائيلي» أوسع من «الحلم الصهيوني» ومن التاريخ اليهودي، وتذكر ذلك الكاتب الذي قال لك: «هذا هو الفرق بيننا وبينكم. أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني اخترت يهوديتي».

فهل تضحك مرة أخرى، كما ضحك العرب قبل خمسين سنة، أم تورث أحلامك إلى الأطفال الذي يولدون على حراب الاحتلال!

٨

تريد أن تستمتع بالشارع؟

□ يا حبيبي، في عيد ميلادي، أرجو أن تكون هديتك لي دبابة، أو مدفعاً، أو أي سلاح من صنع روسي.

ــ سأهديك دبابة ننام فيها معاً يا عزيزي. لنجرب وضعاً آخر.

□ لا. سأنام معك في الهواء الطلق، على ضفة قناة السويس.

ــ ها .. ها.. ها.

□ ها.. ها.. ها.

تمشي في الشارع. تجلس في مقهى. تسافر في أوتوبيس، وتسكت. لست مدعواً للإعلان عن هويتك. إن صمتك يقول كل شيء. هو

الموقف الوحيد الذي يتاح لك أن تتخذه حين تستمع إلى هذا الغزل الإسرائيلي. انتهى عصر الكلمات العذبة. سأهديك غزالاً وقمراً. لا. ما أبعد الفارق بين الخيال السابح في الصحراء والخيال المصنوع من التكنولوجيا والنصر. كلمات الحب الآن منسجمة مع آخر أحداث الساعة وأحدث مبتكرات السلاح. واللذة لا تتناغم مع أشياء الطبيعة.

هكذا أصبح العربي في إسرائيل متخلفاً حتى في ممارسة الحب. لقد احتاج إلى وقت طويل لكي يعرف كيف يخاطب صديقته بالورد. فكم من العصور يحتاجها هذا المخلوق لكي يتدرب على هذا الغزل: يا عزيزتي.. سأهديك دبابة.

وبماذا تفكر؟ كيف ينامون في الدبابات! وكيف ينجبون أطفالاً في الدبابات! وكيف يتنزهون في الدبابات! على رسلك.. هذا هو البيت الإسرائيلي المأمون. هذا هو عش الحب. وهذا هو المستقبل!

٩

وفي عيد رأس السنة، ماذا تفعل؟

تنزل إلى الشارع لتبحث عن بطاقة جميلة ترسلها إلى صديق. فماذا تجد؟ لا صورة لوردة واحدة، ولا رسماً لشاطىء أو عصفور أو امرأة. لقد اختفت كلها لتعطي المكان للدبابة والمدفع والطائرة وحائط المبكى والمدن المحتلة ومياه قناة السويس المنقولة إلى هذه البطاقات. وحين تلمح غصن زيتون تجده مرسوماً على جناح طائرة مقاتلة من صنع فرنسي.

وحين ترى فتاة جميلة تجدها مدججة بالسلاح. وحين تقع عيناك على مدينة تجد خلفيتها حذاء جندي، فيقع قلبك على الأرض. ولا يبقى لك إلّا أن تنكمش في زاوية الشارع المزدحم، لتفسح المجال أمام آلاف الأيدي الممتدة نحو بطاقات العيد الملونة.. ترسلها إلى يهود العالم تعبيراً عن فرحة البعث التاريخي، وعودة الأسطورة. وأنتَ لا تبعث إلى أصدقائك إلّا صمت القلب الذي لا يصل.

ويفاجئك الكرنفال في الشارع. ينقض عليك الضوء كما كان ينقض عليك وأنت خارج من زنزانة مظلمة. وأسراب من الأطفال ـ الحمائم مدججة بالسلاح. اللعبة سلاح. والمتعة سلاح.

وأنت؟ ليس في طفولتك وشبابك غير حصان خشبي..

١٠

تريد أن تنام؟

في الساعة الرابعة صباحاً. يوقظك جرس الباب. تعرف الزائر. لكن النعاس أقوى من الشرطة. في التاسعة صباحاً تذهب إلى مكتبك لتعمل. تستمتع بنصف فنجان القهوة قبل قراءة الأخبار. يأتيك الزائر المعتاد ويقول: تعال معي! تسأله: اعتقال.. أم تحقيق؟ يقول: لا أعرف. تسأله أن تأخذ فرشاة أسنانك وأدوات الحلاقة وملابس داخلية، فيرد عليك: لا وقت!

تجلس أمام الضابط.

يقول لك بأدب، من تحت صورة هرتسل: يشرفني أن أعتقلك.

تجامله: ويشرفني أن أمنحك هذا الشرف. ولكن، هل تتفضل وتقول لي ما هي تهمتي؟

يقول لك: أنت متهم بتفجير بطيخة عند مدخل السيرك، وبالمس بأمن الدولة.

البطيخة، والدولة، والسيرك ـــ انسجام نادر.

تنتهي مدة التوقيف القانونية. كل شيء هناك قانوني. تتوقع أن يأخذوك إلى المحكمة، فتستمتع برؤية مدينتك المفتونة بنفسها، من خلال قضبان سيارة البوليس. أو تتطرف بالأمل، كعادتك، وتتوقع أن يطلقوا سراحك.

ـ انتظر قليلاً.

تحتج على حافة القانون فيقولون لك: لن نحتفظ بك ساعة واحدة بعد انتهاء مدة التوقيف.. ماذا تظن؟ هنا قانون. هنا إسرائيل، وليس العالم العربي.

تفكر بالعالم العربي، فتختلط الغصة بالحلم.. وتنتظر. ماذا تنتظر.. ضابط التحقيق أم العالم العربي؟!

ثم يدخلونك إلى غرفة أخرى. تجد ضباطاً وامرأة عجوزاً. يسألك أحد الضباط إن كنت تتقن اللغة العبرية، ثم يتلو لائحة الاتهام: أنت متهم بالعمل على تدمير دولة إسرائيل. تسأل: تقصد الدولة أم البطيخة؟ تقول تلك المرأة القبيحة: احترم المحكمة. تعلن دهشتك: أية محكمة؟ فيأتيك صوت قادم من مستنقع: هذه محكمة، وأنا

قاضية. عندها، تفهم أنهم احترموك ونقلوا المحكمة إلى السجن من أجلك. ولكنك ترفض تكريمهم: كلاّ يا سيدتي. لا هذا المكان محكمة، ولا أنت قاضية. هذا سجن. وأنت سجّانة.

تنتهي الجلسة بتجديد مدة التوقيف.

١١

تعود إلى البيت بسيارة أجرة؟

تتكلم مع السائق بلغة عبرية سليمة. وشكلك لا يعلن هويتك. يسألك السائق: إلى أين يا سيدي؟ تقول: إلى شارع المتنبّي.

تشعل سيجارة لك وسيجارة للسائق لأنه مهذب. يقول فجأة: قل لي، إلى متى هذا القرف... لقد سئمنا.

تظن أنه سئم حالة الحرب وارتفاع الضرائب وسعر الحليب. فتقول: الحق معك.. لقد سئمنا. يتابع: إلى متى تحافظ دولتنا على هذه الأسماء العربية القذرة! يجب أن نمحوهم ونمحو أسماءهم من الوجود. تسأله: من هم؟ يقول باستنكار: العرب طبعاً. تسأله عن السبب، فيقول: لأنهم قذرون.

تعرف من لهجته أنه مهاجر من مراكش. تسأله: هل أنا قذر إلى هذا الحد؟ وهل أنت أكثر نظافة مني مثلاً؟

يندهش لسؤالك: ماذا تقصد؟

تسأله أن يكون ذكياً، فيدرك ولكنه لا يصدق: أرجوك.. كفّ عن المزاح!

عندما يرى بطاقتك يصدق أنك عربي. يقول: لا أقصد المسيحيين ـ أقصد المسلمين. تقول له إنك مسلم، فيقول: لا أقصد كل المسلمين.. أقصد القرويين. تقول له إنك من قرية متخلفة هدمتها دولته كما يشاء ومحتها من الوجود كما يشاء. يقول: كل الاحترام للدولة!

تنزل من السيارة، وتقرر العودة إلى البيت مشياً. تصيبك نوبة قراءة أسماء الشوارع. فعلاً، محوا أسماءها. صار صلاح الدين شلومو. وتتساءل: لماذا حافظوا على اسم المتنبي!

وعندما تصل إلى شارع المتنبي تقرأ الاسم، لأول مرة، باللغة العبرية فيخيّل لك أنه «المونت نڤي» وليس المتنبي كما كنت تتصور!

١٢

تريد أن تسافر إلى القدس؟

ترفع سماعة التليفون، وتطلب ضابط المهمات الخاصة في دائرة الشرطة. تعرفه جيداً، فتسأله عن أحواله وتمازحه. ثم ترجوه أن يعطيك تصريحاً للسفر ليوم واحد بدون نوم. يقول لك: قدم طلباً خطياً. تترك عملك وتقدم الطلب الخطي على ورق صقيل.. وتنتظر الجواب، يوماً.. يومين.. ثلاثة أيام. ثمة أمل لأنهم لم يقولوا «لا» كالعادة. ولكنك تنتظر، وميعادك في القدس يقترب. تسألهم.. ترجوهم.. تتوسل إليهم أن يقولوا أي شيء. أن يقولوا

«لا» لتصبح في حل من الميعاد. لا يقولون. تخبرهم أن أمامك ساعات معدودة، يقولون: تعال إلينا بعد ساعة لتتسلم الجواب.

تذهب، فتجد المكتب مغلقاً. تتساءل ببراءة: لماذا يخجلون مني؟ لماذا لم يقولوا «لا» كعادتهم دائماً. تغضب وتقرر ــ بغباء ــ أن تنتقم من «أمن الدولة».. وتسافر.

في اليوم التالي يستدعونك للمثول أمام محكمة عسكرية عاجلة. تنتظر دورك وتسمع حكايات: امرأة عربية تعمل في كيبوتس. ينص التصريح على منعها من النزول في أية محطة على الطريق. لسبب ما اضطرت للنزول، فاعتقلوها. شباب انحرفوا عن الشارع الرئيسي فاعتقلوهم. والمحكمة لا تبرىء أحداً. سجن وغرامات. وتذكر حكاية الشيخ والحمار والتصريح: كان الشيخ يحرث الحقل. علق عباءته على شجرة. والتصريح في جيب العباءة. اكتشف أن حماره قد ابتعد عن أرضه ودخل أرضاً أخرى. خفّ للحاق بالحمار، فاعترضته الشرطة العسكرية واعتقلته، لأنه دخل أرض الدولة بلا تصريح. قال لهم: معي تصريح.. في جيب العباءة المعلقة على الشجرة هناك. اعتقلوه وحاكموه.

وتذكر تصاريح الموت، حيث كان الفلاحون يوقّعون على نص يحملهم المسؤولية عن موتهم لو انفجرت ألغام في منطقة كان الجيش يستخدمها للمناورات. هذا النص يعفي الدولة من تحمل المسؤولية. ولكن الفلاحين كانوا يفكرون بلقمة العيش ولا يفكرون بالموت. وفعلاً، مات منهم من مات وعاش منهم من عاش ويئست الدولة من الأحياء والأموات فصادرت الأرض.

وتذكر أيضاً الطفلة التي ماتت في حضن والدها أمام مكتب الحاكم العسكري، حيث كان الأب ينتظر تصريحاً للسفر من قريته إلى المدينة لمعالجة طفلته المريضة.

وتشعر بالسعادة لأنهم حكموا عليك بالسجن لمدة شهرين فقط. وفي السجن، تغني للوطن.. وتكتب رسائل إلى حبيبتك، وتقرأ مقالات عن الديموقراطية وتقرأ رواية «الحرية أو الموت» فلا تحرر نفسك.. ولا تموت.

١٣

تريد أن تسافر إلى اليونان؟

تطلب جواز سفر، فتكتشف أنك لست مواطناً، لأن أباك أو أحد أقاربك قد هرب بك أثناء حرب فلسطين، وقد كنت طفلاً. وتكتشف أن أي عربي ترك بلاده في تلك الفترة، وعاد إليها متسللاً، قد فقد حقه في الجنسية.

تيأس من جواز سفر، وتطلب جواز مرور. تكتشف أنك لست مقيماً في إسرائيل، لأنك لا تحمل شهادة إقامة. تحسب الأمر نكتة، فتسرع لترويها لصديقك المحامي: «لا أنا مواطن هنا ــ ولا أنا مقيم. أين أنا ومن أنا». تفاجأ بأن القانون معهم، وبأنه يترتب عليك أن تبرهن وجودك. تقول لوزارة الداخلية: أنا موجود أم غائب؟ أعطوني خبيراً في الفلسفة لأثبت له أنني موجود.

ثم تدرك أنك موجود فلسفياً، وغائب قانونياً.

تفكر بالقانون. ما أشد براءتنا حين نظن أن القانون وعاء للعدل

والحق. القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم، أو بدلة يفصلها على قياسه. وأنا موجود في هذه البلاد قبل وجود الدولة التي تنفي وجودي. وترى مرة أخرى أن الحق أمنية تقترب من الوهم إذا ابتعد عن سند القوة، وأن القوة تحوّل الوهم إلى واقع. وتبتسم للقانون الذي يمنح كل يهودي في العالم حق الجنسية الإسرائيلية.

وتسعى من جديد. أمرك لله وللقانون. تحصل على شهادة تثبت أنك موجود، وتحصل على جواز مرور. ولكن من أين تمرّ؟ أنت مقيم في حيفا، والمطار قرب تل أبيب. وتسأل الشرطة تصريحاً للسفر من حيفا إلى المطار فترفض. يتدخل المحامي وأعضاء برلمان، ولكن الشرطة ترفض. ثم تظن أنك أكثر خبثاً منهم ودهاء، فتغيّر طريق مرورك، وتقرر السفر عن طريق ميناء حيفا على اعتبار أنك تملك حق الوصول إلى الميناء. تبتهج لذكائك. تشتري تذكرة، وتعبر قسم مراقبة الجوازات والصحة والجمارك ولا يعترضك أحد. وقرب السفينة يلقون القبض عليك، ويقدمونك إلى المحاكمة. وما زلت مصرّاً على أن القانون معك هذه المرة.

وتكتشف في المحكمة أن ميناء حيفا جزء من دولة إسرائيل وليس جزءاً من مدينة حيفا، ويذكرونك بأنك محظور من الوجود في أية منطقة من دولة إسرائيل خارج حيفا. والميناء ــ في القانون ــ خارج حيفا ــ وتدان...

تقول لهم: أريد أن أدلي باعتراف خطير ما دمت قد فهمت القانون: يا سادة! أنا أسبح في البحر كل يوم، والبحر تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لمدينة حيفا، وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول البحر.

وعندي اعتراف آخر: أنا أستمتع بالمناخ في مدينة حيفا. والطقس تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول المناخ. والسماء التي أراها فوق حيفا ليست تابعة لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحاً للجلوس تحت السماء.

ثم تطلب منهم تصريحاً للإقامة في الريح، فيبتسمون!

١٤

تحتفل بعيد ميلادك؟

آه من الاحتفالات. يهجم عليك التاريخ بشراسة. هزيمة تلو هزيمة تلو هزيمة، والعرب يحتفلون بكل أيامهم. وتتساءل: أيامنا تمحو أيامنا من فرط المناسبات والأعياد. ألم يبق في الروزنامة يوم واحد للنصر. كل الأيام محجوزة للانقلابات والانقلابات المضادة، وكلها أعياد مقررة. عندها تجد سبباً لاستمرار هزيمتك: حين يخلو أحد مقاعد السنة من يوم واحد.. سننتصر.

والليلة عيد ميلادك ــ الثالث عشر من آذار ــ وأنت تريد مناسبة لانتزاع المرح الكاذب من جهامة الأيام الصارمة. تدعو أصدقاءك.. تتآمرون على الكآبة بالكأس والموسيقى والنكات الجارحة. يرتفع صوت الموسيقى وترقصون. تصل ضحكات الفتيات إلى نوافذ الجيران. وفي منتصف الليل يأتي البوليس. يتحقق من هويات الحاضرين ويهددك بالاعتقال: كونوا مهذبين. كفى بربرية! تسأل عن السبب فيقول لك إن الجيران قد استدعوه ليحافظ على هدوء البناية من مرحنا. تقول له: عيد ميلاد. يقول: لا يعنيني.

ويا أيها الجيران الطيبون! لماذا لم تنبهوني إلى أن فرحي يؤلمكم؟ لماذا تنهمر موسيقاكم المأخوذة من لحمي على نوافذي كل ليلة، ولا أحتج. متى تخرجون من حلقي أيها الجيران، متى؟

وحين تأوي إلى الفراش لتنام، تقتنع بأن الجيران كانوا على حق. في الصباح تعتذر لهم قائلاً: لا يحق لي أن أحتفل ما دمت جاركم. سامحوني أيها الجيران، فقد تبت عن الاحتفال.

١٥

تريد أن تستأجر شقة؟

تقرأ أبواب الإعلانات في الجرائد. وتقفز إلى التليفون: سيدتي.. قرأت إعلاناً عن شقتك، هل لي أن أراها؟

تصل إليك ضحكتها وسعادتها فتمتلىء بالأمل: الشقة ممتازة يا سيدي، على الكرمل. تعال واحجزها فوراً.

تنسى أن تدفع ثمن المكالمة التليفونية، وتسرع إليها. تعجب بك السيدة، وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد تسلم المفتاح. وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة على رأس السيدة: ماذا عربي؟ عفواً يا سيد... اتصل غداً!

تتكرر القصة عدة أسابيع. وفي كل مرة تعود خائباً تقرأ شرفات المنازل، وتسأل عن أصحابها الغائبين في رياح الهجرة والمنافي. كم من بيت بناه صاحبه ولم يسكنه. إن أصحاب هذه المنازل ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها في جيوبهم وقلوبهم في انتظار العودة. العودة

إلى أين؟ لو عاد أحدهم إلى منزله فهل يسمح له باستعمال مفتاحه؟ أو هل بوسعه أن يستأجر غرفة واحدة في بيته. ويقولون لك: «إن الصهيونية لم ترتكب إثماً. كل ما في الأمر أنها أحضرت شعباً بلا وطن إلى وطن بلا شعب».

وتسألهم عمن بنى هذه البيوت. عندها ينصرفون عنك وينجبون مزيداً من الأطفال في بيوت مسروقة.

١٦

تريد أن تزور أمك في العيد؟

من شهور طويلة لم تزر أمك وأباك وإخوتك في قرية لا تبعد عنك أكثر من ساعة. تجتهد في اختيار الكلمات التي تتضمنها رسالتك إلى البوليس هذه المرة. تكتب: «أتمنى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعر الإنسانية الخالصة التي آمل ألّا تروا فيها، هذه المرة، تصادماً مع حرصكم الشديد على صيانة متطلبات أمن الدولة ومقتضيات الدفاع عن سلامة الجمهور. وأرجو، بموافقتكم المنشودة على إصدار تصريح لزيارة أهلي في العيد، أن تبرهنوا على أن أمن الدولة ليس نقيضاً للحد الأدنى من فهم مشاعر الناس».

يغادر أصدقاؤك المدينة، وتبقى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك. كل العائلات يلتئم شملها غداً، وليس من حقك أن تقتحم بيت أحد. وتبقى وحدك.

الحل في البحر. في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطىء وحدك وتطفىء نارك في الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك أن

تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة. لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟ الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير. ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً. تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك. بمناسبة.. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك. حتى وهم يسبحون وهم يمزحون وهم يتبادلون القبل يشتمون شعبك. أليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة صفاء وحب، فينسونك قليلاً؟ كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطىء! تذهب طافحاً بالملح والحنين والشمس إلى مقهى الشاطىء. تشرب البيرة وتصفر لحناً حزيناً فتنهال عليك النظرات. تشغل نفسك بإشعال سيجارة لا طعم لها، ثم تشتري ذرة صفراء وتأكل.وحدك. تتمنى لو تقضي اليوم كله على الشاطىء لتنسى أن اليوم عيد وأن أهلك ينتظرونك. ولكن، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة فتذكر كل شيء. وتشتعل زرقة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك. وتسير..

عند مدخل دائرة الشرطة ينتظرك أخوك الصغير، ويقول لك: أسرع. أثبت وجودك بسرعة. أمك تنتظرك في غرفتك. تنسى قلمك وروايتك وتعود لاهثاً. رفضت أمك أن تأكل طعام العيد بدونك، فجاءت وأحضرت لك كل شيء.. حتى الخبز والأطباق والقهوة أحضرتها معها من القرية.. حتى زيت الزيتون والملح والتوابل.

تودعك أمك في المساء. تقبلها وتغلق الباب خلفها. لا تستطيع مرافقتها حتى الشارع لأن الشمس قد غربت. ودولة إسرائيل لا

تسمح لك بمغادرة المنزل بعد غروب الشمس حتى لو كان السبب وداع أمك. تجد نفسك وحيداً في العيد من جديد. تجلس على كرسي قديم، تستمع إلى كونسرت رقم ١ لتشايكوفسكي، فتبكي فجأة كما لم تبكِ طفلاً.

من سنين طويلة تحمل هذا البكاء الذي ينهمر الآن. يا أمي! ما زلت طفلاً. أريد أن أحمل أحزاني وأركض بها نحوك كي أصبها في حضنك. أريد أن أقطع المسافات لأبكي في حضنك.

فجأة تناديك الجارة لتقول لك إن أمك ما زالت مسمرة خلف الباب. تخرج إليها، وتحقق أمنيتك في البكاء بين يديها!

١٧

أحياناً، يلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

ولو فكرت ملياً، لما وجدت تهمة أخرى. فهذه الكتابة وهذه الخطابة ليست إلّا مظهراً من مظاهر تجلي الحلم في لغة. ما الفرق، إذن، في نظر القانون بين الحلم الصامت والحلم الصاخب.

ــ كنت تنوي أن تقول كلاماً آخر.

ــ كنت تنوي أن تفعل شيئاً آخر.

ويدهشك أيضاً أنك مستعد دائماً للإجابة عن تهمة لا تعرفها. وإذا لم يتهمك أحد بادرت إلى اتهام نفسك.

ـ ماذا فعلت من أجل أي شيء؟

ـ ماذا في وسعك أن تفعل من أجل أي شيء؟

تصعد، يوم السبت، إلى الجبل ولا تدرك الفجر أبداً. تدهشك العلاقة النادرة بين الشمس والسجون. هذه الشمس ــ متى رأيت ولادتها لأول مرة! لا تكذب ولا تقل إنك بحثت عنها في نزهة أو معركة. أيقظوك في ساعة مبكرة ووضعوا زنديك في حديد جديد، وأخرجوك إلى ساحة السجن. وهناك شاهدت ولادة الشمس لأول مرة. لا تكذب ولا تقل إنها لم تكن جميلة، وإنك لم تشعر بالحياء.

تصعد، يوم السبت، إلى الجبل. لا ليس هذا جبلاً، فالكرمل مئذنة اللّه. تطل منها أشجار تغطي مدافع مضادة للطائرات والجمال. لو وقف هنا مؤذن وهمس: حي على الصلاة، لامتلأت مساجد دمشق بالمصلين. ويمر عنك العشاق والجنود «هل كان البيت، والقرية. والحياة التي نخلقها هنا.. هل كانت عزيزة وحقيقية وعادلة إلى هذا الحد قبل الآن» ــ هكذا يقولون بعد الحرب والانتصار. وهكذا تقول أنت أيضاً بعد الحرب والهزيمة. ويقولون: «مع كل خطوة على هذه الطبيعة تتراجع الظلال وتحتلك الخضرة والأمل». وهكذا تقول: «مع كل خطوة على هذه الطبيعة يسقط قلبي وتحتلني الخضرة والأمل والغزاة».

ويلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

ــ ماذا كنت ستفعل لو انتصرتم في الحرب!؟

تجيبهم: أصعد إلى الجبل. أختار أية صنوبرة. أجلس. أمد قدمي في

البحر الأبيض المتوسط. أضع يدي على شعر السماء. وأتابع الحلم كما أفعل الآن تماماً.

ـ ما هكذا يفعل المنتصرون.

ـ لم أنتصر مرة واحدة في حياتي لأعرف كيف يسلك المنتصرون.

وتشعر أنك لم تعد مواطناً. تاريخك أحلام تتمزق كأوراق الجرائد. وكل حلم فجيعة.

ماذا تنفعك اليرموك والقادسية والمعارك السابقة؟ ولماذا أنت! لماذا أنت! جميل هو الكرمل.. وقريبة هي السماء، والنصر بعيد. وماذا فعلت من أجل أي شيء؟ لا شيء. تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج إنسانيتك.

هكذا تصبح شجرة أو حجراً أو أي شيء في الطبيعة!

من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً

هنا ينامون. أسماؤهم كثيرة وموتهم واحد. كانوا متعبين وكان الغروب صغيراً، فسقطوا بسهولة ولم يقولوا شيئاً لأن الموعد كان مفاجئاً. وماذا لو أحيطوا علماً؟ فالوصايا معهم.. والعائلة كلها عائدة من العمل، والعالم ليس لهم.

هنا ينامون. نالوا عقاباً على جريمة غامضة. لم يخرجوا في مظاهرة واحدة، ولم يدافعوا عن الحياة والتراب إلّا بالصلوات. كانوا يخرجون من البؤس في الصباح الباكر ويعودون إلى البؤس في الغروب الباكر. وكانوا ينتظرون المطر، فجاءهم الموت في غزارة المطر.

هنا ينامون. ويكبر الغروب، ويتحول إلى غابات من الشجر الجاف. لا وقت لذكراهم ولا مناسبة ولا موعد. الحجارة هي الوقت، وامتداد الغروب الذي لا لون له هو الوقت. وماذا نسميهم؟

ليست مذبحة كفر قاسم يوماً للذكرى. وليست مرحلة يغلبها النسيان. إنها تاريخ كراهية ممتد منذ استل هرتسل سيفه من التوراة وأشهره في وجه الشرق. فسكان هذه القرية المسحوقة المهملة لم يفعلوا شيئاً يثير غضبة أحد ولو كان عدواً متطوعاً. لم يقاتلوا إلّا الطبيعة القاسية والبؤس الأسود. فمن أجل ماذا ماتوا؟ لم يموتوا من أجلنا كثيراً. هم ضحايا لا شهداء. وتلك هي مأساتهم المزدوجة، وذاك هو حزننا المزدوج عليهم. في وسعنا أن نقول لهم ماتوا من أجل أن نعمق كراهيتنا للظلم والاغتصاب. ومن أجل أن نعمق عبادتنا للأرض. ولكننا لا نحتاج إلى هذا البرهان الضاري. إننا قادرون على تنمية حاسة الحب والكراهية بدون هذا الموت المجاني. فمن أجل ماذا ماتوا إذن؟

ليس من أجلنا، بل من أجل القتلة. لكي يمتلىء الصهيوني بالإحساس بأنه قادر على أن يمثل دوراً في التاريخ غير دور الضحية. من أجل هذا البرهان يتلذذ بالقتل. «إما أن أكون قاتلاً وإما أن أكون قتيلاً». هذا هو الخيار الضيّق الذي وضعه لنفسه.

في المحكمة ــ المسرحية، استجوب المحامي جندياً إسرائيلياً من الذين اشتركوا في المذبحة:

ــ هل صحيح أنك تعمل في البلاد، وأنه طيلة حياتك أدخل إليك الشعور بأن العرب هم أعداؤنا؟

الجندي: نعم.

المحامي: هل صحيح أنك تحمل هذا الشعور نفسه تجاه العرب في إسرائيل والعرب خارجها؟

الجندي: نعم. ليس عندي أي فرق.

المحامي: هل صحيح أنك شعرت بأنك إذا لم تنفذ الأمر بقتل كل عربي في كفر قاسم إذا رأيته خارج بيته، فإنك تكون قد خنت الروح التي تربيت عليها في الجيش وفي حرس الحدود؟

الجندي: نعم.

المحامي: لو كنت تسير، أيام الحرب، في أحد شوارع يافا مثلاً، ولقيت عربياً، فهل تطلق الرصاص عليه؟

الجندي: لا أعرف.

القاضي: لو جرى معك في كفر قاسم ما يلي: بعد الساعة الخامسة نادتك امرأة، وكنت متأكداً من أنها ليست خطرة ولا تهدد الأمن. فقط نادتك وأرادت أن تسألك سؤالاً أو تطلب منك السماح لها بالعبور إلى بيتها. ولنفترض أن هذا كان في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة مثلاً، فلو كانت هذه المرأة تبعد ١٠ أمتار عن بيتها وهي تطلب منك السماح لها بدخوله. ماذا تفعل؟

الجندي: لا أسمح لها.

القاضي: ماذا كنت تفعل؟

الجندي: إذا كانت في الشارع.. أطلق عليها الرصاص.

القاضي: ولكن لم يكن أي خطر. كل ما في الأمر أن شخصاً ما، بسبب خطأ ما، أو بسبب أنه لم يعلم بأمر منع التجول

توجه إليك وأراد، بإذن منك، قطع الشارع. السؤال هو: إنك، رغم ذلك، كنت ستقتل كل واحد أم أنك كنت تميز وتمتنع عن القتل في حالات معينة؟

الجندي: ما كنت أميّز.

القاضي: هل كنت ستقتل كل واحد؟

الجندي: نعم.

القاضي: حتى لو كان ذلك الشخص امرأة أو طفلاً؟

الجندي: نعم.

القاضي: كنت تقتل كل من تراه.

الجندي: نعم.

وهذا ما حدث فعلاً ..

طفل عمره ثماني سنوات، واسمه طلال شاكر عيسى. هربت عنزة من ساحة داره إلى الشارع. لا الطفل ولا العنزة يفهمان بأن أمر منع التجول قد أصبح ساري المفعول في القرية منذ دقائق معدودة. ركض الطفل وراء العنزة، فانهمر رصاص بندقية وأرداه قتيلاً.

لحق به أبوه، فاستأنفت البندقية مهمتها.

ركضت الأم نحو زوجها وابنها، فاستأنفت البندقية مهمتها. لحقت الابنة نورة بوالديها وأخيها، فاستأنفت البندقية مهمتها.

وماذا كانت مهمة البندقية؟

عشية الهجوم الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، دعا اللواء شدمي الرائد مالينكي إلى مقر قيادته، وأبلغه بالمهمات الملقاة على الوحدة الخاضعة له. كانت إحدى هذه المهمات التي ألقيت على عاتق حرس الحدود في المنطقة الوسطى فرض منع التجول وبقاء السكان داخل بيوتهم في قرية كفرقاسم والقرى المجاورة لها، ابتداء من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة صباحاً. ودار بين القائدين الحوار التالي كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

شدمي: يجب أن يكون منع التجول حازماً جداً، وتتم المحافظة عليه بيد قوية، لا بواسطة اعتقال المخالفين، وإنما بإطلاق النار عليهم. ومن الأفضل قتلهم بدلاً من تعقيدات الاعتقالات.

مالينكي: وما هو مصير المواطن الذي يعود من عمله خارج القرية، دون أن يعلم بأمر منع التجول، ومن المحتمل أن يقابل في مدخل القرية وحدات من حرس الحدود؟

شدمي: لا أريد عواطف. الله يرحمه!

وبانتهاء الحوار السريع والحازم، قدم مالينكي إلى ضابط قوات الاحتياط التابع لفرقته أمراً يتضمن العبارة التالية: «لا يسمح لأي ساكن أن يترك بيته خلال منع التجول. ومن يترك بيته تطلق عليه النار. ولا تكون اعتقالات».

ودار الحوار التالي بين مالينكي وبين جنوده، كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

جندي: ماذا نفعل بالمصابين؟

مالينكي: يجب عدم الاهتمام بهم. أو يجب عدم نقلهم. أو لن يكون هناك جرحى. [حسب الشهادات التي وردت في المحكمة].

قائد أحد الأقسام: وماذا بشأن النساء والأطفال؟

مالينكي: بدون عواطف.

القائد نفسه: وماذا بشأن العائدين من العمل؟

مالينكي: حكمهم كحكم الجميع. الله يرحمهم. هكذا قال القائد.

في اليوم ذاته، وفي الساعة الرابعة والنصف، أي قبل سريان مفعول منع التجول بنصف ساعة فقط، كان رقيب من حرس الحدود يبلغ مختار قرية كفرقاسم بفرض منع التجول ابتداء من الساعة الخامسة مساء وحتى السادسة صباحاً. وحذره بأن منع التجول سيكون حازماً ويتضمن خطر الموت. وطلب منه أن يعلن ذلك في القرية. فأخبره المختار أن أربعمائة عامل من كفرقاسم موجودون، في هذه اللحظة، في أماكن عملهم خارج القرية. قسم منهم في أماكن قريبة. وقسم آخر في أماكن بعيدة مثل يافا واللّد. وأنه من المتعذر عليه إبلاغهم بأمر منع التجول في مثل هذه الفترة القصيرة. بعد المناقشة وعد الرقيب المختار بأنه سيسمح للعائدين من العمل بالمرور على عاتقه وعلى عاتق الحكومة!

وعلى عاتقه.. وعلى عاتق الحكومة، تمّ في الساعة الأولى من منع التجول.. بين الخامسة والسادسة مساء قتل سبعة وأربعين مواطناً عربياً من قرية كفرقاسم على أيدي حرس الحدود. ومن بين القتلى

سبعة أولاد وبنات وتسع نساء.

بعد عشر سنين من المذبحة التي روت عطش الإسرائيلي إلى الدم العربي الأعزل روى أحد الذين نجوا من المذبحة بأعجوبة (صالح خليل عيسى) للشاعر توفيق زياد شهادته على المجزرة:

«في ذلك اليوم كنت أعمل في بيارة مع اثنين من أبناء عمي. أنهينا العمل بعد الساعة الرابعة بقليل، وركبنا دراجاتنا عائدين إلى القرية. في الطريق التقينا بعمال آخرين قالوا لنا إن في القرية منع تجول وإطلاق رصاص ولا أحد يعرف لماذا. هكذا سمعوا. بعد تردد قررنا مواصلة الطريق. كان عددنا يزداد حتى أصبح خمسة عشر عاملاً. صرنا على بعد كيلومتر من القرية. لم تكن لدينا مخاوف جدّية. احتمال واحد كنت أفكرْ به.. وهو أن يتعرض لنا ضابط قوة الحدود «بلوم». ربما سيشتمنا ويضربنا قليلاً كالعادة. ولم أفكر بشيء آخر.

بعد قليل سمعنا صوت إطلاق رصاص. بدأت أحسّ أن المسألة خطيرة. قلت لابن عمي: فلنرجع. راح يشجعني. وكان معنا شيخ في حوالى الستين راح يشجعنا بآيات قرآنية. واقتربنا حتى صرنا على بعد مائة متر عن أقرب بيت في القرية.

فجأة.. ظهر رجل من حرس الحدود واعترض طريقنا: قفوا! وحتى تلك اللحظة، فإن ما كنت أتصوره هو الضرب.. لا الموت.

نزلنا عن الدراجات. وأمرنا الجندي بالوقوف في صف:

ــ من أين أنتم؟

□ من كفرقاسم. صحنا بصوت واحد.

ـ وأين كنتم؟

□ في العمل.

ابتعد عنا نحو خمسة أمتار، حيث كان اثنان من زملائه يحمل كل واحد منهما مدفعاً رشاشاً وصاح:

ـ احصدوهم!

ولم أصدق إلّا عندما راح الرصاص ينهمر في اتجاهنا. الرشة الأولى على أرجلنا. والثانية أعلى قليلاً. وسقطت مع الآخرين. كانت بجانبي عربة خيل كانوا قد احتجزوا صاحبها وأطلقوا عليه الرصاص معنا. سقطتُ خلف العربة، لا أعرف كيف. شعرت أنني ما زلت حياً فقط بعدما سقطت. وهذا كل شيء. وابتعد عنا الجنود الثلاثة نحو عشرة أمتار.

وجاءت، بعد لحظات، سيارة شحن. أوقفوها. أمروا ركابها بالنزول. كان فيها كثيرون (عرفت فيما بعد أن عددهم كان ثلاثة وعشرين) من عمال شركة أساميا للزراعة.

تقدم منهم الآمر نفسه الذي أصدر الأمر بإطلاق الرصاص علينا، وأمرهم بالنزول والاصطفاف خلف السيارة. وبعد أن اصطفوا خلف السيارة ملتصقين، ابتعد عنهم ذلك الآمر ثم صرخ:

ـ احصدوهم!

هرب البعض. وسقطت الأكثرية.

وعاد القتلة الثلاثة حيث كنت وباقي ركاب الدراجات القتلى، وأخذوا يكومونهم في كومة واحدة على بعد ثلاثة أمتار مني. كانوا يستعملون بطاريات ويطلقون الرصاص. إنهم يجهزون على الجرحى.

واقتربوا مني. سحبوا العربة بعيداً. دولابها الحديدي مشى بكل ثقله على قدمي. كنت أصرّ بأسناني حتى لا أصرخ. تظاهرت بأني ميت. سحبوني ووضعوني على الكوم.. وابتعدوا.

بعدما كوّموا قتلى سيارة الشحن على بعد عشرة أمتار منا، جاءت سيارة شحن أخرى كان فيها شخصان. قتلوهما. وسمعت هدير سيارة جيب آتية من الطريق الشرقي.. من ناحية القرية. كانت مطفأة. سمعت لغطاً ورأيت شخصاً ينزل منها. لم أفهم الكلام إذ كانوا على بعد عشرين متراً مني. ثم عادت السيارة من حيث أتت.

وسادت فترة هدوء.

ورأيت القتلة الثلاثة يسيرون ثم يجلسون على بئر القرية. ثم جاءت سيارة شحن. [لعلك لاحظت أنهم كانوا يقتلون كل فوج جديد على بعد بضعة أمتار من الذي سبقه في الاتجاه المعاكس للقرية، حتى لا يرى الفوج الجديد مصير سابقه] ولكن السيارة التي أشرت إليها مرت على أكوام القتلى. ويبدو أن القتَلَة ما عادوا يكترثون بأن يلاحظ الضحايا الجدد مصير الذين سبقوهم أم لا يلاحظون. ومرت السيارة من جانب كوم القتلى الذي كنت فيه.

سمعت أصواتاً نسائية. كان في السيارة كما عرفت فيما بعد ثلاث عشرة امرأة من اثنتي عشرة سنة فما فوق، وأربعة رجال.

وفجأة، ركض القتلة الثلاثة وراء السيارة، وأوقفوها، وأنزلوا ركابها.

وفكرت. السيارة تبعد عني من عشرين إلى خمسة وعشرين متراً. وشعرت بقوة هائلة تنفضني. وقفت ورحت أركض. لم أدر كيف قفزت عن سياج أمامي. كنت أركض في اتجاه موازٍ للسيارة دون أن أعي. ومثل المطر، انهمر الرصاص في اتجاهي. واختلط صوت الرصاص بزعيق النساء وأصوات ارتطام أجسامهن بالأرض. وأحسست بالرصاص يخترق ثيابي. عندها فقط عرفت أين أنا. انبطحت. ثم رحت أحبو على يدي ورجلي في كرم زيتون. كنت أتصور الزيتون مملوءاً جيشاً وسيارات عسكرية، وأنه من الممكن أن أصطدم بهم في كل لحظة. وخلف صخرة كبيرة، تحت زيتونة، اختبأت وأنا أفكر بالموت الذي يمكن أن يغتالني في أية لحظة. بقيت هناك حتى الصباح والدم ينزف من جرحين في يدي ورجلي. وفي الصباح اكتشف موضعي جنديان، ونقلت إلى المستشفى».

في صباح اليوم التالي، بحث المجرمون عن وسيلة لدفن الجريمة. أحضروا أشخاصاً من القرية المجاورة ــ جلجولية ــ إلى مقبرة كفرقاسم، وأمروهم بأن يحفروا سبعة وأربعين قبراً. لم يعرف المكلفون بحفر القبور شيئاً عن الجريمة. كان عليهم أن يحفروا وكفى.. ومن يومها، كبرت مقبرة كفرقاسم وصارت مزار شعب، ودليلاً على «طهارة» السلاح اليهودي في إسرائيل!

لم تنته الجريمة بدفن الموتى. لم تنته المجزرة بجفاف الدم. فلكي تستكمل عملية القتل شروطها الإسرائيلية، كان لا بد «للضمير الإسرائيلي» المشهور بالحساسية تجاه أي خدش يصيب أي يهودي في أي مكان من العالم، من دخول تجربة الاختبار الإنساني. كان لا بد من البحث عن حقيقة وجود هذا الضمير الحساس. كان الضمير غائباً.. غائباً لأن ضحايا المجزرة عرب. ويبدو أن شرعية قتل العرب أو عدم الاكتراث تجاه قتلهم أصبح حالة تلقائية سائدة في المجتمع الإسرائيلي الذي ربي على غريزة العداء لهذه المخلوقات التي تعكر صفو «النقاء» اليهودي في فلسطين. كان الصمت السادي أو المبتهج سائداً. ولم تخرج عن قانون الصمت إلّا بعض الأقلام التي آلمها انتهاك شروط السمعة الطيبة للسلاح اليهودي التي يروّجها دعاة الجرائم الصهيونية. لم تكن قصيدة الشاعر الإسرائيلي البارز ناتان الترمان دفاعاً عن العدالة الصريعة على مدخل كفرقاسم، بقدر ما كانت دفاعاً عن سمعة مجتمع الاغتصاب الإسرائيلي:

«لا ينبغي الكتابة عن شيء آخر.

لا كتابة قصة ولا قصيدة، لأن اللغة العبرية ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذي جرى في إسرائيل.

هذه هي طبيعة هذه اللغة. وهذه صفتها.

يقولون: سنجري محاكمة ــ وينتهي الأمر. سيتكلم العدل ويصدر حكمه.

يقولون: لنترك ذلك للإجراءات القضائية. أولا يكفي ذلك؟

ـ لا. ذلك ليس كل شيء.

إن القضاء أبجدية مفروغ منها، لأنه لا يمكن للجريمة ألّا توقظ القانون.

لكن قبل المحاكمة وبعدها ـ سيظل ينقص هذه القضية مبدأ كبير.

لا يمكن أن يقوم مجتمع إنساني حدثت فيه مثل هذه النذالة،

دون أن تثور فيه رعشة وغضب.

غضب جماهيري يحمل السخط الإنساني والفردي.

سخط الرجال والنساء.

ذلك لأنه بدون هذا يكون القضاء ردّ فعل ميكانيكي، مبرمج وآلي،

ردع فعل يدور في فراغ وليس في وسط شعب واع متيقظ الحواس».

ولقد دمّر الكاتب بوعز عبرون ادعاء السمعة الأخلاقية والروحية التي يروّج لها دعاة السلطة الإسرائيلية، فكتب «منذ الجريمة ونحن في امتحان. لقد وضعت استقامتنا وإنسانيتنا وشجاعتنا في امتحان فشلنا في اجتيازه». وعدّد أربعة مذنبين: «الأول، الصحافة. فباستثناء صحيفتين أو ثلاث صحف من الشواذ، اتفقت الصحافة على مؤامرة صمت وأسدلت ستاراً على الجريمة. فبدلاً من الكتابة عن القتل والجريمة في كفرقاسم، كتبت عن «مصيبة» وعن «خطيئة» وعن «الحادث المؤسف». وحين كتبت هذه الصحف عن

ضحايا المصيبة لم يعد واضحاً عمن تتحدث: عن القتلى أم عن القتلة. «المذنب الثاني هو القيادة الدينية والأوساط الدينية في البلاد. هؤلاء الذين يطلبون سلطة لكي «يسيطر الخلق اليهودي» و«روح جدنا إسرائيل». هؤلاء صمتوا بلا مبالاة كاملة. حتى ولا شخصية دينية واحدة هبّت لتنقذ شرف الديانة اليهودية». «المذنب الثالث هو القيادة الأكاديمية. فباستثناء قليل من «المجانين» لم يوجد تقريباً بروفسور أو محاضر واحد يصرخ «هذا قتل». «والمذنب الرابع هو القيادة الأدبية ــ الفنية. فمنظمة الأدباء التي عرفت دائماً أن «تحتج بكل شدة» وأن «تتوجه إلى ضمير العالم المستنير» صمتت وما زالت صامتة وستصمت». وأضاف الكاتب: «وماذا عن الأحزاب التي كانت تجلس طوال ذلك الوقت كله في الحكم ملوّحة بشعارات السلام والعدل وأخوة الشعوب؟ أين كان الثوريون؟ وأين كنا نحن.. المواطنين البسطاء الذين أحسسنا بالقرف والاحتقار، ونحن نشاهد رقصة الجن؟».

رقصة الجن هي المحاكمة.

وهي الفصل الثالث في الجريمة التي بدأت بالقتل ثم الصمت.. ثم المحاكمة. تمهيداً للمحاكمة ــ التي راوغت الحكومة في إجرائها ــ تجري مصالحة مهينة بين حكومة إسرائيل وبين ذوي ضحايا كفرقاسم!

خصصت وزارة الدفاع مبلغ مائة ألف ليرة ثمناً لخمسين ضحية عربية.

أرخص ثمن في التاريخ.

وتمت التسعيرة بالشكل التالي: ألفا ليرة لمن هو في الخامسة عشرة. ألف ليرة سعر ما دون الثامنة. المتزوج وليس له أولاد ثمنه ثلاثة آلاف ليرة. المتزوج وله ولد واحد يساوي أربعة آلاف ليرة. المتزوج وله أكثر من ولد واحد يساوي خمسة آلاف ليرة. وبالوسائل الإسرائيلية، المعروفة وغير المعروفة، فرضت السلطة المصالحة والتعويضات.

ثم .. بدأت محاكمة القتلة، بعدما أدين القتلى!

بعد سنتين من وقوع الجريمة، أصدرت المحكمة التي استغرقت وقتاً طويلاً قراراتها. ما أجمل أن توزع السلطة العسكرية أدوارها بين قاتل وقاض وشاهد.

وفي حكمها «العادل» قررت المحكمة أنها وجدت الرائد شموئيل مالينكي والملازم جبرائيل دهان مذنبين في قتل ثلاثة وأربعين مواطناً. فحكمت على الأول بالسجن لمدة سبع عشرة سنة وعلى الثاني خمس عشرة سنة. أما المتهم الثالث شالوم عوفر، الذي ارتكب بصورة رهيبة أكثر عمليات القتل ــ كما جاء في كتاب المحامي صبري جريس استناداً إلى قرارات المحكمة المركزية ــ فقد وجد مذنباً مع دهان بقتل ٤١ مواطناً وحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. أما المتهمان الرابع والخامس ــ الجندي مخلوف حريش والجندي إلياهو إبراهام ــ فقد وجدا مذنبين بقتل ٢٢ مواطناً. والمتهمون السادس والسابع والثامن ــ العريف جبرائيل عوليل، والجندي ألبرت فحيمة، والجندي ادموند نحماني ــ فقد وجدوا مذنبين بقتل ١٧ مواطناً، وحكم على كل واحد منهم ومن الاثنين السابقين بالسجن لمدة ثماني سنوات. وبرأت المحكمة

المتهمين الثلاثة الباقين.

ومع أن هذه الأحكام الخفيفة ــ التي تنطوي على تشجيع مزيد من القتل تحت غطاء التسامح القانوني ــ قد أثارت دهشة المواطنين العرب وقلقهم على مستقبلهم، فإنها قد أثارت سخط المتطرفين اليهود في إسرائيل الذين ادعوا أن القتلة قاموا بواجبهم القومي. ولم يتورع بعض الصحف الإسرائيلية عن المطالبة بإصدار العفو عن القتلة.

ولم يكن مدهشاً ومفاجئاً أن يستجيب المسؤولون الإسرائيليون إلى هذه المطالبة الشعبية، فقد وجدت المحكمة العسكرية العليا للاستئناف أن الحكم الصادر على القتلة كان قاسياً جداً ومن الواجب تخفيفه، فأصدرت حكماً بخفض الحكم على مالينكي إلى ١٤ سنة، وعلى دهان إلى عشر سنوات، وعلى عوفر إلى تسع سنوات. ثم تدخل رئيس أركان الجيش فخفض الحكم على مالينكي إلى عشر سنوات، وعلى دهان إلى ثماني سنوات، وعلى بقية القتلة إلى أربع سنوات.

وجاء رئيس الدولة ليعمق مبادىء عدالة القتل الإسرائيلي، فمنح كلاً من مالينكي ودهان عفواً جزئياً وخفض الأحكام عليهما إلى خمس سنوات!

لقد أخذت سلسلة التخفيفات هذه شكل المباراة في تقديم المكافآت إلى القتلة تقديراً لنجاحهم في القتل بدم بارد، فتبرعت «لجنة إطلاق سراح المسجونين» بخفض الثلث من مدة السجن لكل واحد من المحكوم عليهم. وأطلق سراح آخر واحد من القتلة

في بداية عام ١٩٦٠. ووجد المسؤولون الإسرائيليون أن جبرائيل دهان الذي قتل ٤٣ عربياً خلال ساعة واحدة يستحق وظيفة مدنية جديرة بصلات الدم التي تربطه بالعرب، فأعلنت بلدية الرملة في العام ذاته أنها قبلت دهان للعمل فيها بوظيفة «المسؤول عن شؤون العرب في المدينة».

وماذا عن اللواء شدمي الذي أصدر أوامره إلى مالينكي؟ وأوصاه بأن ينشر بين جنوده تعاليم «بدون عواطف»؟ وماذا عن المصدر الكبير الذي تلقى منه شدمي الأوامر العليا؟ إن محاكمة شدمي، بصورة حقيقية، ستكشف النقاب عن المصدر الأعلى للأوامر. ولذلك، قدم شدمي أمام محكمة عسكرية صورية عيّن أعضاءها رئيس أركان الجيش.

تمت المحاكمة بشكل سريع. ووجدت المحكمة أن شدمي مذنب في «خطأ تِقَني فقط». ولهذا حكمت.. بتوبيخه. وبدفع غرامة مالية قدرها: قرش إسرائيلي واحد.

لعل قرش شدمي أثمن عملة في تاريخ الجرائم. ستطول شهرته كثيراً ما دام للجريمة مكان على سطح الكرة الأرضية. إن المسؤول عن قتل تسعة وأربعين مدنياً بريئاً في قرية آمنة يعاقب بدفع قرش واحد. هذا لا يحدث كثيراً.. لا يحدث كثيراً في التاريخ، إلّا عندما يتعلم أبناء ضحايا النازية كيف يقلدون قتلتهم. هذا هو الدرس الذي تعلمه أصحاب التطبيق الصهيوني على أرض فلسطين.

وماذا كتب آحاد هعام ـ المفكر اليهودي الذي كرّس حياته

لدعوى الصهيونية ومقاومة اندماج اليهود في أوروبا الشرقية؟ ماذا كتب حين شاهد، بعينيه سلوك المهاجرين اليهود إلى فلسطين عام ١٨٩١، وقبل أن ينشئوا دولتهم؟ كتب: «وماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود في فلسطين؟ كانوا عبيداً في بلاد الدياسبورا، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها. ولقد ولد هذا التحول المفاجىء في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد، كما تكون الحال عندما يصير العبد سيداً. وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم يوجهون لهم الإهانات دون أي مبرر كاف ويفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف بوجه هذا الميل الخسيس والخطير في آن واحد». إذا كان آحاد هعام الصهيوني الكلاسيكي قد اشتكى من شراسة المهاجرين الأوائل، قبل أن ينشئوا دولة ويملكوا جيشاً وسلاحاً، فماذا من الممكن أن يكتب المراقب الآن؟

لم تكتف غريزة الجريمة لدى الحكم الإسرائيلي بقتل ٤٩ عربياً في كفرقاسم، وتبرئة المنفّذين، وبعدم محاكمة المسؤولين لأن ذلك يعني محاكمة الكيان الإسرائيلي من أساسه. لم تكتف بذلك، وإنما امتلكت من السادية والنفاق قدراً جعلها تبتز من الضحايا اعترافاً بالشرعية وتأييداً للسلاح الفاتك. فبالوسائل الإسرائيلية ابتزت السلطة الإسرائيلية، بعد المجزرة مباشرة، تأييداً للحزب الحاكم في الانتخابات البرلمانية. فقد حصل الحزب الحاكم القاتل على الأغلبية الساحقة من أصوات الناخبين في القرية المنكوبة. فصارت الجريمة مزدوجة: قتلوهم.. وأرغموهم على إعلان الولاء. لقد استجوبوا الجثث، واستنطقوها لتقول للغزاة القتلة: نعم!

أراد القتلة أن يصوروا ما حدث في كفرقاسم بأنه حادث، فهل هو حادث.. أم هو طبيعة ملازمة للممارسة الصهيونية على أرض فلسطين، وسياسة مستمرة تجاه المواطنين العرب الواقعة تحت الأسر الإسرائيلي؟ لقد قالوا عن دير ياسين أيضاً أنها حادث، فهل يكون الحادث حادثاً إذا تكرر عشرات المرات. إن القتل بدم بارد، والعنف المسلّح هما فلسفة إسرائيلية. وقد ملأ الفكر الصهيوني صفحات كثيرة لإعطاء العنف شرعية مستمدة من الحاجة إلى قيام إسرائيل والمحافظة عليها. وقد نلاحظ أن بعض الصهيونيين الليبراليين إنما يعارضون بعض مظاهر العنف عندما يضيع الفارق بين العنف الذي يرمي إلى تحقيق هدف سياسي وبين العنف الذي يرتكب جريمة ليس وراءها هدف غير الانتقام الحيواني. وهذا ما يفسّر غضبة آحاد هعام الشهيرة، لأن الموقف المتكامل من معارضة العنف الصهيوني إنما يستدرج صاحبه إلى رفض القاعدة القانونية التي نشأ عليها كيان إسرائيل، وهي العنف المسلّح. ولكن ما جرى في كفرقاسم يتجاوز مفاهيم العنف المسلّح الذي يجد له تبريراً سياسياً لدى البعض. فلم تكن الجريمة هناك مثل جريمة دير ياسين مثلاً التي هدف الغزاة منها إلى دبّ الفزع بين العرب لدفعهم إلى الرحيل وحققت أهدافاً سياسية لمصلحة التوسع والانتصار الإسرائيليين. ولم تكن الجريمة «وقائية» للمحافظة على أي مطلب من متطلبات الأمن الإسرائيلي، إذ لم يهدد عمال كفرقاسم وفلاحوها وأطفالها ونساؤها أمن دولة إسرائيل، ولم يعرقلوا اندفاع جيشها نحو سيناء! الجريمة هنا خططت ونفّذت بدون «ضرورة» و«حاجة» إذا جاز التعبير. إنها جريمة من أجل الجريمة. إنها أعلى أشكال الجريمة التي تحركها غرائز القتل والانتقام. وقد عبّر عن هذا النوع من العنف المسلّح الإرهابي الشهير مناحيم بيغن، حين كتب

أن أساليب العنف التي لجأ إليها الصهيونيون قبل ١٩٤٨ هي الطريق الوحيد الفعّال لتأمين الأهداف القومية في فلسطين، وأنها «أشبعت رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود للانتقام». كان ذلك قبل ٤٨، فلماذا في كفرقاسم ٥٦؟ لعل فلسفة الوجود كما يفهمها الصهيوني الإرهابي «أنا أحارب إذن أنا موجود» تحتاج دائماً إلى ممارسة مستمرة وإلى برهان جديد. ولعل الصهيوني الإسرائيلي الذي يحمل رغبة مكبوتة للانتقام ــ كما يقول بيغن ــ محتاج إلى تجديد وجوده بطريقة وحيدة هي الحرب، وإلى ملء هذا الوجود بأسباب مستمرة لجدارة التفرد، وهي القتل والقتل والقتل. «كن أخي وإلّا قتلتك». هكذا يضيف فيلسوف الجريمة. وليس في وسع العربي الواقع في الأسر الإسرائيلي أن يؤاخي قاتله. وهكذا تبقى حلقة القتل مفرغة بلا نهاية.

ليس في الفكر الصهيوني نهاية للمبررات التي لا تحصى للعنف المسلّح الذي لا يفتقر إلى استلهام الديانة أيضاً. ولهذا، صار يهوشع بن نون بطلاً إسرائيلياً معاصراً بسبب وحشية أسلوبه في التعامل مع الشعوب غير اليهودية. هذه الوحشية التي تشكل تشابهاً تاريخياً مع التطبيق الصهيوني اليوم يحتاج له أصحاب القرار السياسي في إسرائيل كمصدر وحي وإلهام، وكركيزة تراثية لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على اعتبار أن كل جريمة تصير شرعية وقانونية من أجل تحقيق الهدف الصهيوني. وقد بلغ التطرف باستحضار إرهاب يهوشع بن نون مدى دفع بعض «العقلاء» الإسرائيليين إلى الدعوة لتحريم تدريس يهوشع بن نون في المدارس لأنه يشكل إفساداً لروح الشباب يجعله عاجزاً عن التعود على الحياة، بسلام، مع العرب في حالة تغير ظروف العلاقات بين العرب واليهود.

إن ما تدّعيه إسرائيل من حساسية تجاه ما تعدّه ظلماً لاحقاً باليهود في أي مكان بالعالم، سرعان ما يتحول إلى عمل إنساني مشروع حين تمارسه ضد العرب. وإن ما كان يعتبر وحشية عندما كان يمارس ضد يهودي، سرعان ما يتحول إلى واجب قومي يهودي عندما ينفذ بالسلاح اليهودي «الطاهر» عندما يتم تطبيقه ضد العرب. وليس عربياً القائل إن الصهيونية «تعتبر العمل الواحد حقاً وصواباً إذا قامت هي به وخطأ غير مشروع إذا قام به غيرها». القائل هو موشيه سميلانسكي الذي قال إن القومية اليهودية في فلسطين مبنية على أنانية عسكرية تؤمن بالعنف وبعيدة كل البعد عن الإنسانية.

خلاصة القول أن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل ضد السكان العرب المدنيين والتي تمثل مذبحة كفرقاسم تجسيداً صارخاً لها، ليست ناشئة عن تطبيق «رديء» للتراث الصهيوني «الجيد»، ولكنها تطبيق جيد للتراث الصهيوني الرديء. وهذه النقطة بالذات هي التي تشكل صخرة صماء وعقدة مستعصية الحل أمام الذين يدافعون عن مبادىء الصهيونية «النظيفة» ويعترضون على التطبيق الإسرائيلي القذر لهذه المبادىء، أو الذين يعترضون على «الانتهاكات» الإسرائيلية «لقداسة» التعاليم الصهيونية. إن الاعتراض على الممارسة الإسرائيلية سيبقى محاولة لاجتراح المستحيل إذا بقي أسير الالتزام بفكرة الدفاع عن سلامة الإيديولوجية الصهيونية، وضرباً من ضروب خداع النفس وخداع الآخرين.

إن تراث الصهيونية وينبوعها «الصافي» هو الذي حلَّل العنف والجريمة. كان جابوتنسكي واضحاً مع نفسه حين قال لمستشار الطلبة اليهود في فيينا: «تستطيع أن تلغي كل شيء: القبعات،

والأحزمة، والألوان، والإفراط في الشراب، والأغاني. أما السيف فلا يمكن إلغاؤه. عليكم أن تحتفظوا بالسيف، لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل. إن السيف والتوراة أنزلا علينا من السماء».

ليس التحدي الذي اختارته الصهيونية دائراً على القيم الإنسانية والتحدي الحضاري كما تدّعي، ولكنه التحدي حول أولوية الانتماء إلى العنف المسلّح وإلى السيف. وقد بلغت المنافسة حول هذه الصفة بمفكر صهيوني آخر هو جوزيف بيرديشفسكي حداً جعله يعترض على صحبة السيف والكتاب، فقال: «إن كلاًّ من السيف والكتاب يناقض الآخر بل ويقضي عليه كلياً. إن الفترة التي يعيشها الشعب اليهودي هي فترة عصيبة. وفي مثل هذه الفترات يعيش الرجال والأمم بالسيف وليس بالكتاب. إن السيف ليس شيئاً مجرداً أو بعيداً عن الحياة. إنه تجسيد مادي للحياة في أنقى معانيها، أما الكتاب فليس كذلك».

مثلما لا نجد نهاية، في الفكر الصهيوني، لمبررات الإرهاب والعنف المسلّح المستلهمة من الأحكام السياسية والذرائع الدينية، وعقدة الكبت التاريخي، كذلك لا نجد على الطبيعة الإسرائيلية نهاية لهذا التطبيق. دعا الرواد الأوائل إلى العنف، ومارسه الجنود الإسرائيليون وحرس الحدود، وادعى الدعاة أن السلاح الإسرائيلي أطهر سلاح وأن الغزاة الإسرائيليين هم أجمل الغزاة. وقد برهنوا هذه المزاعم، مرات كثيرة، وأثبتوا «جمالهم وطهارتهم» في كل طرائق تعاملهم مع السكان العرب، وبالذات مع عمال كفرقاسم وأطفالها. بغرامة قرش واحد فقط يسدل الستار على ذبح ٤٩ مواطناً.

وحين كنا نحاول دخول كفر قاسم لمشاركتها في إحياء ذكرى ضحاياها، كان حرس الحدود إياهم... القتلة إياهم يضربون حصاراً حول القرية الثكلى، ويمنعون الزوار من نقل التعازي. هؤلاء القتلة الأبطال لماذا يخافون ذكرى ضحاياهم؟ ليس تأنيب الضمير هو الذي يدفعهم إلى قمع الذكرى، بل الكراهية والسادية، والشعور بالحاجة إلى برهنة وجودهم... موجودون دائماً مع الجريمة، وكأنهم يجددون عملية القتل كل سنة بمحاولة قتل الذكرى. ولكننا نعرف كيف نحيي ذكرى ضحايا المذبحة... ولقد عرف الشعب العربي في فلسطين كيف ينتقم لأبنائه: شدّ على تربة الوطن بأظافره وأسنانه، وقال للغزاة: لن أوقع صك الغفران. ومضت السلطة في الانتقام من هذا الشعب، وبلغ الانتقام أوجه حين دشّنت مدينة السرقة «كرمئيل» على أنقاض أراضي ثلاث قرى عربية في الجليل في يوم ذكرى مذبحة كفرقاسم بالذات، لتظهر للعرب حقيقة نواياها تجاههم، ولتدلهم على حديْ السيف الذي تحاربهم به: القتل مرة، ومصادرة الأرض مرة أخرى.

لم تكن كفرقاسم قرية ذات شأن في تاريخ فلسطين. ولا تستطيع الرؤيا الشعرية أن تستخرج منها لوحة جميلة. ولكن ذلك الغروب الواقف على حافة الدم جعل كفرقاسم المجهولة ملحمة شعب صابر. وحين وقفنا على مدخلها، ذات مساء، أحسسنا بضراوة الفرح المكبوت فينا. وعرفنا الجريمة التي ننال عليها كل هذا العقاب. وأدركنا أن الحجارة هي الوقت، فجلسنا عليها نغني للوطن.

الفرح.. عندما يخون!

١

علّموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. من أين يأتيك فجأة!

تغزوك الأيام بذكريات لا تشبهك. كنت خارجاً، للتوّ، من الخامس عشر من أيار/ مايو. وكنت عاجزاً عن الالتصاق بالأشياء التي ابتعدت عن مسام جلدك. وقد مات جدّك الذي أوصاك بمراقبة الرابية المطلة على مصادر موته. أخوك يحب الخطابة، فوقف على الأطلال ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. لم تبلغ الثلاثين، ولكن محاذاة الموت تعطيك الحكمة. ومن الحكمة ألّا تبدو عاطفياً في حضرة الآخرين.

تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تنسل من الجنازة الثانية وتعد أهلك بالعودة لزيارتهم في جنازة قادمة. فهذه هي المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشد العلاقة بين الموت

والحركة. وكنت خارجاً، للتو، من ذكرى الخامس عشر من أيار/ مايو. كنت مسرعاً إلى البيت لا لتسبق الشمس الغاربة، وإنما لتهرب من الأضواء المتفجرة في الشوارع في عيد مصرعك التاسع عشر.

ماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

وفي كل ليلة، من كل عام، في مثل هذا اليوم يتحدد انتحارك الذي لا يشعر به أحد. الانتحار غالباً ما يكون تظاهرة. ولكن انتحارك سرّ. يهبط عليك يوم، يثقب جلدك وينتشر في عظمك رويداً رويداً كزلزال صغير لا ينتهي، لا يكبر ولا تنفجر.

الانفجار ــ هذا ما يشغل بالك. تنتظر هذه النهاية منذ عشرين سنة، ولا تأتي. لأن حالتك لا تفهم ولا تصل. ما أسهل أن تكتب قصيدة تجهض الانفجار. وما أسهل أن تحاور خصمك لتثبت ماذا؟ أن لك حقاً؟

وماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

ولو أعطوك كل شيء، فماذا أنت فاعل. هل ترضى؟ هل تكف عن البحث عن نقطة انفجار؟ وهل تأمن الفرح؟ إن من سلبك كل شيء لن يعطيك أي شيء. ولو أعطاك أهانك. «كن عاقلاً واذهب إلى الطين» هكذا قلت لنفسك، ولم ترد على سؤالي: لو أعطوك كل شيء، فهل تأتمن الفرح؟ وتلتفت إلى إيامك وتصنف أجمل الشعارات التي حملتها وسرت بها إلى السجون:

تصريح سفر..

حرية تعبير..

مساواة..

وفجأة تضحك، تضحكك المساواة. وأنت تناضل لكي لا تأتمن الفرح.. ولقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية، فمن أين يأتيك فجأة؟

٢

تنتظر شيئاً آخر..

حالة الانتظار هي المبرر الوحيد لاقتناعك بمطالب تبقى صالحة، طيلة السنة، وتسفر عن سماجتها في منتصف أيار/ مايو دائماً.

لست مسؤولاً عن شيء مما مضى. ليس الماضي من صنع يديك وأخطائك. ولكنه ميراثك. هل ذهبت إلى طبريا مثلاً؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذه المدينة التي تحمل بحيرتها وتنزل إلى تحت. وأنت لا تراها. هل تكون تافهة رغبتك الجامحة في لقياها؟ وهل يكون كفاحك رخيصاً لو طالبت بالسفر إلى مدنك؟ لا. ولكنك تنتظر. ولماذا ترى طبريا ما دامت المدافع العربية تطل عليها وتعدك بها؟

تنام وجهاز الراديو ساهر في سريرك. تعرف أسماء المذيعين في كل الإذاعات العربية، ومواعيد نشرات الأخبار، وتلاوة آيات من الذكر الحكيم، والأغاني والتمثيليات. وكلها جميلة. كل ما يفعله العرب

جميل لأنه ظهرك. لا يعترض أحد على أصوات مضيفات الطائرة، فكلها أصوات جميلة ما دامت تعلن عن قرب هبوط الطائرة في مدينة ما. وكل المذيعين والعاملين في الإذاعة وعدوك بسلامة الوصول إلى المدن التي تشتهيها. ليس من حقك، الآن، أن تعرف الحقيقة لأن الحقيقة قد تعني انتهاء حقك في الانتظار. ويوم ثار الجدل بين النقاد على تحديد شخصية «جودو» اللامعقولة، لم تفهم دواعي الضجة، وكنت أذكى من كل النقاد ومن بيكيت نفسه. فمن انتظر عشرين عاماً يعرف جودو.

وهل ذهبت إلى قيسارية؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذا الشاطىء الذهبي، وتشعر بالنشوة. وحين كانت العرب تخطىء في نطق أسماء مدنك وقراك لم تكن تغضب عليهم ولا تعاتبهم. كنت تلجأ إلى دليل الأسماء العبرية وتفهم. ثم تبتسم للأخطاء العربية كما يبتسم الأب لأخطاء طفله الذي يتدرب على النطق.

وكنت تتساءل أحياناً:

ما هي العلاقة بين الغزاة وبين هذه الحجارة والمياه والأشجار؟ ولم تفطن إلّا في وقت لاحق إلى أن أدبهم السياسي والوجداني شديد الالتصاق بها بشكل يثير الدهشة، ويتعامل مع جزئيات وأشياء لا تراها. ليس هذا ذنبك. فمنذ بلغت الصبا حددوا إقامتك وصارت كتابتهم وسيلتك الوحيدة للتعرف إلى وطنك، مفارقة غريبة، أليس كذلك؟ باطل الأباطيل والكل زائل. ثم تفطن في وقت لاحق أيضاً إلى أن جانباً من جوانب صراعك هو التنافس الوجداني على حب هذه الأرض، وليس الدعوى الذهنية فقط. لقد زوجوا

الدعوى بالعاطفة. كيف؟ هل يكون الغازي عاشقاً إلى هذا الحد؟ لم يكتب الفرنسيون والأميركيون غزلاً في غابات فيتنام. ولكنهم يموتون وبدون حب. تخاف الفكرة، وتخشى أن يتحول المثل إلى حجة عليك، ولكن الجزائر تنقذك. فيهدأ بالك وترتاح إلى جدوى الانتظار.

وقد سألوك كثيراً:

خياليون.. خياليون أيها العرب. ما دام انتماؤكم إلى هذه البلاد حقيقياً وعميقاً فلماذا لا تكتبون شعراً في الطبيعة؟

الطبيعة.. ما هي؟ تخرج إلى الشرفة فيسرقك المساء ويعيدك الحارس. ومن ثقب سيارة الشرطة تعطي عينيك للطبيعة. كيف يجتمع الأزرق والأخضر والبرتقالي في إناء واحد ولا يختلط؟ تحافظ الألوان على استقلال جمالها وتجانسها المشترك: ينزل الكرمل إلى الشاطىء ليبدأ البحر. ينتهي البحر ليبدأ المساء. ينتهي المساء ليبدأ التحقيق:

ــ خياليون.. خياليون أيها العرب.

□ لماذا؟

ــ لأنكم لا تعترفون بالزمن!

□ ماذا تعنون؟

ــ مرت ١٩ سنة، وتطالبون بالأوهام.

□ تعلمنا صداقة الوهم منكم.

ــ ماذا تعني؟

□ مرت ٢٠٠٠ سنة، وتطالبون بالأوهام.

ـ هذه بلادنا.

□ وهذه بلادنا.

ـ نحن أقوى.

□ خياليون أيها الإسرائيليون.. خياليون.

ـ لماذا؟

□ لأنكم لا تعترفون بالزمن.

ـ ماذا تعني؟

□ القوة لا تخلق الحق. ونحن أقوى مع الزمن.

ـ ولكنها بلادنا، سندافع عنها.

□ بلادنا وسندافع عنها.

ـ نحتكم إلى السلاح إذن.

□ لقد احتكمتم. ونحن لم نحتكم بعد.

وكان حزيران/ يونيو خلف الباب

كنت تنتظر

وكانوا ينتظرون.

كن متفائلاً، واذهب إلى حزيران/ يونيو.

من هنا، جاءك الفرح فجأة. وقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية.

٣

صار الإسرائيلي العادي متأرجحاً بين النص والخبز. كان يقول «عدت» إلى أرض الميعاد تحقيقاً لرسالة البعث التاريخي للأمة اليهودية العظيمة. وفي حالات أقل مثالية كان يقول «جئت» إلى أرض الأمان لأنجو بجلدي من الاضطهاد النازي. «للغربان وطن وليس لي وطن». وفي حالات أكثر واقعية يقول «أعيش» على أرض إسرائيل، وليس لي من هدف إلّا الأمن والعيش بسلام. ولم يقرأ الحكمة القائلة «عدلت، أمنت، فنمت».

ولقد خفّ الإحساس الوطني الإسرائيلي، قبل حزيران/ يونيو، عندما واجه حقيقة الفارق بين «أرض الميعاد» في أناشيد الطلائع «أرض السمن والعسل وحلّ المشكلة اليهودية» وبين الواقع الذي أخذ شكلاً شديد القسوة في أيار/ مايو، عندما وصلت البطالة والغلاء ذروة خطيرة. وصارت الهجرة من إسرائيل لا إلى إسرائيل هي القضية المطروحة، وانتعشت حاسة السخرية اليهودية لدى الإسرائيلي الذي يقول: «يرجى من المسافر الأخير ألّا ينسى إطفاء النور في مطار اللد». والتهمت الكتب التي تتندر على رئيس الوزراء كل الكتب الصهيونية القومية. فأرض السمن والعسل ليس فيها خبز وزبدة. ثم التقت الأزمة الاقتصادية الخانقة بالتوتر الشديد على خطوط الهدنة، فتأرجح الإسرائيلي العادي، هذه المرة، بين المطلب الاقتصادي والجسد وصارت الصحف الإسرائيلية تتهم العمال المضربين عن العمل بالعمالة للمنظمات الفدائية الفلسطينية. وصار في وسع المراقب أن يلاحظ أن نقمة الإسرائيليين على مؤسستهم تصرف إلى الحدود.

الأمن ــ أولاً، والخبز ــ ثانياً. والمؤسسة الإسرائيلية تنمي حاسة

الخوف اليهودي باستمرار لتحقق أكثر من هدف: امتصاص مطالب الناس الاقتصادية، وتوظيفها في مسألة الحرب. اندفع الإسرائيليون إلى القتال بشراسة تحت غطاء «الدفاع عن النفس من خطر الإبادة». وإيهام العالم الخارجي بمدى الخشية الإسرائيلية من الغزوة العربية.

وكان رجل الشارع خائفاً. خائفاً حقاً.

وكان أصدقاؤك الإسرائيليون يزورونك كل مساء. يشربون حتى الثمالة كأنهم يشربون الحياة. «من يدري، فقد تنشب الحرب غداً، وقد لا نعود»، كان الوطن يتحول عندهم إلى كارثة، من أجل هذه النهاية جئنا؟

لم يعد الإسرائيلي الحي خيراً من اليهودي الميت. وكنت تتساءل: كيف استطاعت المؤسسة الإسرائيلية أن تشحنهم بكل هذا الخوف المسرحي. كانوا فعلاً يمثلون، ربما دون أن يدري معظمهم، مسرحية المسافرين إلى الموت. اليأس... اليأس. إن اليأس طاقة تفجيرية. وكانوا يسألونك: كيف ننجو؟ وكنت تكلمهم عن حقوق الآخرين، فيضيقون ذرعاً، ويقررون: ليس أمامنا إلّا القتال. لا مفر. لن نموت بلا سلاح. الموت في ميدان القتال خير من الموت في البيت. وتتفجر فيهم حاسة مسادة الانتحارية. ويشربون بشراهة كأنهم يشربون الحياة. ويتصالح العاشق مع عشيقته. وتتحول العذارى إلى أمهات بسرعة مدهشة. ويعود المطلّق إلى زوجته. وتأتلف الأحزاب المتعارضة وتنشأ جبهة قومية، ويبحثون عن بطل قومي.

ويودعونك ولا يعودون.

٤

وحين تسير في شوارع المدينة، تكون وحدك. لا لونك يعلن هويتك، ولا مطاردة البوليس لك. إن الشارع نفسه يطاردك ويعلنك. لأنك الشاب الوحيد. ومن يمشِ في الشارع في تلك الأيام يكن عربياً. ويلعنك الأطفال والشيوخ. فتخجل من السير في الشوارع. أكشاك الفلافل والسندويتشات خالية. دور السينما خالية، البلاد كلها خالية من الشباب. صحف كثيرة لا تعرف من يقرأها ومن يوزعها ولكنك ترى أن أولاد المدارس الصغار هم الذين يوزعون زجاجات الحليب والبريد.

وعلموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. فمن أين جاءك فجأة؟

يقترب الانتظار من الانفجار. وتسألك أمك أن تعتني بسلامتك. والمصير ــ كل المصير يأخذ شكل طلقة. ترى الحرب ولا ترى موتاً. تخرج منك الذكريات دفعة واحدة. ولا وقت للتصور القادم. تذكر، فجأة، أن فلسطين بلادك. يأخذك الاسم الضائع إلى عصور ضائعة. كأنّ هذه المرأة النائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط تصحو دفعة واحدة حين تناديها باسمها الفاتن. حرموك من الأناشيد المدرسية القديمة وسيرة الثوار والشعراء الذين خاطبوها. الاسم يعود... يعود أخيراً من رحلة العبث. تفتح خارطتها كأنك تفتح أزرار ثياب حبيبتك الأولى لأول مرة: كان شيء يشبه الفضة ــ كانت طبريا. تصعد القدس إلى خصر إله. صفد طارت إلى أول قبلة. وفي عكا أجلسك الحب على صخرة البحر. ترى إلى الخارطة وتصفر لحناً مرحاً مرحاً. وتنسى حيفا لأنك دائماً تنسى قلبك. تشعر بصداقة عميقة مع الأيام. لم تكن قاسية إلى الحد الذي تتصوره، ولكن مزاحها كان سمجاً أحياناً. دنيا! تمد أصابعك الطويلة إلى

أجزاء المرأة الذكية النائمة على ورق صقيل: الخصر رفيع يشربه البحر وخطوط الهدنة. ثم تقبّلها وتعانقها وتموت من اللذة ـــ الوعد. ولا تقف على أرض، سابح... سابح مفتون بالغموض. وتذكر طفولتك القاسية وطفولة المستقبل والأشجار. ثم تقطع شوارع عكا، وتقف طويلاً عند شارع بيروت. كنت تشعر بالمعجزة يوم كان أصدقاؤك الكبار يخبرونك عن رحلاتهم الأسبوعية إلى دمشق وبيروت والقاهرة. تأخذ القطار من حيفا، يمر القطار في العريش ويوصلك إلى القاهرة. تأخذ سيارة أجرة من عكا، وبعد أقل من ساعة تكون في ساحة البرج. وتكمل السهرة عند ضفة بردى الذي تصورته في حجم الفرح. تسألهم: هل كانت بيروت والقاهرة ودمشق قريبة إلى هذا الحد. كانت... كانت أقرب. وكانت فلسطين ملتقى الشرق. وفيها غنّى عبد الوهاب وأم كلثوم. لو وقفت على الأهرام وقذفت حجراً على فلسطين لوصل عصفوراً. والآن، ماذا؟ يخرج عصفور من فلسطين فيبيض سرباً من اللاجئين عند ضواحي دمشق. مزّقونا فتكاثرنا لاجئين. شيء في الداخل وشيء في الخارج. في الخارج ـــ ينمو الأطفال على حليب وكالة الغوث فيتحول في عروقهم إلى دم فلسطيني. وفي الداخل تأكل من قمح مرج بن عامر وتصبح «مواطناً إسرائيلياً»، وتقضي نصف عمرك لكي تجد اعترافاً واحداً بأنك «مواطن فلسطيني» فلا تجد. ويوم هبط أول إنسان على سطح القمر كنت مشغولاً بكتابة رسائل عاطفية إلى البوليس الإسرائيلي ليأذن لك بالسفر إلى قرية أهلك! في الخارج يحسدونك لأنك في وطنك وهم لاجئون. تخبرهم أن منظر الماء لا يروي الظامىء بل يُدْميه. لا يفصلك عن أرضك الآن إلّا شارع لو قطعته لاعتقلت، واتهمت بالتسلل والاعتداء على أملاك الدولة. قف على رصيف الشارع وتحول إلى شجرة يابسة. وبينك وبين الموت حافة سكين. وحين

تراهم يحرثون أرضك ينزل المحراث في كبدك، وحين تصرخ من الغيظ والألم يتهمونك بالعداء للسامية! هذا هو الشعر، والنهر بعيد. تؤثر الشعر على عبور النهر. فيحاسبك النقاد المترفون على اعترافات لم تعلنها ولم تخترها ولا شأن لك بها. الرفض العلني معناه النفي العلني. هكذا تصبح المعادلة مميتة: أن أرفض أعدائي، بهذا الشكل، معناه أن أرفض وجودي. تحايل على الصيغة لكي تحتفظ ببقائك. وهكذا تفضل الشعر على عبور النهر. فيتهمك النقاد المترفون بالخيانة القومية. ويتهمك أعداؤك بالعداء للسامية.

قف على رصيف الشارع، وتحول إلى شجرة يابسة. وحين تراهم يروون أرضك بالماء تنهمر الأفراح التي يبعثها المطر. المهم ألّا تعطش الأرض. ولو متّ أنت من الظمأ. هكذا كان يفعل جدك. قضى بقية حياته واقفاً على رصيف الشارع في محاذاة حافة السكين. وبين تحوله إلى شجرة يابسة وبين فرحه بالمطر ونزول المحراث في كبده توقف قلبه ومات. رثاه أخوك الذي يحب الكتابة ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. كنتم تدفنون الشجرة اليابسة ــ جدك في قبر ما تمناه. الأحياء محرومون من بيوتهم وأرضهم. والموتى محرومون من قبورهم.

وما عدت تخرج إلى شوارع المدينة في تلك الأيام. تجلس في الغرفة وتنفض الغبار عن أسماء مدنك. اكتشفت فلسطين اسمها، وعاودك الحب.

٥

ابتدأ كل شيء.

وانتهى كل شيء.

وبين البداية والنهاية خانك الفرح الذي كنت تحذره دائماً. كل شيء يتحول من حجارة إلى أفكار. كنت في المخبأ معلقاً على حبل الفارق بين يومين لا يتشابهان. ليسكت الوطن قليلاً. لقد وقعت الخصومة بينك وبين الحياة ذاتها. يأخذك الزلزال ويطرحك أرضاً، عادوا إلى أورشليم: الجنرال، والكاهن، والزانية. «لن نخرج من هنا إلى الأبد». نفخوا في الصور وصلوا ودقّوا رؤوسهم بحجارة الحائط القديم، حتى سالت دماؤهم. لا حرب بلا دماء، ولم يخسروا دماً كثيراً في الحرب، فليعلنوا ثمن الحرب تطوعاً وتبرعاً لحجارة الهيكل. تسمع أصواتهم عبر الراديو. لقد وصلوا إلى الرب عبر جثث أهلك التي لم تدافع عن نفسها. العنف مرة أخرى. العنف يعلن جدارته. وبدعاوي الحق لا تأخذ شيئاً ولا تستطيع الاحتفاظ بشيء. أنت لا تبكي، عادة، ولكن سقوط القدس يعني سقوط الدموع. توقظك صلواتهم، ترفع ستار نافذة المخبأ، بعد يومين، فيجتاحك شلال الضوء الزاحف من حيفا التي كانت غارقة في التعتيم الكاذب... لم ترَ ناساً، قبل اليوم، قادرين على الفرح الوحشي بمثل هذه الطاقة. دقات طبول وصفارات أطفال وأضواء كثيرة. لم يفرحوا بسقوط القدس والضفة وسيناء والجولان كما يعلنون أفراحهم الآن. لقد سقط عبد الناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير في حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعيد عبد الناصر إلى الوقوف. كيف يكون الرمز في حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ... كان كل شيء يتوقف عن الحركة. كان الجائع يشبع، والغريب يعود. وكانت فلسطين تقف على أقدامها تأهباً للتحرير. يوم كان جمال

عبد الناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ، كان سكان الأرض المحتلة يعتقلون أنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قرب أجهزة الراديو. وكثيراً ما كانوا يندفعون إلى الجهاز الذي يحمل صوت عبد الناصر ويقبلونه في نشوة وطنية وإنسانية لا توصف. والآن يذهب؟ صار التعلق بالوطن والتحرير مرتبطاً بعودة عبد الناصر. وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصاراً، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة.

تترك أوراق الجريدة في المخبأ. ماذا كتبت؟ كنت تغطي أخبار المعارك وتكتب الجريدة، وتبوبها، وتصحح بروفاتها، لأن زملاءك في هيئة التحرير قد اعتقلوا. دخلت مجموعة من رجال البوليس في ساعة مبكرة من صباح ذلك الاثنين وتلوا اسم زميل. وضعوا يديه في الحديد، وساقوه، على مرأى من الناس، إلى سيارة الشرطة. ثم عادوا وتلوا اسماً آخر، حتى لم يبق غير رئيس التحرير وغيرك في المكتب. والجريدة تصدر غداً في موعدها. المهم أن تصدر الجريدة لتحمل لوناً من الأمل إلى قرائك الذين لا يحميهم من الحرب النفسية سواكم؟.. التفت إليك رئيس التحرير وقال: خذ أوراقك واذهب إلى أي مكان. الآن دورك! وذهبت إلى أي مكان لتواصل كتابة الجريدة. وعلمت فيما بعد، أن زملاءك قادتهم الشرطة في شكل أسرى إلى ساحة المدينة، على مرأى من الإسرائيليين، الذين رأوا الفوج الأول من أسرى الحرب. من قرر عملية الاعتقال الداخلية؟ في الرابع من حزيران/ يونيو وقّع قائد الجيش على لائحة المرشحين للاعتقال. كل شيء منظم. وفي المخبأ لم تعرف شيئاً عن الحقيقة: العرب يعلنون عن تغلغلهم في فلسطين. والإسرائيليون لا يقولون شيئاً. تسمع الذعر المنتشر خارج المنزل. وتسمع عن هيجان البوليس في القرى العربية المنتظرة... الضرب والتعذيب والسباب.

ولكن الناس تعد عمر سلاسلها باللحظات. هذه رقصة البجعة. وتسمع عن احتراق مصافي البترول منذ ساعات، وتسجل الخبر. وتفطن، بعد قليل، إلى أن مخبأك مطل على الميناء، تسترق النظر عبر ستارة النافذة، فلا تجد حريقاً في مصافي البترول. الحريق في القلب. ثم، يأتيك نبأ من البرلمان الإسرائيلي، في أول ساعات المعركة، بأن الوزراء الإسرائيليين يشربون الأنخاب. حمقى... يشربون الأنخاب! كيف. يقولون إنهم قضوا على أسطورة جيش عبد الناصر. وفي منتصف الليل، يأتي قائد الجيش إلى الإذاعة ليعلن حصاد المعارك: تحطمت الطائرات عند الفجر. والقوات الإسرائيلية تقاتل عند مدخل رفح!!

وتعود، من رحلة الأمل السريع، إلى حيفا. تعود إلى الحقيقة. من يعطيك الحقيقة؟ العدو؟ لقد وعدني أهلي بالوصول، فانتظرت. ذهبوا من أماكنهم، فانتظرت الأمل. أخذتني الأناشيد والإذاعات والانقلابات إلى الحقول التي أحلم بها. أخذتني إلى إنسانيتي، وتركتني في منتصف الطريق. أيها العرب! لماذا تكذبون عليّ. لم تكتب هذه الخواطر في الجريدة. كتبت أشياء أخرى. حتى عبد الناصر يذهب، الآن، ويتركني. بلا وطن، وبلا عبد الناصر أيضاً؟!

هكذا ابتدأ كل شيء،

وهكذا، انتهى كل شيء.

ــ أين كنت؟

□ هنا، في البيت.

ــ لماذا لم تفتح الباب منذ ستة أيام؟

□ لأني لا أستقبل الزوار أيام الحرب.

ـــ ولماذا فتحت الآن؟

□ لأن السجن أفضل من البيت. ولأني ألغيت كل مواعيدي. جاهز للاعتقال... جاهز. خذوني!

كانوا ضابطاً، وشاويشاً، وبوليساً.

حين كنت تهبط الدرج إلى سيارة الشرطة، وكنت تودع البيت وعيون الجيران خلف النوافذ، لم تشعر أنك تودع الحرية. كنت تعتقد دائماً أن سيارة الشرطة تأخذك إلى حريتك الحقيقية. تحب تسمية الأشياء بأسمائها وهذا هو الاسم الحقيقي للسجن. في السجن لا تقول: انتهى كل شيء. في السجن تقول: ابتدأ كل شيء والبداية هي الحرية.

ابتدأ كل شيء...

زملاؤك يندفعون إليك، في السجن، ليعتصروا منك خبراً آخر. كانوا منقطعين عن الأخبار إلّا ما يذيعه العدو. ولا يصدقون شيئاً، ويريدون منك خبراً واحداً. وليس عندك شيء. أيها الأصدقاء! يؤسفني أن أقول إن ما بلغكم هو الحقيقة! يغضب بعضهم وتتهمك عيناه باليأس وينصرف عنك. والسجن جميل، دائماً تنتظر شيئاً. وتشغل نفسك بمتطلبات صغيرة. وساعة في اليوم، ترى السماء التي تعيد إليك صداقتك المهزوزة مع الحياة. إن قطعة واحدة من الزرقة تبهج قلبك، ويوم تخرج ستلتهم الأرض كلها. وفي السجن، صرنا كلنا خبراء في المسألة العسكرية. ووجدنا سبباً واحداً للهزيمة: الخيانة. ومن كان يجرؤ منا على الشك بهذا السبب كان يتهم بالانحراف.

ولكن، كيف يبدأ كل شيء وفي أي اتجاه: إما أن يتعمق إحساسك بأنك «مواطن عربي في إسرائيل» وإما أن يتعمق رفضك لهذا الانتماء الذي لا خيار لك فيه. الحالة الأولى تكون رد فعل على خيبة الأمل التي ألحقها بك العرب، وتعزيزاً لاستمرارك في العمل السياسي المتواضع الذي تمارسه ضمن دائرة الممكن وفي إطار القانون الإسرائيلي «كل شيء يبدأ من الداخل، من المطالب الديموقراطية القائمة على الاعتراف بالأمر الواقع». والحالة الثانية تكون رد فعل على العنف الإسرائيلي لاستمرارك بممارسة انتماءاتك الحقيقية كما تختارها أنت «كل شيء يبدأ من الخارج، بدون هزيمة عسكرية تلحق بإسرائيل، لا يمكن أن تحدث تغيرات جوهرية داخل المجتمع الإسرائيلي».

ثمة فارق بين الحالتين، ولكن لا تناقض عميق في ما يترتب عنهما في مثل ظروفك الراهنة من ممارسات ما دمت موجوداً في الداخل والخارج معاً.

لقد هزم العامل الخارجي حقاً، ولكن انتماءك إليه لم يهزم. لأن هذا الانتماء ليس وجهة نظر وليس رأياً قابلاً للمناقشة. إنه حقيقة تاريخية. وتشعر بصدمة تناقض معنوي مباغتة. إن أقصى ما تستطيع ممارسته من كفاح، ضمن دائرة الداخل، يقتضي منك الانطواء تحت راية «الوطنية الإسرائيلية» التي تتناقض مع انتمائك القومي الذي هو حقيقة تاريخية. ومن هنا، بدأت تهتز بعنف وصرت تنشق. لا يعوزك البحث عن عزاء. ليس العزاء قضية. تستطيع القول مثلاً: إني لم أختر ظروفي. وتستطيع القول مثلاً: هذا التناقض قائم، ولكنه ليس القضية السياسية المطروحة الآن. سينفجر التناقض ذات يوم. وإن هذا الانتظار يشكل عقدة نفسية.

ومسألة تحقيق الانسجام مع النفس شرط بعيد المنال.

ولكنك تترك السؤال معلقاً. والشعر هو لغتك. واللغة الشعرية تتلافى مواجهة السؤال القاتل. الشعر يقول ولا يقول. الشعر يقول الحقيقة ولا يعلنها. هذا وطنك، والرد على الغزاة ــ مزيد من الحب لهذا الوطن. لأن أي وهن في العلاقة بينكما منفذ للغزاة. يضعون فلسطين في جيوب بزّاتهم العسكرية. وتبقى فلسطين وطنك.. خارطة، أو مذبحة، أو أرضاً، أو فكرة. إنها وطنك. ولن يقنعك الخنجر بأنها لهم. إن التحدي وهذا السجن يحميانك من إعادة النظر. شكراً للسجان الذي يجعلني والحرية معادلة واحدة. شكراً للقيد الذي يذكِّر زنديّ بأنهما محرومان من معانقة الشجر. وتكتب إلى حبيبتك الوهمية: «أتمنى لك اليأس، يا حبيبتي، لكي تصيري مبدعة. اليائسون هم المبدعون. لا تنتظريني، ولا تنتظري أحداً. انتظري الفكرة ولا تنتظري المفكر. انتظري القصيدة ولا تنتظري الشاعر. انتظري الثورة ولا تنتظري الثائر. المفكر يخطىء. والشاعر يكذب، والثائر يتعب. وهذا هو اليأس الذي أعنيه».

لم تعانق ظلالاً لتندم.

والفرح الذي فاجأك هو الحالة الطارئة. كانت خيانة قاسية. لا بأس. تواصل حياتك وعملك وتمزقك وتناقضك. وقبل كل شيء تواصل رفضك. لن تقول نعم لشيء. لقد خرجت من الفرح بهزيمة، وخرجت من الهزيمة برفض جديد ليس للعدو وحده. هل صار وطنك فكرة؟ التصق بالفكرة. والطريق من حيفا إلى تل أبيب هو المعجزة الجمالية الحقيقية. البحر الأبيض المتوسط على يمينك، وسلاسل الجبال على يسارك، وسلاسل الحديد حول زنديك. والوطن، أجمل ما يكون عبر الأسلاك.

وفي المحكمة يتحقق التكافؤ بين القانون والمدفع. لن يقف القانون معك، ما دام مدفعك ساقطاً. والقتلة دائماً يتحدثون عن الأخلاق بأشكال مختلفة. يأتيك جنود «ليندموا» على عمليات القتل والتخلص من الأسرى ويقولون «لا مفر». وتأتيك صديقة قديمة بحفنة لوز من الضفة الغربية. ما عادوا يشعرون بالخوف ـــ ما عادوا يهود. وفي عكا، ترى أسرى مصريين، يسقط قلبك. جاءوا يحررونك فوقعوا في الأسر. ويأتي العرب الذين كنت تنتظرهم. اللاجئون يعودون.. يعودون سياحاً وأسرى. تخفت الأناشيد العربية، وتعلو الأناشيد العبرية. والإسرائيلي يتحول إلى أسطورة. وفلسطين تنام مرة أخرى في جيوب الفاتحين وعلى ضفاف الأنهار البعيدة. فلسطين وسيناء، فلسطين والجولان. لم يلتقوا في الحرية، والتقوا في الأسر. وفلسطين تنام على ضفاف الأنهار البعيدة، لا تستحم بالماء ولكنها تستحم بالدم القادم. هل تكون ولادة جديدة؟ هكذا يجب أن تكون. لا بد من ولادة. هل يصقلنا الموت؟ هكذا يجب أن يكون. لا بد أن يصقلنا الفرح. ستبدأ المقاومة. ستبدأ المقاومة. انتهى كل شيء. وتبدأ المقاومة. وإذا جاءك الفرح، مرة أخرى، فلا تذكر خيانته السابقة.

ادخل الفرح.. وانفجر!

تقاسيم على سورة القدس

اليوم، علقت على خشبة.. من علقتنا على الحنين.

اليوم تبكون على القدس، والقدس لا تبكي على أحد.

وحين ترتبط الدموع بعقارب ساعة، تصبح القدس زماناً، والمكان هو عيوننا. كل شيء خارجنا ــ المدن، الدموع، المساء الذي لا ينتهي. وفي داخلنا تستقر المدافع المضادة للطائرات ولحنين الأنبياء. لقد سمينا القدس كل الأسماء التي لا تلائمها. وأعلنّا جدارتنا بها بالوسائل التي لا تلائمنا: باللوحة، والقصيدة، ومجلس الأمن، والخيانة، والموت. لم يخرج منا «ارميا» واحد يتجول في شوارعها وفي عيوبنا.. يلعننا ويرثينا.

وحين لا تلحقنا اللعنة فلن نصل إلى الصواب.

وإذا لم تبلغنا المراثي فلن نذوق النعمى.

لتسكت .. لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس.

ولنبحث عن لون آخر لدموع الغد. فليس لنا فيها حائط. والقدس عاصمة الخيام البعيدة، ورؤوس الأموال البعيدة، والشهداء البعيدين. لتسكت.. لتسكت دموع اليوم حتى تصبح القدس عاصمة اللون الأحمر المنحوت من مياه نهر الأردن.

دخلتها مختبئاً بالشجاعة، خائفاً من الشجاعة.

حدث مرة واحدة في حياتي أن رأيت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة. لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة ولم يحدث أيضاً أن تحولت صخرة إلى جندي.

حدث ذلك في القدس. وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندي.

ومنذ الآن.. منذ هذه اللحظة صارت الجنة أقرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانته.

من علّمني هذا الصمت؟ ومن علّم القدس مرافقة هذا المساء الذي لا ينتهي؟

من علّمني كل هذه الشجاعة؟ ومن علّم القدس كل هذه السخرية؟

لا. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة، ولا انتماء النصل إلى

الغمد، كلّا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن ديناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب الذي يفترسك في القدس.

ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

لم يكن لقاء. ولم يكن وداعاً.

اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع، بين اللحم والعظم ـ هي هذه الحالة التي تقابل فيها القدس.

تهجم على باعة الصحف وبقايا الآثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلبات المستوردة، وقد تعلموا لغة الغزاة في ليلة واحدة.. تهجم عليهم في نشوة انتحار. تأخذ أشياءهم، وتصيح تصيح بأعلى صمت: من يشتري صدر تاريخي وظهر تاريخي وعورة تاريخي بلحظة انتصار واحدة؟! ثم تبتسم للغزاة.

ينحني ظهرك. كقوس عربية أيام كان العرب فرساناً وأيام لم يعرفوا النفط والإذاعة، وتتأهب لفعل غامض. في البدء كان الفعل أم كانت الكلمة! تتردد.

ليت ظهرك معدن كي لا ينكسر.

وليت صمتك معدن كي يصدر صوتاً أو رنيناً.

ثم يأخذك الحلم إلى مداخل المدينة: من يشتري تاريخك بلحظة

انتصار من أجل الزينة.. من أجل الزينة. وأنت أمير المؤمنين بأن الجهاد حق، والموت حق.

لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أنا بائع الصحف في كل زمان ولغة.. وأصحاب القدس يبيعونني ويستقبلون الفاتحين ويتكلمون في الحضارة وعلم الأجناس. لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أعطوني صحفاً أخرى وأنباء أخرى، لأني لا أعرف القراءة.

[هكذا قال بائع الصحف]

ــ لا تطلّ نوافذها على شيء.

مفتوحة، تأتيها الهضاب التي لا تحصى أيام الحرب. أيام الحرب لا يحصى إلّا الموتى. تأتيها الهضاب، والشمس، وبنادق الغزاة التي كتبوا عليها «يا أورشليم من ذهب».

وعلى مرمى حلم صغير، رأيتني خارجاً من زنزانة الكرمل التي حجبت عني شكل الحرب. هل رآني أحد وأنا في القدس لكي أعتذر له؟ لن أعود إليها، لأن نوافذها لا تطلّ على شيء يعنيني.

أوقفتني جندية صغيرة وسألتني عن قنبلتي وصلاتي. اعتذرت لوجهي. وقلت للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة، على ذراعي اليمنى آثار حرب، وعلى ذراعي اليسرى آثار رب، لكنني لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية: وماذا تكون؟

قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة والصلاة.

قالت: ماذا تفعل بها.. ماذا تفعل بك لو ربحت؟

قلت: أشتري لوناً لعيني حبيبتي.

حسبتني الجندية شاعراً، فأخلت سبيلي.

وتساءلت: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

[المتكلم ـــ محمود درويش]

ـــ كنز من الصخر، والهزيمة، والشجر النادر..

لو كانت مدينتي الآن معي لتنازلت عن حنجرتي، وشربت الماء المثلج من جدول يسكن جبلاً.

لو كانت مدينتي الآن معي لاعتذرت عن كل مواعيدي، حتى مواعيد الموت التي حددتها وكنت أذهب إليها، عادة، قبل الوقت بخمس دقائق.

علبة من الصخر، والشمس الكثيرة، والهزيمة الموحية.

في البدء لم يكن الفعل، ولم تكن الكلمة. في البدء كانت.. الهزيمة.

لو كانت مدينتي الآن في حقائبي لرحلت. من رآني خاصمني وقتلني لأن مدينتي جميلة تشبه حبيباً لم يولد حتى الآن. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي.

لوحة من الصخر معلقة على سبعة تلال، وثلاثة آلاف سنة، وخمسين نبياً، وأربعة ملايين خنجر، وشجرة، وخمسة قرارات من الأمم المتحدة، ومليون قتيل أو أكثر.

يدي تمتد إليها ولا تصل..

وصلتُ، يوماً، قبل يدي فترنحت على أحد الأرقام. لم أمسك بشيء لأني وصلت قبل يدي. وقلبي لا يخرج من صدري.

تنهمر الأرقام دماً، وعيوناً، وتواريخ، وأحذية، ومراثي، وعروشاً، ومسامير، وأشعاراً.. تنهمر الأرقام وتقتلني لتزيد القتلى والعشاق وأسماء القدس. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي. ويا أيها السادة ــ كنت أكذب عليكم. ليست القدس هذه المدينة. هذه المدينة ليست القدس.

[هكذا قالت فتاة عاطفية تعمل في دائرة السياحة].

صمت من أجل غزة

تحيط خاصرتها بالألغام.. وتنفجر. لا هو موت، ولا هو انتحار.

إنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة.

منذ أربع سنوات، ولحم غزة يتطاير شظايا قذائف.

لا هو سحر، ولا هو أعجوبة.

إنه سلاح غزة في الدفاع عن بقائها، وفي استنزاف العدو.

ومنذ أربع سنوات، والعدو مبتهج بأحلامه، مفتون بمغازلة الزمن.. إلّا في غزة. لأن غزة بعيدة عن أقاربها ولصيقة بالأعداء، لأن غزة جزيرة. كلما انفجرت ـــ وهي لا تكف عن الانفجار ـــ خدشت وجه العدو، وكسرت أحلامه، وصدته عن الرضا بالزمن. لأن الزمن في غزة شيء آخر.. لأن الزمن في غزة ليس عنصراً محايداً. إنه لا يدفع الناس إلى برودة التأمل، ولكنه يدفعهم إلى الانفجار والارتطام بالحقيقة. الزمن هناك لا يأخذ الأطفال تواً من الطفولة

إلى الشيخوخة، ولكنه يجعلهم رجالاً في أول لقاء مع العدو. ليس الزمن في غزة استرخاء، ولكنه اقتحام الظهيرة المشتعلة. لأن القيم في غزة تختلف.. تختلف.. تختلف.. القيمة الوحيدة للإنسان المحتل هي مدى مقاومته للاحتلال. هذه هي المنافسة الوحيدة هناك. وغزة أدمنت معرفة هذه القيمة النبيلة القاسية. لم تتعلمها من الكتب ولا من الدورات الدراسية العاجلة ولا من أبواق الدعاية العالية الصوت ولا من الأناشيد. لقد تعلمتها بالتجربة وحدها. وبالعمل الذي لا يكون من أجل الإعلان والصورة.

إن غزة لا تتباهى بأسلحتها وثوريتها وميزانيتها. إنها تقدم لحمها المر، وتتصرف بإرادتها، وتسكب دمها.

وغزة لا تتقن الخطابة. ليس لغزة حنجرة... مسام جلدها هي التي تتكلم عرقاً ودماً وحرائق.

من هنا، يكرهها العدو حتى القتل. ويخافها حتى الجريمة.. ويسعى إلى إغراقها في البحر أو في الصحراء أو في الدم.

من هنا، يحبها أقاربها وأصدقاؤها على استحياء يصل إلى الغيرة والخوف أحياناً. لأن غزة هي الدرس الوحشي والنموذج المشرق للأعداء والأصدقاء على السواء.

ليست غزة أجمل المدن..

ليس شاطئها أشد زرقة من شواطىء المدن العربية الأخرى..

وليس برتقالها أجمل برتقال على حوض البحر الأبيض.

وليست غزة أغنى المدن..

(سمك وبرتقال ورمال وخيام تخذلها الزيح، وبضائع مهربة، وسواعد تباع للشاري).

وليست أرقى المدن. وليست أكبر المدن. ولكنها تعادل تاريخ أمة. لأنها أشدنا قبحاً في عيون الأعداء، وفقراً وبؤساً وشراسة.. لأنها أشدنا قدرة على تعكير مزاج العدو وراحته. لأنها كابوسه. لأنها برتقال ملغوم، وأطفال بدون طفولة، وشيوخ بلا شيخوخة، ونساء بلا رغبات. لأنها كذلك ــ فهي أجملنا وأصفانا وأغنانا وأكثرنا جدارة بالحب.

نظلمها حين نبحث عن أشعارها. فلا نشوهن جمال غزة. أجمل ما فيها أنها خالية من الشعر، في وقت حاولنا أن ننتصر فيه على العدو بالقصائد.. فصدقنا أنفسنا، وابتهجنا حين رأينا العدو يتركنا نغني.. وتركناه ينتصر. ثم جففنا القصائد عن شفاهنا، فرأينا العدو وقد أتمَّ بناء المدن والحصون والشوارع.

ونظلم غزة حين نحولها إلى أسطورة، لأننا سنكرهها حين نكتشف أنها ليست أكثر من مدينة فقيرة صغيرة تقاوم. وحين نتساءل: ما الذي جعلها أسطورة؟ سنحطم كل مرايانا ونبكي لو كانت فينا كرامة. أو نلعنها لو رفضنا أن نثور على أنفسنا.

ونظلم غزة لو مجّدناها. لأن الافتتان بها سيأخذنا إلى حدّ انتظارها. وغزة لا تجيء إلينا. غزة لا تحررنا. ليست لغزة خيول ولا طائرات ولا عصي سحرية ولا مكاتب في العواصم. إن غزة تحرر نفسها من صفاتنا ولغتنا ومن غزاتها في وقت واحد. وحين نلتقي

بها ــ ذات حلم ــ ربما لن تعرفنا. لأن غزة من مواليد النار ونحن من مواليد الانتظار والبكاء على الديار.

صحيح أن لغزة ظروفاً خاصة وتقاليد ثورية خاصة:

(نقول ذلك لا لنحلل، وإنما لنتحلل).

ولكن سرها ليس لغزاً: مقاومتها شعبية متلاحمة تعرف ماذا تريد (تريد طرد العدو من ثيابها)، وعلاقة المقاومة فيها بالجماهير هي علاقة الجلد بالعظم، وليست علاقة المدرس بالطلبة.

لم تتحول المقاومة في غزة إلى وظيفة.

ولم تتحول المقاومة في غزة إلى مؤسسة.

لم تقبل وصاية أحد، ولم تعلق مصيرها على توقيع أحد أو بصمة أحد.

ولا يهمها كثيراً أن نعرف اسمها وصورتها وفصاحتها. لم تصدق أنها مادة إعلامية وأنها فوتوجنيك. لم تتأهب لعدسات التصوير، ولم تضع معجون الابتسام على وجهها.

لا هي تريد.. ولا نحن نريد.

ولم يتحول جرح غزة إلى منبر للخطابة. من جمال غزة أننا لا نتحدث عنها كثيراً، ولا نعطر دخان أحلامها بعبير أغانينا النسائي.

من هنا ــ تكون غزة تجارة خاسرة للسماسرة. ومن هنا ــ تكون

كنزاً معنوياً وأخلاقياً لا يقدر لكل العرب.

ومن جمال غزة، أن أصواتنا لا تصل إليها، لا شيء يشغلها. لا شيء يدير قبضتها عن وجه العدو. لا شكل الحكم في الدولة الفلسطينية التي سننشئها على الجانب الشرقي من القمر، أو على الجانب الغربي من المريخ حين يتم اكتشافه، ولا طريقة توزيع المقاعد في المجلس الوطني. لا شيء يشغلها. إنها منكبة على الرفض.. الجوع والرفض. العطش والرفض. التشرد والرفض. التعذيب والرفض. الحصار والرفض. والموت والرفض.

قد ينتصر الأعداء على غزة. (قد ينتصر البحر الهائج على جزيرة صغيرة).

قد يقطعون كل أشجارها.

قد يكسرون عظامها..

قد يزرعون الدبابات في أحشاء أطفالها ونسائها. وقد يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم.

ولكنها:

لن تكرر الأكاذيب.

ولن تقول للغزاة: نعم.

وستستمر في الانفجار.

لا هو موت، ولا هو انتحار. ولكنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة..

ذاهِبٌ إلى العالم
غريبٌ عن العالم

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب العالم إلى غرفة النوم.

لقد كان يومه حافلاً. وكان الصفاء يغمر الأرض: ما زالت أدوات الحضارة الغربية تصارع الإرادة البشرية في آسيا. التراب الآسيوي يموت والإنسان الآسيوي يموت. ومياه الأنهار تجرف من فاتهم أن يلتقوا بأدوات الحضارة. وقريباً من البحر الأبيض، ما زالت الأحذية العسكرية، الغربية الصنع، تدوس الحضارة القديمة والإنسان الجديد.. وفي نشرات الأخبار العادية، العادية جداً، يباد حقل من الأطفال، لأنهم عرب ولأنهم قادرون على النمو.

وفي ساعة متأخرة من النهار، ينهض العالم من غرفة النوم إلى غرفة العمليات. لقد كانت ليلته صافية، وأحلامه متواصلة السعادة.

هكذا ينام العالم..

هكذا يستيقظ العالم..

وهكذا ينساني.

لا يذكرني إلّا في حالتين: حين أجرب الموت، وحين أجرب الحياة. ولقد متُّ لمدة ربع قرن وشبعتُ موتاً.

واليوم، اليوم لم يذهب العالم إلى غرفة النوم. وقف على حافة الكرة الأرضية، وأمرني بالخروج من دائرة الإنسانية، لأنني حاولت أن أخترق الدائرة، حاولت الدخول.

ـ ماذا يعنيك من تاريخي أيها العالم.. ماذا يعنيك؟

□ التاريخ هو الماضي، وأنا أدرسه في المعاهد.

ـ وأين رأيتني أول مرة؟

□ كنت أراك دائماً على تراب فلسطين حتى خرجت، وعاد الصفاء والسلام إلى الأرض. فلماذا تعود الآن؟ لماذا تكسر الصفاء؟

هكذا يفهمني العالم، وهكذا يريدني. لقد انتهى صراعنا ما دمت قد خرجت من فلسطين، وما عاد للنار حارس. واكتملت معادلة سلام العالم، وصار الأمن الدولي مشروطاً بغيابي عن فلسطين وعن الإنسانية.

لم أودع أحداً، ولم أودع شيئاً. دحرجني كعب بندقية من الكرمل إلى الميناء، وكنت أتشبث بخاصرة الله وأصرخ، حتى ضاع صوتي

ووعيي. ولكن العالم وعدني بصدقة مقابل التوقيع على هدنة مع النفس، لأن الهدنة مع القاتل لا تتم إلّا بعد الهدنة مع النفس. ولقد تصدق العالم عليَّ: أعطاني طحيناً وثياباً وخياماً كثيرة لي ولأطفالي الذين لم يولدوا مقابل أن أعطيه الوطن والأمن. وحين كنت أشعر بالبرد في المنافي، كانت صحف الرأي العام العالمي تقيني من الأمطار والارتجاف. وحين كنت أشعر بالجوع، كانت فقرة من ثلاثة أسطر في خطاب رئيس دولة متحضرة تشبعني. وحين كنت أشعر بالحنين، كانت الأغاني الأجنبية، المنبثقة من راديو الجيران، تجعل الرحيل تجربة جميلة.

وهكذا يذهب العالم إلى غرفة النوم.. وينساني.

ــ لا توقظوا الضحية، لئلا تصرخ.

ــ من أيقظها.. من المسؤول؟

□ ريح تهب فجأة، فتنعش الموتى.

ــ من أين تهب؟

□ من كل الجهات... من الوطن.

ــ ومن علمهم هذه اللفظة المهجورة؟

□ شعراء يغنون على ربابة.

ــ اقتلوهم؟

□ قتلناهم، فابتكروا لفظة أخرى ــ الحرية.

ــ من علمهم هذه اللفظة العاصية؟

□ ثوار حماسيون.

ــ اقتلوهم؟

□ قتلناهم، فتعلموا كلمة أخرى ــ العدالة.

ــ من علّمهم هذه اللفظة؟

□ الظلم.. هل نقتل الظلم؟

ــ إذا قضيتم على الظلم، قضيتم على أنفسكم.

ــ ما العمل؟

□ نقتل الذاكرة.

وهكذا ينام العالم. وهكذا يصحو. هو مدجج بالسلاح، وأنا مدجج بالقيود. القوي متحضر، والضعيف بربري. وليس التاريخ قاضياً. التاريخ موظف. ماذا كان الهنود الحمر سيقولون لو هزموا غزاتهم. والذين يتباهون بالحضارة والتمدن هم غالباً ما يكونون القتلة.. القتلة. انظروا هذا الثلاثي: الأول ــ أباد شعباً في الماضي، ويبيد اليوم شعباً وتربة في جنوب شرق آسيا، ويفجر علامة تحضره الكبرى ــ القنبلة الذرية ــ في شوارع العالم.. يطالبني بالخروج من حلبة الإنسانية ومن الكرة الأرضية لأنني إرهابي. والثاني ــ ليس من الحكمة أن نذكره بماضيه. لقد أحرق عشرات الملايين من البشر باسم الحضارة والتمدن، والآن يتعانق القاتل والضحية وينجبان وليداً جديداً هو الثالث ــ فماذا ينتج عن زواج الإرهاب إلّا الإرهاب! وجاء الثالث المدجج بالتوراة والسلاح، واقتلعني من جبالي وسهولي ودحرجني من الحضارة إلى الحضيض. هذا الثلاثي يطالبني بالخروج من الكرة الأرضية لأنني إرهابي.

وماذا كان العالم يفعل؟

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب إلى غرفة النوم وينام.

القتل دائماً جريمة. فلماذا يتحول القتل إلى دعامة من دعائم الهيكل الحضاري.

إذا مارسه الأقوياء؟ وهل نشأت إسرائيل على وسيلة أخرى غير القتل والإرهاب. هكذا العالم دائماً ــ شديد الإعجاب بالقتل الجماعي، وشديد التنديد بالقتل الفردي. من حق الدول أن تقتل شعوبها والشعوب الأخرى، وليس من حق فرد أو شعب أن يقاتل من أجل حريته.

ومن هو هذا الرأي العام العالمي؟

نحن نستخدم هذا المصطلح مجازاً، فنطلب العدالة من القتلة إذا كان معنى المصطلح هو تلك الأجهزة الإعلامية التي يديرها أفراد متشابكون في المصالح والعقائد. فلماذا نعطيه مثل هذه القداسة؟ إن الرأي العام الحقيقي ــ الضمير الإنساني ــ لا نراه ولا نسمع صوته، لأن مؤسسة «الرأي العام العالمي» الغربية الرسمية قد خنقته وزيّفته. وإذا كان سلوكنا خاضعاً لمتطلبات كسب «الرأي العام العالمي» المعبّر عنه بالأجهزة الإعلامية الرسمية، فقد آن لنا أن نكتشف أننا نستمرىء عبوديتنا وضياعنا ونبحث لها عن أسباب البقاء، طالما أن هذا «الرأي العام» ملك أفراد فهل يصلح هؤلاء لأن يكونوا قضاة! حين نتحاشى الانتحار يقولون إننا جبناء. وحين ننتحر يقولون برابرة. حين ندعو إلى السلام يقولون إننا كذبة مراؤون. وحين ندعو إلى المعركة يقولون إننا متوحشون. وهل نحن

قتلة؟ من قتل من؟ هل سألوا هذا السؤال.

ليس صحيحاً أن العالم قد فقد ذاكرته. وليس صحيحاً أيضاً أننا قادرون على إعادة الذاكرة إلى العالم عن طريق إرضائه. العالم يرتاح. العالم يريد أن يلعب ويريد أن يشرب.

ــ لماذا توقظ العالم من النوم؟

□ هذا ليس صوتي. هذا صوت ارتطام جثتي بالأرض.

ــ ولماذا لا تموت بهدوء؟

□ لأن الموت الهادىء حياة ذليلة.

ــ والموت الصارخ؟

□ قضية.

ــ هل جئت تعلن حضورك؟

□ بل جئت أعلن غيابي.

ــ ولماذا تقتل؟

□ لا أقتل إلّا القتل. لا أقتل إلّا الجريمة.

ــ اذهب إلى الجحيم.

□ أنا قادم من الجحيم.

للمرة الأولى، سأل العالم نفسه: من أخبره أنه قنبلة؟

ــ من كثرة ما ضربوه بالرصاص، تراكمت الشظايا على الشظايا، فولدت طاقة، وصار قابلاً للانفجار.

ـ أخرجوه من دائرة العالم.

□ لقد أخرجناه.. وعاد.

ـ انصبوا له كميناً على حافة الأرض، وادفعوه إلى الفراغ.

□ لا يمكن الاقتراب منه، لأنه مدجج بربع قرن من المأساة والغضب والانفجار.

ـ إرهابي؟

□ نعم. إرهابي ويائس.

ماذا يفعلون باليأس. اليأس صنو الموت. لا أريد من العالم شيئاً إلّا أن يرفع سكينه عن عنقي. لقد كنت رهينة. أنا الرهينة منذ خمس وعشرين سنة في أيديكم، وأطلق اليأس سراحي. من يعيدني إلى الأمل غير إعلان يأسي! ومن يحررني من الأسر غير قدرتي على الانتحار! ليذهب العالم إلى غرفة النوم. أنا صمام أمان العالم ـ هذا هو الدور الذي حددتموه أنتم لي. وليس بوسعكم أن تحددوا لي شكل اعتراضي على موتي المجاني. ليس بوسعكم أن تحددوا لي طريقة تخلصي من المجزرة المزمنة. ليس لي إلّا أن أموت. فلأمت كما أشاء. لا أرضى بهذا الدور لا أرضى ـ فليست عبوديتي معادلة للأمن. سموني ما شئتم. جاء دوري الآن لأسمي نفسي ما أشاء، وأفعل ما أشاء. أقف في قلب العالم. أنتزع ذراعي. ألوّح بها في الهواء. أحوّلها إلى كرة وألعب معكم.. أقذفها في شِباككم يا قضاة الحضارة. ليس من أجل الوطن. ليس من أجل الشعب. وليس من أجل الانتقام هكذا، يطيب لي ـ كحيوان آسيوي ـ

أن أستخدم جسدي، أن أمرنه على الحركة بعد شلل دام ربع قرن.. أن أقطعه إرباً إرباً وأسليكم. هذه هي حريتي الوحيدة، فلماذا تعترضون على انتحاري يا خبراء القتل الجماعي. ويا من تحولون الأطفال إلى فحم! أنتم تقتلون.. إذن أنتم تعيشون. وأنا أنتحر.. إذن أنا أعيش. لن أسمح لأحد، بعد الآن، أن يقتلني سواي. هل تعرفونني؟ إن حليب وكالة الغوث لا يخلق دماً في الشرايين. إنه يخلق ديناميت. هذا غذاؤكم يعود إليكم. وحين رمتني أمي في شوارعكم طردتموني وقلتم: عدْ إلى أمك، وحين عدت إلى أمي ألقيتم عليَّ القبض وعذّبتموني وقلتم: إرهابي. ومنذ تلك اللحظة، وأنا أبحث عن أمي. وهل تعرفون أين وجدتها؟ كان جسمي يمطر دماً. وحين أفقت من الغيبوبة وجدت نفسي في بركة دم. حدّقت فرأيت ملامح سميتها وجه أمي. كان ذلك دمي ولم يكن دمكم يا قضاة العالم.

من حوّلني إلى لاجىء، حوّلني إلى قنبلة. أعرف أني سأموت، وأعرف أني أخوض معركة خاسرة اليوم لأنها معركة المستقبل. وأعرف أن فلسطين ــ على الخارطة ــ بعيدة عني. وأعرف أنكم نسيتم اسمها وتستخدمون ترجمتها الجديدة. أعرف هذا كله. ولهذا أحملها إلى شوارعكم، وبيوتكم، وغرف نومكم.

ذاهِب إلى الجملة العربية في الخامِس عشر من أيار

١

تجلس في أيار، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

هذا هو أول الرحيل. وهذا هو آخر الأرض. لكل شيء أوانه إلّا موتك، يأتي مباغتاً ومكرراً وبلا مناسبة كالمطر الاستوائي، فمن أين تلتقط برهة للياقة الاحتفال بذكرى الموت الأول؟ مهزوم من الوريد إلى الوريد. وها أنت تعبر بين الصوت والصدى مسيحاً جديداً بلا طقوس. في الجملة العربية متسع لقارة من الخيام. أسكن إحداها وأحلم بصيف قليل الحر.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

الوطن ليس صخرة قديمة حتى لو كانت لها حرارة الجسد. ما أشد سذاجتك إذا حاصرت ذاتك ونارك بهذا الحلم البدائي المحدد. الوطن مطلق. فلا تسأل عمن أعطى الأرض هذا الضيق الواسع. من الماء إلى الماء ملايين من القلوب التي تؤويك وتسند ظهرك. اذهب إلى الجملة العربية تجد الذات والوطن. وفي الوقت متسع للحرب والسلام.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

وماذا تفعل لو خرجت من هذا الدور؟ هذه الصيرورة صارت تطعمك وتسقيك. يلقون على جراحك النقود والتبرعات، فمن أين تأكل لو التأمت! كل الذين جربوا الحرية قبلك لعنوها حين اكتشفوها وتاقوا إلى أيام البحث عنها. والدولة شرطة وضرائب، فهل تنفق هذا الدم من أجل بوليس وضريبة جديدة؟ مجد المسيح أنه مصلوب في عزّ الدعوة. تصور.. تصور لو ترجل المسيح ما يحدث في الدنيا! الفوضى والردة. سيتمرد عليه الكهنة والفنانون والفقراء. سيرغمونه على العودة إلى جراحه حافياً أو بحذاء جديد لكي تستمر حياة الآخرين. اذهب إلى الجملة العربية، واستمتع بهدير التأييد واحلم بسلامة الضاد. مرّ غزاة كثيرون (هل عرفت شعوب أخرى ما عرفنا من الغزاة؟) احتلوا الأرض، وشردوا الناس، ولكنهم ما استطاعوا أن يفترعوا حجاب حرف حلقي واحد!

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

ويا وطني الذي أعرف الطريق إليك ولا أعرفك. من ربع قرن وأنا ذاهب إليك عبر الجملة العربية الرسمية، وغريب عنها وعنك.

أعجبتهم شقائق النعمان، وحاولوا أن يسرقوا بندقيتي، فأطلقت النار على الهواء، فأصبت شقائق النعمان، فاتهموني بمحاولة الانتحار.. وساقوني إلى المحاكمة. فهل أصمت كي أقترب منك، أم أدافع عنك وعني بالجملة العربية ذاتها؟

٢

انتهت حفلة الميلاد. ليس للمدينة المقدسة ذاكرة منتظمة. أمطرت السماء ماء وغزاة. وكان الجندي الجديد يتنزه في حارات التاريخ المفتوحة مع صديقته القديمة ويقول «إذا نسيتكِ يا حبيبتي تنساني ذراعي». وقد نسي ذراعه في صدرها، فنبهته إلى الخيانة «تحب أورشليم أكثر مني!». ضحكا وتابعا النزهة. كانا يستعيدان ذكريات عن الحرب الأخيرة ويندهشان من إمكانية الحياة بدون القدس، ويروي لها بطولة لم يمارسها.

ابتاعا فلافل من بائع عربي صار يتقن اللغة العبرية بلثغة بولندية.

«اعتادوا علينا. هل تعرفين أن الزمن ضابط في جيش الدفاع الإسرائيلي، يترقى عاماً بعد عام؟» خلعت حذاءها ومشت حافية. «تريدين أن أثبت لك ذلك؟» اشترى صحيفة من بائع عربي يروّج للطبعة الجديدة من صحيفة «المساء» بلغة عبرية سليمة.

«للقهوة العربية مذاق لاذع. كيف تكون حياتنا بدون هؤلاء السكان.. كيف؟ هل تتصورين أن بمقدورنا المحافظة على وحدتنا القومية إذا كنا نعيش وحدنا؟».

دخلا مسجد الصخرة، وتبادلا قبلة على مرأى من الأسطورة

«لتشهد الأسطورة على أن شعب إسرائيل حي». شعرا بالندم لأنهما، قبل سبع سنوات، تبادلا قبلة هنا للذكرى بإحساس السائح الذي لن يعود. وها هما يعودان كل سنة. «هذه القبلة ليست للذكرى، بل هي لاستفزاز الأسطورة».

كانت السماء تمطر. السماء تمطر دائماً في أعياد الميلاد. راقه أن يجري مقارنة ــ على الطبيعة ــ بين بوله والمطر، فانتحى زاوية وعاد يحدثها عن فارق طفيف في اللون. «للعرب طباع حميدة أهمها الكرم والنسيان». ردت بلا اكتراث: «لا أحبهم». اكتشف برهاناً جديداً: «لولاهم ما كنت عرفتك وأحببتك. ولكي يستمر حبنا ويثمر لا بد من وجود عرب». تذكرا خلافاتهما القديمة عندما كان يدرسان في كلية الآداب، ولكن المساء أغراهما بالعناق فقبلها، وتابع: «إنهم جوهر وحدتنا. أنا من وارسو وأنت من بغداد. الذي صنع اليهودي هو التحدي وحاجته إلى التماسك. فما هو محور تماسكنا. العرب هم تحدينا المشترك، فإذا ذهبوا ذهبت وحدتنا، وانتقل التحدي إلى العلاقة بين القادم من وارسو والقادم من بغداد». ذكّرته بأنه سينام الليلة مبكراً ليبدو قوياً ونشيطاً في الاستعراض العسكري غداً.

في تلك اللحظة، كان عمال التنظيف يكنسون الشوارع من آثار صلوات الأسبوع الماضي. كان المسيح يتراجع إلى الوراء، وكانت المدينة المقدسة تخون ذاكرتها وتفتح شوارعها لعيد الغزاة الجدد الذين كانوا ينشدون «يا أورشليم من ذهب».

وفي تلك اللحظة أيضاً، كانت تصل إليهم هدية مفاجئة أو بطاقة معايدة: كان دم عربي غزير يسيل في شوارع بيروت، وكان

يتحول إلى زيت ينعش الأرز القديم الذي أهدي إلى الملك سليمان لبناء الهيكل!

٣

من يوقف التشريد؟

كنا نتساءل قبل أيام: من يوقف الهزيمة؟ والآن نصرخ: من يوقف التشريد.. تشريد هذه المرأة؟

الصورة ذاتها تواجهنا دائماً في الصحيفة، وفي ضواحي المدينة، وعلى كل أرض عربية، ونادراً ما تواجهنا في الضمير.

الصورة ذاتها. تأتي بعد الرصاص دائماً: أم فلسطينية تجر أطفالاً، وتحمل فراشاً، وتمشي في الريح والمجهول. تلجأ من ملجأ إلى ملجأ. فمتى تستقر في ملجأ أخير غير القبر؟ كأن الدعوة إلى العودة أرجئت. من ربع قرن ونحن نراها تخطو في العظم (من نحن لنتكلم بهذه الصيغة؟ ـ مراقبون) تخرج من مخيم في اتجاه خيمة أخرى أو صخرة منحنية. تلاحقها اللعنة والقذيفة والأقدار المكتوبة. سمّوها ما شئتم، فهي أمي.

ـ أقيموا لها خيمة من اسمنت، لكي تكف عن التشرد. دعوها تستقر في لجوء واحد.

ـ الفراش المحمول على الرأس.. والوطن المحمول في القلب مربوطان بخيط واحد. إذا استراح الفراش ضاع الوطن.

ـ وهل أصبح اللجوء إعلاناً وزينة؟

لا ينتهي الحوار إلّا بتدخل غارة، مرة من الأعداء، ومرة من الأشقاء، فلا يبقى في الوطن العربي (أو العالم العربي) مكان لا تصل إليه القذائف بحثاً عن ظل هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي.

ـ لماذا تضربها الطائرات؟

□ لكي تخفي ظلها عن الأرض.

ـ ولماذا يؤذيكم ظلها؟

□ لأنه ثقيل.. ثقيل تنوء به أكتاف هذه اليابسة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

ـ إنها لا تطلب شيئاً إلّا الوجود!

□ العدو لا يرضى بهذا.

ـ وأنتم.. هل يعنيكم رضا العدو.. أم حياة هذه المرأة التي هي دمكم؟

□ لا حيلة لنا بمصارعة العدو.

ـ لا تصارعوه.. دعوها تصارعه وحدها.

□ ليس على أرضنا. لأن العدو لا يرضى بهذا.

صار بوسع العدو أن يمشي أو يتنزه في الشوارع العربية التي لم يعلن عن احتلالها بعد. يشرب القهوة في المطارات أو المقاهي، يسهر في البارات، ويعود بسيارة خاصة أو بسيارة أجرة في آخر

الليل إلى حدود فلسطين. وإذا تعب من السهر نام في فراشنا. ألم يطرد كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار من فراشهم!

غضب العرب من هذه الإهانة، فسارت ملايين في جنازتهم. وبعد أسبوع تبرعت الطائرات العربية ــ دفاعاً عن سلامة فراش النساء المستوردات ــ بضرب هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي.

ــ لماذا تضربونها؟

□ من أجل مصلحتها.. من أجل الدفاع عنها. نحن لا نستطيع أن نحميها من غارات العدو، فنحميها من الحياة التي تسبب لها التشرد وتسبب لنا فتور السياح. خير لها أن تموت برصاص الأشقاء من أن تموت برصاص الأعداء.

٤

على شريط تسجيل، كانت الافتتاحية لصوت العصافير. العاشرة صباحاً، وليس للعصافير موقف ولا مصلحة. بعد دقائق انهمرت أصوات الطائرات (فجأة صرنا نحارب). بين الطلعة والأخرى كانت العصافير تكمل زقزقتها.

ــ لماذا؟

□ لأنها لا تفهم السياسة.

ــ ألا تملك غريزة الخوف من الموت؟

□ تملك، ولكنها تعرف أن الطائرات لا تصيبها على هذه الشجرة.

ـ كيف؟

□ لعلها جاءت بأجنحة مزوّرة.

صدق! أو لا تصدق. لقد سمعتها بأذني. وهذا هو الشريط.

ـ ماذا سمعت أيضاً؟

□ إن هونغ كونغ لا تكون أرض ثورة.

ـ لا أحد يطالب بهذا.

ـ أين جسدك؟

□ تحت ثيابي.

ـ وما هي حدوده؟

□ تواريخ: جنوباً ـ ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨. شرقاً ـ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦. غرباً ـ ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧. شمالاً ـ أيلول ١٩٧٠. هذه هي حدود جسدي.

ـ تحمل قنابل؟

□ لا.

ـ ماذا تحمل إذن؟

□ إنني مدجج بالغضب.

ـ لماذا تعيش؟

□ لأعود إلى وطني.

هذه هي المشكلة. ليس مهماً أن تحمل سلاحاً في الشارع أو في المخيم أو في البيت. ما دمت تحمل هذا الجسد المدجج بالغضب ـــ كما اعترفت ـــ فإنك قابل للانفجار وتوريط العرب. ولا تنس أن هونغ كونغ ليست أرض ثورة. واسمح لي أن أقول لك إنك ما دمت موجوداً هنا فإن فلسطين موجودة هنا. وفلسطين ممنوعة من التداول العلني، لأن العدو يغضب.. يغضب.. يغضب. هل تفهم!

□ هذا اختياري وقدري. إذا تحررت من الاختيار فلن أتحرر من القدر.

ـــ اذهب إلى الدول التي تقوم مبررات حكمها وشرعيتها على أولوية التداول بقضية فلسطين. وإلّا، فما عليك إلّا المتاجرة بالملابس الداخلية أو العمل بواباً في شقة مفروشة. لأن العدو يغضب.. يغضب. وبيتنا من زجاج.

□ لقد ولدت هنا. لست لاجئاً. من ربع قرن ولدت هنا. لست لاجئاً. هونغ كونغ ليست أرض الثورة. لست لاجئاً. ولكن لماذا تكون سايغون؟

□ لأن العدو يغضب.

ـــ أين أذهب إذن؟

□ أذهب إلى الثورة العربية.

ـــ أين هي؟

□ لا أعرف.

واستمعت إلى بقية شريط التسجيل. كانت أصوات الطائرات والقذائف تتداخل مع أصوات العصافير..

٥

وقفت على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط، وقلت: أنا قادم من ذروة السقوط. كانت هذه الأرض شبيهة بثور جريح يسقط من قمة الرجاء إلى قاع الهزيمة المتناسلة، ولكنه كان يرتبط بالكون بقرنه الحاد الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة. طافح بالنفط، والكسل، والشعوب الممنوعة من الممارسة والمجهّزة بنتائج استفتاء جاهزة «نعم».

[خلع الملك ثيابه الملكية، وارتدى بزة ضابط، واحتل الإذاعة، وأعلن الجمهورية. وقال: كان الحكم البائد متآمراً على قضية فلسطين، وقد قامت ثورتنا المجيدة من أجل تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية. صفقوا له. انتقلوا من حالة اليأس إلى حالة اللايأس. وكان الملك يضحك في غرفة النوم سعيداً بنتائج الاستفتاء الشعبي «نعم»].

أغمدت القرن في صدرك، فكنت بين الجسم والجثة شكلاً ثالثاً قابلاً للتسمية المشجعة. فسموك وصدقت اسمك. وما كنت تدرك، جيداً، أنك التوتر الباقي في أعصاب المرحلة المترددة على مفترق الاختيار.

ــ دمك والنفط، هذا هو الصراع.

كانوا يحتاجون إلى هذه المعادلة من أجل الضغط على المستهلك عبر البحار. فصفقوا لك... وكان لون النفط أقوى من دمك في علاقتهما الأولى.

مادة للانفجار ممنوعة من الانفجار. هذا أنت. لك الأناشيد كلها. وأطنان من الخيام. وحائط الإعلان.

ثوريّ في قبضة ملك. هل تتقن اللعبة؟ وهذه الجماهير التي تمنحك آمالها وخبزها يخبئها الملك ـ باسمك ـ في عباءته البيضاء.

وهذا الشيء الممتد من الماء إلى الماء، ما اسمه؟ لا هو خارطة، ولا هو وطن. ولكنه جسد ينتظر الزلزال القادم من نبيّ لا شرط لنبوءته إلّا أن يسمي الأشياء بأسمائها. ولست البديل ولا المخلّص، ولكنك الإشارة والبدء والقربان. فتحركت أشياء.

ـ دمك والنفط. هذا هو الصراع الباقي بعد سقوط التجارب السابقة والشعارات.

لماذا يزهو دمك إلى هذا الحدّ، ويصبح لونه أقوى من لون النفط؟ يرجوكم المستهلك عبر البحار أن تعيدوا النفط إلى صفائه القديم مقابل وعد بإعادة قطعة أرض. فجاءوا إليك ليعيدوك إلى قبضة الملك في لعبة لا تتقنها. وانتهى دورك لتعود إلى حالتك الأولى: لاجئاً وقضية. وقالوا للجماهير هذا عدوك الداخلي الذي يؤلب عليك العدو الخارجي. وأعطوا الأمان للعدو المشترك، لأن المعادلة تغيّرت، والتحم أمن العدو بأمن النظام. تركوا العدو يستريح وقاموا بالدفاع عن أمنه وحدوده التي تشدد قبضتها على رقاب العواصم. الدفاع عن الباب العالي يقتضي الدفاع عن نوم الغزاة وراحتهم.

وكان الطلبة القلقون يتساءلون: ما الفرق بين الغزاة القادمين من الخارج والطغاة الطالعين من الداخل؟ اختلفوا على فروق كثيرة واتفقوا على فارق واحد هو: أن الغزاة يشرِّدون والطغاة يقتلون من ينجو من أيدي الغزاة.

وأنت، ما زلت واقفاً على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط وتصرخ: أنا قادم من ذروة السقوط، لأحمي قرن الثور الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة التي هي... صدري!

٦

تكبران معاً: أنت وأيار.

تكبر كتفاك، وتكبر الصخرة. ويقدم أيار/ مايو أوراق اعتماده إلى الشهر الذي يليه. ويبقى الوضع سجالاً. من الصعب أن يبلغ أيار/ مايو ربع قرن بمثل هذه السهولة، ولا تتغير نتيجة الحرب الصامتة. هل يمزح التاريخ؟ بعد كل هذه الهزائم... بعد اختلاط هذه الشهور تدور الحرب في شوارعنا ليتسنى للعدو أن يكمل احتفالاته. هل يمزح التاريخ؟ يخرج أيار/ مايو ليدخل حزيران/ يونيو، والبنادق العربية تصوب إلى كل الاتجاهات إلّا الاتجاه الصحيح. إذا اشتكى العامل، وإذا غضب الطالب تصبح بنادقنا شجاعة. كل الحرب في الداخل ونغني للصمود. ربع قرن... ربع قرن ونحن نلوك الجملة إياها، وحدود العدو تلاحقنا. مزيد من الخطابات مزيد من الهزائم، وأنت الشذوذ عن القاعدة.

ـ أيها الفلسطيني التائه! ضع حداً لهذه الفوضى.

لم تسمع فساقوك إلى مجزرة في شهر آخر أو في عيد ميلاد موتك الأول. لماذا؟ من أجل سلام وهمي.

تصير شبحاً. تصير كابوساً. تصير شرارة.

ـــ اذهب إلى مكان آخر واتركنا بأمان.

□ أينما ذهبت يصير ظلي مكاناً.

حين سقط حصان في الملعب الرياضي، برصاص طائش، حزنت سيدات المجتمع وهواة سباق الخيل.

وحين سقط عشرات من الناس، في البيوت، وبرصاص مصوب لم يحدث حزن في المدينة.

ليس لقتلاك صور ولا أسماء، لأن الحصان الشهيد يغطي الكون.

لماذا يسقط الشهداء بهذه الكثرة المجانية، وفي مكان غير صالح للاستشهاد؟ كثيراً ما يتحول الموت إلى مهنة. فماذا يحدث لو أعلن المرشحون للموت الإضراب عن هذه المهنة... ماذا يحدث؟

□ نصير شعباً بلا شهداء، ويصير عيد الشهداء باطلاً.

ـــ ماذا أيضاً؟

□ يفلس الشعراء.

ـــ ماذا أيضاً؟

□ يتلعثم الخطباء.

ـ وماذا أيضاً؟

□ تسقط الحكومة.

التصفية؟ لا نظن. هذه مشكلة داخلية. علاقاتنا طيبة. ومن أجل السيادة والمراعاة المتبادلة للاستقلال الوطني ـ لا نتدخل. التصفية؟ لماذا ينبغي استخدام هذا المصطلح؟ هذا يسمى تحريراً. والشعار المرحلي المطروح الآن ليس تحرير الأرض العربية المحتلة من الغزاة الإسرائيليين. الشعار الآن هو تحرير الأرض العربية من الذين يشكلون خللاً في معادلة الأمن الرسمي في منطقة الشرق الأسط، ومن الذين يذكرون الناس بأن لهم أوطاناً محتلة. وهذا بالطبع ليس تصفية. من المسؤول؟ ليس شخصاً وليس جناحاً في سلطة. المسؤول هو المناخ العربي الرسمي. ففي ظل هذا المناخ الراكد يصبح القمع الداخلي أمراً مشروعاً ينطوي تحت لواء المحافظة على السيادة الوطنية. وزن القضية أكبر من أي كتف فلماذا نحملها وحدنا؟ هكذا يقولون. في ظل هذا المناخ العام يصبح كل اعتداء على الوجود الثوري ـ لا الفلسطيني فقط ـ شأناً من شؤون البلد الداخلية.

ـ إذا قتلتموهم سرنا في جنازاتهم. وإذا لم تنجح العملية بسرعة نجد أنفسنا في مأزق ونضطر للتدخل من أجل المصالحة. فمن المسؤول؟ حالة السلم غير المكتوب في الممارسة العربية، وحالة الحرب المعلنة في الجملة العربية.

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد

- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

كزهر اللوز أو أبعد

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الديوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

في حضرة الغياب (نص)

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

ذاكرة للنسيان

الطبعة الثامنة: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

يوميات الحزن العادي

الطبعة الرابعة: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

حيرة العائد

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش

ISBN 9953-21-158-2
9 789953 211589